إبراهيم البليهي

حصون التخلُّف

(موانع النهوض في حوارات ومكاشفات)

طوى
للنشر والإعلام
منشورات الجمل

إبراهيم البليهي

حصون التخلُّف

(موانع النهوض في حوارات ومكاشفات)

منشورات الجمل

مقدمة

معجزة الإفلات من قبضة الثقافات

الأصل في الثقافات التقليدية أنها كيانات صمّاء محصَّنة ومغلقة وعليها حراسات قوية متحفزة لمنع وقمع أية فكرة طارئة لذلك فإنه رغم قوة وَوَفْرة عوامل التحديث في العالم فإن السنوات الطويلة تمضي والعقود بعد العقود تمر بل وتنتهي القرون من غير أن تتأثَّر هذه الثقافات بعلوم العصر وأفكاره رغم تعميم التعليم وتَعدُّد وتنوُّع وسائل التواصل مع كل العالم وقد أثبتت تجارب الشعوب في الشرق والغرب بأن دخول حضارة العصر لايمكن تحقيقه إلا بجهود فكرية عاصفة ومجلجلة تتوجَّه إلى كل الأمة وليس فقط لفئة من الدارسين وأن تستخدم كل وسائل التواصل في التعليم والإعلام والمنابر وغيرها من وسائل الإثارة والحفز والتأثير كتوجُّه عام مثير وموقظ وحافز يستهدف خلق وعي جديد بكل ما تعنيه الجدَّة من معنى وفاعلية ولا بد أن تكون قوة هذه الجهود الفكرية وقوة الإثارة والتأييد والدعم الموفَّر لها متكافئة مع صلابة بنية التخلف وقوتها التلقائية في الرفض والنبذ والممانعة ومع متانة حصونها الراسخة وشدة حراساتها المتحفزة فنهضة الفكر شرطٌ أساسي ومبدئي لتأثير العلم في العقول وتحقيق التقدم للمجتمع أما الإضطرار لدراسة العلوم في

المدارس والجامعات فلن يخلق الوعي المطلوب ما لم يكن مسبوقاً ومصحوباً بنهضة فكرية عامة وعارمة فموانع النهوض أشرس وأمنع وأقوى وأوفر مما يتصور الكثيرون. . .

إن فشل التعليم وإخفاق خطط التنمية في الكثير من المجتمعات يعود إلى عدم إدراك موانع النهوض وغياب رؤية حصون الأخطبوط الثقافي الذي يحتل العقول ويصوغ العواطف ويوجِّه السلوك إن هذه الرؤية الضرورية مازالت غائبة حتى عن أذهان واهتمامات أكثر المسؤولين عن التعليم والتربية والتوعية والتدريب والإدارة في المجتمعات المتخلفة وهذا الإغفال للتَّشَكُّل الذهني والعاطفي والأخلاقي بالقوالب الثقافية هو العامل الأول في الفشل والإخفاق فلا بد أن تنطلق كل جهود التربية والتعليم والتوعية من حقيقة أنه في أعماق التاريخ ومنذ البدء إفْتَرَقَ البشر إلى جماعات متنافرة فصار لكل جماعة لغة تختلف عن لغات الجماعات الأخرى ومع اللغات المختلفة اختلفت أيضا طريقة التفكير ومنظومة القيم والإهتمامات والعادات أي صار لكل جماعة عقلٌ خاصٌ بها محصَّن عن قبول ما هو وافد صاغتْه ثقافةٌ مغلقة خاصة محاطة بسياجات وحواجز وموانع وخنادق ومتاريس وساد التنازع والتفاخر وتبادل الاحتقار بين الثقافات وأدَّى هذا إلى إنغلاق كل ثقافة عن الأخرى والإكتفاء بها وإقامة الحصون الذهنية والنفسية والعاطفية والأخلاقية لحماية هذا الإنغلاق وتأكيد التفرُّد والامتياز والكمال وإعلان الإكتفاء. . .

إن هذه الطبيعة الصَّماء للثقافات التلقيدية تجعلها رافضة تلقائيا لأي مؤثِّر جديد ونابذة لأي فكر طارئ ونافرة من أي نقد أو تحليل كاشف

فهي غير قابلة للتغذية من خارجها إنها محرومة من التغذية وهي الشرط الضروري للنمو فلا شيء ينمو من غير تغذية كافية ومنتظمة من خارجه كما أن هذه الطبيعة الصماء الموصدة تجعل الإفلات من قبضتها نوعاً من الإعجاز الباهر لذلك فإن بعض الأمم رغم أنها قد اصطدمت بفورة التقدم الأوربي منذ قرون واستوردت علوم الغرب وتقنياته ونُظُمه في التعليم والإعلام والإدارة والإقتصاد والتنمية فإنها مازالت عاجزة عن محاكاته وتقليده في تحقيق الإزدهار لأنها مشدودة بمنتهى الضبط والقوة للمسارات الثقافية الموغلة في الإنغلاق ومستسلمة لهذا الضبط بل ومغتبطة به وذائبة فيه فالإفلات من قبضة هذه المسارات العميقة الآسرة المغتَبَط بها هو معجزة كبرى أما التعامل مع المعضلة بغير هذا الإدراك ومن غير احتشاد شديد يتناسب مع قوة قبضة الأخطبوط الثقافي فلن يؤدي إلا إلى المزيد من التحفُّظ والقيود والعجز وحصون التخلف. . .

أما كيف استطاعت أوربا ذاتها بأن تُفلت من قبضة ثقافاتها القديمة وأن تنفتح على الآفاق وأن تبدع كل هذه الإبداعات المذهلة فهذا له قصة طويلة تناولتُها في كتاب آخر يحمل عنوان (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) وأكتفى هنا بالتذكير بأنه في القرن السادس قبل الميلاد ظَهَرَ في اليونان الفكرُ الفلسفي كضوء باهر لم تكن أبصار البشر ولا بصائرهم قادرة آنذاك على التعايش معه ولا الإصغاء إليه ولا إدراك أهميته ولا معرفة مصدره وكيفية انبثاقه العجيب ومايزال العالم حائراً ويتساءل بمنتهى التعجب: كيف أشرق ذلك الضياء الباهر وسط تلك الظلمات الثقافية الحالكة؟!!! ويمكن اختصار الإجابة بأنها (عبقرية الحرية) وصراع الأفكار وولادة الحقيقة من هذا الصراع فلا يختلف اليونانيون عن بقية البشر ليتفرَّدوا ذلك التفرُّد العجيب الباهر إلا بأنهم

الشعب الذي وجد نفسه حُرًّا وتوفَّرت له بعض الظروف الملائمة فاستطاع أن يفكر بصوت مسموع وأن يعبِّر عن آرائه ومواقفه بمنتهى الصراحة والوضوح وأن يدير بكفاءة عجيبة صراع الأفكار وأن يستخرج أروع ما تتمحض عنه العقول حين تتمتع بالحرية. . .

وأروع مابدأ به الفكر الفلسفي آنذاك في مرحلة تأسيس الثقافة الفلسفية في اليونان هو أنه أعلن منذ البدء بأنه ليس لديه من المعارف والحقائق ما يُطَمْئن به الناس فهو لاينقل العقول من مستوى الغبطة والإستسلام والوثوق في ثقافاتهم الموروثة إلى مستوى مماثل من الغبطة والوثوق والإستسلام للفكر الجديد وإنما هو منشغلٌ بتحريك العقول وإثارتها وحفزها إلى التساؤل والتحليل والمراجعة والإهابة بهم بعدم الوثوق المطلق في أية معرفة بشرية فمعارف البشر تظل ناقصة مهما تعددت وسائل التحقُّق لقد لاحظ الفلاسفة بأن الناس يثقون ثقة مطلقة بالمعرفة التلقائية التي تشرَّبوها من بيئاتهم فهم في كل الثقافات مأسورون بالجهل المركَّب لأنهم قد امتصوا أوهام الامتياز لكنهم لايدركون ذلك فيعتقدون أن رؤسهم تستضيء دوماً بالحقائق وبهذا فإن الفكر الفلسفي اليوناني هو الطفرة الثقافية الأولى في التاريخ الإنساني التي كشفت غيبوبة العقل البشري واستسلامه لثقافات متناقضة تدعي كلٌ منها بأنها وحدها تملك الحقائق المطلقة فابرزتْ الفلسفةُ هذه الحقيقة البشرية المأساوية وأعلنت أن اعتقاد كل ثقافة بأنها وحدها الثقافة الصحيحة واعتقادها أن الثقافات الأخرى ثقافات عمياء هو العائق الأكبر للتطور الثقافي والحضاري وأنه الحاجز الأصعب الذي يمنع التفاهم والتقارب الإنساني فهو المعضلة الإنسانية الكبرى وهو السجن الموصد على العقل البشري وأدركتْ الفلسفة أنَّ صدم الناس بتعرية هذا الوهم

الفظيع هو الكفيل بخلخلة هذا الوثوق الأعمى وتبديد هذه الغبطة الساذجة وإنقاذ الإنسانية من جهالاتها المركَّبة وفتْح سجونها الذهنية المؤبدة إن اعتقاد الناس بصحة الأوهام التي تملأ رؤوسهم وتحرك سلوكهم وتوجه اهتماماتهم هو الآفة الفظيعة المزمنة التي رافقت الثقافات القديمة ومازالت هي الطابع المميز لها فَجَهْلُ الجهل يغتال العقل...

إن مزية الفيلسوف اليوناني الحقيقي أثناء فترة التأسيس الفلسفي أنه كان يعترف على ذاته بالجهل ويعلن أنه ليس لديه من العلم مايقدِّمه للناس بديلاً عن أوهامهم العريقة وأن أقصى ماوصل إليه هو أنه قد اكتشف جهله وأنه قد ارتقى من مستوى الجهل المركَّب إلى مستوى الجهل البسيط كما كان يعلن سقراط فهو باكتشاف جهله لم يَعُدْ مغتبطا به وإنما صار يسعى للبحث والإستقصاء والتحقُّق ليجد المعرفة الممحَّصة التي لن تكتمل أبداً ولن توصد بل تبقى مفتوحة دوماً للمراجعة والتدارك والتصحيح وأن المهمة الأولى للفيلسوف وللإنسان عموماً هي المواجهة مع هذا الجهل المركَّب المغتَبَط به من مختلف الثقافات أي أنه رغم تباين الثقافات فإن الإنسان بنشأته في أية بيئة يمتص ثقافتها ويتبرمج بها مهما كانت فيتوهَّم أنها الحق المطلق والكمال التام فلا يُخضعها للشك ولا للفحص وإنما تصبح هي العقل والمعيار الذي يحكم به على كل الأمور ويقيِّم به جميع المواقف إن أي إنسان تجاوز السنوات الست الأولى من عمره يكون قد تبرمج بما يحكم به على الأمور فهو لاينظر ويَحْكُم ويقيِّم وهو خالي الذهن أو في وضع محايد وإنما ينظر وهو مملوء العقل بالأحكام المسبقة التي لاتسمح للحقائق بأن تنفذ إلى ذهنه أو تؤثِّر فيه...

إن المزية الأساسية الكبرى التي انفرد بها العقل الفلسفي اليوناني وجعلتْه يُمثِّل نقلة نوعية في الثقافة الإنسانية هي أنه كان يؤكد منذ البدء أنه يفتقر افتقاراً كليا إلى المعرفة الممحَّصة وأنه يجهل كل شيء باستثناء أنه يعرف جَهْلَه وأن معارفه التي يعيش فيها أو يحلم بتحصيلها ليست سوى معارف تخمينية هي أبعد ماتكون عن أن تستحق الوثوق المطلق وأن أقصى ما يسعى إليه هو الوصول إلى معرفة ظنيَّة تقوم على الترجيح وأن سبيله إلى هذه المعرفة الناقصة المؤقتة هو الملاحظة والتحري والتأمل والمقارنة إنها محاولة تنشد المقاربة ولا تدعي اليقين ولا الإكتمال ولا الإكتفاء وإنما تعلن أنها لاتطمع بأكثر من معارف تقريبية احتمالية ترجيحية وبسبب طبيعتها الظنية الاحتمالية فإنها تبقى دوماً مفتوحة للمراجعة الدائمة والفحص المستمر ومعرَّضة للتعديل حسب مايتوفر من وقائع تؤيِّد أو تُفَنِّد. . .

لقد كانت الفلسفةُ دعوةً صريحة وملحة لتحرير الإنسان من الوثوق المطْلق ومن الأحكام المسبقة وتأكيداً بأن على كل إنسان بأن يراجع ماتشبَّع به تلقائيا في الطفولة وما بعدها مما لم يُخضعه للفحص والتحليل إن الفلسفة إهابة بالإنسان بأن يتعلَّم ممن يختلفو عنه وممن يعارضونه وأن يواصل التعلم طول عمره وأن يظل مُدركاً لقصور معرفته مهما اجتهد فالفلسفة إعلانٌ عن شوق الإنسان العميق والمتلهِّف والدائم بأن يعرف كل شيء لكنه يدرك أن المسافة بينه وبين المعرفة الموثوقة مسافة طويلة لكن البحث الدائم عن الحقيقة والإخلاص لها والتمسك بها والشوق إليها والاعتماد عليها في الآراء والمواقف والأعمال والأحكام هي المعايير التي تقاس بها إنسانية الإنسان فإنسانية الإنسان لا تتحقق إلا بمقدار مايعرف وبمقدار مايلتزم بهذه المعرفة في آرائه

ومواقفه وسلوكه فيكون عادلاً وموضوعيًا بأقصى ماتسمح به الطبيعة البشرية الحرونة والمنحازة والتبريرية. . .

إن الإنسان المدرَّب والملتزم فلسفيا هو في نظر الفلسفة اليونانية وفي نظر الذين ورثوها يكون دائماً على استعداد تام بأن يبقى مفتوح الذهن للتدارك والتصحيح والاكتشاف إنه يعلم أنه يسير متعثراً وهو يحاول الاقتراب من الحقيقة وأنه لا مطمع له بامتلاكها فلا هو ولا غيره من البشر يملك وحده الحقيقة المطلقة فمن حق الجميع أن يفكروا بصوت مسموع وأن يجهروا بآرائهم ويعلنوا مواقفهم وبذلك تأسَّسَتْ لأول مرة في التاريخ الإنساني ثقافة إنسانية واقعية تنفرد بأنها لاتدعي المعرفة المطلقة ولا تزعم أنها تملك الحقيقة ولا أنها تُقَدِّم الحل الشافي أو المعارف الكافية ولكنها تعلن وتعترف بمنتهى التأكيد والوضوح والتواضع بالحدود الضيقة للقدرة البشرية على المعرفة وبكثرة الحُجُب التي تعوق الوصول إلى الحقيقة كما تعلن بأنها تجهل وأنها لاتُقدِّم معارف نهائية فلا تنقل الاتباع من وثوق إلى وثوق بل تستنفرهم للإهتمام الشديد والبحث الجاد والاستقصاء المستمر وتعلن أنها حريصة بأن تتعلَّم من المخالفين وبذلك فهي ثقافة مفتوحة على كل الآفاق وقابلة للنمو الدائم وتعلن أولوية الجهل وتؤكد صعوبة التحقُّق. . .

وهكذا كان انبثاق الفكر الفلسفي في اليونان هو التأسيس المبكر لحضارة نامية ومزدهرة وقابلة للمزيد من النمو والإزدهار إلى مالا نهاية لكن الثقافة الفلسفية اليونانية في حيِّزها المكاني الضيِّق وأتباعها القليلين كانت تعيش وسط ثقافات غامرة في اتساع سلطتها وواثقة من ذاتها وموغلة في إدعاءاتها ومغلقة على أوهامها وشديدة التذويب لأتباعها

فكانت الفلسفة كشجرة وارفة الظلال وناصعة الإخضرار ويانعة الثمار وسط صحراء واسعة قاحلة وقاتلة إنها كالشيء في غير موضعه فاندلعت عليها العواصف الحارقة والأعاصير الهوجاء من كل اتجاه: من داخل اليونان وخارجه فدخلتْ أثينا في حرب طويلة مع جارتها اليونانية (سبارطة) ذات الثقافة العسكرية ثم سيطر المقدونيون على اليونان كلها وتشبَّع الاسكندر المقدوني بالفكر الفلسفي على يد أستاذه أرسطو فحاول نشر الثقافة اليونانية في العالم لكنه مات مبكراً وهو في الثانية والثلاثين من العمر فاقتسم قادته البلاد المفتوحة وحكموها بالأسلوب الإستبدادي الشائع في آسيا وأفريقيا ثم علا شأن روما فاستولت على اليونان ونَشَرَتْ الثقافة اليونانية والرومانية في أوربا فصارت مهيأة للتنوُّر والتطور ولكن الامبراطورية الرومانية ذاتها تأثَّرت بالشرق منذ مطلع القرن الرابع الميلادي فتحولت إلى امبراطورية أيديولوجية ذات ثقافة مغلقة فتدهورت ثقافيا ثم انقسمت الامبراطورية ذاتها بين امبراطورية شرقية في بيزنطة وغربية في روما ثم سقطت روما في قبضة الغزاة المهاجمين المتوحشين ثم تتابعت أحداثٌ أدَّت إلى أن يرين السُّبات على أوربا خلال القرون التي عُرفتْ باسم العصور الوسطى ثم عادت بعض المدن الإيطالية إلى إحياء التراث اليوناني فتحققت نهضة قوية وسريعة فيما عُرف باسم عصر النهضة أو عصر الولادة الجديدة ثم خَبَتْ النهضة في إيطاليا بعد أن انتقل تأثيرها لأقطار أوربية أخرى. . .

ثم حصل الإنشقاق البروتستانتي الذي قاده مارتن لوثر ونشط المفكرون الإنسانيون من أمثال إيراسموس وامتدَّ تأثيرهم إلى كل مكان في أوربا وخصوصاً في هولندا وأعلن كوبر نيكوس أن الأرض ليست مركز الكون وإنما هي مجرد كوكب صغير يدور حول الشمس فأحدث

بهذا الكشف ثورة فكرية زلزلت المسلّمات ودفعت أوربا إلى حالة من الغليان الفكري ثم ظَهَرَ برونو وفرانسيس بيكون وديكارت وغيرهم من المفكرين الرواد ثائرين على الثقافة السائدة وداعين إلى إعادة تأسيس وتكوين الثقافة الأوربية على أسس فلسفية وتجاوبت أوربا كلها لهذه الثورات الفكرية فانتقلتْ من الإنغلاق إلى الإنفتاح ومن التعصب إلى التسامح ومن الجمود إلى النشاط ومن الحجر على العقول إلى استنفار أقصى طاقات الفكر فتنوعت الإهتمامات وتأججت الطموحات لقد انتشلَتْها ثورة الأفكار فعادت بتدفق عارم إلى الفكر الفلسفي بعد انقطاع دام قرونا وبهذه العودة تحققت نهضة الفكر فنهضة الفكر شرطٌ أوَّلي لنهضة العلم ومقدمةٌ أساسية لتقدم المجتمع فالنهضة الفكرية التي شهدتها أوربا عند نهاية العصور الوسطى جعلتها متهيئة لإنتاج العلم واستقباله وتطبيقه ومواصلة التقدم على كل الجبهات وكان إختراع المطبعة من الأحداث المفصلية في تاريخ الحضارة فقد أدى هذا الإختراع العظيم إلى تيسير الكتب للناس وانتشرت المعرفة انتشاراً لاعهد للعالم به فظهر رواد العلم من أمثال فيساليوس ونويل وهالي وكبلر وهارفي ولينفهوك وبريستلي وهوك وجاليلو ونيوتن وظهر مغامرون من أمثال كولومبس وماجلان وأمريكو واكتشفوا العالم الجديد وعمَّ أوربا نشاطٌ محموم وتطلعات واسعة واهتماماتٌ متوقدة وتنوَّعَتْ مجالات العمل والإبداع وانفتحت الآمال وبرز نشاط المخترعين من أمثال: جيمس وات ونيوكامن ودنيس باين وتوماس سافري وجون كاي وجيمس هارجريفز وريتشارد آركرايت ثم فراداري وأديسون والأخوان رايت وغيرهم من المخترعين الذين قدَّموا للإنسانية وسائل جديدة لأداء المهام والأعمال وتغيَّرتْ الحياة بهذه المخترعات تغيرات نوعية متلاحقة

ودخلت أوربا ومعها العالم كله في مرحلة جديدة لم يعهدها الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض. . .

وفوجئتْ كلُّ الأمم بهذه التغيُّرات النوعية التي حقَّقَتْها أوربا وكانت اليابان هي الأسرع استجابة والأكثر واقعية فاعترفت أن خلف التغيُّر الأوربي الباهر عوامل جديدة غير مألوفة لن يتحقق التقدم المنشود إلا بالتعرف عليها والأخذ بها فأعلنت اليابان الإنفتاح الكامل والاستنفار التام وحرصت بأن تتعرف على عوامل التقدم من داخل المجتمعات الأوربية المتقدمة فتعرَّفَتْ على هذه العوامل وحققت التقدم وصارت المنافس الأكبر والأنجح للغرب فأصبحت صاحبة الإقتصاد الثاني في الضخامة والمتانة وانتظام النمو وباتت تنافس الولايات المتحدة الأمريكية سابقة بذلك منبع الحضارة المعاصرة بلدان غرب أوربا: بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهكذا إذا انفتح أي مجتمع على مصادر الإزدهار برغبة صادقة وعمل جاد ومن غير استسلام لقيود الماضي وعُقده ومعوقاته فإنه يحقق الإزدهار مهما افتقرت أرضه إلى الموارد الطبيعية فالطاقة الإنسانية المدججة بالمعارف والمهارات أصبحت هي الثروة الإنسانية المتجددة فاليابان فقيرة بأرضها لكنها غنية بفاعلية شعبها: بدقة أدائه وغزارة إنتاجه وشدة انضباطه ونصاعة مواطنته وعمق إخلاصه وصرامة أخلاقه. . .

لقد بات واضحاً أن تحقيق التقدم في أي مجتمع مرتهنٌ بمقدار رغبته الصادقة في التعلُّم من الآخرين والاستفادة من تجاربهم وانفتاحه عليهم وإزالة الحواجز النفسية والذهنية والوجدانية التي تفصله عنهم فباستعراض أوضاع المجتمعات التي حققت النمو وبلغت الإزدهار وأوضاع المجتمعات التي مازالت تدور في خنادق التخلف يتبين بوضوح

شديد أن الإعتراف بالخلل الثقافي والصدق في إصلاحه هو مفتاح النجاح . . .

لقد توهَّمتْ المجتمعات المتخلفةُ أن سر التقدم يكمن في المعلومات والتقنيات فاستوردتْ التقنيات وعمَّمَتْ التعليم ونشرتْ المدارس وأكثرتْ من الجامعات فامتلأتْ الأوطان بالمتعلمين ولكنها لم تزدد إلا تخلُّفا لأن التعليم لم يُسبق بنهضة فكرية تفتح الأقفال الثقافية التي تتوارثها الأجيال وسوف تمضي السنون من دون تحقيق أية نتائج إيجابية مالم يحصل التدارك بالتركيز أولاً على تحقيق نهضة فكرية تهيء الأذهان والعواطف لاستقبال الأفكار والمعارف والمهارات فالعلوم والتقنيات وكل تجليات الإزدهار ما هي إلا نتائج لثورة الأفكار . . .

إن العلم إصلاح التفكير وليس إعطاء معلومات وهو إحلال تصورات صحيحة ومعارف ممحَّصة محل تصورات ومعارف خاطئة أما إضافة معلومات ممحَّصة إلى ذهن متشبع بثقافة المشافهة غير الممحَّصة فلا يفيد علماً لأن هذه الإضافة تشبه إضافة كأس من الماء الصافي العذب إلى بركة مليئة بالماء المالح العكر بل إن الثقافة الأسبق ترفض وتنبذ المعارف الصحيحة وبسبب ذلك فشل التعليم في العالم الثالث فلقد جرى تعميم التعليم وامتلأت البلدان المتخلفة بالمدارس والجامعات والمتعلمين ولكنها لم تزدد إلا تخلُّفا لأن العقل يحتله الأسبق إليه . . .

إن أوربا لم تنفعل وتتحرك وتجيش فيها روح الانبعاث والتقدم بسبب أنها تلَّقتْ معلومات جديدة وأضافتْها إلى معلومات سابقة وإنما حصل هذا الجيشان لأنها أدركتْ أنها كانت غارقة في مسلَّمات غير

ممحَّصة وغير صحيحة فأفاقت من سباتها واستجابت للأفكار المثيرة فأشد الكشوف العلمية تأثيراً في بداية العصر الأوربي الحديث هو كشفُ كوبرنيكوس وهو كشفٌ فلكي لاعلاقة له بالاقتصاد ولا بالسياسة ولا بالإدارة ولا بأي عمل تنموي مباشر ولكنَّه مثَّل ثورة فكرية لأنه هزَّ المسلَّمات وأنتج لأوربا عقلاً جديداً ووجَّه اهتمامات هذا العقل وجهات جديدة فالتأثير الكبير ليس للمعلومات ذاتها وإنما لدلالاتها الفلسفية والثقافية ولمستوى الاستجابة العامة لهذه الدلالة الكبرى الحاسمة فأهمية الكشوف تكون بمقدار ماتُقَوِّض من مسلَّمات ومن تثيره من تساؤلات وما تقدمه من أفكار وما تتمخض عنه من استنفار للعقل وما تفتحه من آفاق للفكر والفعل...

إن العلم ليس إضافة معلومات إلى معارف سابقة فالعقل البشري قبل ظهور العلم لم يكن في حالة انتظار وإنما كانت له قناعات راسخة وكان مملوءاً بالثقة بمعارفه وتصوراته فمهمة العلم ليست الإضافة فقط بل الأكثر أهمية هو إزالة الأوهام المستقرة في العقل وإحلال حقائق محلها وخَلْق تساؤلات حول محتوى الأذهان ومسلَّمات الثقافة السائدة كما حصل باكتشافات كوبرنيكوس فقد كان الناس يعتقدون أن الأرض هي مركز الكون وكان هذا الاعتقاد راسخاً ومتوارثاً عشرات القرون فجاء كوبر نيكوس وقوَّض هذا الإعتقاد الخاطئ وأحلَّ محله معلومات علمية صحيحة وممحَّصة وبهذا أدرك الناس أن تصوراتهم التلقائية في كل المجالات لم تتعرَّض للفحص والتحليل وأنها ليست مبنية على حقائق مختبرة وأن الكثير منها يتعارض مع الحقائق ففتحوا أذهانهم لاستقبال الكشوف وإجراء التصحيحات فالمعلومات والحقائق في أي عصر وفي أي مصر لاتأتي إلى عقل فارغ وإنما تجيء إلى بنية ذهنية متشكلة

ومنظومة من المعايير المستقرة المترابطة التي ينساب منها التفكير والسلوك تلقائيا فالإنسان هو ابن مألوفه وهو يتجاوب ويتصرف تلقائيا مع ما ألفه واعتاد عليه وتمرَّس به فمن طبيعة الإنسان أنه يكون واثقاً تلقائيا دون بحث أو تردد من صحة آرائه التي تبرمج بها ووجاهة مواقفه التي اعتاد عليها فهو لايتساءل أو يبحث عن الحقائق وإنما هو جاهزٌ دائماً فهو يشعر تلقائيا بكفاية معلوماته مهما كانت ضئيلة أو خاطئة لأنه قد تبرمج بها وتآلف معها واعتاد عليها وصارت تمده تلقائيا بالتصرف وبسبب هذه الطبيعة البشرية العامة المكتفية تلقائيا فإن الإنسان على المستوى الفردي أو الثقافي لايؤجِّل الأحكام من أجل التحقق وإنما يحكم ويتصرف تلقائيا بما توفر لديه من معارف مهما كانت خاطئة أو قائمة على أوهام ثم يستقر الحكم ويصبح بحكم التقادم والتآلف والاعتياد حقيقة لاتُناقَش وأحياناً لايكون القرار أو السلوك مقتصراً على فرد واحد وإنما يهيمن على أمة بأجمعها وتستمر الأجيال تتوارثه ولا تُخضعه لأي تحليل أو مراجعة أو تصحيح فالإعتياد عليه يُكسبه حصانة تقترب به من القداسة...

لذلك فإن الكشف الفلكي لكوبرنيكوس قد أصاب الناس في أوربا بصدمة ثقافية مزلزلة فقد علموا بأن ما اعتبروه من بداهات الحس والعقل ليس سوى وهم من الأوهام فمثل ذلك يقال عن آلاف التصورات والمفاهيم والقيم والرؤى والعادات والتقاليد المستقرة في الأذهان من دون تمحيص ومن غير تحقُّق ففي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب كوبرنيكوس عن النظام الشمسي (١٥٤٣) ظَهَرَ أيضا كتاب فيساليوس عن (تشريح جسم الإنسان) الذي هَدَم به ماكان يتوارثه العالَم عن جالينوس لذلك سُمِّي هذا العام (عام العجائب!!) ويقول ول ديورانت

في الجزء (٢٧) من كتابه الشامخ (قصة الحضارة): «ثورة علمية من صنع فتىً لم يتجاوز التاسعة والعشرين (فيساليوس) وهي ثورة لأنه أنهى سلطان جالينوس على التشريح وراجع العلم كله بلغة التشريح وبهذا أرسى دعائم الأساس الفيزيائي للطب الحديث» هكذا فالعلم ليس معلومات وإنما هو يقظة فكرية ومراجعة شاملة وتساؤلات موصولة وشكوك حافزة إنه ليس إضافة معلومات ولكنه تصحيحٌ للأخطاء واستبدالٌ للتصورات وإحلالٌ للحقائق محل الأوهام أما إذا بقيت البنية الذهنية كما كانت قبل اكتشاف الحقائق العلمية فإن فائدة التعليم تكون ضئيلة أو معدومة أو عكسية لأن ما يتلقاه الدارسون يبقى محكوماً بالمعايير والتصورات السابقة وبهذه الصفة فإن التعليم الذي يحصر اهتمامه بإعطاء معلومات لايقدِّم علماً بروحه وفاعليته ودلالته وأضوائه وتأثيره وإنما يصير تفاريق من المسائل المبعثرة التي تهضمها الثقافة المستقرة وتحيلها لصالحها وليس لصالح مغزى العلم...

ومن المعلوم أنه منذ أن وُجِدَتْ المجتمعات وهي تتوارث ثقافات موغلة في القدم ورغم تباين الثقافات فإن كل ثقافة تقليدية تربي أهلها على توهُّم الامتياز المطْلق وكلما اشتد انغلاق الثقافة اشتدَّ وُثوقها واستحكمتْ أوهام الامتياز في عقول أبنائها فهم يعتقدون أن ثقافتهم هي وحدها الثقافة الصحيحة فيسخرون من ثقافات الآخرين ويرون أن ثقافتهم هي وحدها نموذج الكمال فليسوا بحاجة إلى أن ينفتحوا على ثقافات وتجارب الأمم المغايرة إن هذه الأوهام بالكمال والإكتفاء يتلقاها اللاحقون عن السابقين فتتشبَّع بها عقول جميع الأفراد من كل الأجيال وتتشكَّل بها عوطفهم وتتحدَّد اهتماماتهم منذ الطفولة المبكرة فإذا التحقوا بالتعليم تواصَل تأكيدُ هذا التشبُّع وترسيخه وشحن العواطف به

فلا تستسيغ عقولهم إلا مايكون امتداداً لما تشبَّعوا به تلقائيا أما مايتعارض معه فإنهم يحفظونه سطحيا ثم يلفظونه بعد أداء الامتحانات فلا تتجاوب معه عقولهم ولا تميل إليه عواطفهم وإنما هو عبءٌ مؤقَّت يتحمَّلونه من أجل الحصول على الشهادة وليس اقتناعاً بأنه يمثل المعرفة الحقيقية الممحَّصة...

إن العقل يحتله الأسبق إليه وهذا الأسبق في الغالب يكون من الثقافة التلقائية التي يمتصها الإنسان في طفولته امتصاصاً تلقائيا من غير أي تمحيص فيتشكَّل بها عقله ووجدانه وتتحدد طريقة تفكيره ومنظومة قيمه وسلسلة اهتماماته فإذا التحق بالتعليم فإنه ليس فارغ العقل والوجدان ولا مفتوح الذهن وإنما هو قد جاء بعد أن تشكَّل عقله وتشبَّع وجدانه فلا يتأثر بحقائق العلم لأنها حقائق طارئة وغير قابلة للامتزاج مع محتويات عقله ووجدانه...

إن من أقوى أسباب استمرار تخلف الكثير من المجتمعات رغم تعميم التعليم وتوفُّر الإمكانات هو تجاهل موانع النهوض وتوهُّم سهولة الانعتاق من التخلف لقد توهَّموا أن التقدم يتحقق بالتعليم وبأشياء تضاف إلى واقع قائم وجهلوا أن هذا الواقع القائم مُحْكم البنية وراسخ الأساس ومدجَّجٌ بألف سلاح ومحميٌ بألف حصن ومحروسٌ بأشرس مقاومة إنهم في الغالب لم يعرفوا أن كل ثقافة سائدة تقاوم تلقائيا بمنتهى طاقتها أي فكر طارئ حتى لو كان هذا الفكر الطارئ هو طوق النجاة إنهم لم يدركوا أنه لابد أوّلاً من إزاحة الموانع المستحكمة وفتح نوافذ في البنية الثقافية المغلقة لتكون العقول مستعدة لتقبُّل الأفكار والمعارف والمهارات الجديدة ثم إحلال مقومات الإزدهار محلها إن العلوم

والأفكار لا تأتي لأذهان فارغة بل تأتي لأذهان ممتلئة ومكتفية ورافضة لأي فكر من خارجها فالتخلف ليس فراغاً مفتوحاً لاستقبال عوامل التغيير وإنما هو ممتلئ بعوامل الرفض والانتفاش والمقاومة إن التخلف بنية قوية ثابتة راسخة تستعصي على الإختراق إنها بنية موصدة هي بطبيعتها رافضة لأي شيء يخالفها أو غير مألوف لها إنها قد احتلت العقول منذ الطفولة وتهيمن على العواطف منذ عصور سحيقة وينساب منها السلوك تلقائيا في الخلف مثلما انساب من السلف في تناسل ثقافي حاسم وصارم فتقاوم بشراسة أي شيء يتعارض معها. . .

إن الساعين إلى التقدم في المجتمعات المتخلفة ذات الثقافات المغلقة لم يدركوا طبيعة الرفض الثقافي العنيد المستبسل فواجهوا التخلف وهم يجهلون صلابة تكوينه بل لا يعترفون بوجوده كبنية صلبة قوية راسخة فلم يدركوا طبيعته المغلقة ولا قوة حصونه ولا تعدُّد عوامل ديمومته إنهم يظنون أن عوامل التقدم تُستجلب من أي مكان فيتجاوب معها المجتمع وهذا وهْمٌ ساذج فلا بد أن يعْلم الناس أن الثبات على التخلف هو الأصل وأن هذا الأصل مدجَّج بأعمق العواطف المتوارثة المتجددة ومحصَّن بأقوى عوامل الاستمرار في كيان المجتمع وفي ذوات الأفراد وأن الإفلات من قبضته هو الإعجاز بعينه لأنه بمثابة خروج عن الذات وانقلاب على النفس إن هذا الإفلات العسير لا يمكن أن يحصل إلا إذا طرأت مؤثرات قوية جارفة تفتح الحصون المغلقة وتعيد تكوين ثقافة المجتمع وتغيِّر طريقة تفكير الناس وتعيد تكوين وترتيب منظومة قيمهم أما التعليم المحكوم بالثقافة السائدة فهو يكرس الثبات ويبرر الاستمرار ويعزز مقاومة الجديد فتتحول كل الإمكانات الطارئة المجلوبة من عوالم للتقدم إلى عوامل لتوطيد التخلف وحماية

المألوف وتأكيد السائد أما الآمال المعقودة على استيراد العلوم والتقنيات وتعميم التعليم وتدفق المعلومات من غير انفتاح البنية الثقافية السائدة المغلقة فهي آمال تتجاهل أو تجهل موانع النهوض وأصالة ثبات التخلف وتنسى أسبقية عوامل الرفض وقوة تحصينات الممانعة...

إن ثبات الثقافات خلال التاريخ البشري هو ثباتٌ طويل وممعن في الطول فالثبات هو الأصل الموغل في الرسوخ أما الإفلات منه فهو الاستثناء الطارئ بل هو المعجزة ذاتها بكل ما للمعجزة من أبعاد ودلالات وإيحاءات لذلك مازال الإفلات من قبضة الثبات الحامي للتخلف حلماً بعيداً كل البُعْد عن أهل الثقافات المحرومة من الفكر النقدي المتأجج...

لقد واصلتْ الثقافات القديمة الدوران مع نفس المسارات خلال قرون سحيقة وطويلة موغلة في الطول وما زالت الثقافات المغلقة تعيد إنتاج ذاتها وتواصل الدوران مع مساراتها التليدة التي سارت معها خلال القرون وستبقى كذلك إلى أن تتقبل مُرغمة أو مضطرة أن تغير ذاتها ولكن التقبُّل محالٌ أن يأتي تلقائيا أو أن يحصل طوعاً فالتقبُّل لا يتحقق إلا بعد إدراك الخلل ولكن من النادر أن يحصل هذا الإدراك فهو نتاج العقل الناقد غير أن الثقافات المغلقة لا تتقبَّل النقد وبهذا تحمي ذاتها من أي تغيير إن بداية النهوض لا تتحقق إلا بالنقد ولكن الثقافات المتخلفة ترفض استخدام هذا المفتاح الأساسي رفضاً قاطعاً وعنيفاً فتبقى تجهل أسباب الإعاقة الحضارية فالتغيير يتطلب فتح أبواب النقد وتوطين الفكر الفلسفي والسماح بفرص متكافئة بين العقل السائد والعقل الناقد إن التغيير يتطلب فتح البنية المغلقة المحصَّنة وتغذيتها بطاقة إضافية

دافعة تنتشل المجتمع من حالة العطالة والدوران الأفقي إلى حالة النهوض والصعود...

إن الثقافة الراكدة لابد لها من طاقة إضافية هائلة تخرج بها من مساراتها الدائرية وتحلّق بها إلى آفاق التغيرات النوعية الطارئة إن الطاقة اللازمة لتغيُّر ثقافة أي مجتمع تشبه الطاقة التي تلزم لتحليق الطائرة من الأرض لتسبح في الهواء!!! وهذا التشبيه لتقريب الصورة فقط أما الواقع فإن انتقال أي مجتمع من حالة العطالة المزمنة العقيمة إلى حالة الفاعلية المنتجة هو انتقالٌ بالغ الصعوبة ولا يشبه أي شيء مادي فهو أشد استعصاء من أي شيء قابل للتغيير فالمهم أن ندرك أنه لا يوجد أي مجتمعٌ يعلو فوق ذاته فيغيِّرها وإنما لابد أن تأتيه التغذية والعلاج من خارجه بأيدي أطباء من داخله...

إن التغيرات النوعية الهائلة التي يعيشها العالم الإنساني في هذا العصر هي تغيرات حديثة وغريبة وطارئة على الحضارة الإنسانية ولها مقومات تختلف نوعيا عن كل ما عرفته الثقافات القديمة وعما تعيشه الثقافات الشمولية من أفكار ومؤسسات وإجراءات وأوضاعق فرغم مرور قرون على حصول هذه التغيرات النوعية فإن الثقافات الشمولية مازالت مستقرة وثابتة ومهيمنة في الكثير من المجتمعات البشرية فلم تؤثر فيها هذه التغيرات العظيمة الباهرة وبسبب ذلك صار التفاوت هائلاً بين المجتمعات المفتوحة المزدهرة والمجتمعات المغلقة المتخلفة إن بنية التخلف عصية على الإختراق لذلك فإنه ليس غريبا أن ثقافات كثيرة في القرن الحادي والعشرين مافتئت عاجزة عجزاً تاماً عن إدراك التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية مما جعلها تبقى خارج مسيرة

التاريخ المعاصر فهي لا تدخله إلا لكي تعرقل مسيرته الظافرة لأن هذه المسيرة تختلف عن كل ما عرفته الحضارات القديمة مما لا يستطيع إدراكه أو التفكير به من يعيشون داخل نطاق ثقافات اجترارية مغلقة. . .

إن الثقافات المغلقة تستهلك المنجزات الهائلة التي أبدعتها المجتمعات المزدهرة لكنها لم تعرف أسباب إبداعها بل ولا تؤمن بوجود أسباب خاصة أدَّت إليها ولم تستطع كل الحقائق أن توقظها رغم كل ما تشاهده وتستخدمه وتعايشه من مدهشات هذه التطورات مما لم تكن تتخيله أية ثقافة قديمة فعجز الثقافات المغلقة عن رؤية أسباب الإبداع الجديد العجيب المغاير هو عجزٌ بنيوي طبيعي وليس عجزاً عَرَضيا ولا يستغربه إلا الذين لا يعرفون طبيعة الثقافات المغلقة وحتمياتها الأبدية في التوالد والاستمرار. . .

إن المجتمعات المتخلفة قد أمضت أكثر من قرنين وهي تحاول النهوض وأنفقت الكثير من المال والجهد والوقت لتحقيق التقدم لكنها أخفقت إخفاقات ذريعة ومع ذلك مازالت سائرة في نفس الطريق الخاطئ فلم تحاول أن تتعرف على الموانع التي تستكنُّ في أعماق ذاتها ولا على التغيرات الثقافية التي حققت الإزدهار للمزدهرين إن الخروج من متاريس وخنادق وأوحال الإعاقة الحضارية يتطلب فحص الذات وتعرية الموانع ومراجعة المكونات الحضارية الطارئة وإبرازها وإشاعة المعارف الشارحة لها ليشارك الجميع في تذليل الموانع والإلتزام بشروط النهوض التي تمليها التغيرات النوعية التي طرأت على الثقافات المزدهرة. . .

إن الناس في المجتمعات المتخلفة ذات الثقافات المغلقة لم يدركوا

العوامل التي مكّنتْ المجتمعات المزدهرة من أن تبدع هذه التغيرات الحضارية الهائلة فقد توهم الناس أن التقدم نتاجٌ تلقائي لتراكمات التاريخ فصاروا يتداولون أقوالاً خادعة ومضللة تشلُّ تفكيرهم وتعطِّل طاقتهم وتُفسد أحكامهم وتعمي بصائرهم ومن أمثلة هذه الأقوال الخادعة ما يتردَّد من دون أي فحص ولا أي تحقُّق مقولة: (التطور هو سُنَّة الحياة البشرية) إنها مقولة شائعة يلقيها الناس جزافاً ويتداولونها بعفوية وكأنها من البداهات الصحيحة الواضحة مع أن هذه المقولة تتعارض تعارضاً تامًا مع ما يؤكده التاريخ وما يشهد به الواقع فأية مراجعة فاحصة للتاريخ الحضاري في الماضي والتأمل العميق لأوضاع العالم في الحاضر يتضح منهما أن هذه المقولة خاطئة تماماً فالثبات هو سنة الثقافات والعطالة هي قانون الأوضاع البشرية أما الخروج من هذا الثبات وهذه العطالة فيتطلب طاقة استثنائية هائلة تفتح حصون الثقافة المغلقة وتحرك الجسم الإجتماعي الرازح وتدفعه بقوة نحو التغيُّر...

إن الناس ينخدعون بالتغيرات الدورية التي كانت تحصل في التاريخ القديم ويتوهمون أن التطور الحديث المدهش هو امتدادٌ لتلك التغيرات الشكلية ويغفلون عن أن تلك التغيرات الدورية لم تكن تأتي بإضافة حقيقية في الحضارة ولا تُحقِّق نقلة نوعية في الثقافة بل إن التغير الدوري المعتاد في التاريخ يستبدل نمطاً ثابتاً مغلقا بنمط ثابت مغلق مماثل فهو ليس تغيُّراً نوعيًا نحو الأفضل وإنما في أحيان كثيرة يكون تغيُّراً نحو الأسوأ إن النشوء والسقوط الدوري للدول الذي تكرر كثيراً في التاريخ القديم ليس تغيُّراً حضاريا وليس اندفاعاً نحو التطور الثقافي وإنما هو امتدادٌ للحركة الدائرية العقيمة...

إن التتبُّع لتاريخ الدول والحضارات يؤكد أن تغيُّر الدول ليس تغيُّراً نحو الأفضل وإنما هو تبدُّل في الحُكّام فقط إنه تغيُّرٌ في الأسماء وليس في الأوضاع لقد دَرَسَ ابن خلدون التاريخ وسجّل ملاحظاته حول نشوء الدول وتطورها وإزدهارها ثم انحلالها وانهيارها لكن ظاهرة نشوء الدول وزوالها ليس له أية علاقة بالتطور الحضاري لأن الدولة اللاحقة التي كانت تأتي عن طريق القوة تتأسس وتنهض على علاقات الإخضاع وليس على علاقات الإقناع إنها لا تأتي برؤية جديدة عن الإنسان الفرد وعن المجتمع وعن العلاقة بين الفرد والمجتمع وعن الحاكم والمحكومين وإنما هي امتدادٌ لما كان سائداً من قبل . . .

إن التغيرات في العصور القديمة هي تغيرات في الأُسر الحاكمة أو الشعوب المنتصرة فقط أما أوضاع العالم بشكل عام فقد يكون التغيُّر نحو الأسوأ كما حَصَلَ حين اكتسحتْ القبائل المغولية الهمجية أو قبائل الهون المتوحشة أو غيرها عدداً من الحضارات وقوّضت العديد من الدول إن التغيرات في الحضارات القديمة لاتمثّل نهجاً جديداً يؤدي إلى تحرير الإنسان وتفجير طاقاته والإرتقاء في مستوى التعامل معه ولا تضيف رؤية جديدة عن التنمية واستثمار قابليات الإنسان إنها لا تملك رؤية جديدة صحيحة عن الكون والإنسان والحياة ولا تسعى لتحقيق طفرة نوعية في طريقة التفكير وتنمية المعارف وبناء القدرات البشرية وخلْق الثروات كما صار يحصل الآن وإنما كانت كل دولة طارئة تسعى لترسيخ وجودها وتأكيد سلطتها وتوسيع رقعة أرضها وزيادة خراجها وإغناء حزائنها وهي لاتفعل ذلك عن طريق إيجاد ثروات جديدة تخليقا وابتكاراً بتشجيع الإكتشافات العلمية وتبني الإختراعات الجديدة وتقدير المواهب النابهة وحفز القدرات الإنسانية المخبوءة والإرتقاء بالإمكانات

العظيمة المعطلة عن طريق العلوم والفنون والمهارات وإنما تُكرر ما فعلته الدول السابقة من إفقار الأغنياء ومضاعفة فقر الفقراء إنها لا تُوجد طرقاً جديدة لتكوين واستخراج ثروات جديدة لم تكن معروفة من قبل وإنما تستبقي مصادر الثروة كما هي وتحصر اهتمامها بكيفية جبايتها فكل الدول التي تعاقبت على مر التاريخ وفي شتى بقاع الأرض كانت تعتمد منطق القوة والقهر والتغلُّب في نشوئها واستمرارها ولم تكن تعتمد على منطق العقل والإقناع وإنما كانت تعتمد على منطق السلطة والإخضاع...

إن التغيُّر الحقيقي العظيم المدهش الذي فجر الطاقات ونمى الإمكانات هو اكتشاف قابليات الإنسان العظيمة التي كانت معطلة واكتشاف خيرات الأرض الزاخرة التي كانت مجهولة وامتلاك قدرات تحويل المادة الصماء إلى سيارات وقطارات وطائرات وإلى آلات وأجهزة تَحسب وتتكلم فلم يعد الإنسان يكتفي بما هو متوفر في الطبيعة وإنما بالمعرفة والمهارة خَلَقَ ثروات لا نهاية لها فأنهى فقر الأرض بالتخليق الكيميائي الذي ليس لأنواعه من نهاية ولم يكتف الإنسان المبدع بذلك بل إن تقنيات (النانو) تؤسس لعهد جديد في التخليق والإبداع ومضاعفة الثروة وفتح الآفاق وتوسيع حقول الإمكانات إن الإكتشاف الأعظم هو التغيُّر في مكانة الإنسان الفرد وفي تحرير قابلياته وإطلاق طاقاته التي كانت مجهولة ومعطلة خلال القرون إن التغير الحقيقي هو في طريقة التفكير وفي تطوُّر الرؤى وفي معرفة الإمكانات الظاهرة والكامنة وفي اكتساب المعارف والمهارات وفي تعرية الأخطاء وفي إدراك هيمنة الأوهام والسعي لتحرير العقول من هذه الأوهام وإحلال حقائق العلم محلها إنه التغيُّر الذي يؤدي إلى تحرير الإنسان من

أوهامه واستسلامه وكمون طاقاته وإلى التعرف على قابلياته العظيمة واستثمار هذه القابليات إلى حدها الأقصى إنه التغيُّر الذي يعترف بقيمة الإنسان الفرد ويوفِّر له كل الفرص الممكنة لتطوير ذاته وبناء نفسه وتنمية معارفه وتطوير تفكيره وتوسيع مداركه وتعميق إحساسه وإرهاف ذوقه وتدريب عقله والإرتقاء بمواهبه وتشييد المهارات لفكره ويده وذهنه وجسده. . .

إن اكتشاف الإنسانية لأسباب ثباتها ودورانها وإعاقتها ولعوامل إفلاتها من هذا الثبات الخانق وتَعَرُّفها على مقومات الإنطلاق الظافر نحو آفاق التقدم والإزدهار هو اكتشافٌ أساسي توصَّل إليه فلاسفة اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد وورثته عنهم أوربا في القرن الأول قبل الميلاد ثم تخلت عنه وانشغلتْ في بناء الحصون الثقافية والحجر على العقول خلال القرون الوسطى والمظلمة ثم عادت إليه بقوة في العصر الحديث فمنحتها هذه العودة هذا التفرد العظيم إن سر التقدم يكمن في الفكر الفلسفي وخصوصاً الفكر النقدي الذي يحرر المجتمعات ويحرك العقول وينير البصائر ويَعُرِّي الأوهام ويكشف الجهالات ويولد الأفكار وينوع البدائل ويفتح أبواب الخيارات لذلك غرقت أوربا في الهمجية حين تخلت عن الفكر الفلسفي الفاحص الناقد ثم ازدهرت حين عادت إلى هذا الفكر الخلاق وبهذه العودة الظافرة امتلكت أوربا هذا الامتياز العجيب المدهش فحققت فتوحات العلوم ومدهشات الأفكار وروائع الاختراعات ومُعجزات النُّظُم وبزغت شمس الإنسان الفرد لأول مرة في التاريخ فصارت له مكانة عالية ومعارف متنوعة ومهارات مدهشة لم يسبق أن حَلُم بها في أي عصر سابق ولا هو فكَّر بها في أية ثقافة قديمة. . .

تدريس الفلسفة كتدريس العلوم:

قد يتبادر إلى الأذهان بأن تدريس الفلسفة سيؤدي إلى تنوير العقول وفَتْح أقفال الأذهان وشفاء العواطف الملوثة من الأمراض الثقافية وتنقية الأخلاق من المعايير التي تغرس الحقد وتبرر الكراهية؟! لكن شعوباً كثيرة متخلفة أدْخَلَتْ منذ بداية تعميم التعليم تدريس الفلسفة ضمن مناهج التعليم العام وأوجَدَتْ أقساماً متخصّصة في الفلسفة في كليات الآداب ومرَّ على ذلك أكثر من قرن لكن هذا الإهتمام الشكلي لم يخلق فكراً نهضويا ولم يؤد إلى وعي المجتمع ولا إلى استنارة الدارسين...؟!!

إن الاستنارة لن تنضاف إلى وعي زائف ولكنها إحلالُ فكر مستنير ومنفتح ومتجدّد محل فكر مظلم ومغلق ومجتر فتدريس الفلسفة كمسائل ومعلومات لايؤثر في العقول بل يصبح تدريسها كتدريس الفيزياء والكيمياء والرياضيات تُحفظ اضطراراً من أجل الإمتحانات ثم تُنسى من دون أن تترك أثراً ناجعاً على طريقة التفكير أو العادات أو منظومة القيم أو الإهتمامات أو مستوى الأداء في الفكر والفعل...

إن استنارة بعض المهتمين في الفلسفة لاتدل على فاعلية تدريسها فاهتمامهم بها هو ثمرةُ استنارتهم وليست استنارتهم نتاجاً للإضطرار في حفظ منهج دراسي فيها إن خلق الوعي المستنير مهمةٌ صعبة تتطلب توجُّهاً عاماً يوقظ الجموع الغفيرة الغافلة ويخلصهم من الاستسلام البليد لبرمجة الطفولة واستمرار الغبطة بها والاستماتة في الدفاع عنها والتحفز لمهاجمة من ينتقدها...

هذا الكتاب:

أمضيتُ عمري وأنا مشغول الذهن بمعضلة التخلف وقد جاوزتُ الآن الستين من العمر وقد أنجزتُ عدداً من الكتب أفرغت فيها ما توصلت إليه في هذا الانشغال الممض والبحث الطويل والمقارنات المتكررة وقراءة تاريخ الحضارات قراءة متمعنة أما الكتب فهي:

* بنية التخلف
* الريادة والاستجابة (نظرية في الانثروبولوجيا الثقافية وفلسفة الحضارة)
* تأسيس علم الجهل
* عبقرية الإهتمام التلقائي (نظرية في الطبيعة البشرية والتعلُّم والأداء)
* التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية
* القيادة والإنقياد
* الانتظام والإقتحام
* العلوم الحديثة مشتقات فلسفية
* ....إلخ

أما هذا الكتاب فهو حوارات حول حصون التخلف إنه تحليلٌ لموانع النهوض تناولَتْ الكثير من القضايا وتطرقَّتْ إلى مسائل شائكة متنوعة لأن المحاورين يدفعون المحاوَر إلى أن يتناول أموراً كثيرة قد لايكون تناولها في كتبه فالمنهج الحواري هو الأنجع والأوسع ففي هذا الكتاب ملامح من كل الكتب التي أنجزتُها وفيه أيضا الكثير مما ليس في

الكتب فلا الكتب تغني عن الحوارات ولا الحوارات تغني عن الكتب فالقضايا المحورية والأفكار التأسيسية يجب أن تُطرح بكل الأساليب وأن تناقَش بشتى الطرق وأن يعاد طرحها وأن يكرر الحديث عنها حتى تنجلي وتُفهم والله المستعان. . .

إبراهيم البليهي

مكاشفات البليهي

(منشورة بجريدة عكاظ على حلقات)

حوار

الدكتور عبد العزيز قاسم

ـ ١ ـ

مكاشفات إبراهيم البليهي ـ الجزء الأول

في أولى مكاشفاته مع ملحق (الدين والحياة) قال المفكر السعودي إبراهيم البليهي بأن نقد الذات الكليلة التي يقوم بها هو مفتاح تحريكها وتغييرها نحو الأفضل ورأى أن تمجيد النفس المتخلفة البليدة الراسفة في القيود هو ترسيخٌ للتخلف وتأكيدٌ للأصفاد وقال البليهي بأن التخلف واقعٌ مشينٌ ينبغي أن نسخط عليه ونتخلص من أسبابه وأكد البليهي في مكاشفاته أن الحضارة الغربية حررت الإنسان من قيوده وأصفاده وأن حضارتنا الإسلامية حضارة دينية اهتمت بمسائل الحلال والحرام والكفر والإيمان فقط وإلى تفاصيل المكاشفات:

- **سأبدأ من القضية المفصلية التي تميز فكر إبراهيم البليهي والتي يواجهه بها معارضوه دوماً وهي الانبهار الكامل بالغرب في مقابل تهوين كامل للعقل العربي.. لأن هذا أستاذ إبراهيم أظهر ما يميز كتاباتك. وثمة جلد ذات حاد يميزه الكثيرون، ما هو الباعث لذلك؟**

ـ يجب أن نتفق ابتداء بأن نقاشنا لايدور حول قضايا دينية وإنما يدور حول قضايا دنيوية محضة تتعلق بتنمية وسائل الحياة وحُسن إدارتها وتقنين العلاقات المتكافئة فيها والعناية بالإنسان: ارتقاء به

واعترافاً بقيمته وتأكيداً لفرديته ومحافظة على كرامته وتنمية لقدراته وفتْح الآفاق له والإقرار بحقه في أن يشارك في إدارة شؤونه ومحاسبة من يتولون هذه الشؤون أما ماتسميه انبهاراً فلن اتردد عن تأكيد إعجابي الشديد بالثقافة التي أنجزتْ حضارة العصر فلا عقل لمن لاينبهر بروعة الإنجازات وعظمة الأفكار وإزدهار الحضارة وتجليات التفوق الإنساني ولا أخلاق لمن يستميت ليحجب هذه الروعة وينكرها وهو غارقٌ في منافعها ولا يستطيع لحظة أن يستغني عن ثمارها ومنتجاتها ويتلهَّف دوماً إلى المزيد منها فهي تحيط به وتغمره بعطاءاتها الزاخرة والنامية والمتجددة وتُيسِّر له حياته وهي بوفرتها المؤقتة تحجب عنه عجزه وتوهمه بامتلاك قدرات خارقة إنه في عمق الصحراء ومناخها الملتهب يتوهَّم أنه يعيش في جبال الألب لأن التكييف يرافقه في المنزل وفي السيارة وفي المسجد وفي المكتب وفي السوق وإينما تحرك ولكنه يتجاهل ذلك وينسى أنه يتحرك بقدرة مجلوبة ومؤقتة وليس بقدرة ذاتية دائمة فهو قادرٌ بغيره وليس بنفسه!! إنه بهذا الحجب وهذا الإنكار وهذا التجاهل أو هذه الغفلة لايُسبب للغرب أيَّ ضرر بل يُلحق أفدح الأضرار بنفسه وبمجتمعه وبمن يتلقى عنه وبالأجيال التي تتوارث هذه الرؤية المدمِّرة فالغرب هو المستفيد من هذا الموقف المكابر الرافض لمقومات الإزدهار لأنه يستمر ينتج ونستمر نستهلك فنبقى أسواقاً له إن موقفي من حضارة الغرب هو موقفُ المتعطش إلى أن نتجاوز حالة العجز وننفكَّ من قيود المكابرة وننعتق من حصار التخلف وأن نصير مجتمعات منتجة فنسابق الغرب ذاته ونزاحمه ونقف منه موقف الند لاموقف الخائف المرعوب المنكمش على ذاته والمتوجِّس من المؤامرات الوهمية

والمتحفز للرد على معارك ليست موجودة إلا في وهمه فينشغل بها عما يجب عليه فعْلُه وعما تتطور به أوضاعه وما تزدهر به حياته!!

إن موقفي من الذات ومن الآخر هو موقفٌ يعتمد على إدراك الواقع العربي المشين والمهين وبالمقابل فإن إعجابي بالغرب يقوم على الحقائق الواضحة المجسَّدة وعلى الوقائع المتدافعة الجياشة وعلى الفيض الهائل من الانجازات العظيمة فالواقع الغربي المزدهر يزخر بكل ما هو عجيب وجميل وبديع ورائع ومدهش ومن البديهي أن هذا الفيض العظيم مصحوبٌ بنقائص كثيرة كأي عمل بشري فالمهم أن المزايا تفوق النقائص فما أقوله ليس انبهاراً أعمى كما تقول فهو عكس موقف المنكرين الذين يتجاهلون الأضواء الحضارية الباهرة فلا يرون غير السوءات ويتعامون عن الفيض الهائل من الحسنات إنني أرى سيئات الغرب وحسناته ولكن حسناته راجحةٌ رجحاناً لاشكَّ فيه ثم إنه مستمر في التطور فأوربا التي أشعلت وخاضت الحربين العالميتين هي الآن تتحد وتتآخى وتسخر من ماضيها البعيد والقريب وتستفظعه وتعتذر عنه وأمريكا التي كانت تمارس العنصرية ضد السود وتحتقرهم عرقيا هي الآن اختارت رئيساً أسود فليس المهم كيف كانوا بل المهم كيف صاروا وإلى أين سيصيرون بعد عقود ماداموا بهذه العقلية المتوهجة المنفتحة على المستقبل؟!! فهم يتطورون بانتظام وبسرعة ويتخلون عن سوءات أسلافهم بل ويعتذرون عن الأخطاء التي ارتكبها آباؤهم وأجدادهم فلا يحاولون تبريرها أو الدفاع عنها أو الإفتخار بها وإنما بالعكس تماماً يوجهون لها الإدانات الشديدة المستمرة. . .

وليست مزايا المزدهرين محصورة بهم وإنما امتدَّ عطاؤهم الزاخر

إلى كل الأمم فهم الذين اكتشفوا أسباب الأمراض وهم الذي انتجوا الأدوية وهم الذين طوّروا أساليب العلاج فالمريض في أشد المجتمعات تخلفًا يحصل على نفس العناية إذا توفَّر المال وهم الذين ابتكروا تعميم التعليم وهم الذين أوجدوا دولة القانون وحكومة الخدمات وليس هذا سوى طرف مما أبدعوه فأَدِرْ طَرْفَكَ فيما حولك من وسائل الحياة وسوف تُبصر أن كل ماهو جميلٌ ونافعٌ ورائعٌ في حياتنا وحياة غيرنا من شعوب الأرض قد أنتجته الحضارة الغربية حتى الإزدهار الطارئ في اليابان والصين وغيرهما من أقطار الشرق هو امتدادٌ لحضارة الغرب فاليابانيون وهم الأكثر تقدُماً في الشرق يعلنون بكل وضوح أنهم مدينون بإزدهارهم للغرب وما استعاروه منه أما نحن فتأمَّل كلَّ ماحولك لتجد أنك تعتمد عليهم في كل شيء: القلم الذي بيدك وجهاز التسجيل الذي أمامك والنور الذي يغمرك والجريدة التي تعمل فيها والطائرة التي نقلتْك في ساعة واحدة من جدة إلى الرياض والسيارة التي نقلتْك في لحظات من الفندق إلى هنا حتى البترول الذي هو مصدر رخائنا المؤقت قد اكتشفه واستخرجه الغربيون وهو الثروة التي لم يكن لها أية قيمة من قَبْل فهم بمخترعاتهم قد أكسبوا البترول هذه القيمة العظيمة فهو في باطن أرضنا منذ آلاف السنين ولولا المخترعات الحديثة لبقي من دون قيمة أيضا فهم السبب في رخائنا الطارئ المؤقت الذي يعتمد على البترول!!! إن الأمم كلها مدينة للغرب بمالا حصر له من تسهيلات الحياة ووسائلها فكلها طارئة على الحضارة الإنسانية وكلها انتجها الغرب أو انتجها الذين قلّدوا الغرب وأخذوا عنه مقومات الإزدهار ويعترفون له بهذا الفضل ولا يحاولون إنكاره كاليابان التي أثبتت وقائع التاريخ أن اعترافها بقصور ثقافتها وانفتاحها السريع للاستفادة من تجارب الأمم

الأخرى هو الذي غَذَّاها بأسباب هذا التفوق الباهر فسبقتْ غيرها من أمم الشرق أما تقدم الغرب ابتداء فهو معجزة مذهلة بالنسبة للحضارات القديمة فلولا منجزات الغرب لكانت حياتنا حياة جدباء قاحلة كما كانت حياة البشر خلال آلاف السنين منذ وجودهم على هذه الأرض إلى أن حقَّق الغرب هذه التغيرات النوعية الهائلة في الحضارة الإنسانية ولا يعود ذلك إلى أي تميُّز عرقي وإنما يعود أوَّلاً وآخراً إلى الفكر الفلسفي وخصوصاً التفكير الفاحص الناقد المنفتح المتجدِّد...

إن التعامي عن التغيرات النوعية التي ابتكرتها الحضارة الغربية يصيب المجتمعات المتخلفة بأفدح الضرر لأنه يستبقي أسباب التخلف ويحجب عوامل التقدم إن هذا التعامي من أفظع الأوهام البشرية وأشدها تأكيداً بأن الإنسان إذا تبرمج عقله بالهراء والوهم فإنه يعتقد من غير تردُّد بأن السلحفاة أسبق من الحصان وأن النملة أكبر من الفيل وأن الأحلام والأوهام أصدق من أدق العلوم وأن ذبالة فانوس الزيت (السراج) أشد سطوعاً من الشمس!! فشواهد تميُّز الغرب ماثلةٌ وناطقةٌ ومتحركةٌ وجياشةٌ في كل بيت وفي كل شارع وفي كل محل وفي كل مكان إنها لاتغيب عن البَصَر أبداً إنه تميزٌ ناطقٌ بذاته فلا يحتاج إلى إثبات لأن الدنيا زاخرةٌ به فكل وقائع الحياة الإنسانية تشهد له ولا تتحرك إلا به ولكن لاحدود لعمى البصائر ولا نهاية لمنطق التبرير فما أقوله عن هذا التميُّز العظيم يشهد به الواقع وتضجُّ به الحياة وتمتلئ به الدنيا وكان المفترض أن لايكون موضوعاً للجدال ولكن لاحدود لمفاعيل التخلف!!! فلقد وَضَعَ الإنغلاقُ على العقول آلاف الأقفال وأحاطها بآلاف الأسوار فتبرمجتْ بأن لاتقبل إلا ما يأذن به هو ويزكِّيه ويدعو إليه إن إعجابي بالغرب يعود إلى أنني نظرتُ إلى التفاوت بين الأمم

بموضوعية وقيّمتُ بعدل وعبَّرتُ بصدق عما أراه وليس الجهر بهذه الحقائق في مصلحة الغرب فهو قد لايعجبه أن نستيقظ فندرك أسباب هواننا ونتعرَّف إلى عوامل عجزنا ونخرج من قواقع أوهامنا لأننا بهذا الخروج ننقلب عليه من مستهلكين إلى منتجين ومن عاجزين إلى فاعلين ومن متفرجين إلى أنداد مشاركين ومزاحمين كما فَعَلَتْ اليابان والصين وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وغيرها من المجتمعات التي قلَّدت الغرب وأخذتْ منه عوامل إزدهاره ثم زَاحَمتْهُ وتوشك أن تسبقه بل هي في الكثير من المجالات قد سبقتْه فعلا!!! ثم إن الحقيقة ذاتها قيمةٌ عليا عظيمة فيجب أن نُعلنها حتى لو كانت مُرَّة فلا قيمة للعلم مالم يدفع إلى الانضباط الأخلاقي والإلتزام بالصدق والانصاف والعدل فالذي يحجب الحقائق لا أخلاق له فليس أسوأ من حجب الحقائق عمداً ويضاف إلى ذلك كله أن جمال الإزدهار ذاته بتجلياته المذهلة يخلب الألباب أما الذي لا يُعجبه الجمال الرائع فهو إنسانٌ عديم الحس والذوق والبصيرة فحضارة الغرب قد بلغت القمة في الإرتقاء بالإنسان ورفْع شأنه وفتح الآفاق له وتنمية قدراته وحماية كرامته وانتشاله من التخلف وتخليصه مما كان يعوقه ويشلُّ طاقته ويطفيء قابلياته لقد حققتْ هذه الحضارة الإستثنائية فتوحات مذهلة في العلوم والتقنيات وأنجزت من المعارف والمهارات والنُّظُم والإختراقات والريادة في كل المجالات ما لم تعرفه أو تفكر فيه أو تتوقعه أية حضارة سابقة كما أن إنجازاتها قد غطَّتْ كل حقول الحياة في التنظيم والسياسة والطب والهندسة والأخلاق والإقتصاد واحترام الإنسان فمن واجبنا أن نعترف لها بهذا التميز المدهش لأن إزدهارنا يتوقف على هذا الإعتراف والإلتزام بما يقتضيه من إصلاحات جذرية في التفكير والأداء والإدارة والإهتمامات والسلوك فهذه

الإصلاحات الجذرية هي التي تهيئنا للتلاؤم مع متطلبات الحياة في هذا العصر الزاخر بالنشاط والحركة والتغيُّر وإلا فسوف ننحدر إلى حضيض الإفلاس فلا مكانة لأي مجتمع الآن إلا بمقدار قدرته على تنمية الطاقة الإنسانية واستثمارها الإستثمار الأرشد أما إعجابي بحضارة العصر فلا أُنكره إنها حضارة تستحق الإعجاب الشديد بل إن الإعجاب يبقى مقصِّراً في حقها مهما بلغ وليس التخلف الفظيع الذي تعيشه بعض الشعوب سوى النتيجة الحتمية لرفض هذا الفيض الزاخر من الأفكار والرؤى والآليات والإحتماء بالإنكار والتجاهل والمكابرة. . .

■ **لتعجب ما شاء لك ولكن ليس على حساب الغير؟**

ـ إنه لحساب أمتي وليس لحساب الغرب فهذا الغرب يواصل إزدهاره ولا يهمه ماذا نقول عنه إيجاباً أو سلباً لذلك فإنني استنهض أمتي لتكُفَّ عن المكابرة ولتعرف أن أبواب الممكنات قد انفتحت من دون حدود وأن أبواب المحالات قد أُغلقت أو تقلَّصت بينما نحن العرب مازلنا مأخوذين بمفاهيم وممارسات الإقتصاد الريعي وهو اقتصادٌ قد ولَّى إلى غير رجعة لقد صارت قابليات الإنسان في اكتساب المعارف والمهارات في شتى المجالات هي أعظم الثروات فراحت الأمم والشعوب تتسابق نحو القمة مستثمرة هذه الثروة العظيمة المتجددة بينما أننا نحن العرب مازلنا غير مقتنعين بنقطة البداية ولا مؤمنين بصحة الاتجاه فنحن نسير عكس اتجاه التاريخ المعاصر مما أبقانا خارج حلبة السباق العالمي فليس أعجز من أمة غير قادرة على الإبتكار ابتداءً وعاجزة عن التدارك وتقليد المزدهرين لاحقاً فأبواب الإزدهار ليست مغلقة عن أحد ولكنها مفتوحة لكل الأمم وآفاق النماء متاحة لجميع

الشعوب وأداةُ هذا النماء هو الإنسان بتفكيره الحر وعواطفه الجياشة وبمعارفه النامية ومهاراته الدقيقة وإخلاصه الصادق ففتوحات الغرب ليست قَصْراً عليه وإنما هي متاحة لكل الأمم فاليابان أدركتْ قصور ثقافتها وتعرَّفتْ على أسباب إزدهار الغرب فعالجتْ قصورها الثقافي بسرعة وفاعلية ومن غير أي مكابرة أو حَرَج وتخلَّت عن الإنغلاق وأخذتْ بأسباب إزدهار الغرب من دون أن تُفرِّط في شخصيتها اليابانية فلم تكابر ولم تتوهم الكمال ولم تزعم الإكتفاء وإنما أعلنتْ بكل وضوح أنها كانت تفتقر إلى مقومات التطور وأن عليها أن تتعرَّف على هذه المقومات التي تَمَيَّز بها الغرب وبذلك استطاعت أن تَلحق به وأن تُزاحمه وأن تقف أمامه ندًّا له وأن تسبقه في الكثير من المجالات!!! فإعجابي بالغرب ليس على حساب الغير كما تقول وإنما هو عكس ذلك تماماً فهو لحساب هذا الغير (الذي هو نحن) لئلا يظل عالة على منتجات غيره فهو الآن يستهلك ولا ينتج فمصلحة الغرب أن نبقى مستهلكين وغير منتجين لنظل سوقاً مفتوحاً لمنتجاته مادامنا نملك المال الذي أغدقته علينا أرضنا من مخابئ البترول في باطن الأرض أما إذا نضب هذا المخزون فسوف نواجه الحقيقة الفاجعة فنجد أننا قد استنزفنا مخزون أرضنا وبنينا حياتنا على مصدر ناضب ولم نُوجد المصدر البديل أيام وفْرة المال مع أن هذه الصحراء التي كانت خالية من الناس خلال القرون هي الآن قد امتلأتْ بالمدن واكتظت بالسكان وتعاظمت فيها المسؤوليات والتكاليف فتوفير مياه الشرب وحده يحتاج إلى ميزانية ضخمة فكيف سيكون المصير بعد توقف عائدات النفط؟!!! فإظهار الإعجاب بالغرب ليس هدفه تبجيل الغرب أو تحقير الذات وإنما هو اعترافٌ بالحقيقة الناصعة وتحليلٌ لأسباب الإزدهار وتعريةٌ لعوامل

التخلف أما الغرب ذاته فلا يهمه ماذا نقول عنه ولا يفيده أن نشيد به ولا يعنيه أن نعترف بتقدمه فهو ينتقد نفسه بأشد صور النقد ويرى أن التبجيل يخدِّر الأمم أما النقد فيحركها ويصنع فيها عوامل الفاعلية فهو لن يرحب بإعجابنا به بل من مصلحته أن نبقى في العمى ليبقى هو المنتج وهو المسيطر ونظل مجرد مستهلكين وسوقاً مفتوحة ونهمة وجائعة لبضائعه ومنتجاته فما أدعو إليه هو أن نتعرَّف على نقائصنا وندرك مزايا الآخرين وأن نتخلى عن أوهامنا وأن نُعَرِّي أسباب تخلفنا وأن نكتشف عوامل تقدُّمهم فنأخذ بها وأن نتجاوز هواننا وأن ننعتق من خطوط الدوران التي تُمسك بنا وأن نعترف بقصورنا وأن نجتهد لنتجاوز هذا القصور كما فعلتْ اليابان والصين وغيرهما بل كما فعلتْ بلدان صغيرة مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وأن نربأ بأنفسنا عن جحد الحقائق فلا نتعامي عن الزخم الهائل من روائع الإنجاز وأن نُنصف الأمم التي حققت الإزدهار لنفسها فلم تتكتَّم ولم تحتكر وإنما أشركتْ العالم بنتائج هذا التقدم فصار العالم كله ينعم بمنجزاتها بل وقدَّمت له من المعارف ومهارات الأداء وأساليب توظيف الأموال والأعمال ما أتاح له أن يزاحمها في الانتاج ويقاسمها الأسواق إن نقد الذات الكليلة هو مفتاح تحريكها وتغييرها نحو الأفضل أما تمجيد النفس المتخلفة البليدة الراسفة في القيود فهو ترسيخٌ للتخلف وتأكيدٌ للأصفاد وطمسٌ لقابليات التألق إن التخلف واقعٌ مشينٌ فينبغي أن نسخط عليه ونتخلَّص من أسبابه . . .

■ **ليكن . . ولكن أستاذ إبراهيم هل يمكن أن تلخص لنا سبب إعجابك بالحضارة الغربية في نقاط كي نستطيع وضع قاعدة للتحاور؟**

ـ ليس سبباً واحداً وإنما ألف سبب كلها تدفعني إلى الإعجاب الشديد بالغرب وتأكيد امتيازه المطْلق في كل شؤون الدنيا وأَهَمُّ هذه الشؤون هو الإنسان الفرد ذاته الذي مارستْ عليه الثقافات خلال القرون ضغطاً ماحقاً وألحقتْ به من الغبن والإمتهان والتهميش وعدم الاعتبار ما أفسد قابلياته وعطَّل قدراته وحَجَبَ الإمكانات المتاحة له وأسوأ من ذلك كله أنها برمَجَتْه بأن يغتبط بما مَلأَت به رأسه من ضلالات وما راكمتْ فيه من أوهام ومارَبَّتْهُ عليه من أحقاد وتحيزات وما صاغت به عواطفه وما شكَّلَتْ عليه أخلاقه وما وجَّهَتْه إليه من اهتمامات تستنزف طاقته فيما يضره ويُرسِّخ هوانه إن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة التي حررت الإنسان من أوهامه وخَلَّصَتْهُ من أصفاده واعترفت بفرديته ووفَّرت له الإمكانات والفرص لبناء ذاته وهيأت له الأسباب لتحقيق طموحاته وأَنْسَنَتْ السلطة وأقامت العلاقات الإنسانية على الإقناع وليس على الإخضاع وأنهتْ استرقاق الإنسان الذي كان يباع كما تباع البهائم!!! ووضعتْ من الآليات ما يكفل المساواة النسبية ويحقق العدل النسبي ويمنع الجور الفاضح ويستسخف العدوان وهذا لا يعني أنها حضارة من دون نقائص بل هي مليئة بالنقائص لكنها أعظم ما توصَّل إليه الإنسان في تجاربه الكثيرة خلال التاريخ الطويل فقد ظلَّت البشرية آلاف السنين وهي مكبلة بالاستبداد السياسي والإنغلاق الثقافي ومرتهنة بالعجز والفقر والظلم والمرض والتعاسة إن الحضارة المعاصرة حضارة استثنائية وليست امتداداً للحضارات القديمة باستثناء الحضارة اليونانية التي هي منبعها وقد أنجزتُ كتابا عن هذه الطفرة الحضارية العظيمة الاستثنائية بعنوان (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) إن حضارة الغرب نتاج ذاتها وليست مدينة لأية حضارة سابقة باستثناء الحضارة

اليونانية التي هي امتدادٌ لها وإحياءٌ لفتوحاتها في مجالات الفكر والعلم والأدب والسياسة والإجتماع واحترام الإنسان وتمجيد العقل والاعتراف مع ذلك بقصوره وأوهامه والتأكيد على حاجته الدائمة إلى النقد والمراجعة والتصحيح . . .

■ **ولا لأي حضارة سابقة كالحضارة الاسلامية؟**

ـ نعم إن حضارة العصر ليست مدينة لأية حضارة سابقة من غير استثناء لكن يجب التذكير بأننا هنا نتحدث عن المنجزات الدنيوية حصراً وليس عن العلوم الدينية المحضة ولا العلوم المساندة التي هي لخدمة الدين وقامت من أجله كعلوم اللغة وغيرها من العلوم العظيمة التي قامت لخدمة الدين فنحن المسلمين نملك تراثاً عظيماً فخماً لامثيل له كحضارة دينية أما تنمية الدنيا والتخطيط لهذه التنمية وَوَضْع البرامج لهذا الهدف فلم تكن ضمن اهتمامات حضارتنا ولا أية حضارة قديمة في الشرق فقد خرج العرب إلى العالم دعاة لا بُناة فنحن كنا أمة دعوة ولم نكن أمة تنمية فأنجزنا في مجال الدعوة مالم تنجزه أية أمة أخرى: ضخامة وعمقاً واتساعاً وتفصيلا واستمراراً وتواصُلاً ولكن قضايا التنمية لم تكن همًّا من هموم حضارتنا ولا من اهتمامات أية حضارة قديمة في الشرق فالتنمية ابتكارٌ غربي محض إن الحضارة الغربية تأسَّسَتْ في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد ونضجت في القرن الخامس قبل الميلاد ثم بتأثير الشرق توقَّفَتْ في العصور الوسطى ثم استأنفتْ مسيرة الصعود في عصر النهضة وفي العصر الحديث وعمَّتْ خيراتها كل الأمم فهي في أمور الدنيا ومنجزاتها وحُسْن إدارة هذه المنجزات وإنمائها هي حضارة استثنائية بكل ما يعنيه الإستثناء من امتياز وتفرُّد وجدَّة فليست

مدينة لأية حضارة أخرى وإنما هي نتاج ذاتها إنها ذات مكوِّنات وخصائص تختلف بها عن كل الحضارات السابقة واللاحقة إنها نتاج الفكر الفلسفي الذي أبدعه اليونانيون فقد اعتمد الأوربيون على هذا الفكر خصوصاً منه الجانب التحليلي النقدي المفتوح على المراجعة الدائمة والتصحيح المستمر فَحَفَزَ قابلياتهم وطوَّر قدراتهم ومكَّنهم من إنتاج المعرفة الموضوعية التي تعترف بالقصور فتبقى مفتوحة دوماً للمراجعة والتصحيح والارتقاء إن الثقافة اليونانية قد أنجزت ابتكار الفلسفة بما تعنيه من اعتراف بالجهل أولاً ثم ماتعنيه من تأمل عميق وانفتاح مطلق ونقد لاذع وإدراك لصعوبات التحقُّق وما يستلزمه ذلك من مراجعة فاحصة مستمرة واعتراف بقابليات الإنسان للتلبس بالأوهام ككائن تلقائي مقلِّد وذاتي التفكير ما لم يخرجه الفكر النقدي من هذا التقليد التلقائي ومن هذه الذاتية التلقائية...

■ **يا رجل بعض المفكرين الغربيين كتبوا نصاً أن الحضارة الغربية امتداد لحضارات سبقتهم؟**

- لستُ أنكر ذلك فلقد أسهم روادنا العظام مثل ابن رشد والخوارزمي والكندي والرازي وابن سينا والفارابي وابن النفيس وابن الهيثم وغيرهم في إيقاظ الغرب من السُّبات الذي طرأ عليه بتأثير الشرق في القرون الوسطى لكن أولئك الرواد العظام الذين أسهموا في إيقاظ أوربا حاربناهم نحن ولم نستجب لهم فحين نفخر بهم نتجاهل أن النهضة تطير بجناحين: جناح الريادة وجناح الإستجابة فقد ظهر عندنا في مختلف العصور مفكرون عظام كانوا رواداً في عصورهم لكننا خذلناهم ولم نستجب لهم فنحن لانستجيب لروادنا ونخذل مفكرينا

فوجودهم بيننا هو إدانةٌ لنا وليس سبباً في المفاخرة فالتذكير بهم لايخدم القضية التي تريد أنت إثباتها بل العكس هو الصحيح فإذا كان روادنا بلغوا من شدة التأثير أنهم قد أيقظوا أوربا من سباتها الثقافي وهم بعيدون عنها فكيف أنهم لم يستطيعوا أن يوقظوا المجتمعات التي عاشوا فيها وخاطبوها من داخلها وألحُّوا عليها؟!! هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فإننا حين نراجع أسماء الفلاسفة والعلماء المسلمين الذين نفاخر بهم ونوّه الغربيون بفضلهم على الغرب من أمثال ابن رشد وابن الهيثم وابن سيناء والفارابي والرازي والخوارزمي وأمثالهم نجد أنهم جميعا قد تتلمذوا على الثقافة اليونانية وكانوا أفذاذاً منا لكنهم كانوا خارج نسقنا الثقافي السائد وكانوا وما زالوا غير معترف بهم في ثقافتنا بل لقد أحرقنا كتبهم وضيَّقنا عليهم وحذَّرنا منهم ومازلنا ننظر إليهم بالريبة والاشمئزاز إنهم عظماء لكنها عظمة فردية تُنسب إليهم ويدان بها مجتمعهم الذي رفَضَهم فكيف نفخر بأفراد نحن لم تكتف بعدم الاستجابة لهم وإنما استبعدناهم وأنكرنا فكرهم وتربَّينا على كُرههم والحَذَر منهم والابتعاد عن آرائهم والبراءة منهم وممن يحبهم؟!!!

أما في مسألة التطور الحضاري فيوجد اتجاهان: اتجاهٌ قديم يرى أن الحضارة نتاجٌ تراكميٌّ وهذا اتجاهٌ تنقضه حقائق التاريخ أما الاتجاه الآخر فهو الإتجاه الجديد المعاصر الذي يرى أن الكم لايتحول إلى كيف أبداً إلا بطفرة استثنائية وهذا الاتجاه هو الاتجاه الصحيح المقنع الذي التزم به فالكم لا يمكن أن يتحول تلقائيا إلى كيف أبداً وقد دلت التجارب الإنسانية بأن التقدم لا يتحقق إلا بنهضة فكرية تهيء المجتمع للنهوض الشامل وهذا لايمكن تحقيقه إلا بالريادة الفكرية والإستجابة لها فلا بد من المرور بمخاضات عسيرة تعيد تركيب البنية الثقافية بشكل يسمح لها

بالإنفتاح والنمو والتغيُّر وإعادة التكوين والإزدهار إن تجارب الشعوب في القديم والحديث تؤكد أن التقدم لايتحقق إلا بالريادة الفكرية والإستجابة لها فالمجتمعات التي تتوهم كمال ثقافتها من طبيعتها أنها لاتقبل النقد ولا تعترف بالنقص فتحارب الريادات الفكرية ومن هنا يصبح محالاً أن تتقدم. . .

إن الحضارة الوحيدة التي كانت تملك مقومات الصعود الدائم هي الحضارة الغربية بأساسها اليوناني العريق والمتين وتكوينها المعاصر المدهش لأنها تملك آليات النقد والحفز والمراجعة والاعتراف بعدم الاكتمال وقد سار اليابانيون على نفس النهج فتقدموا لأنهم اعترفوا بالقصور وسعوا إلى تغذية ثقافتهم من خارجها إنهم يتغذون من كل الروافد ويستمطرون كل السحب ويهضمون كل ذلك في عقولهم ويدمجونه في دمائهم ويتشبعون به عاطفيا دون أن يؤثِّر على حبهم لليابان أو ينتقص من ولائهم المطْلق له إن ثقافة الغرب تبدأ بتأكيد أصالة الجهل وأولوية الوهم ثم تعمل جاهدة للتغلب النسبي على الجهل المركَّب ومقاومة الوهم المتأصِّل في الثقافات البشرية إنها تؤمن باستحالة امتلاك الحقيقة المطلقة كما تؤمن بأن الكمال البشري محالٌ فعلى الإنسان أن يسعى جاهداً إليه مع الإعتراف التام باستحالة بلوغه لذلك فإنها الحضارة الوحيدة التي هي في حالة نمو دائم ومراجعات مستمرة وتصحيحات لاتتوقف وكشوف متصلة وقلَّدتها في ذلك أممٌ أخرى كاليابان وكوريا الجنوبية والصين في عهدها الجديد أما الحضارات القديمة فكانت ذات ثقافات مغلقة وكلٌّ منها كانت تدعي الإكتمال والإكتفاء واحتقار كل ماهو غير مألوف فيها فتصاب سريعاً بالشيخوخة والهرم لأنها لاتتلقى تغذية من خارجها فتتآكل إنها كانت

تشبه حياة الفرد: حمل ثم ولادة ثم نمو ثم استقرار ثم شيخوخه وتدهور وموت ولم تكن تحصل في الحضارات القديمة إضافات نوعية تُغيِّر مسيرة الحضارة وإنما كل حضارة تبدأ من حيث بدأت التي قبلها وتنتهي بنفس النهاية...

■ **ولكن على أنقاضها وتتم ما بدأته؟**

ـ كل الحضارات القديمة كانت ريعيَّة وغير تنموية فهي لاتعرف إمكانات ولا أساليب نماء الثروة إلا بما تأخذه من غيرها لذلك لم تكن تسعى لإنتاج جديد فالفكر التنموي فكرٌ أوربي محض ففي العصور القديمة كان القوي يأخذ مالدى الضعيف وكان المتوحش يغزو المتحضِّر فيستولي عليه وعلى أرضه ومايملكه ويحيله إلى رقيق يباع ويُشترى كما تُباع البهائم وكان عنصر الانتقام مسيطراً فكل حضارة كانت تهدم التي قبلها ثم تعيد بناء ما هدمتْه ثم لا تضيف إضافات نوعية تتحقق بها وثبة حضارية وإنما تهجُم القبائل غير المتحضرة على المجتمعات المستقرة المتحضرة نسبيا فتستولي على السلطة وتهدم وتدمِّر وتعيد الأوطان إلى نقطة الصفر ثم تبدأ في النشوء ثم ترتقي إلى مستوى الاستقرار فتتوفَّر أسباب الرخاء والترف لأهل السلطة ثم تبدأ عملية الانحدار وتنتهي بالسقوط من غير أن تضيف إضافات نوعية تتغيَّر بها مسيرة الحضارة وكانت الدول أيضا يغزو بعضها بعضاً وكل غاز يزيل آثار الذي قبله ويحاول أن يمحو أمجاده ومفاخره فكانت الحضارات القديمة سلسلة من البناء والهدم والتدوين والمخو وهكذا كانت البشرية ترتقي نسبيا ثم تسقط ويتكرر المشهد على نفس الوتيرة حتى جاءت الحضارة المعاصرة ذات التكوين المغاير فحققت النمو المستمر والصعود الدائم حتى بات

المحصول المعرفي والتقني للإنسانية يتضاعف كل بضع سنوات فيتحقق في سنة واحدة ما لم يكن يتحقق في قرون!!! فنحن إذن أمام حضارة جديدة استثنائية تختلف عن أي حضارة سابقة أما تغييب هذه الحقيقة العظيمة الدافقة عن أذهان أجيالنا فإنه بالغ الضرر لأنه أبقانا متخلفين كما كنا وحَرَمنا من إمكانات الإزدهار الجديدة التي استخدمها الآخرون فازدهروا. . .

■ **هذا الانبهار الكامل منك بهذه الحضارة؟**

ـ إن الهجاء الدائم لحضارة الغرب والتهوين من شأن التغيرات النوعية الهائلة التي طرأت على الحضارة الإنسانية قد أوهم المتخلفين بأنه لاينقصهم علمٌ ولا مهارة وبأنهم يمتازون عن غيرهم بما ورثوه وما اعتادوا عله مما صدَّهم عن التعرف علىٰ أسباب تخلفهم وحَجَبَ عنهم مقومات الإزدهار الطارئة وهذا التعامي عن حقائق الواقع يؤكد أن برمجة العقل بالأوهام تعميه حتى عما هو بالغ السطوع إن أضواء الحضارة المعاصرة شديدة السطوع إنها باهرة فلا يتجاهل سطوعها إلا العميان أما الذي يملك بَصَراً وبصيرة فلا بد أن ينبهر بها إننا نسيء لكلمة (الانبهار) بسوء استخدامنا لها إن الانبهار استجابة طبيعية تلقائية للضوء الباهر أو الجمال الفاتن إن الانبهار إدراكٌ للروعة وانجذابٌ للجمال واعتراف لأهل الفضل بالفضل ولأهل الإبداع بالإبداع فهل كانت أية حضارة سابقة تحلم بما تحقق من كشوف مذهلة وعلوم دقيقة وتقنيات بالغة التعقيد والروعة وهل كان السابقون يتخيلون فتح صدر الإنسان أو رأسه وإجراء العمليات الدقيقة وترميم القلوب وتنظيف الأدمغة؟!!! وهل كانوا يتخيلون التعمق في الخلية الحية واكتشاف تكوينها المذهل ومعرفة

خرائط الحياة بأدق التفاصيل وأعجب الكشوف!!!؟ وهل كانوا يتخيلون الطائرة والسيارة والهاتف والتلفزيون والكمبيوتر والأنترنت ومالا حصر له من منجزات هذه الحضارة؟!!! وهل تريدنا أن نعود فنكتب على الجلود والبردي ونكتب بالعيدان وننسخ الكتب بخط اليد ونركب الحمير ونتعالج بالكي ونستضيء بإيقاد النار؟!!! إن الجدال حول قضايا بمثل هذا السطوع والوضوح يشهد على أن الإنسان إذا تبرمج على شيء فإنه يصير أعمى البصر والبصيرة وأن كل الحقائق الساطعة مهما تكاثفت غير قادرة على إقناعه أو تغيير موقفه أو تعديل تصوراته!!!؟

- **عفواً عفواً.. لم يطلب منك أحدٌ أن تعود لعهد الحمير. لكن المطلوب فقط هو العدل والاتزان في التقييم التاريخي. أنت الآن تقول: إنك تريد (الاعتراف لأهل الفضل بالفضل). لكنك في الواقع جحدتَ كلَّ فضل كان موجوداً قبل الحضارة الغربية. ففي حين يتفق الجميع (شرقيهم وغربيهم) على أن المنجزات البشرية ذات طابع تراكمي، نجدك تلغي هذه القاعدة البدهية حين يتحدث عن المنجز الغربي.**

- عاشت البشرية آلاف السنين وهي تجتر نفس الأفكار وتعيش نفس الأوضاع وتستخدم نفس الوسائل والأدوات وكان ممكنا أن تستمر إلى الأبد لولا بزوغ الفكر الفلسفي في اليونان في القرن السادس والخامس قبل الميلاد إن التقدم الحضاري بمستواه الحالي لا يمكن أن يتحقق بالتراكم وإنما هو نتاج ثوارت عظيمة في مجالات الفكر والعلم والسياسة والإجتماع والعمل فالإنسان كائنٌ تلقائي وهو كائنٌ مقلِّد ولا يخرجه عن رتابته التلقائية سوى صراع الأفكار وتوفُّر الحريات وتكافؤ الفرص وتعدُّد الخيارات وأكبر دليل على ذلك أن الكثير من الشعوب في

الوقت الحاضر تعيش في دَرَكات التخلف رغم تعميم التعليم وتوفر العلوم والتقنيات والأفكار إنهم يشاهدون تجارب الإزدهار حية أمام الجميع ورغم كل ذلك عجزتْ هذه الشعوب المتخلفة عن مبارحة خنادقها والإنفكاك من أغلالها أي أنها لم تستطع تقليد ومحاكاة المزدهرين فهي إذن أشد عجزاً عن الابتكار والمبادرة. . .

■ **يا أستاذ إبراهيم، هنا سؤال مفصلي في سجالنا، هل مفهومك للحضارة هو في جانبها المادي فقط؟**

ـ أهم ما أنجزته الحضارة الغربية هو أَنْسَنَة السلطة وقَلْب العلاقة بينها وبين الأمة وتوزيع السلطات وإيجاد التوازن بين أركانها وضبط العلاقات بالقانون وتحديد الأدوار بالدستور إن الحضارة الغربية قد جعلت الأولوية في الاعتبار للإنسان الفرد فطوَّعَتْ مؤسساتها وقوانينها وإجراءاتها ورؤاها لهذا الاعتبار المبدئي أما في الحضارات القديمة فلم يكن الفرد أكثر من خلية في جسم أو تُرساً في آلة فقد كان الحاكم في العصور القديمة لا يُسأل عما يفعل بل كان أحياناً يدعي الأولوهية فيخنع له الناس كمافعل فرعون وغيره وكانت السلطة مطلقة وكان شاغلوها أهم من الأمة بأكملها فكانت الأمة تابعة للحاكم أما الآن فإن الحضارة المعاصرة صحَّحَتْ هذا الوضع الفظيع المقلوب وأعادت الاعتبار للأمم فالشعب يختار حاكمه ويختار ممثليه ويحدد صلاحياتهم كما يحدد مدة بقائهم فالسلطة باتت مجرد وظيفة مؤقتة وهذا أعظم تطور في التاريخ البشري إنه أعظم من التحكم بالطاقة الذرية ومن غزو الفضاء ومن الوصول إلى القمر وأهم من أي إنجاز مادي أو تقني أو علمي إنه الفارق النوعي الحاسم بين الإزدهار والتخلف. . .

■ **ترساً في آلة؟! حتى الحضارة الإسلامية فعلت هذا؟**

ـ يجب التفريق الحاسم بين الإسلام ذاته وبين ما يمارسه الناس باسمه إن مبادئ الإسلام العظيمة وتعاليمه السامية التي أكدت قيمة الإنسان وفرضت احترامه لم يُتح لها خلال التاريخ أن تتوطد فمنذ انتهاء الخلافة الراشدة أصبحت فردية الإنسان في التاريخ العربي مطموسة فقد ارتبطت قيمة الإنسان بانتمائه السياسي أو المذهبي أو الإقليمي أو العشائري أما الإنسان الفرد فلا قيمة له إلا بمقدار قربه من السلطة أو انتمائه لهذا المذهب أو ذاك أما الحضارة الوحيدة التي اعترفت بالإنسان الفرد واحترمت خياراته وحوَّلت المبادئ إلى واقع معاش كأسلوب حياة فهي الحضارة الغربية وحْدَها إن التعاليم العظيمة التي جاء بها الإسلام ثم لم يعشها الناس في واقع حياتهم لم تترك أثراً دائماً وتلقائيا في نفوسهم فالسلوك في أي مجال ليس نتاج التعاليم وإنما هو نتاج الممارسة والمعايشة لأنه لابد أن يكون انسياباً تلقائيا فالإنسان كائنٌ تلقائي ولا يؤثر فيه إلا ما كانت الاستجابة له تلقائية فالإنسان يعتاد على مايعيشه ويمارسه ويكرر فعله ولا يؤثر فيه إلا ماداوم على فعله. . .

■ **ما ترمي به من أوصاف على امتداد تاريخنا العربي؟**

ـ نعم كل التاريخ العربي باستثناء فترة الخلافة الراشدة وفترات متقطعة كفترة عمر بن عبد العزيز ينطبق عليها هذا التشخيص المأساوي فلا يجوز أن نخلط بين مبادئ الإسلام السامية وتعاليمه العظيمة وبين تاريخنا المليء بالأخطاء والتجاوزات والمآسي فعندما انتصر العباسيون على الأمويين فرشوا البُسط على القتلى وراحوا يأكلون فوق الجثث

إمعاناً في الانتقام والتشفي وحين انتصر المأمون على أخيه الأمين سلَخَ جلده كما يُسلخ الخروف!!! ويتكرر المشهد في التاريخ العربي على امتداده فالسلطة هي القيمة المحورية في الثقافة العربية ففي هذا العصر تلاحقت الثورات في العالم العربي نزاعاً على السلطة وليس محاولة للتغيير نحو الأفضل بل اللاحق يكون أسوأ من السابق...

■ **أستاذ إبراهيم، ألم تقرأ في تاريخ أمتك عن مئات العلماء الذين كان لهم ثقلٌ وشأنٌ، وسيرتهم تدرس إلى اليوم، مع أنهم لم يملكوا سلطاناً ولا عشيرة ولا انتماء مذهبي ولم يكن لهم قيمة إلا بما حملوا من علمٍ؟!**

- هذا كلامٌ عامٌ ليس له رصيدٌ من الحقائق فالتاريخ في كل فتراته عدا فترة الراشدين كانت توجهه السياسة فحين سيطر الفاطميون على مصر وشمال أفريقيا صارت ذات طابع شيعي وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين طارد كل شيء له علاقة بالتشيُّع ونجد العكس تماماً حين حوَّل الصفويون إيران إلى التشيُّع مما جعل العثمانيين ينحون منحى معاكساً وهكذا فالتاريخ العربي أو الإسلامي بمعناه الأوسع ليس تجسيداً لتعاليم الإسلام العظيمة وإنما هو نتاجُ التقلبات السياسية إنه سلسلة من تطويعات الثقافة لأهواء البشر...

■ **دعني أتوقف معك هنا، أنت تمارس انتقائية عندما تختزل التاريخ الإسلامي بالتاريخ السياسي للأمة الإسلامية والتاريخ السياسي رغم ما فيه من مآسي إلا أنه ليس بتلك الدرجة التي تضخمها وتتناسى في المقابل التاريخ العلمي والجاد للأمة والبعد الحضاري في التاريخ الإسلامي الذي نقل الناس إلى أبعاد مدنية عظيمة في الوقت الذي**

كانت أوروبا ترزح فيه تحت حكم الإقطاع والكنيسة والجهل والتخلف.

ـ نحن نتوارث مسلَّمات ثابتة عن تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى من دون أن نقرأ تاريخنا قراءة نقدية فاحصة ومن غير أن نقرأ تاريخ الآخرين بموضوعية وإنصاف فالحضارة اليونانية الباهرة ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد وبلغت ذروة إزدهارها في القرن الخامس قبل الميلاد أي أن الحضارة اليونانية ظهرت قبل الحضارة الإسلامية بقرون وكانت الفلسفة اليونانية هي المصدر الذي استمد منه الفلاسفة المسلمون فلسفتهم فالأفراد العظماء الذين نفاخر بهم أحيانا من أمثال ابن رشد وابن الهيثم والرازي والكندي والخوارزمي والفارابي وأمثالهم كانوا تلامذة للفكر اليوناني لقد كان ورُوَّداً باهرين وخارقين لكن مجتمعاتنا لم تستجب لهم لأنها اعتبرت أفكارهم جاءت من خارجها فَرَفَضتْهم وحاربت أفكارهم فحضارتنا هي حضارة دينية وفقهية إنها مستغرقة بتفاصيل ما يجب على المسلم أن يفعله وما يجب أن يكفَّ عنه في علاقته مع الله وتفاعله مع الآخرين وهذه مهمة عظيمة وتستحق التبجيل لأن الدين محور الحياة ولبُّ الوجود وغاية الخلق لكن يجب أن نعترف بأن انجازاتنا إنحصرت في هذا المجال العظيم فلا ندعي أيضا بأن الغرب اقتبس منا أنواره الدنيوية فهو قد استعاد وهجه الفكري من أفراد منا كانوا روداداً باهرين لكننا لم نستجب لهم ورفَضْنا ريادتهم وحاربناهم وأولئك الرواد الأفذاذ كانوا امتداداً لثقافة اليونان وخارج نسقنا الثقافي إن الغرب حين يعترف بفضل العرب عليه ويشيد بدورنا الحضاري إنما هو يشير إلى أولئك الأفراد الأفذاذ الذين رفضتْهم بيئتهم ثم استجابت لهم أوربا فتقدمت وهم يستحقون التبجيل ولكن بوصفهم أفراداً خارقين وخارج النسق

الثقافي العربي الذي عاشوا فيه فهم كما كانت تصفهم ثقافتنا نوابت ضارة يجب إجتثاثها لذلك كان أثرهم في ثقافتنا معاكساً لما أرادوه لأن ظهورهم حَفَزَ خصومهم إلى مضاعفة المتاريس وتأصيل كراهية العقل والخوف من الفكر الحر والتحذير الدائم من الفلسفة فأصبح ذلك كله من السمات الأساسية في ثقافتنا خلال القرون التالية وما زال كُره الفلسفة والتوجُّس من العقل من أبرز سماتنا الثقافية وهذه خسارة فادحة كان من نتائجها أننا أمضينا أكثر من قرنين منذ اصطدامنا المباشر بحضارة الغرب ونحن نتحدث عن التنمية لكننا كعرب مازلنا في ذيل القافلة البشرية بينما نرى الأمم الأخرى كاليابان وكوريا الجنوبية والصين والهند وغيرها تتخلَّص من الركود وتتخفَّف من العوائق وتنطلق في مسيرة الإزدهار حتى أصبحنا نشازاً بين مجتمعات الأرض ولا يشاركنا في هذا الوضع المأساوي سوى بعض المجتمعات الأفريقية!!!...

- **إن ثقافتنا كانت وما زالت مستغرقة بمسائل الحلال والحرام والكفر والإيمان لأنها أساساً حضارة دينية لقد خرج العرب من جزيرتهم دعاة إلى دين الله الحق وظلوا أوفياء لهذه المسؤولية العظيمة حتى حين تكون الدولة غير عربية كالدولة العثمانية تبقى ملتزمة بهذا الإهتمام المحوري...**

كونهم تتلمذوا على الحضارة اليونانية، فهذا ليس عيباً. فهكذا هي الحضارات الناشئة، تستفيد من الحضارات السابقة، وتبني عليها؟، فهل كان المطلوب من هؤلاء أن يلغوا منجزات اليونان، ويبدأوا من الصفر؟

ـ لست أعترض على التتلمذ إنهم رُوَّادٌ عظماء بل إن عظمتهم

مضاعفة لأنهم ظَهَروا في بيئة غير مواتية بل معادية لاتجاههم مما يؤكد أنهم يملكون قدرات ريادية خارقة وباهرة إنما أردت أن أوضح أنهم ليسوا نتاجنا فأولئك الأفراد الأفذاذ لم يكونوا نتاج الثقافة العربية وإنما كانوا نتاج الثقافة اليونانية فهم بالنسبة لنا خارج نسقنا الثقافي فتعامَلْنا معهم على أساس أنهم نوابت غريبة فعملنا على استئصالهم كما تُستؤصل النباتات الضارة من الحقول فلا يحق لنا أن نفخر بهم مادمنا قد رفضناهم وحاربنا أفكارهم ومن ناحية أخرى فإن استفادة أوربا منهم هي من نوع بضاعتنا رُدَّتْ إلينا لأنهم امتدادٌ للثقافة اليونانية التي هي مصدر حضارة الغرب برمتها...

ـ ٢ ـ

مكاشفات إبراهيم البليهي ـ الجزء الثاني

في ثاني مكاشفاته مع ملحق (الدين والحياة) قال المفكر السعودي إبراهيم البليهي إنه يُعَبِّر من خلال نقده عن ألمه الشديد من هذا الهوان الفظيع الذي يعيشه العرب والمسلمون ويتطلع بحرقة إلى اليوم الذي ننعتق فيه من أوهام الامتياز التي أقعدتنا في سراديب الجهل والفقر والهوان والهامشية والتخلف وأضاف: إن الغربيين موضوعيون في البحث العلمي لكن لديهم حساسية أخلاقية شديدة في التعامل مع ثقافات الآخرين ودائماً مايعطونها أكثر مما تستحق كموقف أخلاقي وقال البليهي إن الإسكندر قام بالمغامرة الكبرى في فتح العالم لأنه كان مقتنعاً بعظمة الفكر الفلسفي اليوناني وبروعه ورقي الثقافة اليونانية وبأنه يمكن بها إزالة أسباب الاقتتال الدائم بين الشعوب وإلى تفاصيل المكاشفات:

- **ألا ترى أن إعجابك الشديد بحضارة الغرب بمثابة ثورة على ذاتك لأنه يتناقض مع تكوينك الثقافي وخلفيتك التعليمية فأنت وُلدتَ وعشتَ في القصيم ودرستَ في المعهد العلمي وتخرجتَ من كلية الشريعة بالرياض وأول مؤلفاتك كان عن سيد قطب فما الذي جعلك تتحول كل هذا التحول؟**

- كنت منذ وقت مبكر جدا من حياتي ومازلت أحمل همَّ التخلف وأبحث عن أسبابه وأحرص بأن اعرف عوامل الخلاص منه ففي مرحلة الشباب اقتنعتُ بأطروحات سيد قطب رحمه الله ثم تبين لي أنها أطروحات حالمة وغير عملية ولا يمكن أن تستجيب لها طبيعة البشر ولا تملك مقومات النجاح بل إنها تصدُّ عن الأخذ بهذه المقومات وبالبحث الطويل والقراءات المتنوعة والتأمل العميق والمقارنات الشاملة بين الحضارات وأوضاع الشعوب والأمم لقد قلَّبْتُ الأمر على كل الوجوه فتوصَّلتُ إلى رؤيةٍ مختلفة جذريا إننا معاً نريد خلاص الأمة من التخلف لكنني لم أعد أتفق معه في تشخيص الخلل ولا في وسائل علاجه فليس في ذلك أي تناقض فأنا مسلمٌ أعتز بإسلامي وأحرص على أن يكون أهله في الذروة بدلاً من أن يبقوا في الحضيض إن غيرتي على الإسلام وحبي للمسلمين هي التي جعلتني أَكُدُّ كل هذا الكّد لأعرف أسباب تخلفنا وعوامل إزدهار غيرنا إن الوضع المزري الذي يعيشه المسلمون في دولهم التي قاربت الستين لايليق بأمة أراد لها الخالق سبحانه وتعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس أما كتابي عن سيد قطب رحمه الله فقد أعددته في فورة الشباب فهو بحثٌ جامعي وكنت آنذاك على تخوم المراهقة فشدَّني سيد قطب بثورته العارمة وثقته الصارمة وأسلوبه الأخَّاذ واقتناعه القوي لكنني بعد التعمق إكتشفت خطأ تشخيصه للداء وعدم ملاءمة الدواء الذي يصفه فبقيتُ أحترم صدقه وإخلاصه وتضحياته وعمق إيمانه وشدة حرصه على مصلحة الأمة غير أنني اقتنعت تماماً أن تشخيصه للخلل لم يكن سليماً وأن الوصفة التي قدَّمها لتجاوُز حالة الهوان والتخلف كانت وصفة حالمة وعاطفية ولا علاقة لها بمعضلة التخلف فهي إمتدادٌ للمحور الذي دارت حوله حضارتنا خلال تاريخها

المجيد وهو محور الحلال والحرام والإيمان والكفر فكأنه لم يدرك التغيرات النوعية التي طرأتْ على الحضارة الإنسانية فعالج الخلل بمزيد من تكريس الخلل إنه والمتحمسين أمثاله قد صرفونا عن محاولة تشخيص مرضنا تشخيصا صحيحاً فنقطة الخلل عندنا ليست دينية وإنما هي عجزنا المطْلق عن استثمار الإمكانات المتاحة في الإنسان والأرض والوجود إن الإيهام بأن المعضلة دينية قد أساء إلى الدين بمقدار ما أساء إلى الدنيا ورغم تفاقم الأوضاع في العالم العربي والإسلامي ورغم تتابع الخسائر الفادحة فإنها لم تستطع إيقاظنا لنبحث عن المصدر الحقيقي للخلل لأنه تم ربط القضية بالدين فتحول التمسك بما هو قائم ليصير مسألة دينية وهي بهذا المعيار مسألة لاتقبل المساومة فلا يوجد مؤمنٌ يقبل أن يختار الدنيا على الدين بينما حقيقة الأمر أن إزدهار الدين مرهونٌ بإزدهار الدنيا لقد أُوهم الناس بأن قبول مقومات الإزدهار يعني التخلي عن الدين أو الإخلال به وهذه أكبر إساءة للدين والدنيا لأن إزدهار المسلمين يخدم الإسلام ويرفع شأنه في العالم فالقصور فينا وليس في ديننا . . .

إن أفكار التشدُّد والإنغلاق ومحاربة الأفكار الجديدة ليست شيئا طارئاً على ثقافتنا بل إنها الطابع الذي ميَّز هذه الثقافة خلال قرون فسيد قطب رحمه الله قد تشبَّع بهذه الثقافة فهو من نتاجها إنه لم يأت بجديد لقد تبنَّى أفكاراً وممارسات سائدة في مجتمعاتنا وراسخة في ثقافتنا لكنه أعاد عرضها بأسلوبه الأدبي الطلي الآسر فصار لها هذا التأثير الكبير إن تأثير سيد قطب الأبلغ كان في حشد العواطف ضد الحضارة الغربية وتبرير العزوف عن الاستفادة من تجربة الغرب الثرية والسخية أما الروح الإندفاعية المتشدِّدة التي يعيشها الكثيرون خلال السنوات الأخيرة فلم

تكن بتأثير سيد قطب وإنما جاءت بسبب أنها عميقة في وجداننا وراسخة في ثقافتنا وعريقة في تاريخنا فاستيقظت هذه اليقظة القوية المجلجلة بعد معايشة الجهاد في أفغانستان والزخم الإعلامي الغامر الذي رافق تلك الفورة الجهادية فقد كانوا مهيئين ثقافيا: ذهنيا ووجدانيا لمثل هذه الإندفاعة الهوجاء ولما عايشوا الأجواء الجهادية تحول التشبُّع الثقافي التلقائي إلى ممارسة مفعمة بالحماس أما سيد قطب فإن عوامل كثيرة قد أثَّرت عليه رحمه الله فدفعته إلى أن يتبنَّى أفكاراً إعتقد أنها في صالح الإسلام وفي مصلحة الأمة فاستنفر المسلمين إلى المبالغة في الإكتفاء والإنغلاق ثقافيا وأجَّج العواطف إلى المبالغة في الاستهانة بالحضارة المعاصرة متأثَّراً في ذلك بأفكار محمد أسد وأبي الأعلى المودودي رحمهما الله لقد نَفَخَ فينا سيد قطب رحمه الله اعتزازاً أجوف بذاتنا وملأنا بانتفاش فارغ تجاه الحضارة الغربية وتجاه أي فكر مغاير فأسهم في صدِّنا عن الإرتقاء والتحول الثقافي وصَرَفنا عن الاستفادة من المنجزات المذهلة لهذا العصر لنكون مشاركين لامستهلكين وفاعلين لامنفعلين لكننا بهذا الصدود والانصراف لم نخدم ديننا ولم نطور دنيانا فازددنا تخلُّفا إن سيد قطب رحمه الله كان شديد الإخلاص والحماس لكن تشخيصه للخلل لم يكن صائباً وَوَصْفُهُ للدواء قد ضاعف الداء إن إقحام الدين في معضلة التخلف خطأ فظيع فهو يسيء إلى الدين ويوهم أنه سببُ التخلف بينما أن المعضلة تكمن في طريقة التفكير وفي منظومة الإهتمامات وفي سلسلة العادات وفي أسلوب الحياة فالإسلام بريء من تخلفنا ولكننا بإقحامه بهذه المعضلة نسيء إليه ونُحَمِّله سوءاتنا الفظيعة...

■ **نعود لمسألة استشهادك بكتاب ابن رشد وترجمته لأرسطو رد عليك**

أحد المعارضين بأن هذا مثال فاشل فالعلوم التطبيقية هي التي استفاد منها الغرب أكثر من العلوم العقلية وانظر ما يقوله الدكتور غريسب مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها عندما يخاطب طلاباً مسلمين: أيها الطلاب المسلمون: الآن وقد انعكس الأمر فنحن الأوربيون يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم لا زال موجوداً بينكم؟

ـ هذا فهمٌ معكوسٌ فحضارة الغرب هي ثمرة الفكر الفلسفي فالعلم ليس مسائل ومعلومات وإنما هو منهج تفكير وطريقة نظر وأسلوب حياة فالغرب تأسَّس بتفكيره وأسلوب حياته على الفكر الفلسفي إن العلم هو إحلال فكرة صحيحة مكان فكرة خاطئة وليس إضافة معلومات صحيحة إلى تصورات خاطئة ولا سبيل إلى مراجعة التصورات الخاطئة المستقرة وإنجاح عمليات الإحلال وتنظيف العقل من الرواسب والأوهام إلا بالفكر الفلسفي فالفلسفة ليست معلومات وإنما هي منهج تفكير نقدي ورؤية فاحصة وموقف متسائل وطريقة تعامل مع الحقيقة والتصورات والمعارف والإنسان والمجتمع إن الفلسفة موقفٌ نقدي من الثقافة والعقل والمعرفة والحقيقة والإنسان والمجتمع فالذين يقرأون الفلسفة بحثاً عن أحكام قاطعة أو تصورات مستقرة لن يجدوا مايريدون فهي ليست حقلاً للمسائل ولكنها فضاءٌ لخلق المفاهيم ونقد الأُسس وتحليل التأسيس والمؤسسات ودعوة مفتوحة إلى الفحص والتحقق والمراجعة والانفتاح على الآفاق من أجل معرفة نامية متجدِّدة وقد دلت تجارب الشعوب على أن نهضة الفكر هي التي تؤسِّس لنهضة المجتمع ولتطور

العلم بشتى حقوله وتطبيقاته ففي العالم العربي جرى تعميم التعليم فانتشرت المدارس والجامعات وامتلأ الوطن العربي بالمتعلمين ولكن ذلك لم يحقق التقدم المنشود لأن المعارف والتقنيات لابد أن تكون مسبوقة بنهضة فكرية وهو ما لم يتحقق في العالم العربي أما الطبيب الألماني الذي أشرتَ إليه فهو ليس حجة في مجال بعيد عن تخصُّصه وعن مجال اهتمامه وهو هنا بوصفه طبيبا يشير إلى الطبيب الرازي فأوربا قد استفادت فعلاً من كتبه في مجال الطب لكن الرازي نفسه ليس نتاج الثقافة العربية وإنما هو نتاج الثقافة اليونانية فالأوربيون قد استعادوا فكرهم اليوناني بواسطة ابن رشد والرازي وغيرهما من الأفراد الأفذاذ الذي لفظتهم ثقافتنا لفظاً مزرياً وما زالت تُشنِّع عليهم وتتبرأ منهم ثم إنه من طبيعة الغربيين أنهم يجاملون أهل الثقافات الأخرى خارج مجال البحث العلمي كثمرة لرقيهم الأخلاقي لذلك نراهم يبادرون باستنكار أي موقف يُشمُّ منه انتقاص الثقافات الأخرى كما يبادرون بالاعتذار عن أبسط الإساءات إلى حضارات الآخرين التي تصدر عن أحد منهم...

■ **يا سلام!! مجاملة من أكاديمي رفيع.. ومع ذلك أنت أستاذ إبراهيم كتبت عدة مقالات بأن الغرب لا يجامل..كيف يتساوق ما كتبت على ما وصف للتو؟**

ـ الغربيون موضوعيون في البحث العلمي لكن لديهم حساسية أخلاقية شديدة في التعامل مع الآخرين ومع الثقافات المغايرة إنه بهذه الإشادة قد انتقل من مجال العلم إلى مجال التعامل والأخلاق والمجاملات ولا علاقة لهذا بحقائق الواقع ولا بمقررات العلم فالغربيون نجدهم دائماً يعطون الثقافات المختلفة أكثر مما تستحق

كموقف أخلاقي وليس موقفا علمياً إنه الأدب الإنساني الرفيع وأخلاق التواضع وأسلوب التعامل مع المغايرين وما يقوله هذا الأستاذ الجامعي لطلابه العرب فيه دعمٌ نفسيٌ ومعنويٌ وهو شيءٌ يحتاجه أولئك الطلاب ثم إنه يعني به الرازي الذي تتلمذ على أيدي اليونانيين ولم يتتلمذ على ثقافتنا فالرازي وغيره من الأطباء المسلمين الذين تتلمذوا على الثقافة اليونانية كانوا وما زالوا منبوذين من ثقافتنا كما أنهم كانوا خارج سياقنا الثقافي فكيف نتباهى بهم ونحن كنا ومازلنا نتبرأ منهم؟!!!!...

■ **سامحني أستاذ إبراهيم في كلامك هذا مغالطة. فالتحذير من كتب الرازي لم يكن سببه عنايته بالعلومِ المحضة، ومعرفته بالطب وعنايته به لم تكن محل اعتراضٍ من أحدٍ. لكن كان الاعتراض والتحذير من إدخاله فلسفة اليونان في عقائد المسلمين فيما يتعلق بالإلهيات؟**

ـ إن موقف ثقافتنا من الفلسفة موقفٌ ثابت على امتداد القرون وأنت تعلم ذلك ولا يمكن أن تجهله فهو موقف الرفض المطلق ومن المعلوم أن الفروع العلمية أيام الرازي لم تنفصل عن الفلسفة فالطب آنذاك لم يكن علماً أو حقلاً مستقلاً وإنما هو جزءٌ من الفلسفة ومندمجٌ فيها ولا يمكن فصله عنها إن المطلع يدرك أن كل علوم الغرب تفريعاتٌ فلسفية ومنها علوم الطب إن كل العلوم قد انفصلتْ عن الفلسفة حديثا بعد شيوع منهج التجريب ولكنها كلها نتاج الفكر الفلسفي اليوناني أما موقف الثقافة العربية من الرازي وأمثاله من الذين تتلمذوا على ثقافة اليونان فهو موقفُ الرفض العنيد الصارم والنابذ والرافض لأي مصدر فلسفي لأن ثقافتنا هي ثقافةُ نقل وليست ثقافة عقل فالرازي تلقى الطب عن الثقافة اليونانية فصار مرفوضاً ومنبوذاً لأنه عوَّل على مصدر فلسفي وهذه حقيقة

تاريخية لا مجال للجدال حولها فلم يكن الرفض والنبذ للرازي وحده وإنما كان موقفاً عامًا من كل الذين تتلمذوا على الفكر الفلسفي اليوناني سواء في مجال الطب أو غيره. . .

■ أستاذ إبراهيم، عموما لأعد إلى التاريخ، فالحضارات ترث بعضها البعض، الحضارة الرومانية سادت ثم بادت وتبعتها اليونانية والحضارة الفرعونية والحضارة الفارسية والهندية. دائماً ما تموت حضارة وتنبعث أخرى على أنقاض الحضارة الغابرة وتستفيد من علومها، لماذا تشنع على الحضارة الإسلامية؟

- إنني أكرر الإشادة بإبداعات حضارتنا في المجال الذي تمحورتْ حوله وهو الفكر الديني وكل مايمتُّ إليه بصلة كعلوم اللغة لكن نقدي خارج هذا المجال الذي تمحورنا حوله إنه دعوةٌ إلى توسيع مجالات اهتمامنا لنبدع في مجالات الدنيا مثلما أبدعنا في الفكر الديني وعلومه لقد تمحورت ثقافتنا قديماً وحديثا حول مسائل الحرام والحلال والإيمان والكفر فصار التراث الإسلامي هو التراث الديني الأعظم والأضخم لكننا أغفلنا قديماً وحديثاً تنمية الدنيا إن ثقافتنا ظلت بجناح واحد وهي الآن بعد التغيرات النوعية التي طرأتْ على الحضارة الإنسانية تحتاج إلى جناح آخر لتشمل قضايا التنمية الشاملة فلستُ بهذا أُشَنِّع كما تقول وإنما أُعبِّر عن ألمي الشديد من هذا الهوان الفظيع الذي يعيشه العرب والمسلمون وأتطلع بحرقة إلى اليوم الذي ننعتق فيه من أوهام الامتياز التي أقعدتْنا في سراديب الجهل والفقر والهوان والهامشية والتخلف إن للمسلمين نحو (٦٠) دولة كلها في عداد المجتمعات المتخلفة بل الأشد تخلُّفا باستثناء ماليزيا وتركيا وهذا شيءٌ فظيعٌ يسيء

إلى ديننا ويبقينا منفعلين لا فاعلين إن الشعوب في الشرق والغرب تتواثب نحو القمم فالصين صارت أمة مزدهرة وقبلها اليابان وكوريا الجنوبية وكذلك الهند والبرازيل بل إن دولة صغيرة جدا كسنغافورة التي تفتقر افتقاراً كليا إلى الموارد الطبيعية قد حققت وحدها من الإزدهار ما لم تحققه المجتمعات الإسلامية مجتمعة!!! إنها مأساةٌ حقيقيةٌ إن الأشد فقراً وتخلُفا في العالم هي من البلدان الإسلامية مثل تشاد وبنقلاديش واليمن وأفغانستان والسودان والصومال وباكستان وبينما تزدهر شعوب الأرض واحدٌ بعد الآخر تزداد البلدان الإسلامية تخلُفا. . . !!!فأين مصدر الخلل الفظيع؟؟!!! إننا نؤمن إيماناً عميقاً بأن الإسلام بريء من هذا الواقع البائس فالإسلام هو الحق المطلق في صيغته النهائية لكن الإسلام أُسيء إليه من أهله!!!

إن البلدان الإسلامية القليلة مثل المجتمعات الخليجية التي تنعم بالرخاء لم تُحقق هذا الرخاء بإنتاجها وإنما هي ذات اقتصاد ريعي لأنها لم تحقق هذا الرخاء بإنتاج أبنائها وإنما هي تعتمد على ثروات محزونة في باطن أرضها ولم يكن العرب هم الذي فجَّروا هذه الثروات المخزونة وإنما فجَّرها الغربيون المزدهرون فلولا البترول لما كانت بلدان الخليج بهذه الوفرة المؤقتة فوجود البترول هو هبة من الله لافضل لنا فيه ثم إنه لولا مخترعات الغربيين لما كانت له قيمة فهم الذين اكتشفوه وهم الذين استخرجوه وعلَّمونا بأهميته ودرَّبونا على استخراجه وهم بمخترعاتهم جعلوا له هذه الأهمية الكبرى والقيمة العالية فيجب أن نعترف بكل هذه الحقائق مهما بلغت من المرارة فالعلاج في أَمَرَّ الأدوية. . .

أنت تعتقد أن كل حضارة من الحضارات القديمة كانت ترث انجازات التي قبلها ثم تضيف إليها انجازاتها ولكن وقائع التاريخ الحضاري تؤكد العكس فأولاً: لابد أن ندرك أن التطور الثقافي والحضاري ليس تراكما كميًا وإنما هو طفراتٌ نوعية لم تتحقق إلا بتأثير منهج التفكير الفلسفي النقدي الفاحص ثم لابد أن نتذكر ثانيا أن الحضارات القديمة لم تكن تعرف فكرة التقدم ولا تؤمن بها بل كانت تؤمن بالعصر الذهبي الذي يكون عصراً غابراً أي أن الحضارات القديمة كانت مأخوذة بفكرة التراجع والتدهور مع الزمن وليس التضايف والتراكم والتطور والإرتقاء والتقدم ثم علينا أن نتذكر ثالثاً أن الحرب في العصور القديمة كانت تستعر بين الدول المتجاورة وكان المنتصر يقضي على مآثر المنهزم كما كانت الحرب أيضا سجالاً بين القبائل الرُّحَّل المتوحِّشة وبين المستقرين في المدن والقرى فما تكاد حضارة من الحضارات تنمو وتستقر حتى تغزوها هذه القبائل المتوحشة فتهدم منجزاتها وتستولي على السلطة ثم تبدأ من المراحل الدنيا في التحضُّر ثم ما تكاد تستقر وتثمر شيئاً من الإزدهار حتى يتكرر مشهد الغزو ومشهد الهدم ثم البدء من جديد في التشييد وهو تشييدٌ يتأسَّس على الاحتياج الملح وعلى الممارسة العملية ولا يرتقي إلى مستوى الفكر النظري الذي هو مصدر التطورات المدهشة...

لكن مع بزوغ الفكر الفلسفي في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد بزغ العقلُ الفاحص الناقد فتأسَّست ثقافة العقل وبذلك دَخَلَ عنصرٌ جديد باهر في الثقافة الإنسانية يحرك العقل ويثير التساؤلات ويناقش المسلَّمات ويشكك بالموروث ويحرص على التحقُّق فصارت

الإنسانية مهيأة لإنتاج العلم القائم على الملاحظات والفروض والتجريب والإختبار والتحقُّق فالفلسفة دشَّنت التأمل العميق والتحليل الفاحص والبحث الحر والرؤية الموضوعية وقد استولى المقدونيون على هذا التراث الفكري العظيم ثم حاول الاسكندر المقدوني أن ينشره في كل العالم لكنه مات في الثانية والثلاثين من عمره فلم يُتَحْ له أن يُنجز مهمته العظيمة ثم ورث الرومان التراث اليوناني ونشروه في أوربا وبذلك تُعتبر الحضارة الرومانية مكملة وراعية وناشرة للثقافة اليونانية التي هي مصدر الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة ومن هنا استحق القائد الروماني يوليوس قيصر هذا المجد الذي جعله من قادة العالم المائة الأوائل الأكثر تأثيراً على الحضارة الإنسانية لأنه هو الذي وطَّد الحكم الروماني والثقافة اليونانية في أوربا الغربية فأوجد في ثقافتها هذه القابلية للتطور الدائم. . .

■ **سوف أتفق معك أن الحضارة اليونانية حضارة فلسفية. لكن سأعارضك في كونها عقلانية. فالتراث اليوناني مليء بالخزعبلات الوثنية المضحكة.**

ـ هذا كلامٌ غريب لأنه لا يمكن أن تكون الثقافة فلسفية إلا إذا كانت عقلانية نقدية لأن الفلسفة تمثل انتقالاً نوعيا من ثقافة النقل الإمتثالي الأعمى إلى ثقافة العقل البصير الناقد أما وجود خزعبلات في الثقافة اليونانية فهذه موجودة في أرقى المجتمعات المعاصرة فالحكم يُبْنى على الغالب ومعلومٌ أن الغالب على الثقافة اليونانية هو الفكر الفلسفي العقلاني النقدي وهو الشيء الذي بقي خالداً فأثمر هذه الحضارة المعاصرة المدهشة. . .

■ **أنت إذاً تنسب كل هذا الانجاز الغربي إلى الحضارة اليونانية فقط؟**

- نعم ولولا الثقافة اليونانية ووريثتها الثقافات الأوربية بفكرها العقلاني الناقد وجهدها العلمي المنظَّم وتساؤلاتها الفلسفية المثيرة وشكوكها النقدية الحافزة ومراجعاتها الفاحصة الموصولة وانفتاحها الدائم على كل الآفاق وإيمانها القوي بعبء التاريخ وفداحة رواسبه لولا ذلك كله لما تقدَّمت الإنسانية هذا التقدم العظيم فكل ما تعيشه البشرية من إنجازات هو من ثمار الفكر الفلسفي اليوناني بأُطره النظرية وتفكيره الناقد وتطلعه الدائم إلى المزيد من المعارف الممحصة إنه عقلٌ يقوم على الشك حتى تتوفر أسباب التحقق وحتى بعد التحقق يستبقي الأبواب مفتوحة للمراجعة والنقد والتصحيح والكشف ثم إعادة المراجعة والفحص إلى مالا نهاية فلا يوجد عندهم قولٌ نهائي ومطلق. . .

■ **وماذا عن الحضارة الفرعونية التي اشتهرت بعلوم الفلك والهندسة وتقدمت كثيرا عبر علمائها؟**

- إن الحضارة الفرعونية هي أبعد الحضارات من إمداد الحضارة اليونانية بشيء من أسباب امتيازها وعوامل طفرتها فهي الأبعد عن إمكانية تحقيق مثل هذه التغيرات النوعية لأنها تفتقر افتقاراً كليا إلى المناخ الحر المفتوح الذي يحترم فردية الإنسان الذي هو الشرط المبدئي للتطور الثقافي فالإزدهار الغربي قد تأسَّس على الفكر الفاحص الناقد وعلى احترام فردية الإنسان وتوفير الحرية له وتنمية قدراته وفتح الخيارات أمامه ويستحيل أن تُقَدِّم الحضارة الفرعونية التي استبدت بالإنسان وأذابته في القطيع المقموع أيَّ إسهام إنساني من نوع ومستوى حضارة اليونان وحضارة الغرب لأنها تقوم على الاستبداد المطلق

والتجبُّر المفْرط إنها كانت مشغولة بتأليه الحكام وتخليد أمجادهم لذلك أبدعتْ في هذا المجال فقط كما يتجلى في الإهرامات إن الحضارة الفرعونية كانت محرومة من العقل الناقد وكان محالاً وهي بهذا التحجُّر والإستبداد أن تثب إلى مستوى الفكر الفلسفي المنتج للعلم لقد كانت تُحركُّها الحاجاتُ العملية وكانت تفتقر افتقاراً كليا إلى الفكر النظري لذلك ظلت تدور مع نفس المسارات ولم تحقق اختراقات علمية أو فكرية باستثناء الإبداع العملي في همها الرئيسي وهو تخليد الحكام وقد تمثل هذا الإبداع في التحنيط وفي الإهرامات فالثقافة الفرعوينية كانت تقوم على تأليه الحاكم واحتقار الشعب فلم تكن تحترم الإنسان الفرد لذلك فمن المحال أن تحقق إزدهاراً شاملاً كالذي تحقق للحضارة اليونانية ووريثتها الحضارة الغربية أما الإهرامات فهي شاهد إدانة وليست شاهد عَظَمة فالإهرامات وتقنيات التحنيط دليلُ التجبُّر من الحاكم وتسخير الناس لأهداف لاتعود عليهم بأي نفع وإنما تستهدف تخليد أمجاد الحاكم فقط . . .

■ **يا رجل. . وهل الرومان ـ أيضاً ـ احترموا الإنسان؟!**

ـ نعم الحضارة الرومانية تأسَّست على احترام الإنسان وهنا يجب أن نعلم أنها مرت بمراحل فهي أصلاً كانت نظاماً جمهورياً وظلت قروناً وهي محكومة بمجلس للشيوخ ويقوم هذا المجلس بانتخاب اثنين لمدة عام واحد فقط يتناوبان رئاسة الدولة والمجلس والجيش وكان يُسَمَّى مستشاراً (قنصل) وقد أخذت ألمانيا هذا التقليد عن الرومان فما زال رئيس الحكومة الألمانية يسمى (مستشاراً) واللافت هنا هو تحديد مدة الرئيس (الحاكم) في ذلك العصر الوغل في القدم!!! وعدم تركيز السلطة في فرد واحد وكان

عضو مجلس الشيوخ يسمى (سناتور) وقد انتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوربية وما زال اللقب مستعملاً بأمريكا وغيرها لأعضاء المجالس وبهذا يظهر لك بأن الرومان قد احترموا الإنسان وأنهم لم يحتقروه ويطمسوا فرديته حتى امتدت إليهم العدوى من الشرق فالثقافات الأوربية لا تنتكس إلا بتأثير ثقافات الشرق المنغلقة والسلطوية. . .

■ **عفواً أستاذ إبراهيم، أنت للتو قلت أن كل الحضارات السابقة لم تحترم الإنسان مما يتناقض مع قولك الأخير؟**

ـ إنني انطلق من حقيقة تاريخية وهي أن الحضارات اليونانية والرومانية والمعاصرة هي حضارة واحدة أما فترة العصور الوسطى فهي فترة انقطاع وسُبات للعقل الأوربي وتوقُّف للفكر الفلسفي النقدي لذلك فإن الغربيين يعتبرون تلك العصور نشازاً على تاريخهم فهي تتوسط وتقطع وتفصل الثقافة الأساس وهي الثقافة اليونانية عن الحضارة الحديثة التي هي امتداد للثقافة اليونانية فالعصور الوسطى وكل ما فيها من انغلاق وقمع واستبداد وتخلف ومحاكم تفتيش وطمس للنزعة الفردية كانت بتأثير الشرق لذلك يتبرأ منها الأوربيون ويعتبرونها فترة مظلمة في تاريخهم وأنها وافدة إليهم من خارجهم. . .

■ **أستاذ إبراهيم فترة الانقطاع التي تتحدث عنها امتدت لأكثر من ألف عام. فمن الواضح أنك تتحدث عن حضارة جديدة، استفادت من حضارة قديمة. فلا أدري لماذا إصرارك على دمج الحضارتين مع وجود هذا الفاصل التاريخي الضخم، علاوةً على الفروق الجوهرية الكبرى بينهما. وليس أوضح من كون الحضارة اليونانية حضارة مغرقة في التصورات والخرافات الوثنية؟**

ـ إن كون حضارة الغرب الحديثة هي امتدادٌ للحضارة اليونانية من خلال الحضارة الرومانية هي حقيقة تاريخية وليست تخمينا فالغربيون يرون أن فترة العصور الوسطى فترة انقطاع قامت على ثقافة شرقية دخيلة لذلك وصموها بأنها وسطى ومظلمة ولا تتفق لا مع ماضيهم الأقدم اليوناني والروماني في قرونه الأولى ولا مع حاضرهم المزدهر لأنها فصلتْ بين أساسهم الحضاري وهو الثقافة اليونانية والرومانية وبين فكرهم الحديث الذي هو عودةٌ لثقافة اليونان وإحياء للفكر الفلسفي اليوناني ولتراث اليونانيين: فكراً وسياسة وعلماً وأدباً وأخلاقاً. . .

إن الرؤية الغربية امتدادٌ للرؤية اليونانية وكذلك الممارسات السياسية ونمط التفكير ومنظومة القيم فأوربا الحديثة طوَّرت الممارسات واستحدثت منهج التجريب فصارت العلوم تستقل عن الفلسفة واحدٌ بعد آخر فلا يوجد فروق جوهرية وإنما يوجد تطور طبيعي أما وجود بعض الخرافات في الحياة اليونانية فهو وجودٌ ليس غالباً وإنما هو وجودٌ هامشي أما الوجود الغالب فهو الفكر الفلسفي المتألق فحتى الحضارة المعاصرة بكل تجلياتها الباهرة يوجد فيها تُرَّهات وخرافات غير مقبولة لكن الأحكام تبنى على الغالب وليس على الشرائح الهامشية وغير المؤثرة. . .

■ **أنت وبكل هذا الإعجاب وتقول أن الحضارات الرومانية واليونانية والغربية تحترم الإنسان. .لنحتكم للتاريخ، الإسكندر المقدوني الذي غزا العالم كله بالحروب الفظيعة وساق العبيد والجواري وأسر الرجال، مع صاحب كل تلك الحروب من دماء ووحشية. فأين بالله احترام الإنسان الذي تزعم؟**

ـ ليس صحيحاً أن الإسكندر المقدوني تعامل بوحشية فهو جاء إلى الشرق لينشر الفكر الفلسفي الذي كان يراه الأساس السليم للوحدة الإنسانية ولم يكن ممكنا أن يُنجز هذه المهمة المعقدة الشائكة إلا بإسقاط حُماة الجهل وأركان الإستبداد لكنه مات مبكراً قبل أن ينجز مهمته الكبرى وإذا كنا نقيس ما فعله الاسكندر المقدوني بعصره نجده قمة في التطور والرحمة والتهذيب بل إن الفكرة الإنسانية العظيمة التي حرَّكَتْهُ ما زالت أعلى من أن يستوعبها الكثير من الناس حتى في هذا العصر...

■ **كيف ذلك؟**

ـ إننا حين نقارن ما اضطر إليه الإسكندر في سبيل إنجاز المهمة الحضارية الإنسانية العظيمة التي نَدَبَ نفسه لها نجد أنه سابقٌ لعصره بمسافات ضوئية فعلينا أن نسأل: لماذا حاول المقدوني أن يفتح الشرق؟ وسوف يكون جواب التاريخ أن الإسكندر قام بهذه المغامرة الكبرى لأنه كان مقتنعاً بعظَمَة الفكر الفلسفي اليوناني وبروعة ورقي الثقافة اليونانية وبأنه يمكن بها إزالة أسباب الاقتتال الدائم بين الشعوب فقد رأى الحروب بين الأمم لاتكف عن الاشتعال فأراد أن يُوَحِّد العالم على ثقافة العقل الذي يلتقي عليه كل الناس لقد كان مغرماً ومعجبا بثقافة اليونان فأراد أن يعممها على العالم إنه بتأثير أستاذه الفيلسوف العظيم أرسطو أراد أن ينشر هذا الفكر وأن يوحد العالم عليه ولكنه مات مبكراً في الثانية والثلاثين من عمره ولهذا لم يتمكن من تحقيق حلمه العظيم وقد احتفظ له التاريخ بمواقف إنسانية عظيمة مع سادة الفرس وغيرهم

فهو يترفع عن إذلال الكبار ويحفظ للناس كرامتهم بالقدر الذي تسمح به الطبيعة البشرية في أعلى ذراها. . .

وهنا لابد أن يرد اعتراضٌ يقول: إذا تم تبرير مافعله الإسكندر المقدوني فإن كل صاحب مذهب أو ايديولوجيا يستطيع أن يُرغم الناس ويزعم أنه يفعل ذلك لمصلحة الإنسانية كلها وهذا قد حصل فعلاً مراراً وتكراراً على مدى التاريخ البشري ولكن التبرير هنا ليس سابقاً للفعل ليعطي المشروعية للغزو لكنه تسويغٌ لاحقٌ فلا يترتب عليه فعلٌ وعموماً فإن هذه النقطة تحتاج إلى شرح أطول لعلني أتناوله في مكان آخر أوسع أما هنا فأكتفي بأن أشير إلى أن التاريخ قد احتفظ بشواهد كثيرة تؤكد أن القصور الذاتي يهيمن على الثقافات ويتحكم بالمجتمعات وأن المجتمعات المتخلفة لو تُركتْ لذاتها فإنها تستمر في تخلُّفها وتبقى خاضعة للخرافة والإنغلاق والاستبداد والتخلف إن الموقف حَرِجٌ فعلاً لكن تجارب التغيير في العالم قديماً وحديثاً تؤكد أن المجتمع لا يرتقي تلقائيا وإنما لابد من طاقة إضافية قوية دافعة تفك أسْره وتُخرجه من قصوره وسوف أتناول هذه المعضلة في موضع آخر إن شاء الله. . .

- ٣ -

مكاشفات إبراهيم البليهي ـ الجزء الثالث

في الجزء الثالث من مكاشفاته الطويلة قال الأستاذ إبراهيم البليهي إن العلم والتاريخ والواقع كلها تؤكد أن ثقافات الشرق تختلف نوعيا عن ثقافات الغرب مؤكدا أن المعضلة بالذين لايملكون قدرة المبادرة ولا قدرة التلقيد النافع وإنما يكابرون وينتفشون ويُصِرُّون على تخلفهم ويرون أنهم الأرقى والأفضل رغم كل ما هم فيه من هوان وعجز وفقر وجهل وتخلف وتطرق البليهي إلى حادثة أبو غريب لافتا إلى أن الإعلام الغربي هو من فضحها ومتسائلا عن الإعلام العربي وأين كان من الآلاف الذين كانوا يموتون تحت التعذيب في عهد صدام حسين وإلى تفاصيل الحوار:

- **أستاذ إبراهيم. ألا تلاحظ أن ثمة خلل في موازينك. فحين تتحدث عن الإسكندر المقدوني، تحاكمه لعصره، وحين تتحدث عن الحضارة الإسلامية تحاكمها لعصرك. أفلا تستطيع ـ على الأقل ـ أن تقول بأن الحضارة الإسلامية ـ أيضاً ـ حسب موازين عصرها احترمت الإنسان؟**

ـ لم أتحدث عن الحضارة الإسلامية تخصيصاً إنما تحدثت عن الحضارات القديمة عموماً بأنها لم تكن تحترم الإنسان احتراماً يعترف

بفرديته ويلتزم بكل مايترتب على هذا الاعتراف من حقوق واعتبارات باستثناء الحضارة اليونانية ووريثتها الحضارة الرومانية ثم الحضارة الحديثة وهي تمثل مراحل من حضارة واحدة إنها الوحيدة التي حررت العبيد ومنعت الرق وحرَّمت الغزو العدواني التوسعي واستهجنت استرقاق الناس وبيعهم كالبهائم!!! واهتمت بالإنسان الفرد اهتماماً ليس له سابق في التاريخ وعمَّمَتْ التعليم ونظَّمَتْ الضمان الإجتماعي وحاربت تشغيل الأطفال وأكدت المساواة واقعاً وليس كلاماً ورفعت الغبن عن المرأة وحدَّدت ساعات العمل لكل العاملين بدلاً من الكدح الطويل القاتل في العصور القديمة وضمنت راتباً تقاعديا للعاملين إذا بلغوا سن الستين بعد أن كانوا في كل العصور يُتركون لمصيرهم البائس وضمنت للعاملين الأمن الوظيفي وحمت الموظفين والعمال من الفصل التعسفي وجعلت حقوق الإنسان شأناً إنسانيا عاماً وأصلحت السجون.. إلى غير ذلك مما لانهاية له من الحقوق والإبداعات الرائعة التي ابتكرتها الحضارة الغربية ولم تكن معروفة في أية حضارة سابقة ونحن الآن نعيش هذه الإبتكارات العظيمة وننعم بها ولكننا نعتبرها من البداهات الإنسانية ونتجاهل أنها كلها ابتكارٌ غربي...

- **التاريخ ينقل لنا أن الإسكندر ملك بدأ ملكه بتصفية خصومه من اليونان أنفسهم، وقتل في ساعة سكر أعز أصدقائه وجلسائه. وفي حروبه أباد خلائق لا تحصى، وحين استولى على عاصمة الفرس، تعمد إحراقها بأكملها. في حين يرسم لنا البليهي صورة مشرقة عن إسكندر طيب القلب، يحترم الإنسانية، لم يكن قصده في حروبه سوى نشر الفكر الفلسفي! هل لا بد أن يكون الإسكندر مسلماً حتى يبصر البليهي جناياته؟**

ـ هذا كلامٌ لا يتفق مع وقائع التاريخ فالاسكندر وفد إلى اليونان وهو طفل فأبوه فيليب ملك مقدونيا غزا اليونان حين ضعفوا بعد الاقتتال الطويل الذي دار بين أثينا واسبارطة وأنهك الإقتتال كليهما مما أغرى فيليب بغزو اليونان والاستيلاء عليها ثم آل حكم اليونان إلى ابنه الاسكندر وكان عبقريا وتلقى الفلسفة عن الفيلسوف الأكبر أرسطو وتشبَّع بالفكر الفلسفي فرأى أن ينشره في كل الأرض ليزيل أسباب الإقتتال في الأرض لكنه مات مبكراً قبل أن ينجز مهمته فتقاسم القادةُ البلادَ واحتفظ التاريخ بذكر البطالمة الذين حكموا مصر وأشاد بهم وبدورهم الحضاري لأنهم حفظوا الفكر اليوناني وأنشأوا مكتبة الاسكندرية العظيمة وكانت منهم الملكة الشهيرة كليوباترا التي انتهى بها حكم البطالمة على أيدي الرومان فصارت مصر إقليماً رومانياً. . .

■ **وماذا عن دماء أمتك التي أريقت أثناء فترة الاستعمار. وماذا عن ملايين الهنود في أمريكا، وماذا عن (ترومان) الذي دمر مدينتين مملوءتين بعشرات الألوف من العجزة والنساء والأطفال، وماذا عن دماء الفلسطينيين التي تسفك كل يومٍ، وماذا عن مليون أفغاني ذهبوا ما بين قتيل أو مقطع الأطراف، وماذا عن جرائم الشيوعية (ذات الهوية الغربية)، وماذا وماذا وماذا. . . هل هذه كلها خلايا سرطانية في جسمٍ جميل؟!**

ـ الغربيون هم الوحيدون الذي يعترفون بجرائم أسلافهم ويأسفون لما حصل منهم ويعتذرون عن أخطاء وجرائم ارتكبها أجدادهم إنهم يشمئزون منها ويعلنون بكل الوسائل هذا الاشمئزاز ويدينون فاعليها ويحذرون كل دول العالم وشعوبه من أن تقع في مثلها إنهم لا يتسترون

على فظائع أسلافهم ولا على أخطاء وجرائم الأحياء منهم بل يكشفونها هم بأنفسهم بمنتهى الوضوح وبكل التفاصيل فالكتب الكثيرة التي تتحدث عن جرائم الأمريكيين الأوائل في إبادة الهنود الحمر هي كتبٌ كتبها أمريكيون بينما أن الكثير من الأمم الأخرى ما زالت تتباهى بكثرة من قَتَلَ أسلافُها وكثرة من سَبَوهم وأحالوهم إلى عبيد يباعون كما تباع البهائم وهنا يتضح الفرق الهائل بين الثقافات!!!...

■ **لآتيك بمثال معاصر في حادثة أبو غريب، هاهم الأمريكان رأس هذه الحضارة الغربية.**

- إن وسائل الإعلام الأمريكية والأوربية هي التي كشفت فظائع سجن (أبو غريب) وهذا يدل على أنهم لا يتسترون على أخطائهم وأن لديهم من الحس الأخلاقي الرفيع ما يدفعهم إلى إعلان الأخطاء وكشف الجرائم حتى لو كان المذنبون منهم إن هذا مستوى من الأخلاق الرفيعة والموضوعية النادرة ما زال الكثير من الأمم الأخرى غير قادرة على ممارسته أو حتى استيعابه وإدراك دلالته...

إن الذي حصل من بعض الأفراد الأمريكيين في سجن (أبو غريب) عمل فظيعٌ وإجرامٌ شنيع لكنه سلوكٌ فردي وقد استنكره الأمريكيون أشد الاستنكار وأدانوه أقصى درجات الإدانة قبل أن يدينه أو يعلم به غيرهم وهنا يكمن الفرق فالأخطاء والتجاوزات والجرائم تحصل في كل المجتمعات لكن حين تُكشف وتُدان من المجتمع ذاته ولا يجري التستر عليها فإن هذا مستوى أخلاقي رفيع...

لقد كانت سجون العراق تغصُّ بالسجناء والمعذبين طيلة حكم صدام حسين بل طيلة حكم البعث فأين كان الإعلام العراقي عن ذلك

وأين كان الإعلام العربي عن تلك الانتهاكات الفظيعة التي ارتكبها صدام حسين!!! لقد كان الآلاف يموتون تحت التعذيب فأين كان الإعلام العربي عنهم؟!!! وكان الناس في الحواضر العراقية يُبادون بالمواد الكيميائة كما تُباد الحشرات من الحكومة العراقية نفسها التي واجبها أن تحميهم إنه القتل الجماعي الممعن في التجبُّر والظلم والقسوة والوحشية وقد كشفتْ المقابر الجماعية فظاعة ما فعله صدام حسين بالشعب العراقي ولكن ذلك التجبُّر الصدّامي كان يصاحَب بالتمجيد للقائد الملهم أما إذلال الشعب العراقي وقهره وإسكاته وتهجيره فكل هذه من الشأن الداخلي الذي لايستحق من الإعلام العربي أن يشير إليه فالزعيم أهم من الشعب!!! فهل يوجد أفظع مما فعله صدام حسين في شعبه؟!! فأين هذه الحميَّة التي لا تتذكَّر سوى مساوئ الغرب مع أن ظلم صدام حسين للعراقيين هو من ظلم ذوي القربى وهو كما يقول العرب: «وظُلم ذوي القرب أشدُّ مضاضة»؟!!! لقد كان ملايين العراقيين يَفرُّون خارج البلاد ويتيهون في الأرض فراراً من التعذيب الفظيع والملاحقة الشرسة والموت الجماعي حتى بلغ الهاربون من خيرة أبناء العراق وأرفعهم تأهيلاً أكثر من أربعة ملايين أي أن أكثر من ربع الشعب العراقي كانوا فارين ولاجئين ولم يجدوا من يؤويهم إلا في البلدان الغربية: أوربا وكندا واستراليا...!!!!

■ **هذه حيدة. فإذا كشف غربي حادثة أبو غريب، هل هذا يعني براءة الغربيين من تبعاتها؟**

ـ لم أَقُلْ ببراءة المجرمين بل قلت بأن الأمريكيين هم الذي كشفوا جريمة أفرادهم فالغربيون أنفسهم أدانوا هذا الفعل الفظيع وأعلنوا شناعته

وواصلوا غضبهم الشديد على الفاعلين وطالبوا بالقصاص السريع منهم إن الغربيين لم ينتظرو الإدانة أو التبرئة من خارجهم فهم أدانوا ويدينون مجرميهم قبل أن يكتشف الآخرون حصول الإجرام إن حياتهم لاتقوم على الغمغمة والإخفاء والتمويه والتضليل والتستر ولكنها تقوم على الوضوح والمكاشفة والشفافية؟!!!..

- **زميلنا سلطان العامر يقول أن الفكر الحديث تجاوز منطق الثنائية التالية الشرق والغرب وتمت توضيح الأسس العنصرية التي ينبني عليها فالغرب ليس شيئاً واحداً والشرق كذلك والحدود بينهما حدود وهمية وأسطورية والدراسات الحديثة ركزت على فضح المركزية الغربية في نظرتها للتاريخ والأسس الغربية. أين الأستاذ البليهي من النقد الموجه لهذه الأطروحة؟**

- العلم والتاريخ والواقع كلها تؤكد أن ثقافات الشرق تختلف نوعياً عن ثقافات الغرب فالمجتمعات الشرقية التي تطورت مثل اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وتايوان وهونج كونج ثم الصين والهند قد استوعبت الفكر الغربي وهَضَمَتْه واستخدمته بمنتهى الفاعلية ولولا ذلك لما كانت قادرة على تحقيق الإزدهار الذي تعيشه فازدهار البلدان الشرقية لم يحصل ابتداء وإنما تحقق بالاقتباس الكامل من الغرب ومحاكاته والسير على دربه وهذا شيء عظيم لأنهم أجادوا التقليد ثم صاروا مبدعين لأنهم استوعبوا سر التقدم لكن المعضلة بالذين لايملكون قدرة المبادرة ولا قدرة التقليد النافع وإنما يكابرون وينتفشون ويُصرُّون على تخلفهم ويرون أنهم الأرقى والأفضل رغم كل ماهم فيه من هوان وعجز وفقر وجهل وتخلف...

■ ولكن هل قراءاتك في الفكر الغربي لا تتجاوز عتبة القرن التاسع عشر الذي سادت فيه الكتابات النرجسية والتمجيدية التي تؤكد تفوق الإنسان الغربي على ما سواه من البشرية والذي هو قرن الاستعمار وامتصاص ثروات الشعوب الأخرى والذي انتهى بحربين عالميتين؟

- إن نرجسية المتخلفين هي الأفظع والأشنع فهم كالعائل المستكبر أما الغربيون فإنهم كلما تقدموا ازدادوا تواضعاً واشتد نقدهم لأنفسهم وتضاعف احترامهم للثقافات الأخرى حتى وإن كانت في حالة هوان وتخلف وعجز إن الأوربيين: سواء كانوا كتابًا أو أدباء أو علماء أو مفكرين أو فلاسفة أو سياسيين يعلنون دوماً عن احترامهم للمتخلفين في ماضيهم وحاضرهم ومقابل مدح الغربيين لغريهم فإنهم ينقدون أنفسهم وثقافتهم وتاريخهم ما أَوْهَم المتخلفين بأنهم على ما يرام بل بأنهم الأرقى والأفضل فأوربا تجاوزت مرحلة التباهي والتفاخر تجاوزاً لا يفهمه المتخلفون ولا يستطيعون استيعابه ولا إدراك دلالته...

نعم لقد كان بعض الأوربيين في القرن التاسع عشر يتباهون بالإزدهار الذي حققوه لأنهم شاهدوا الفروق الشاسعة بينهم وبين غيرهم لكن أوربا الآن تجاوزت هذا المستوى من الغرور والتباهي بل صارت تبالغ في التواضع وفي تمجيد الثقافات الأخرى المتخلفة أما غيرهم فيتباهون بالتخلف الذي يغمرهم ومع ازدهار الغرب الهائل فإنه يواصل نقد ذاته نقداً لا رحمة فيه ويعلن احترامه لكل من يختلفون عنه مهما كانوا متخلفين!!! أما عن الاستعمار فإن الأمم في العصور القديمة كانت تَعتبر عدوان الأقوى على الأضعف سلوكا ماجداً لا يتنافى مع الأخلاق الفاضلة!!! بل كانت الأمم الغازية تفخر بغزوها للآخرين وتتباهى به أما

أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين فإنها حتى حين غزت القارات الأخرى لم تقْبلها مكشوفة وإنما بَرَرَتْ فعلها بأنه من أجل تمدين المجتمعات المتخلفة لذلك سمته (استعماراً) أي تمدينا وتعميراً وتنمية وحفزاً على التحضُر إنها تؤمن بحق كل الأمم بالاستقلال وحق تقرير المصير فهذه المفاهيم السيادية للشعوب هي مفاهيم غربية أما في الحضارات القديمة فلا سيادة للضعيف وإنما الأقوى يهاجم الأضعف دون حاجة لأي تبرير فالشعور بالحقوق المتساوية للشعوب هو شعورٌ أخلاقي حديث ابتكرته الحضارة الغربية لذلك أَوْجدتْ الدولُ الإستعماريةُ لنفسها عذراً أخلاقيا بأنها احتلت البلدان المتخلفة من أجل تمدينها ولم تقبل أن تكون غازية لمجرد التوسع كما كان يحصل في كل العصور القديمة بينما في الحضارات القديمة لم يكن الغزو بحاجة إلى أي تبرير بل كانت الأمم تتفاخر بغزواتها وتُعَدِّد فتوحاتها مهما كانت عدوانية!!! فنحن الآن حين ننتقد الغربيين إذا توهَّمنا أنهم قد تجاوزوا على غيرهم فإننا قد أخذنا هذا النقد منهم لأن ثقافتنا لم تكن تستنكر الغزو بل كانت تعتبره طبيعيا فالدنيا في نظر كل الثقافات القديمة قائمة على التغالب: «فهي لمن غَلَب» بل حتى داخل المجتمع العربي نفسه أوجب الفقهاء طاعة الغالب حَقْناً للدماء وتقليصا لمساحات النزاع والصراع على السلطة إن استنكار الغزو والتجاوز على الأمم الأخرى ليس موجوداً في ثقافتنا ولا في أية ثقافة شرقية قديمة وإنما هو شيءٌ طارئ اكتسبناه من الغرب لنستخدمه ضده فقط إننا نستنكر أن يغزونا الآخرون وقد صار هذا الاستنكار ثقافة عالمية لكن الغرب هو الذي أوجد هذه الثقافة وهو الذي نَشَرها أما المتخلفون فإنهم لو ملكوا القوة الغربية الهائلة فالله أعلم ماذا يفعلون؟!!! لأن احترام الأبعدين المغايرين

غير موجود في ثقافات الشرق ولكنه مبدأ مجلوبٌ وطارئ ولم يصبح ثقافة عامة تلقائية لأنه في الماضي غير موجود إطلاقاً. . .

■ **يا رجل!! غير موجود وبهذا الإطلاق؟**

ـ نعم وبمنتهى الإطلاق أيضا وليس الاطلاق فقط!!! فاقرأ التاريخ العربي وصراعاته على السلطة وإقرأ التاريخ البشري وما فيه من حروب وعدوان وأنهار من الدماء وجموع الأسرى الذين يتحولون إلى أرقاء يباعون كما تباع البضائع والبهائم!!! وكان المعتَدَى عليهم تؤخذ أموالهم وتتحول بلدانهم إلى ريع للغزاة وتُسبى نساؤهم وتباع كما تباع الأغنام لقد انتهى هذا كُله بفضل الثقافة الغربية التي قامت على احترام الإنسان بشكل مطلق بغض النظر عن انتمائه. . .

■ **إذن دعني ألتف عليك بنفس المنطق وأعود للحضارة اليونانية والرومانية التي كانت تبيع أسراها كما تباع البهائم. ومع ذلك هي عندك حضارات كانت تحترم الإنسان؟**

ـ اليونانيون كانوا مرتبطين بالنظام العالمي الذي كان سائداً في عصرهم فقد كانت تغزوهم الأمم الأخرى خصوصاً غزوات الفرس المتكررة لهم وكان الغازون يستعبدون من يأسرونهم من اليونانيين وغيرهم فاليونانيون مضطرون أن يعاملوا الآخرين بمثل ما يعاملوهم به وإلا لحقهم غبنٌ فظيع وتجرأ عليهم الغزاة أكثر فيصبحون نهباً للغزاة ثم إن اليونانيين وضعوا الأسس الراسخة للثقافة الإنسانية الحالية أي أن الثقافة اليونانية أسَّسَتْ مبادئ الاعتراف بقيمة الإنسان الفرد بغض النظر عن انتمائه فهيأت للتطور الحالي الذي أدى إلى تحريم الرق وتحريم الغزو التوسعي وبقية المنظومة الجديدة من القيم الإنسانية الرفيعة إن

اليونانيين في عصر مجدهم لم يملكوا من القوة ما يمكنهم من فرض مبادئهم على العالم أما الدول الغربية في هذا العصر فقد ملكت من القوة ما أتاح لها أن تفرض على العالم تحرير العبيد وتحريم الرق ومَنْع العدوان التوسعي ثم إن الأفكار تتطور فالمهم هو تحديد اتجاه الأنسنة الشاملة فالثقافة الإغريقية قد أكدت قيمة الإنسان الفرد منذ القرن الخامس قبل الميلاد وكان ذلك بمثابة تهيئة لإنهاء الرق ولمنظومة القيم الإنسانية التي أعلتْ من شأن الإنسان الفرد وأبرزتْ حقوقه وحَمَتْه من التعسُّف ووضعت من التنظيمات ما جعل حياته أقلَّ عُسْراً وأكثر أمْنا. . .

■ **قبل قليل تقول: إن احتلال البلدان الأخرى كان مجداً. وتجعل هذه مذمة، وبعدها تمدح الإسكندر المقدوني الذي كانت أعظم منجزاته فتح بلدان الآخرين. . كيف نوفق بين كلامك هنا وكلامك هناك؟**

ـ لم تكن حروب الإسكندر المقدوني من أجل التوسع لذاته ولا من أجل نهب خيرات الأوطان واستعباد المقهورين بل سيطرتْ عليه فكرةُ توحيد الإنسانية كلها وإزالة أسباب الحروب إلى الأبد لقد تشبَّع بفكرة أن الأوضاع الإنسانية لن تستقيم حتى يصبح الملوك فلاسفة أو يصير الفلاسفة ملوكاً وكان يرى نفسه ملكاً وفيلسوفاً في الوقت ذاته وكان يريد تمدين المجتمعات وجَمْعها على الفكر الفلسفي وهي نفس الغاية التي أعلنتها البلدان الغربية لتبرير الاستعمار إن مجرد الشعور بأن الحرب سلوكٌ عدواني يتطلب التبرير الأخلاقي يُعْتَبَرُ قفزةً نوعية هائلة ففرقٌ نوعيٌ شاسع بين التفاخر بقهر الآخرين وبين محاولة رفع مستواهم الحضاري وتمدينهم والسعي لإزالة أسباب الحروب أو على الأقل

إعلان هذا الهدف ولو كمبرر أخلاقي فيكفي الشعور بأن الغزو عملٌ لا إنساني مقارنة بالحضارات القديمة التي كانت تتفاخر بعدد الذين قتلتهم في حروبها أو سبتهم في غزواتها أو دمَّرتهم بعد انتصاراتها!!!...

■ **للتو صرحت أستاذ إبراهيم أن احتلال البلدان الأخرى أصبح أمراً مخجلاً بفضل الحضارة الغربية. فهل أنت مقتنع أن الخجل هو الذي يمنعهم من احتلال بلاد الآخرين؟**

- إن الثقافة الغربية بأكملها لم تَعُدْ تستسيغ احتلال بلدان الآخرين إنهم قد تشبَّعوا بمنظومة من القيم لا تجيز لهم العدوان فهم يستنكرونها تلقائيا لذلك نجد أن الشعوب الغربية هي الأكثر احتجاجاً ومعارضة للحروب مع أن الحروب في هذا العصر تقع بعيداً عن ديارهم فهم لا يتضررون منها بشكل مباشر بل إنهم يكونون ضدها حتى لو كانت تخدمهم اقتصاديا إن الأحداث تؤكد هذه الحقيقة بما لا مزيد عليه ومن هنا يجب إشاعة ثقافة السِّلم والعلم والإخاء الإنساني في كل المجتمعات...

■ **يا ساتر. أستاذ إبراهيم، أكرر مرة أخرى أن الحضارة تراكم إنساني فلماذا تعمد إلى اعتبار الحضارة الغربية هي الحضارة الأقوى؟**

- مزية الحضارة الغربية ليست في القوة العسكرية فهذا الجانب هو أسوأ ماأنتجتْه وإنما مزاياها الكثيرة في الجوانب الإنسانية لكن مادام أنك طرحتَ هذا السؤال فإني لست بحاجة إلى أن أجيب بأكثر من أن أدعوك إلى أن تجيل بصرك فيما حولك لترى منجزات هذه الحضارة الفريدة الإستثنائية أما كونها الحضارة الأقوى عسكريًا فإن قوتها تجاوزت مستوى التساؤل أو التشكيك ويكفي التذكير بالسلاح الذري الفتَّاك

والسلاح الهيدروجيني المدمِّر بل لسنا في حاجة إلى التذكير بذلك فيكفي ما دون ذلك فإن أسطولاً واحداً من أساطيل أمريكا وحدها أقوى من كل ما عرفته الإنسانية من قوة عسكرية منذ وجود الإنسان على هذه الأرض وهذا لا أظنه موضع خلاف!!!!. . .

- **بهذا المنطق دعني أسألك: إذا كانت الحضارة الغربية المعاصرة امتداداً لحضارة اليونان، فلماذا لم يستطع الغربيون تحقيق نقلتهم النوعية إلا بعد ألفي سنة فصلتهم عن اليونانيين القدماء. فهل كان اليونان والرومان لا يفكرون؟!**

ـ إن الثقافة اليونانية كانت طفرة هائلة ولكنها كانت سابقة لعصرها سبقاً عظيما فلم تكن الثقافات البشرية قادرة على الارتقاء إلى مستواها ولا استيعابها وقد انحصرتْ تلك الطفرة في بقعة صغيرة من الأرض ولم تكن أيضا تلك البقعة خالصة لها بل كانت اسبارطة ضدها لذلك انهارت قوتها المادية وبقي تراثها الفلسفي الباهر وقد حاول الاسكندر نشر هذا التراث فانتهى نهايته المعروفة ثم ورث الرومان التراث اليوناني ولكن بعد أن اختلطت به ثقافة الشرق فأفسدته لكن الاشعاع الباقي منه كان كافيا وقد نشره الرومان في أوربا الغربية ثم حصل التدهور في الحضارة الرومانية نفسها ودخلتْ أوربا في مرحلة القرون الوسطى المظلمة ثم أفاقت أوربا من ذلك السُّبات واستعادت التراث اليوناني واستأنفت المسيرة الحضارية الظافرة. . .

ـ ٤ ـ

مكاشفات إبراهيم البليهي ـ الجزء الرابع

في رابع مكاشفاته قال المفكر السعودي إبراهيم البليهي إن فرانسيس فوكوياما لايقول ببلوغ نهاية التقدم ولكنه يؤكد عقم النظم الشمولية وتضاؤل فرصها في المستقبل ودافع البليهي عن نظرية فوكوياما وأبان أن الرجل لم يتراجع عن رأيه بل إنه ما زال مقتنعا تمام الإقتناع بأن الشعوب حين تملك خيارها فإنها لن تعود مرة أخرى إلى تجارب الأنظمة الشمولية كالشيوعية وبأنه لابديل عن الليبرالية ولا عن النظام الديمقراطي وتطرقت المكاشفة إلى دور الدين في الحضارة الغربية وقال البليهي إن العلمانية في الغرب لا تعني نفي الدين أو التخلي عنه أو محاربته أو قمع القائمين عليه بخلاف ما هو شائع خطأ عندنا وإلى تفاصيل المكاشفة:

■ **هنا أستاذ إبراهيم ألا تعتبر الحضارة العربية والإسلامية قد حققت هذه القفزة النوعية؟**

ـ الحضارة الإسلامية حضارةٌ عظيمة وليس لها مثيل في المجال الذي أفرَغَتْ فيه جُلّ طاقتها وركّزتْ عليه كل اهتمامها فقد أنجزتْ في الاتجاه الذي استغرقتْ فيه إنجازات عظيمة غير مسبوقة وهو مجال

الفكر الإسلامي في: العقيدة وأصولها والفقه وأصوله والتفسير وأصوله والحديث وأصوله واللغة وعلومها وغير ذلك من العلوم الإسلامية الأساسية أو العلوم المساندة لكنها لم تحقق أي تغيرات نوعية في المجالات الدنيوية لا في الحقول النظرية ولا في الممارسات العملية ويستطيع أي باحث أو مثقف أن يقارن بين الحضارة العربية وغيرها من الحضارات القديمة من جهة وبين الحضارة اليونانية وامتدادها الحضارة الغربية وما حققته من تغيرات نوعية من جهة أخرى ليعرف هذه الحقيقة الناصعة ومن المعلوم أنه حتى الإزدهار الياباني أو الكوري أو الصيني ما هو إلا امتدادٌ لابتكارات الغرب أما الحضارة العربية فلم يكن لها أي إسهام في هذه التغيرات النوعية أو في هذه القفزة كما تسميها. . .

■ وماذا عن الإزدهار الذي تحقق في بغداد المأمون والرشيد وجامعات الأندلس الزاهر. . ؟

ـ أكرر القول بأن الحضارة الإسلامية حققت إزدهاراً هائلاً في المجال الذي استغرقتْ فيه وهو المجال الديني أما المجالات الدنيوية فلم تحقق أيَّ تغيرات نوعية لا في بغداد الرشيد والمأمون ولا في الأندلس وإنما حصلت ترجماتٌ للفكر اليوناني كانت محل اهتمام أفراد معدودين في بغداد والأندلس إنها إضاءات مجلوبة من اليونان وقد بادر الجانب الغامر والغالب في ثقافتنا بإطفاء هذا التحرُّش الفكري الهامشي الذي اعتبرتْه ثقافتنا خارجاً عن همها ومعاكساً لمهمتها التاريخية ولم نكتف بهذا الإطفاء وإنما بقينا خلال القرون التالية نكيل التهم لمن حاولوا نشر تلك الإضاءات بيننا ومن ناحية أخرى فإن عصر المأمون هو أزهى العصور العربية في مجال الفكر الإنساني لكنه انطوى أيضا على

خلل جوهري فالمأمون أراد إلزام العلماء والمجتمع بما اقتنع به هو وهذا يتنافي مع الفكر اليوناني الحر الذي حاول بعضُنا اقتباسه كما أنه يفقد شرط الفاعلية الفكرية فالإزدهار ينهض على صراع الأفكار وليس على الإحتكار إنه يقوم على مبدأ الإقناع وليس على الإخضاع ومتى فَقَدَ هذا الشرط فإنه ينقلب من فكر مُحَرِّك إلى أيديولوجيا قامعة تطفئ الفكر وتجمِّد العقل وتشلُّ الثقافة وتدفعها إلى التحجُّر. . .

■ **هل تعتبر الدين مكوناً رئيساً للحضارة؟ وما موقعه في الحضارة الغربية المعاصرة؟**

- نعم إن الدين مكوِّن رئيسي في كل الحضارات وما زالت المسيحية ذات تأثير كبير على الحياة في المجتمعات الغربية رغم كل مظاهر التحرر فالإنسان كائنٌ متديِّن وحتى حين يعجز عن بلوغ اليقين الديني ويصاب باليأس فإنه يذوب في فكرة بديلة يتمحور حولها بل أكثر من ذلك فإن محاربة الدين هي تديُّنٌ معكوس لأن الإنسان لايعيش إلا وهو ملتفٌّ حول قضية مركزية يمحضها اهتمامه ويستمد منها قيمة وجوده إن البعض يتناقلون دون تثبُّت بأن الغرب قد تخلى نهائيًا عن الدين ولكن الواقع أن الدين ما زال في الغرب يمارس تأثيره القوي على تفكير الناس وسلوكهم وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية لأن المستوطنين الأوائل كانوا من (الكويكرز) الذين فَرُّوا بدينهم من أوربا بسبب التعصب المذهبي الذي كان سائداً في ذلك العصر فتوارث الأمريكيون هذا الارتباط الشديد بالدين وحتى في أوربا ما زال الدين حاضراً بقوة في حياتهم ومن الشواهد على ذلك أن الذاهب إلى أي بلد أوربي يلاحظ في الفنادق أنه يوجد بجوار كل سرير في كل غرفة نسخة

من الإنجيل وهذه ظاهرة من ظواهر كثيرة تؤكد استمرار تأثير الدين المسيحي في حياة الغربيين إنهم لا يضعون لك أحد كُتب ديكارت أو هيجل أو لوك وإنما يضعون الإنجيل إنهم رغم كل الانفتاح ما زالوا مشدودين لدينهم ولكتابهم المقدس ويخطئ من يتوهم أن الأوربيين قد تخلَّوا عن الدين إنهم يرفضون أن يكون لرجل الدين سلطة إلزامية أما الدين ذاته فإنهم ما زالوا يؤمنون بأهميته وله تأثيرٌ قويٌّ وتلقائي على سلوكهم . . .

■ **كيف يكون للدين مثل هذا التأثير الذي تؤكده مع أن المجتمعات الغربية مجتمعات علمانية؟**

ـ إن العلمانية في الغرب لاتعني نفي الدين أو التخلي عنه أو محاربته أوقمع القائمين عليه بخلاف ماهو شائع خطأ عندنا فالعلمانية عندهم تعني عدم إنفراد رجال الدين بالوصاية على المجتمع فلا يتحكمون في نشاطه فيحددون له مايجوز وما لا يجوز عمله ولا يسيطرون على الحياة العامة فتنحصر فيهم المرجعية لكنهم في الغرب ناشطون وفاعلون ومؤثِّرون إنهم ما زالوا مرجعية مُرشدة لكنهم ليسوا المرجعية الوحيدة المُلزمة إن رجال الدين في أوربا وفي الغرب عموماً ما زالوا يُشَكِّلون حضوراً مؤثِّراً لكنهم لايملكون سلطة فَرْض آرائهم خلافاً لما كان سائداً في العصور الوسطى حيث كانوا مسيطرين ولهم الكلمة العليا أما الآن فإنهم يكتفون بإعلان مواقفهم في الأمور العامة والخاصة ولكنهم لايملكون إلزام المجتمع ولا الأفراد بهذه المواقف كما أنهم لاينفردون بالتوجيه إنهم أصبحوا يملكون سلطة الإقناع لا سلطة الإخضاع إن المؤسسات الدينية ما زالت ناشطة في كل

المجتمعات الغربية ولها تأثير قوي على الخيارات العامة والفردية بل إن أحزاباً سياسية كثيرة في أوربا تحمل الإسم الديني وعلى سبيل المثال فإن الحزب الحاكم حالياً في ألمانيا يحمل إسم: (الإتحاد المسيحي الديمقراطي) فالدين ما زال له اعتبار كبير في الغرب وكذلك المؤسسات الدينية ما زالت مؤثرة لكنها لاتنفرد بالتأثير فكل الإتجاهات بما فيها الاتجاه الديني تعمل بحرية وتُعَبِّر عن أرائها ومواقفها بكل ماتملك من وسائل بل إن نشاطها معفى من الضرائب فهي تنال التشجيع والاحترام فأوربا وأمريكا تتيحان لرجال الدين أن يقولوا كل مايودون قوله وأن يبذلوا كل ما يستطيعون لإقناع الناس بآرائهم ومواقفهم فالحياة هناك تقوم على الإقناع وليس على الإخضاع فالناس هناك يسمعون من كل الاتجاهات المتعارضة ويتأثرون بجميع الأراء فصراع الأفكار هو الذي حقَّق لهم هذا الإزدهار الشامل الذي يعيشونه لأنه ليس مسموحاً لأي اتجاه ديني أو دنيوي أن يحتكر حق التعبير ويقمع الاتجاهات المغايرة وإنما هذا الحق مكفولٌ للجميع فالعلمانية في الغرب لاتعني استبعاد الدين وإنما تعني عدم احتكار رجال الدين لحق التعبير والتوجيه والوصاية كمرجعية وحيدة حاسمة لكن نصيب رجال الدين في التأثير ما زال قويًا في الغرب غير أنه ليس وحيداً متفرّداً كما أنه لم يَعُدْ يملك سلطة الإلزام...

■ هل تتقاطع أو تتشابك بطريقة أو بأخرى مع نظرية فوكوياما (نهاية التاريخ)؟

- نعم إنني أتفق مع فوكوياما تماماً في أن المستقبل للفكر الحر وللنظام الديمقراطي وأن الأنظمة الشمولية القامعة لن تجد مستقبلاً من

يرضاها وقد لاحظتُ أن أكثر الذين نقدوه في العالم العربي قد أخطأوا في فهم قصده فتسرَّعوا في الحكم عليه قبل التحقق مما يعنيه اكتفاء بما يوحيه عنوان مقاله ثم عنوان كتابه فهو يعني بنهاية التاريخ أن الإنسانية خلال القرون وبالذات خلال القرن العشرين قد جرَّبتْ الكثير من النُّظُم السياسية والإجتماعية والإقتصادية وأنها بعد هذه التجارب المريرة قد تحققت عن أفضل هذه النظم فلقد فشلتْ النظم الشمولية كالماركسية وتخلى عنها حماتها والمدافعون عنها فسقط الاتحاد السوفييتي وانهار المعسكر الشرقي وتخلَّتْ الصين عن التصلب الماركسي وانفتحت على الآفاق فالأمم والشعوب صارت تتجه نحو الليبرالية ولكن الاتجاه لايعني بلوغ النهاية وإنما يعني التوقف عن معاداة الليبرالية والكف عن مواصلة البحث عن بدائل أفضل فالتجارب قد أثبتت أنها أفضل البدائل لكن الأفضلية لا تعني الكمال ولا التوقف عن التحسين والتطوير وإنما تعني الاستمرار في اكتشاف النقائص والعمل على تجاوزها. . .

إن فوكوياما لايقول ببلوغ نهاية التقدم ولكنه يؤكد عُقْم النظُم الشمولية وتضاؤل فرصها في المستقبل فقد تساقطت وانكشفت عوراتها كالنظام الشيوعي وبهذا ثبت بأن الليبرالية هي الاتجاه الذي ثبت نجاحه لأن الإنسان كائنٌ تلقائي فلا يبدع وينتج ويتقن وتتأسَّس قدراته وتكتمل مهاراته إلا إذا كان حُرًا ومندفعاً عن رغبة بشكل تلقائي أما التقييد والإلزام فإنه يفسد القابليات ويئد القدرات وبهذا فإن الليبرالية هي البيئة المناسبة للنمو والتقدم وتحقيق العدالة الإجتماعية النسبية والمحافظة على الكرامة الإنسانية وقد قرأت لقاءك مع فوكوياما كما قرأت كل التعليقات التي صاحبتْ اللقاء أو جاءت تعليقا عليه لكني أختلف معك وأتفق معه بأن الشعوب إذا أتيح لها الخيار فإنها لن تعود مرة أخرى إلى

النظم الشمولية فقد سقطتْ تلك النُظُم إلى الأبد وفي مقدمتها النظام الماركسي وخَلَتْ الساحة للتجربة الليبرالية كمناخ حر يتسع لكل الاتجاهات ويستوعب كل الاختلافات ويمكن أن تستخدمه كل الثقافات فالليبرالية هي البيئة السليمة التي تتعاضد فيها كل الطاقات وتتلاقح كل الأفكار وتتكامل كل النشاطات إنها تؤمن بقيمة الإنسان لذاته وليس لانتمائه كما أنها تلتزم بالنزعة الفردية وبالمساواة وبالشفافية وحق المساءلة وحق التعبير وحق المشاركة إنها تحشد كل الطاقات لخير الجميع فتحفز النمو الإنساني وتحرك التطور الحضاري في كل المجالات وتحفظ للإنسان فرديته وتحترم كرامته ففي ظلها توصَّلَتْ المجتمعاتُ الغربية إلى أقل الأنظمة سوءاً وهو النظام الديمقراطي وما زالت المجتمعات الغربية تتعرف على عيوب هذا النظام وتعمل على تطويره إن الليبرالية هي المناخ الوحيد الذي يستخلص أنضج الأراء وأنجح الأفكار فالليبرالية بيئة مفتوحة لكل العقول ومن صراعاتها تنمو الأفكار والنُّظُم وتتقدم العلوم والفنون والتقنيات وبها تتجدَّد الحياة وتزدهر الحضارة. . .

إن فوكوياما يؤمن بعجز الإنسان عن الكمال ويعترف بعيوب الديمقراطية لكنه يرى أن التجربة البشرية قد انتهت إلى رفْض الأنظمة الشمولية وسقوطها إلى الأبد ويقتضي ذلك عنده أن الاتجاه الليبرالي هو الاتجاه الأصلح وأنه النموذج الصحيح ولكن صحة الاتجاه لاتعني بلوغ الغاية ولا تحقيق الكمال وإنما هو يؤكد أن الاتجاه صحيحٌ وأنه بمواصلة السير معه تتطور التجربة وتنضج الممارسة فَنَقْدُ الواقع ومواصلة تحسينه سمةٌ رئيسية في المناخ الليبرالي إنها لاتؤمن بالنهايات ولا ترضى بالتوقف بل إن تَقَدُّمَها الباهر قد تأسس على النقد ونقد النقد إلى مالا نهاية. . .

صحيحٌ أن كتاب فوكوياما يحمل عنوان (نهاية التاريخ) لكن الذي يقرأه يتضح له أنه لا يقصد معناه الحرفي وإنما يقصد أن الأمم والشعوب إذا ملكت حق الاختيار فإنها لن تعود مرة أخرى إلى النُّظُم الشمولية فالليبرالية في نظره قد تجلَّت أهليتها وظَهَرَ الكثيرُ من إيجابياتها فهو فقط يؤكد وضوح صحة الاتجاه الليبرالي ونهاية البحث عن البدائل إن فوكوياما لم يقل بأن الأمر انتهى أو أن البشرية لن تتقدم أكثر مما تحقق بل إن البشر حسب نظريته سيستمرون في التقدم لكنهم لن يغيِّروا المسار تغييراً جذريا كالتحول مرة أخرى مثلاً إلى الشيوعية فسوف يواصلون تحسين النظام الديمقراطي إلى مالانهاية فالغربيون عندما يتحدثون عن الديمقراطية ومنهم فوكوياما يقولون إنها أقل الأنظمة سوءاً ولا يقولون بأنها كاملة بل يؤكدون بأن الديمقراطية بأمس الحاجة إلى التطوير المستمر ولكنها النموذج الذي ينبغي أن يُطَوَّر لكن لامجال للبحث عن بديل مختلف جذريا وإنما يجب أن يتواصل العمل للمزيد من التطوير والإرتقاء وتجاوُز النقائص في الأفكار والنُّظُم والآليات والإجراءات والأداء إن هذا هو ملخص نظريته. . .

■ **يا أستاذ إبراهيم فوكوياما بذاته وبعد عشر سنوات كتب مقالة نقض فيها تلك النظرية وأنت تقول بها. . كيف هذا؟**

ـ إن هذا القول ليس صحيحاً وإنما هو من الأوهام التي راجتْ إن فوكوياما لم يتراجع عن رأيه بل إنه ما زال مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الشعوب حين تملك خيارها فإنها لن تعود مرة أخرى إلى تجارب الأنظمة الشمولية كالشيوعية وبأنه لابديل عن الليبرالية ولا عن النظام الديمقراطي لكنه يؤمن في الوقت ذاته بنقائص هذا النظام وحاجته الشديدة إلى التطوير المستمر كما أنه بات أكثر إدراكاً بأن سلامة الاتجاه

لاتكفي لكي يقتنع الناس به فالعوائق الثقافية والسياسية والإجتماعية والإثنية ما زالت صامدة وقد أصبح أكثر إدراكاً لهذه العوائق وأشد اقتناعاً بصلابتها لقد بات يدرك فظاعة الحواجز التي تحدِّد خيارات الشعوب فهو يعلم بأن الكثير من الشعوب لاتملك مثل هذا الخيار إنه مقتنع بانتصار الليبرالية على المدى الطويل غير أنه بات إدراكه للعوائق أشد من ذي قبل لقد أعلن أنه كان متفائلاً أكثر مما تسمح به الطبيعة البشرية وكان يظن أن الناس سيكونون أسرع اكتشافاً لسلامة الاتجاه الليبرالي بعد سقوط المعسكر الشيوعي ولكن اتضح له أن المتخلفين غير قادرين على أن يروا هذا الضوء الساطع وأن هذا السطوع يجري حجبه في الكثير من المجتمعات بألف عائق عمداً أو جهلاً لقد أصبح أقل تفاؤلاً وأشد إدراكا للعوائق السياسية والإجتماعية والثقافية التي تحدُّ أو تجهض خيارات الشعوب ولكن هذا الإدراك لايعني التراجع عن رؤيته بل يعني اكتشافه لعوائق أكثر مما كان يتوقع تُؤخر الأخذ السريع بالخيار الليبرالي . . .

■ **والله شيء عجيب ما يجعلني أسألك عن هذا الدفاع المستميت الذي نتلمسه منك عن الحضارة الغربية؟**

ـ ليس دفاعاً عن الحضارة الغربية ولكنه تصحيحٌ لفهم خاطئ وتجليةٌ للمعنى المقصود ودفاعٌ عن الحقيقة الناصعة ومرافعة عن الكرامة الإنسانية ودعوة إلى التقيم الموضوعي النزيه فالمتخلفون هم الخاسرون حين يتجاهلون الحقائق أو يتعامون عن الطريق فالحق أحقُّ أن يتبع . . .

■ **ليكن هذه الدعوة التي تقول بها بما فيها من جلد ذات واحتقار للعقل العربي جعل من بعض معارضيك يتهمونك بالشعوبية . أين أنت من هذه التهمة؟**

ـ إن المجتمعات المزدهرة تفخر بأبنائها الذي يكشفون لها أخطاءها ويُعَرُّون نقائصها لكي تتدارك الأخطاء وتتخلى عن النقائص فالعرب وحدهم هم الذين يستنكرون أن ينتقدهم أحدٌ أما الذي يدفعه الحرص إلى أن ينبِّه أمته فإنه يوصم بالشعوبية وهي ظاهرة لاتوجد عند أية أمة أخرى فالعرب قد اعتبروا أنفسهم مركز الكون وجوهر البشرية فلا يجوز توجيه النقد إليهم ولا كشف أخطائهم أما الذي يتجرأ فيخالف هذا الموقف التمجيدي فهو شعوبي وليس في آداب الأمم الأخرى ما يقابل هذا الوصف فالشعوبية من اختراعاتنا العجيبة!!! أما أنا فإنني في هذا النقد والتحليل والتوصيف أحاول أن أقوم بدور الطبيب فأشخص مرض المجتمع العربي بأقصى ما أستطيع من الإهتمام والدقة ثم أعلنه بأمانة ووضوح وأقترح العلاج بمنتهى الإخلاص والحب أما إذا استمر المجتمع ينكر مرضه فسوف يبقى من غير علاج لقد أثبتت تجارب الشعوب بأن التقدم مشروطٌ بقبول النقد دون تحفُّظ ولا تحديد ولا حجْر والاستفادة القصوى من كل الأفكار وفتح القنوات لكل الروافد والإصغاء لكل الأراء والسماح في التعبير الحر لجميع الاتجاهات أما الضيق بالنقد فهو برهانٌ على المرض والسذاجة والضعف والإنغلاق والبدائية والجهل والغرور والانتفاش والعجز والكلال إننا نحن العرب لانطيق النقد مهما كان صادقاً وضروريا لذلك بقينا ندور في مسارات التخلف بينما الغربيون وهم في القمة ينتقدون أنفسهم ليل نهار وهذا هو الذي جعلهم يتقدمون كل هذا التقدم الباهر لأنهم لايتوقفون عن نقد ذاتهم مهما بلغوا من إزدهار إنهم يتقدمون بسرعة هائلة لكنهم يرون أنهم ما زالوا في مستوى لايليق بالإنسان!!! ويريدون أن يصعدوا إلى ما لا نهاية بينما نحن العرب في الحضيض ومع ذلك لا نطيق النقد بل إننا

نرفض النقد لأننا في الحضيض فنحن عاجزون عن إدراك قصورنا وإنْ أَدْرَكْناه فإننا نحن العرب غير مستعدين للإعتراف به ومن هنا جاء عجزنا الفاضح عن مبارحة متاريس التخلف!!!...

■ **إذا كان النقد عندك يعني الإقرار بالتأخر والتخلف وتقدم الآخرين، فالأمة لم تتوقف قط عن هذا النقد. لكن المشاريع العملية هي ما تحتاجه الأمة. فماذا لديك سوى ما تسميه نقداً، ويسميه الآخرون (جلد ذات)؟**

- بالعكس إننا في ثقافتنا العربية على امتداد التاريخ نجيد التقريظ الذي يتجاهل القصور في مَن نحبه ونبجله أو التسفيه الذي لايعترف بجوانب الكمال في مَن نكرهه ونحتقره إننا نكون مع طرف دون أي تحفظ وضد طرف دون أدنى تدقيق فنحن العرب نجيد الهجاء الماحق أو المدح المطْلق ولا نُحسن التقييم الموضوعي النزيه إننا ذاتيون حتى النخاع ومن النادر أن نتعامل أو نتصرف أو نقيِّم بموضوعية وحياد وهذا على مستوى التعامل الفردي أما على مستوى رؤيتنا لذاتنا العامة: لواقعنا وتاريخنا وتراثنا فإننا كنا ومازلنا نواصل تمجيد أنفسنا تمجيداً مطلقا رغم ما نعانيه من تخلف مُشين كمانواصل القدح بالآخرين وإزدرائهم وهجائهم وشحن العواطف ضدهم رغم ماحققوه من إزدهار إنَّ آفتنا فظيعة وعلاجها الوحيد هو التخلي عن إدعاء الكمال وعن توهُّم الإكتفاء وتَرْك المكابرة والكف عن الإنغلاق والاعتراف بالعجز والهوان وقبول النقد وفتح المجال واسعاً لصراع الأفكار والاستفادة القصوى من تجارب المزدهرين وتوطين العمل الجاد وتشجيع الصدق مع النفس ومواجهتها بالحقائق المرَّة فالمجتمعات لاتتقدم إلا بما تضيفه لواقعها

الحاضر وتتجاوز به ماضيها القريب والبعيد فلولا الإضافات والإبداعات والابتكارات والاختراعات والتصحيحات التي حققها المزدهرون الواثقون لما تقدمت الإنسانية ولبقيت تدور في نفس المسارات فالنقد الموضوعي هو جهاز المناعة الذي يحمي الأمم من السقوط...

■ **أنت أستاذ إبراهيم معجب بالجانب الإنساني والقيمي عند الغرب، كيف تفسر لنا شقاء الإنسانية اليوم بسبب الغرب الذي يحاول فرض قيمه الغربية على أمم البسيطة، ودونك العراق وأفغانستان؟**

- حين تؤكد (شقاء الإنسانية اليوم بسبب الغرب) فإني لاأشك بأنك تُطْلق مثل هذا الكلام دون أن تُمَحِّصه لأن الحياة الإنسانية في هذا العصر أفضل بما لايقاس من الحياة في القرون القديمة إن الحضارة الغربية قد وفَّرت لكل الناس حتى الذين يحاربونها ويشتمونها من الإمكانات والقدرات والحماية والضمانات والتسهيلات ومن العلاجات ومزيلات الآلام ومن وسائل الرفاه مالم يكن متاحاً في العصور الغابرة حتى للأباطرة فهل تستطيع أنت الآن أن تنام في (حر) مدينة جدة إذا إنطفأ المكيِّف؟!!! إننا ننسى التغيرات الإيجابية العظيمة التي وفَّرتها الحضارة المعاصرة فنطلق الأحكام القاصمة دون مراجعة ولا تدقيق فأيهما أدعى للمشقة والعُسْر أن تسافر بالطائرة أو القطار أو السيارة أم أن تسافر على حمار أو بغل أو بعير؟!!! هل تريد أن نعود لمطبخ (الحطب) ونتخلى عن مواقد الغاز والميكروويف وأفران الكهرباء والغلايات التي ترافقك حتى في سيارتك؟!!! وهل تستطيع أن تستغني عن هاتفك المحمول وعن الجريدة وعن الكمبيوتر وعما لاحصر له من التيسيرات الرائعة؟!!! فأين الشقاء الذي تسبَّبَتْ به الحضارة الغربية؟!!!

إنه حُكم في منتهى الارتجال وأقصى درجات الجور!!! إننا نُطلق الأحكام جزافاً من غير أي تمحيص!!! بل إن منجزات الغربيين في مجال القيم الإنسانية أهم من انجازاتهم في المجالات المادية فلأول مرة في التاريخ تصبح حقوق الإنسان ذات أولوية في القوانين والإجراءات وتصير شأناً إنسانياً عالميًا إن الشقاء الإنساني لم يأت من القيم الغربية وإنما جاء من رَفضها وعدم إدراك أهميتها أو من عدم التزام الذي يتبنونها أو من القصور في تطبيقها إن المجتمعات تزدهر وتتحسَّن أوضاعها بمقدار ما تأخذه من القيم الرفيعة الطارئة ولكن رَفْضَ المجتمعات المتخلفة لهذه القيم هو الذي أبقاها في هذه الأوضاع البائسة فاستمرت ترزح تحت أثقال الفقر والمرض والاستبداد والكلال والتخلف فهذا الرفض هو الذي أوصل الصومال وأفغانستان والسودان وباكستان واليمن وغيرها إلى أوضاعها المأزومة البائسة إن هذا الرفض هو الذي أدام كل المساوئ التي يعيشها الناس في المجتمعات المتخلفة إن العالم الغربي هو صاحب الفضل في تخفيف الشقاء الإنساني بما وفَّره للعالم من تسهيلات لاحصر لها وبما ابتكره وأوجده من تنظيمات وأعراف وضوابط وقيم ومنظَّمات تدافع عن الإنسان وتوفر له الحماية إن المجتمعات المتخلفة تُلحق بنفسها الضرر البالغ حين تتجاهل أن القيم الإنسانية العظيمة الطارئة هي مصدر الإزدهار الذي يعيشه العالم المزدهر فلا بد أن ندرك بأن محاربة هذه القيم هو الذي أطال أمد التخلف وأدام البؤس والفقر والتعاسة والشقاء في المجتمعات المتخلفة...

- **سامحني على صراحتي أستاذ إبراهيم، فكل هذا الدفاع والوصف للغرب والإعجاب بما أنجزه الغربي ولكن ثمة ثغرة كبيرة برأيي تشكك في حكمك، فأنت بكل هذا الإعجاب لم تعش بين ظهراني**

القوم ولم تمكث الفترة الكافية في الغرب حتى تتضح الصورة الكاملة لك ومن ثم تستطيع الحكم بعلمية أكثر؟

ـ لو أخذنا بهذا المنطق الغريب الذي تقوله لما كنا قادرين على فهم الإسلام الذي هو أعظم مانفخر به لأننا لم نصاحب الرسول صلى الله عليه وسلم ولم نعايش وقت الرسالة وإنما وصلتْ إلينا تعاليم الإسلام وأحكامه عن طريق النقل والكتب فنحن نقرأ القرآن الكريم والسنة النبويةوالسيرة الطاهرة فنعرف الإسلام من خلال هذه القراءة ثم إن العالم كله يتعلَّم في مدارسه ومعاهده وجامعاته أفكار وعلوم وتقنيات ونُظُم الغرب فلو كان ذلك يتطلب أن يعيش كل الناس من جميع الشعوب في الغرب لكان التعلُّم محالاً!!!! فالمراجع المكتوبة هي مصادر العلوم ومنها يُستمَد التعلُّم أما المشافهة فهي مصدر الجهل المركَّب والبرمجة التلقائية إننا نعرف عن طريق الكتب أعماق الكون والمجرات والكواكب وخفايا (الخلية الحية) وعناصر المادة مع أننا لم نشاهدها بأنفسنا ولم يشاهدها في العالم كله سوى عدد محدود من العلماء ومثل ذلك يقال عن كل العلوم فأولئك العلماء وصفوا لنا كتابةً ما شاهدوه وما توصلوا إليه فعرفناه عن طريق قراءة ماكتبوا لكن يبدو أن ثقافة الحس وثقافة المشافهة ما زالت تسيطر على أذهاننا نحن العرب فلا نعترف إلا بما نراه ونلمسه ونسمعه!!! كما أن المعترض ينسى أننا بواسطة التلفاز والانترنت نرى مايجري في البلدان الأخرى واقعاً جياشًا بالحركة والحياة ونعرف كل مايدور فيها وكأننا نعيش مع أهلها فالزعم بأنني لن أعرف ثقافة الغرب وواقعه وحضارته وتاريخه وتراثه وفلسفته وعلومه وآدابه إلا إذا عشت فيه هو زعمٌ غريب وفج وساذج ويتعارض مع بداهات المعرفة ومع أبجديات التعلُّم!!! إن الذي يعيش في الغرب

ولم يقرأ عنه ولم يستوعب تراثه ولم يتعرف على المنابع الفكرية لواقعه لن يعرف شيئاً عن العلم والفكر والفلسفة والفن والأدب بينما تتاح هذه كلها للباحث الذي لم تطأ قدمه أي بلد غربي!!! ولكن الأغرب أن هذا الاعتراض الساذج قد راج وسمعته من أكثر من واحد رغم تهافته الواضح!!!...

■ **ولكن الجانب الأخلاقي هي عبارة عن ممارسة يكتشفها المرء عن طريق الاحتكاك والتعامل لا عن طريق الكتب؟**

ـ إن هذا الاعتراض تنقضه البداهات الإنسانية فنحن المسلمين في هذا العصر رغم فاصل القرون نعرف أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم بمنتهى الدقة والتفاصيل فنستوعبها وكأننا رأيناه وعايشناه عليه الصلاة والسلام فليس مقبولاً أن يدعي مسلمٌ بأنه لا يستطيع الإلتزام بأخلاق الإسلام بدعوى أنه لايعرف أخلاق الرسول ولا الأخلاق الإسلامية بحجة أنه لم يعايش الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما وصلتْ إليه وصفاً في الكتب!!! إن هذا الإدعاء مرفوض عند الجميع فحين تتعارض أخلاقنا مع أخلاقه عليه السلام فليس مردُّ ذلك إلى أننا لا نعرف كيف كان يتعامل ولا كيف كانت أخلاقه وإنما لأننا لا نلتزم بتلك الأخلاق الرفيعة فلا يصح القول أبداً بأن المعرفة تتوقف على الرؤية المباشرة أو السماع المباشر أو المعايشة الدائمة ولو صح هذا الزعم لكان التعلُّم محالاً بل إن ملايين من الناس يولدون في الغرب ويعيشون فيه ولا يستطيعون أن يدركوا مزاياه ولا عيوبه فالمعايشة والتطبُّع وحدهما لايُكسبان المعرفة النظرية إنما تؤدي المعايشة إلى التشبُّع التلقائي حتى للأميين ثم يفيض عنه السلوك وينساب منه بشكل

عفوي من غير معرفة نظرية ومن دون إدراك للأسباب فالأمي يعايش ويتبرمج بهذه المعايشة لكنه بذلك ليس عالماً وإنما هو مُتَطبِّع بالواقع تطبُّعاً تلقائيا إن تهافت هذا الاعتراض تجعله ليس أهلاً حتى للمناقشة لكن ماذا نفعل ونحن نتجاهل البداهات؟!!!. . .

ـ ٥ ـ

مكاشفات إبراهيم البليهي ـ الجزء الخامس

في الحلقة الأخيرة من مكاشفاته قال المفكر السعودي إبراهيم البليهي «إن في الليبرالية عز المسلمين وإنها هي المناخ الأنسب الذي يتيح للإسلام أن يجسد مبادئه العظيمة في العدل والمساواة وحفظ الكرامة الإنسانية وإسعاد البشر» ورفض البليهي الحكم على الغرب من خلال بعض الانحرافات السلوكية مؤكدا أننا نتوهم أن الغربيين قد تخلوا عن الفضائل بسبب تساهلهم في العلاقات الجنسية وهذا تقزيم لمعنى الأخلاق في رأيه وتطرقت المكاشفة إلى تعريف الليبرالية والعلمانية لديه وإلى تفاصيل المكاشفة:

■ **الغريب أنه حين يأتي الحديث عن أمراض الحضارة الغربية تُقَلِّل من شأنها فالانحرافات الجنسية الشائعة هناك والتي تهدد نظام الأسرة أنت تراها فقط مجرد (صندوق زبالة في قصر فخم) كما قلت في إحدى لقاءاتك؟**

ـ الأخلاق مضمونٌ جوهريٌّ ومعنى شاملٌ إنها التجسيد التلقائي للأفكار والعلوم والآداب إن الإزدهار يمكن أن يتحقق مع نقص المعارف والتقنيات لكنه محالٌ إذا غابت الأخلاق الإنسانية البانية

فلايمكن أن يزدهر أي مجتمع إلا إذا كان ملتزماً تلقائيا بأخلاق الأمانة والإتقان والصدق والإخلاص والتحقُّق والإنضباط والشفافية والتواضع والعدل والإهتمام بالمصلحة العامة والاعتراف بالأخطاء وعدم التعصب الأعمى للمواقف والآراء وكشف المخالفات والمحاسبة على التجاوزات وتكريس الإهتمام لأي فكر جاد أو عمل نافع واستهجان الإهمال ورفض التسيب واحترام حقوق الآخرين ورفض الظلم إلى غير ذلك من الأخلاق البانية وهي أخلاق يعيشها الناس في الغرب سلوكاً تلقائيا من دون تكلُّف ومن غير استدعاء للإنتباه لايختلف في ذلك سائق التاكسي عن أستاذ الجامعة فهو سلوكٌ عفوي تلقائي فهذه الأخلاق تنساب منهم سلوكا عفويا لأنهم معتادون عليها مما جعلهم يحققون هذا التفوق الحضاري الباهر إننا نتوهم أن الغربيين قد تخلَّوا عن الفضائل بسبب تساهلهم في العلاقات الجنسية وهذا تقزيمٌ لمعنى الأخلاق فنحن نحصر الأخلاق إيجاباً أو سلباً في العلاقات الجنسية وهذا خطأ أخلاقي وخطأ معرفي فكل سلوك جيد هو أخلاقٌ جيدة وكل سلوك رديء هو أخلاقٌ رديئة فتبادُل الإحترام مثلاً بين الناس هو أخلاقٌ جيدة وعكسه أخلاقٌ رديئة وتجويدُ العمل أخلاقٌ جيدة وعكسه أخلاقٌ رديئة والإهتمام بالواجبات أخلاقٌ حميدة أما الإهمال فهو أخلاقٌ سيئة وهكذا فالأخلاق ليست محصورة في العلاقات الجنسية ومن المعلوم أن الغرب قد امتاز في أخلاقه البانية ولولا ذلك لما حقق هذا الإزدهار العظيم فلا يمكن أبداً أن يتحقق الإزدهار مع انحطاط الأخلاق لكننا تشبَّعنا تلقائيا بتصورات خاطئة عن الغرب إن الإنسان تتكوَّن تصوراته بالامتصاص التلقائي من البيئة التي ينشأ فيها ونحن قد ترسَّخَتْ في أذهاننا صورةٌ شائهة عن الغربيين لذلك فإننا حين نذهب إلى بلدانهم لانرى إلا ما

يتفق مع الصورة الراسخة في أذهاننا عنهم فنركز على الجانب الهامشي السيء عندهم ونتجاهل كل الجوانب الجوهرية الإيجابية المضيئة إن في الغربيين نقائص كثيرة لكن مزاياهم تفوق عيوبهم وبسبب هذه المزايا حققوا هذا السبق المطْلق لقد رفعوا شأن الإنسان واكتشفوا قابلياته ووفَّروا له البيئة الحافزة لبناء ذاته وأتاحوا له الفرص لاستثمار قدراته...

■ **هل أنت إذن توافقني في أنه لا بد أن تعيش في أرضهم وترى الممارسة والتطبيق الحقيقي للأخلاق؟**

- بالعكس تماماً فالذين يذهبون منا إلى الغرب قد أعمتهم التنشئة فلم تنفع فيه المشاهدة والمعايشة فيتركز نظرهم على الجانب الهامشي السيء هناك ولا توقظهم التجليات الحضارية الرائعة وهذا يؤكد أن المعوَّل عليه ليس الذهاب إليهم ومخالطتهم ورؤية بلادهم ومعايشة أوضاعهم وإنما المهم هو الاستعداد لرؤية الحقائق فالذين يركزون على الجانب الهامشي السيء في الغرب هم الذين ذهبوا إليه وعايشوه وليس الذين لم يروه مما يدل على أن الأفاعيل الحقيقية هي لبرمجة الطفولة وما تشرَّبه الإنسان بالامتصاص التلقائي من البيئة لذلك فإنني أعارضك معارضة تامة فمعرفة أخلاق أي مجتمع لاتستوجب أن يعيش المرء فيه ولو كان ذلك صحيحاً لما كان للتاريخ أي معنى ولأصبحت المعرفة مستحيلة فنحن نتعلم آداباً وعلوماً ومعارف أَنْتَجتْها أجيالٌ مَضَتْ منذ قرون إننا نعرف أخلاق أمم غابرة طوتها الأزمنة السحيقة فكيف بأخلاق مجتمع نشاهد ونسمع ونتابع أوضاعه على مدار الساعة؟!! إننا نلتزم بتعاليم ديننا ونعرف سيرة رسولنا ونقتدي بسلوك الأخيار من أسلافنا ونحن لم نصاحبهم ولم نعش مع أحد منهم وإنما قرأنا عنهم فقط حيث

تفصلنا القرون عنهم!!! إننا نتباهى بكرم حاتم الطائي وفروسية عنترة بن شداد وبطولة كليب وعظمة الخلفاء الراشدين وأخلاق الأصفياء من السابقين ونحن لم نعش معهم وإنما قرأنا عنهم!!! فالقول بأنني لن أعرف أخلاق الغربيين حى أعيش بينهم هو قولٌ ساذج ويتعارض مع البداهات فلا يستلزم الأمر أن أعيش في الغرب لأعرف أخلاقهم ليس هذا فقط بل إن التغيرات النوعية التي وفَّرها الغربيون للعالم قد جعلت الدنيا كلها بمثابة وطن واحد فلم يَعُدْ الأمر الآن مجرد قراءة وإنما نحن نعيش معهم ومع غيرهم ونتفاعل مع كل العالم طول الوقت إن أوربا وأمريكا وأي بلد في العالم أصبح الآن أقرب إلينا من بعض مناطق المملكة قبل خمسين عاماً فالعالم أصبح قرية كونية وما يحصل في أي مكان يعرفه الأبعدون عنه مثل ما يعرفه الأقربون إليه فالبُعْد المكاني لم يَعُدْ حائلاً كما أن القُرْب المكاني لم يَعُدْ مزية فالمعرفة صارت مرهونة بدرجة الإهتمام والمتابعة والاستقصاء وليست مرهونة بالقرب المكاني لأن الغرب نفسه قد وفَّر من وسائل التواصل وسبل المعرفة ماأزال كل العوائق وألغى جميع المسافات ومن الغريب أن تكون مثل هذه البداهات بحاجة إلى مثل هذا التوضيح!!!...

- **أنت هنا تقرأ ترجمات فقط لكل هذه الكتب والتاريخ الذي تقول به. أستطيع المجازفة والقول أن فكرك أسير لهذه الترجمات فقط.**

ـ أغرب شيء أن تستخفَّ بالترجمة إلى هذا الحد وأن تستهين بالتواصل بواسطة الترجمات إلى هذه الدرجة لأنها الوسيلة التي اعتمدت عليه كل الأمم في التواصل الثقافي إن أكبر فيلسوف غربي (عمانوئيل كانط) لم يكن يجيد إلا اللغة الألمانية وأمثاله كثيرون من قادة الفكر

والرأي والعلم وهو يعلن بأن أشد الأشخاص تأثيراً فيه هو الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو والفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم وقد إطلع على إنتاج كل منهما مترجماً من اللغة الفرنسية بالنسبة لروسو ومن اللغة الإنجليزية بالنسبة لهيوم إنَّ كانط يؤكد بأن هيوم قد أيقظه من سباته المعرفي الوثوقي وبأن روسو قد أيقظه من سباته الأخلاقي فالترجمة هي وسيلة التواصل بين الأمم فالمعارف ليست محصورة بلغة أجنبية واحدة وإنما هي موزعة بين الكثير من اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية واليونانية والاسبانية والروسية واليابانية والصينية والسويدية والنرويجية والهولندية وغيرها فهل المطلوب أن يتعلَّم كل فرد جميع اللغات؟!!! إن الترجمة هي الوسيلة الصحيحة لنقل الأفكار والعلوم والفنون والآداب حتى الذي يتعلَّم إحدى اللغات الأجنبية بعد كبره سيجد صعوبة في الفهم لأنها لغة طارئة عليه وليست تلقائية وقد التقيتُ كثيراً بمتعلمين للعربية من الألمان واليابانيين والأمريكيين وغيرهم ورغم الوقت الطويل الذي قضوه في تعلُّم العربية والجهد الشاق الذي بذلوه فإنهم يتعثرون في اللغة تعثراً شديداً ومثل ذلك يقال عن العرب الذين يتعلمون في الكبر لغات أجنبية لذلك فإن العربي الذي يتعلم الإنجليزية مثلاً يفضِّل قراءة الترجمات بدلاً من المعاناة في فهم الأصل الأجنبي لأن المترجم الماهر المتمكن المحترف يوفِّر له الجهد بتقريب المعنى فلغة الأم يسهل بها الفهم والتعلُّم أما اللغة الطارئة فتبقى عصيَّة وغير تلقائية إلا بعد جهود مضنية إن كل الأمم التي ازدهرت بما أخذته من الغرب كاليابان والصين قد اعتمدت على الترجمة لتوطين العلوم والأفكار والآداب والفنون فلا يليق أن نقلل من شأن الترجمة أبداً فالقراء يختلفون في فهمهم للكتاب الواحد حتى لو قرأوه كلهم بلغته الأصلية

وهذه قضية كبرى لذلك أعتقد أن نقاشنا هنا غير سائغ ولا مفيد لأنه يناقش بداهات تجاوزها العالم بل ينقلنا من مستوى الفكر الفاحص إلى مستوى العوام وهذا لايليق في نقاش فكري...

■ **لنأخذ منحى آخر.. أنت تنادي بالليبرالية وترى أنها تخدم الإسلام كيف يكون ذلك؟**

- نعم إن الليبرالية هي المناخ الأنسب الذي يتيح للإسلام أن يجسِّد مبادئه العظيمة في العدل والمساواة وحفظ الكرامة الإنسانية وإسعاد البشر فمن حقائق الواقع الإسلامي أن للمسلمين نحو ستين دولة وأن أكثر هذه الدول ما زالت شديدة التخلف ولا يمكن أن يكون الإسلام ذاته هو المسؤول عن هذه الأوضاع البائسة المزرية وإنما الوصاية عليه هي التي إنكمشت بتعاليمه وحجبت أضواءه وأوصدت عليه في أُطر ضيقة فالليبرالية بما تتيحه من تنوع وتكامل وحراك ومرونة ونشاط وتوقد هي التي ستتيح لأضواء الإسلام أن تكون بكامل سطوعها وأقصى درجات إشعاعها بدليل أن ماليزيا وهي من أشد الدول اهتماماً بالإسلام وبقضايا المسلمين قد تبنت الليبرالية فاستطاعت بذلك أن تحقق إزدهاراً مشهوداً رائعاً يستحق الإحتذاء وكذلك تركيا بعد وصول الإسلاميين الليبراليين إلى الحكم فلقد حَدُّوا من الهيمنة المطلقة للعسكريين وتمكنوا بليبراليتهم الإسلامية من تحقيق قفزات مهمة في كافة المجالات وإذا أتيح لتركيا أن تستمر بهذا الانفتاح الناضج والنمو السريع الشامل فإنها سوف تصبح من الأقطار المهمة ليس فقط على مستوى منطقة الشرق الأوسط وإنما في العالم كله أما إن عادت قبضة العسكريين وخنقوا الليبرالية الوليدة فسوف تعود تركيا إلى ركودها الباهت وتختنق وعودها

المضيئة إن تميز ماليزيا وتركيا من بين الدول الإسلامية يدل على أن المناخ الليبرالي هوالحل...

كما أن تجارب الأمم الأخرى تؤكد أنه لايمكن أن يتحقق أي إزدهار حقيقي ولا تنمية مستدامة إلا في مناخ ليبرالي مفتوح تُستثمَر فيه كل الطاقات وتُكتشف فيه المخالفات وتُصحَّح فيه الأخطاء وتوقف فيه التجاوزات وتُبنى فيه القدرات وتَتَفَتَّح فيه الإمكانات وتتعاضد فيه كل المكوِّنات فبمقدار الإنفتاح الليبرالي يكون الإزدهار وبمقدار الإنغلاق يكون التخلف فأسبانيا مثلاً كانت منغلقة ومتخلفة وما أن هلك فرانكو وتحقَّق الإنفتاح حتى صارت من أسرع البلدان نموًّا وكذلك اليونان بعد انتهاء موجة الانقلابات العسكرية!!! أما الشاهد الأكبر فهو الصين فقد كانت تنوء بأثقالها تحت قبضة الماركسية الخانقة ولكن ما أن إنزاح عنها كابوس الماوية وعنجهية الثورة الثقافية حتى انطلقت الطاقة الصينية الباهرة فحين جاء دنغ زياو بنغ بعد ماوتسي تونغ أرخى القبضة الماركسية وفَتَح الأبواب واستشرف الآفاق فتدفق عطاء العقول وتعاضدت السواعد ونمت الأفكار وتطورت المهارات واستوطن الأمل وخلال سنوات قصيرة صعدت الصين هذا الصعود المدهش الذي جعلها محط أنظار العالم وماذلك إلا بفضل القدر المتاح من الليبرالية...

إن اليونانيين الذين مكَّنَتْهم البيئة الثقافية والإجتماعية والسياسية الحرة وصراع الأفكار في القرن السادس والخامس قبل الميلاد من أن ينجزوا ذلك الإشعاع الفكري العظيم وتلك الحضارة الباهرة هم الذين اختنقت عقول احفادهم وتدهورت أوضاعهم وغمر الظلام بلادهم حين سيطر عليها الفكر الأوحد المغلق وحَرَمَها من تلاقح العقول وتزاوج

الأفكار وتنافُس الاتجاهات فانحدر الخَلَفُ انحداراً شديداً يتناقض تناقضاً حادًا مع صعود السلف وليس ذلك التدهور الجذري سوى النتيجة الحتمية لتحول الخلف من الانفتاح إلى الانغلاق فالإزدهار مرهون بالصراع المتكافئ للأفكار وهاهم اليونانيون الآن قد عادوا إلى الانفتاح فأخذوا يصعدون حثيثاً نحو الإزدهار . . .

إن الشواهد التي تؤكد بأن المناخ الليبرالي هو الشرط المحوري الأساسي للإزدهار تمتد في طول الأرض وعرضها وتتجسَّد في غرب العالم وشرقه فأية مقارنة مثلاً بين ألمانيا الشرقية أثناء حرمانها من الحرية وألمانيا الغربية التي كانت تنطلق بسرعة في الأجواء الحرة تكشف هذه الحقيقة بمنتهى الوضوح وكذلك الفرق بين كوبا بنظامها الماركسي المغلق وسنغافورة بنظامها الحر المفتوح . . .

ثم انظر إلى البرازيل بمواردها الطبيعية والبشرية الهائلة التي ظلت مع كل هذا الثراء الطبيعي فقيرة ومتخلفة وبائسة خلال تعاقب العسكريين على الحكم وما أن تنفسَّت المناخ الليبرالي حتى بدأت تشق طريقها بسرعة فائقة نحو الإزدهار فصارت تسعى بقوة وكفاءة لتصبح إحدى القوى العظمى في العالم . . .

وها هي جنوب أفريقيا تزدهر إزدهاراً عظيما وهي محاطة بطوفان التخلف الأفريقي إنها البلد الوحيد المزدهر في أفريقيا وليس من فرق بينها وبين جيرانها سوى فرق الحرية إن المناخ الليبرالي قد أتاح لذلك البلد بأن يصبح ضوءاً ساطعا في محيط حالك الظلمة!!! . . .

ولا تختلف المجتمعات الإسلامية عن بقية المجتمعات الإنسانية فهي تحتاج المناخ الليبرالي لكي تفكر بطلاقة وتتعلَّم بفاعلية وتعمل

بمهارة وتتحرك بمرونة وتنمو بسرعة فتتكامل فيها الطاقات وتنضج القابليات وتنفتح الآمال وتتنوع التطلعات وبذلك يتحقق الإزدهار إن إزدهار العقول مرهونٌ بما يتوفر لها من الحريات ومن تكافؤ الفُرص وصراع الأفكار وتبادُل الاعتراف بين الاتجاهات إن الإسلام يخاطب الناس بالعقل ويواجههم بالحجة ويقنعهم بالبرهان: «قل هاتوا برهانكم» إنه لا يعمل في الظلام بل إنه لن يزدهر الإزدهار الذي يليق به بوصفه دين الله الخاتم وباعتباره الحق المطلق إلا في المناخ الليبرالي المفتوح إنه ليس خاصًا بقوم دون غيرهم وإنما هو دعوة عامة تعمل في العلن وتُعلن مبادئها وتعاليمها لكل البشر إنها دعوة للناس كافة فتوصيل حقائق الإسلام العظيمة إلى كل الناس يتطلب القدرة على التواصل مع الجميع إن الليبرالية هي البيئة المناسبة لهذا الدين العظيم الذي يقوم على مخاطبة العقل ويتأسَّس على الإقناع وليس على الإخضاع فالليبرالية هي الحرية المنضبطة بالتشريع أي أنها مناخٌ مفتوح يطمئن فيه الجميع ويتاح لهم سماع كل الحقائق والإطلاع على كل المعارف والاستفادة من كل الإتجاهات والمواجهة بين جميع الأراء إن عز الإسلام لايكون بالهيمنة عليه أو الوصاية على مضمونه وإحتكار الحديث باسمه وإنما عزه يتحقق حين تتاح له هو المواجهة المباشرة مع كل من يختلفون معه أو يختلفون فيما بينهم من داخله...

■ **لكن مفهوم الليبرالية ليس واضحاً عند الكثيرين فما هو تعريفها في نظرك؟**

- إنها كلمة لاتينية تعني الحرية لكنها بمعناها الفلسفي تعني الحرية المسؤولة المنضبطة بالأخلاق والشرع والقانون أما أسباب غموض

مفهوم الليبرالية في ثقافتنا فيعود إلى أن الكلمة لم تُعرَّب وإنما بقيتْ في العربية بلفظها الأجنبي مما أبقى المعنى غائماً أما السبب الثاني فهو حساسيتنا الشديدة في التعامل مع الفكر الغربي فنحن نتوجَّس من أية فكرة وافدة خصوصاً إذا كانت ذات محتوى سياسي أو ثقافي أو اجتماعي فنحن لانتقبَّل من خارجنا سوى المعلومات كمسائل مبتورة من سياقها الفلسفي أو التقنيات الجاهزة أما الأفكار فنرفضها ابتداء من دون أن نحاول فحصها فيحرمنا ذلك من أن نتعرَّف على محتواها مع أن الأفكار هي مصدر الإزدهار. . .

إن كل الاتجاهات الفكرية والسياسية والحزبية والثقافية والدينية في العالم العربي قد حاربت الليبرالية لأن قبول الليبرالية يستلزم التخلي عن الانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي والذوبان الاجتماعي بينما أن الجميع في البيئة العربية قد تربوا على الرؤية الأحادية المغلقة فالذين يملكون أية سلطة ثقافية أو معرفية أو سياسية أو حزبية أو اجتماعية أو عشائرية قد اعتادوا أن يكونوا أصحاب الرأي الأوحد: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر» لذلك لم تكن البيئة العربية مهيأة ولا مفتوحة لهذا المفهوم الإنساني الرفيع لقد حوربتْ الليبرالية من قبل الإنقلابيين العرب وكذلك حاربها عامة الناس والقوميون والبعثيون والناصريون والإسلاميون وربماكان الماركسيون العرب هم الأشد عداء لليبرالية لأن ولاءهم للاتحاد السوفييتي وللمعسكر الشرقي وللأيديولوجيا الماركسية قد جعلهم يربطون بينها وبين الرأسمالية التي كانوا يرون ضرورة إسقاطها ومواصلة الحرب ضدها حتى يتحقق هذا الهدف وهذا فهمٌ خاطئ لأن الحس الإنساني في الليبرالية يروِّض وحشية وأنانية وجشع الرأسمالية. . .

■ **ماهو الفرق بين الليبرالية والعلمانية وأين موقع الديمقراطية بينهما؟**

ـ الليبرالية يمكن تلخيصها بأن جوهرها هو الحرية المسؤولة المنضبطة وبأن ارتقاء الإنسان علماً وأخلاقاً وكرامة وسعادة هو هدفها وبأن آليات العمل فيها تتنوع بتنوع الثقافات ويُقصد بها فلسفيا المناخ الحر أو المذهب الحر أو البيئة الثقافية والإجتماعية والسياسية والاقتصادية الحرة إنها تتأسّس على رد الاعتبار للإنسان الفرد والاعتراف بحقه في الاختيار وضمان الحريات الأساسية له وتنظيم الحياة والقوانين والإجراءات والمؤسسات على أساس أولوية الفرد بوصفه فرداً ذا كيان مستقل يتحمل مسؤولية نفسه ويلتزم بأداء واجباته ويكون مصون الحقوق ومحفوظ الكرامة إن الليبرالية هي الثمرة اليانعة للرؤية الإنسانية الناضجة عن طبيعة الإنسان والثقافة والسياسة والمجتمع والفرد والتزامٌ بما تقتضيه هذه الرؤية فكل إنسان هو كائن فريد وهو لن يحافظ على فرادته ولن ينمي قابلياته ولن يحقق ذاته ولن يصون كرامته إلا إذا كان حُرًا أما إذا جرى إفساد وردمُ قابلياته وتقييد تفكيره وتكبيل عقله ومراقبة حركته وتضييق الخيارات أمامه وإغلاق الكثير من الفرص دونه فسوف يفقد ذاته ويتحول إلى دمية تحركه البيئة ويتلاعب به الأيديولوجيون. . .

إن الليبرالية ليست من منتجات بادئ الرأي وإنما هي ثمرة التفكير الفلسفي الناضج إنها مناخٌ جياشٌ مفتوحٌ تظهر داخله وتنمو وتتطور الأفكار والأدوات والتطبيقات والآليات فخلال الممارسة الحية والنقد الموصول تتطور ثقافة المجتمع وتتنوع منتجاتها فيرتقي أسلوب الحياة تلقائيا إن الليبرالية تعني الحرية المنضبطة بالشرع فهي ليست حرية فوضوية ولكنها حرية ناضجة محكومة بالشريعة والقوانين إنها الرؤية

الأشمل والأوسع للمجتمع المدني إنها المناخ الإنساني الرحب المفتوح الذي يتسع للجميع ويتعاون فيه الجميع ويتساوى فيه الجميع فالكفاءة هي معيار التفاضل والناس سواسية أمام القانون والشأن العام محل عناية الجميع إنه يقوم على الشفافية والعلن والأمانة والمحاسبة فالجميع معنيون به ومسؤولون عنه ومشاركون فيه...

أما العلمانية فهي أحياناً تكون متعارضة مع الليبرالية ومع الحريات الفردية ففرنسا هي الدولة الأوربية الوحيدة التي نصَّ دستورها على أنها دولة علمانية وبموجب هذا النص الدستوري تذرَّعَتْ بمنع حجاب المسلمات وترتب على ذلك منع بعض الطالبات من مواصلة التعليم بحجة أن المدارس والجامعات علمانية وأن لباس الحجاب يتعارض مع علمانية الدولة لأنه مظهرٌ ديني وبهذا يتضح أنه لا يوجد تلازمٌ بين العلمانية والليبرالية بل إن التأكيد على الطابع العلماني قد يتيح للدولة أن تتدخل في الحريات الشخصية كما حصل في فرنسا وكما حصل قبل ذلك في بلدان كثيرة تعلن كلها علمانية الدولة فعلمانية أتاتورك مثلاً كانت ضد الليبرالية لأنها قامت على الاستبداد وحُكْم الفرد وحاربتْ الإسلام وكتمتْ أنفاس المتدينين وغيرهم من المعارضين كما قمعتْ الأقليات كالأكراد وغيرهم وكذلك كانت علمانية أكثر الحكومات في العالم الثالث تقوم على القمع أي أنها ضد الليبرالية فالحكم قد يكون علمانيا كما هي حال صدام حسين وأتاتورك وغيرهما ولكنه ليس ليبراليا بل يكون حرباً على الليبرالية لأنه يصادر حقوق الآخرين في التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة ويقمع الحريات وهذا يتنافى مع الليبرالية تعارضاً حادًا وتاما...

أما الديمقراطية فهي آلية من آليات الحكم الرشيد وهي لاتنمو وتنضج إلا في بيئة ليبرالية لأن التقييد في أي جانب من جوانب الفكر أو العمل يؤدي إلى إجهاض الجهد أو صرفه عن مجراه وإبعاده عن هدفه. . .

■ **الفكرة السائدة عن الليبرالية أنها مذهبٌ في حرية الإقتصاد لكنك تعتبرها رؤية عامة: ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية فعلى أي أساس تعطيها هذا المضمون الشامل؟**

- إن مَن يقرأ تاريخ الفكر الأوربي ويتعرف على مراحل التطور هناك ويستقصي حول التحولات التي حصلت في أوربا سوف يظهر له بوضوح شديد بأن الليبرالية رؤية شاملة وبأنها نشأت أساساً كفكرة وكحركة ثقافية وسياسية واجتماعية أما المضمون الإقتصادي فهو مضمونٌ تابع ولاحقٌ سواءٌ من الناحية التاريخية أو من حيث الهدف والجوهر والمحتوى فالحرية الإقتصادية نشأت كنتيجة عن حرية الحراك السياسي والثقافي والإجتماعي إنها حرية تابعة وليست سابقة إنها نتاجُ الليبرالية الشاملة وأحَدُ فروعها وليست مؤسِّسة لها. . .

■ **مادام أنك ترى أن الليبرالية الإقتصادية فرعٌ وليست أصلاً وأنها من نتاج الليبرالية الثقافية والسياسية والإجتماعية فما الذي أشاع في العالم العربي هذا المعنى المغاير؟**

- إن الليبرالية بمضمونها الثقافي والسياسي والإجتماعي تتطلب من أهل الامتيازات السائدة الكثير من التنازلات بينما أن من يملك سلطةً أو امتيازاً لن يتنازل عنه تبرُّعاً أو تعففاً أو زُهداً وإنما من طبيعة البشر أنهم يستميتون في التمسك بمكاسبهم والدفاع عن امتيازاتهم لذلك بقيتْ

الليبرالية الثقافية والسياسية والإجتماعية مرفوضة ومشوَّهة في العالم العربي أما الأخذ بالليبرالية الإقتصادية فهو لايتطلب أي تنازلات بل إن الحرية الاقتصادية وكل ماينتج عنها من مرونة وسرعة وجودة أداء تخدم الأوضاع القائمة وتُسهم في ترسيخ الواقع لذلك جرى الترحيب بالليبرالية الإقتصادية كما تم حصرها بالمضمون الإقتصادي فاكتسبت في العالم العربي هذا المعنى الجزئي لأنه هو الجانب الوحيد الذي سُمح بممارسته فأصبح الناس يتوهمون أن الليبرالية ذات محتوى اقتصادي فقط بينما أن الحرية الاقتصادية ليست إلا إحدى ثمار الليبرالية بمفهومها الشامل...

حوار منشور بجريدة الحياة

أجرى الحوار الناقد المعروف الأستاذ إبراهيم العريس

ونُشر الحوار يوم الإثنين

٢٧ / مارس / ٢٠٠٦ م الموافق ٢٧/ ٢ / ١٤٢٧ هـ

«الحياة» تحاور الفكر العربي: أين نحن في العالم؟ متى ينتهي الانحدار؟ أي دورللمثقف؟

إبراهيم البليهي: ثقافة المشافهة والارتجال هي التي تتحكم بعقولنا وعواطفنا

مجتمعات العرب طوفان بشر تستبدُّ بـهم اللحظة العابرة... جاهزون للإثارة في كل اتجاه.

حاوره: إبراهيم العريس

ما الذي يجذب موظفاً ادارياً ينشط في القطاع العام والقطاع البلدي خصوصاً إلى الثقافة والفكر؟لا شيء في نهاية الأمر سوى التأمل في أحوال الناس والأمة واكتشاف الامعان في فقدان الوعي لديهم نتيجة تراكمات لا نتيجة أوضاع وراثية موهومة. إبراهيم البليهي الذي تنقل في مناصب ادارية عدة في المملكة العربية السعودية أوصلته قبل التقاعد إلى أن يصبح مديراً عاماً لبلديات القصيم كان همه الفكري والمعرفي منذ بداياته لا يقل عن همه الإداري صحيح أن هذا الهم الأخير لم يترك له وقتاً كافياً لتنسيق كتاباته واصدارها في كتب لكنه مكّنه من أن يكثر من تلك الكتابات بحيث أن لائحة منشوراته تضم الآن مئات الدراسات والبحوث والتعليقات ناهيك أن مجال نشاطه الفكري متنوع في شكل نادر لدى المثقفين العرب فمن الفلسفة اليونانية إلى فلسفة العلم المعاصر ومن الأدب إلى التحليل النفسي ومن الفكر الأخلاقي إلى التراث والمسائل الفقهية يتجول هذا المفكر ـ الظاهرة باحثاً عن أسئلة شائكة تتعلق بحاضر الأمة العربية وراهن المسلمين غير آبه إن جاءته الأجوبة من الشرق أو من الغرب فبالنسبة إليه الفكر الإنساني واحد في منابعه ومصباته وان اختلفت المسارات. . .

هذا كله جعل إبراهيم البليهي حالة استثنائية هو الذي انتظر تجاوزه الخامسة والخمسين قبل أن يبدأ جمع دراساته في كتب تُقرأ الآن على نطاق واسع ونشاط البليهي لا يلهيه طبعاً عن القيام بمهماته ضمن إطار عضويته لمجلس الشورى في المملكة إضافة إلى عضويته في عدد من الهيئات والمؤسسات وهو يقول عن هذا أنه «طريق اضافية» لخدمة المجتمع ولكن بخاصة من خلال خدمة الفرد فالفرد بعد كل شيء هو محور اهتمام إبراهيم البليهي الذي يرى أن ظلماً كبيراً قد طاول هذا الفرد على مدار تاريخنا وآن الأوان لرد الاعتبار إليه إذ من دون هذا لا يمكن أن تقوم للأمة قائمة وهو يرى أن الأصل في الفرد هو الإبداع لكن صرامة التجمعات هي ما يغدر به ويدفعه إلى التخلف لا سيما منذ «اكتشف» العرب الانقلابات العسكرية وراحوا يتفننون في اقترافها بديلاً من الثورات الحقيقية الشعبية...

«الحياة» التقت إبراهيم البليهي في الرياض لتحاوره ضمن إطار سلسلة حاورت حتى الآن سمير أمين وجورج طرابيشي والطاهر لبيب وعلى أومليل وبرهان غليون ومحمد الرميحي وعبد المنعم سعيد ووجيه كوثراني وركز الحوار هذه المرة على قضايا تشغل هذا المفكر السعودي الستيني الذي أصدر كتباً خلال السنوات الأخيرة منها «بنية التخلف» و«وأد مقومات الإبداع» ويعمل حالياً على مشروع طويل النفس يحاول أن يبرهن من خلاله على أن كبار المفكرين والمبدعين في تاريخ الأفكار إنما صنعوا أنفسهم بأنفسهم فكرياً وبالكاد تمكنت الجامعة من أن تضيف إلى أفكارهم جديداً على رغم أنه هو خريج كليه الشريعة في الرياض... وهذا المشروع الجديد يأتي في إطار مشروع فكري متكامل يتناول أموراً مترابطة مثل «تأسيس علم الجهل» و«القيادة والانقياد» و«عبقرية الاهتمام» و«التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية»... الخ.

■ من خلال تتبعي مجالات اهتماماتك الفكرية لاحظت عمق واتساع اهتمامك بالفرد العربي فما هي أحوال الفرد العربي في هذه الأيام وبالتالي كيف حال المجتمعات العربية انطلاقا من الفرد؟

ـ إن أحوال الفرد العربي كانت وما زالت هي الأسوأ. . ونتيجة لهذا السوء المزمن فإن حال المجتمعات العربية هي في نفس المستوى من السوء بل هي أشد سوءاً ففي المجتمع تتراكم السوءات أضعاف ما يصيب كل شخص بمفرده وما دام أن الأفراد مطموسو الفردية فإن المجتمع مائعٌ ومن غير فاعلية ففي ثقافة لا تعترف بالفردية لا يوجد علاقات تكامل وتكافؤ وإنما يوجد سلطة مطلقة وأتباع خاضعين ومبعثرين لا تجمعهم مؤسسات مدنية وإنما هم نثارٌ مثل نثار حبَّات الرمل إن الفرد المطموس الفردية لا يفكِّر ككائن مستقل وإنما هو مبرمج على نمط من التفكير لا يخرج عنه لذلك يبقى تفكيره دائريًا اجتراريًا ويظل مغتبطاً بهذا الاجترار يتباهى به ويستميت دفاعاً عنه ولا يقبل أن يوضع موضع التساؤل أو التحليل أو المراجعة. . .

إن الفردية هي مصدر التنوع الهائل في الابتكارات والاكتشافات والمبادرات وفي الكفايات والقدرات والمهارات فبها تحققت الإنجاز الإنسانية في العلوم والفنون والإختراعات والنُّظُم إن إعلاء الفردية هو مفتاح الخروج من الكهف الثقافي والتخلص من رتابة التماثل والتكرار فبالإنطلاق نحو الآفاق المفتوحة وباستثمار التنوع الهائل للفرديات حققت المجتمعات المزدهرة ازدهارها إن حضارة العصر قامت على هذا الركن المكين فالاعتراف بفردية الإنسان ترتَّبت عليه تغيرات نوعية في القيم وفي القوانين وفي وظائف السلطة وفي شبكة العلاقات الإجتماعية

وفي كل شأن من شؤون الحياة الإنسانية فهو يمثل محور أو منبع التغيرات النوعية التي حصلت في الحضارة الإنسانية المعاصرة وبالمقابل فإن طمس الفردية يستبقي المجتمع عاجزاً ومتخلفاً وعديم الفاعلية ومن هنا فإن من المهم جدا أن نعرف كيف ظلت فردية الإنسان خلال القرون كامنة وحبيسة وكيف انطلقت وازدهرت. . .

■ **كيف استكان الناس في كل العصور لعمليات الدمج والتدجين وتقبلوا الطمس لفردياتهم؟**

ـ إن الناس يولدون بقابليات وليس بهُويات محدَّدة فيتشرب كل فرد الثقافة التي ينشأ عليها ويذوب فيها وتتكون بها شخصيته ويبقى مغتبطا بهذا الذوبان إن الأفراد يجدون أنفسه على هذه الثقافة أو تلك فيشعرون بالزهو لهذا الانتماء لأن كل ثقافة تملأ الناشئين فيها بأوهام التميُّز فيعيشون مغتبطين بثقافتهم مقتنعين بما امتلأت به رؤوسهم معتزين بانتمائهم غافلين غفلة مُطْبقة بأنهم مبرمجون بهذا الوهم وبأن الناس في كل الثقافات يعيشون الوهم ذاته مما يجعل الثقافات سجونا للعقول إلا أنها سجونٌ محبوبة!!! إن كل الثقافات كانت وما زالت تذيب الفرد في القبيلة أو المذهب أو الطائفة أو الدولة ويعيش الأفراد وهم لا يعرفون أي خيار آخر بل ولا يفكرون بإمكانية وجود بديل أفضل فالفرد يتبرمج ذهنيا وعاطفيا وسلوكيا بما نشأ عليه ومن هنا استمرت فردية الإنسان مطموسة في كل الثقافات على امتداد العصور. . .

■ **ما دام أن كل الثقافات تطمس فردية الإنسان فكيف إذن ظهرت النزعة الفردية؟**

ـ لم يتعرَّف الفرد على ذاته ويستعيد حريته وخياراته إلا مع ذلك

الإشعاع الفكري الفلسفي الباهر الذي تلألأ في اليونان في نهاية القرن السابع قبل الميلاد والذي بلغ ذروة سطوعه في القرن الخامس قبل الميلاد فلأول مرة في التاريخ البشري ظهر الفكر العقلاني القائم على الملاحظة والتأمل والبحث والرؤى المفاهيمية المتحررة من سيطرة السائد وبهذه الوثبة الثقافية الإستثنائية ظهرت النزعة الفردية وتأسست القيمُ الإنسانية الرفيعة كمعايير للعلاقات والمعرفة والنُّظُم ولم تكن هذه القيم مجرد كلام يقال وإنما وُضعتْ هذه القيم موضع التطبيق المشهود والممارسة الحية بمجتمع يضج بالحياة ويتمتع أفراده بالحريات المنضبطة وتقوم حياته على سيادة القانون وتكافؤ الفرص ويشارك الجميع في القرار الذي يهم الجميع فأصبح الإنسان الفرد فاعلاً وليس فقط منفعلاً وأضحى في ذاته قيمة عليا وبات بنفسه غاية قصوى ولم يَعُدْ مجرد وسيلة لغيره ولكن التجربة الإغريقية الرائدة الإستثنائية العجيبة كانت محدودة في المكان والزمان فمن الناحية المكانية كانت اليونان بقعة صغيرة من الأرض وأيضا لم تكن هذه البقعة خالصة لهذه التجربة الفريدة وإنما كان اليونانيون منقسمين على أنفسهم فأثينا ومن تحالف معها من المدن كانت تقف بكل نظمها ومؤسساتها وهيئاتها وممارساتها وطريقة تفكيرها إلى جانب الإنسان الفرد بينما كانت اسبرطة والمتحالفون معها تقف ضد هذه التجربة الإنسانية الرائدة والإستثنائية وتحارب القائمين عليها لأن التجربة كانت غريبة ومصادمة للمألوف فالثقافات السائدة في اسبرطة وفي كل العالم باستثناء أثينا ومن تحالف معها من مدن الإغريق قد اعتادت أن يبقى الفرد مجرد خلية في المجموع فلا بد أن يذوب في التقاليد القسرية التي تُقَدِّس الحرب وتُعوِّل على القوة وتفرض التراتب الإجتماعي الصارم وتُضَحِّي بالأفراد

من أجل شيء وهمي يُسَمَّى (الكل) وليس هذا الشيئ المزعوم بأنه (الكل) سوى حفنة من الذين يملكون السلطة لذلك فإن التجربة الأثينية لم تستمر طويلاً في الزمان لأن الوضع الإنساني حتى عند الإغريق أنفسهم لم يكن متهيئاً لهذه النقلة النوعية الكبرى في القيم والممارسة فاختفت الفردية مرة أخرى وعاد الفرد في كل الدنيا مذاباً في المجموع ومسخَّراً للغايات السياسية أو المذهبية أو لغيرها من الغايات التي تطمس فردية الإنسان وتحيله إلى مجرد وسيلة لخدمة هذه الغايات...

■ مادام أن النزعة الفردية وُئِدَتْ في مهدها فأين ومتى وكيف عادت هذه النزعة؟

ـ عرفنا أن النزعة الفردية أومَضَتْ في اليونان بقوة ثم أُطفئت بسرعة ثم تقلَّبت بها الدنيا فحاول الاسكندر المقدوني نشرها في كل العالم ضمن تصميمه على نشر الثقافة اليونانية الباهرة ثم تبنى الرومان الكثير من عناصرها ووسَّعوا العناية بالقانون فطوَّروه ثم عادت النزعة الفردية إلى الكمون مع هيمنة الكنيسة على الثقافة الأوربية وتراجع الأوربيون تراجعاً فظيعاً خلال الرؤية الأحادية المطلقة وبقوا على انغلاقهم وتراجعهم حتى عادوا في عصر النهضة ثم في العصر الحديث إلى التراث الإغريقي فأحيوا الفكر الفلسفي وأعادوا القيم الفردية وظلت هذه القيم تنمو باطراد في المجتمعات الغربية حتى بلغت ذروتها في التجربة الأمريكية ومن هنا تحقق هذا الإزدهار الزاخر بالحيوية والقوة والممتلئ بالجمال والجلال فلقد كان التنوع الهائل في القدرات البشرية الذي تمخَّضَتْ عنه النزعة الفردية مصدر ثراء هائل أتاح للغرب بشكل عام ولأمريكا الشمالية بشكل خاص بأن تحقق هذا التفوق المذهل في كل

المجالات وتأتي في نفس السياق أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وإسرائيل وكل الإمتدادات الثقافية التي تهتم بالفرد وتعطيه حقه وتنمي قدراته وتستثمر طاقاته وتضع له الأولوية وتجعله محوراً للفكر والفعل تتكيَّف به النُّظُم والقوانين والمؤسسات ويسعى لكسب رضا القادة والزعماء وليس هذا الإمكان محصوراً بمن استثمروه بل إن الأبواب والآفاق مُشرَعة أمام أي مجتمع آخر ليُحقِّق نفس النتائج العظيمة بشرط أن يسمح لفرديات الناس بأن تتفتح ولعقولهم بأن تزدهر ولمهاراتهم بأن تنمو وتتنوع . . .

■ هل تعيد استمرار تخلف العرب إلى طمس فردية الإنسان العربي؟

- نعم إن طمسس النزعة الفردية هو أحد العوامل الرئيسية التي فاقمت حالة التخلف العربي إننا نحن العرب كنا وما زلنا لا نعترف للفرد بفرديته فلازَمَنا العُقم وأناخ علينا التخلف بأثقاله الباهظة وبقينا نُسَخاً مكررة تُبرمجنا الثقافةُ المغلقة وتسيِّرنا قوةُ السلطة فنذوب في المجموع راضين مغتبطين في الغالب لأننا نجهل مصدر إعاقتنا الحضارية فنعيد هذه الإعاقة إلى غير أسبابها أما الذين يعرفون مصدر الإعاقة من المفكرين والمطلعين فإن الناس لا يسمعون لهم ولا يقبلون منهم وقد يتهمونهم في معارفهم أو في نياتهم وتبلغ القطيعة معهم ورفض رُؤاهم إلى درجة التخوين والملاحقة فنحن العرب لم نألف الفكر الحر ولم نتعوَّد على الرأي الناقد ولا يؤثر فينا ويستهوينا إلا من يدغدغ مشاعرنا الطفولية بالافتخار بالواقع والشعارات الفارغة وخلق الهالات الكاذبة . . .

ولقد أثبتت أحداثُ التاريخ في العصور الحديثة كما دلَّتْ أوضاعُ

المجتمعات في هذا العصر أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يتقدم ويزدهر إلا إذا شجّع النزعة الفردية وأتاح لكل فرد بأن يحقق ذاته وأن يعتمد على نفسه وأن يُحسَّ بمسؤولياته نحو نفسه ونحو غيره وبهذا يتحقق الإلتزام وتتنوع القدرات ويتكاثر الإبداع وتتزاحم المبادرات ويصبُّ كلُّ ذلك في النهر العام لصالح المجموع. . .

ومع أن الإنسان يجب احترامه وضمان حقوقه وتوفير الحرية له وفتح الآفاق له لتنمية قدراته بغض النظر عن المكاسب الجماعية الناتجة عن هذا الاحترام إلا أن التجارب التنموية في العالم لا تكتفي بذلك بل تشهد بأن للنزعة الفردية نتائج اقتصادية وحضارية كبرى وشاملة فالأفراد في المجتمعات التي تقمع الفردية يكونون عبئاً على أنفسهم وعالة على أوطانهم وبالمقابل فإن الثروة البشرية القائمة على إطلاق الطاقات الفردية المتنوعة أصبحت هي المصدر الحقيقي للنماء المتجدد والرخاء الدائم فالثروات الطبيعية باتت مصادر مؤقتة وقابلة للنضوب السريع ولا يمكن أن تقوم عليها تنمية مستدامة ولا رخاء دائم أما الثروة البشرية فهي نامية ومتجددة وعموماً فإن كل مولود جديد إما أن يكون طاقة إبداعية وإنتاجية كما هي حال الأفراد في المجتمعات المزدهرة أو عبئاً جديداً يضاف إلى أعباء الوطن وعائقاً إضافيا من عوائق التنمية كما هي حال أغلب الأفراد في المجتمعات المتخلفة إن استمرار تخلف العرب وانعتاق الأمم الأخرى من قبضته واحدة بعد أخرى هو الذي جعلني أهتم بالتعرف على مصادر الخلل ومنها طمس النزعة الفردية ومن هنا جاء اهتمامي الشديد بالفرد العربي فلا أمل في حياة كريمة مزدهرة إلا بتحرير الفرد وتنمية قدراته واستثمار قابلياته وفتح الخيارات له. . .

■ هناك إجماعٌ على أننا نعيش في البلدان العربية أنواعا عديدة من التأزم الحضاري. . فإلى أي نقطة علينا أن نعود لكي نحدد بداية هذا التأزم وما هي مسؤولية الفرد أو الجماعة عن ذلك؟

ـ علينا أن نعود إلى نقطة البداية فمعضلتنا هي معضلة ثقافية بالدرجة الأولى وحتى الخلل السياسي الشديد في العالم العربي ما هو إلا نتاج الخلل الثقافي المزمن فلولا أن الثقافة تستسيغ هذا الخلل السياسي لما رضيَتْ به قروناً مديدة ولولا ذلك لما كانت دائماً وخلال العصور القديمة والحديثة تسير خلفه لتمنحه المشروعية وتروِّض الناس له. . .

إن خللنا الثقافي مزمنٌ وموغلٌ في القدم فلا بد أن نقوم بحفريات واسعة وعميقة في ذاتنا الثقافية لنعرف كيف بدأ الخلل وكيف تكوَّن وكيف استمر إن الثقافة مثل النهر فنقطةُ البداية هي التي تُحدِّد اتجاهه وترسم مجراه ولقد تأسَّسَتْ الثقافة العربية في الجاهلية على الصراع والرغبة في استئصال الآخر القريب قبل البعيد فالبيئة الصحراوية القاحلة قد جعلت الدنيا في الحس العربي لا تتسع إلا لفئة واحدة فخَلَقتْ فيه هذا التمحور حول الذات: «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر» فالبيئة الصحراوية قاحلة وما فيها لا يكفي الجميع وما تأخذه فئةٌ لا يمكن تعويضه بالجهد والانتاج مما جعل الصراع ينحصر حول هذا الموجود النادر والضئيل لذلك لم يكن العربي يعتزُّ بانتمائه للعرب وإنما كان انتماؤه بشكل مطلق للقبيلة أو للعشيرة بل داخل القبيلة الواحدة كان يشيع الصراع والتفاخر بين الأفخاذ وكان الهجاء والتنابز يستساغ بين الأُسَر فالفرزدق وجرير على سبيل المثال ينتميان لقبيلة واحدة ومع ذلك كان التهاجي بينهما من أقذع نماذج الهجاء وأشدها وقيعة وأكثرها إيغالاً

في التحقير وتقليل الشأن فالعربي لم يعرف معنى الأمة إلا بالإسلام الذي أخرجه من صحرائه الجدباء وأسكنه بمواقع الخصب والنماء لكنه بقي مأخوذاً بمنطق القوة ومنطق الصراع ومنطق الاستئصال فبقيث معرفته بمعنى الأمة منقوصة بشكل فظيع ثم أصابها عطبٌ شديد بعد انتهاء الخلافة الراشدة حيث اشتدَّ الصراع على السلطة واستمر في كل العصور نكوصاً عن المبادئ الحضارية العظيمة التي جاء بها الإسلام ولقد أعطتْ الثقافةُ مشروعية دائمة لهذا النكوص الوبيل حين جعلتْ القوة والتغلب سبباً كافياً للمشروعية السياسية وأوجبت الإنقياد والطاعة لمن غَلَبَ أيًا كان هذا المتغلِّب!!!...

لقد مرَّ التاريخ العربي بتحولات حاسمة نحو الأسوأ فالانتقال من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض كان تحولا مدمِّراً للرؤية وللقيم الإنسانية العظيمة التي جاء بها الإسلام ثم كان القبول الفقهي بهذا التحول وإعطاء المشروعية له وتأصيل ذلك بجعل التغلُّب سبباً كافياً لتبرير أي وضع مما جعل القوة هي المعيار وهي الحَكَم وأطلق طاقات الصراع لتحقيق المكاسب الفردية أو العشائرية أو الطائفية أو المذهبية وانتهك بذلك الكثير من تعاليم الإسلام ومبادئه العظيمة...

■ **يرى كُثُر أن هزيمة حزيران لم تنته حتى اليوم.. وعلى هذا هناك مفكرون كُثُر حاولوا نقد حتى وجوه الحياة والاجتماع العربيين.. فأين صار هذا النقد؟ وهل أثر سلبا أم إيجابا؟**

ـ هزيمة حزيران كانت نتيجة طبيعية لحكم الفرد واستبداد أهل السلطة وتهميش الأمة وإقامة العلاقات معها على القمع والخوف والشك المتبادل وأعتقد أن الهزيمة كانت نتيجة حتمية منذ أن جرى وأد

الديمقراطية الوليدة بمصر لقد كانت مصر في النصف الأول من القرن العشرين تتدرَّب على الممارسة الديمقراطية وكانت مؤهَّلة بأن تصير نموذجاً يحتذيه العرب في كل أقطارهم ورغم كل النقائص التي صاحبتْ تلك التجربة الوليدة إلا أنها كانت تمثل البداية الضرورية للسير نحو النضج السياسي والممارسة الديمقراطية الفعلية لكن قيام الإنقلاب العسكري بمصر قضى على تلك البدايات الواعدة ولقد كان التزييف فظيعاً حين ادعى الانقلابيون بأنهم قاموا بثورة من أجل تحرير المجتمع وتحقيق التقدُّم والازدهار لمصر ولكل العرب وما زال الكثيرون يعتبرونها ثورة مجيدة ويَعُدُّون الإنقلابيين ثواراً ومحررين مع أن مصركانت قبلهم تضج بأفكار التحرُّر وتزخر بتبادل الآراء وتقوم فيها الحياة السياسية على التعدُّدية الحزبية ولكن بعد الإنقلاب أُرغمت على رؤية أحادية مطلقة ومغلقة وجرى تأميم الثقافة والفكر وسُخِّر الإعلام والتعليم لتمجيد الوضع السائد ومحاربة أي نقد وقمع أي رأي معارض فاضطر الشرفاء بأن ينزووا واندفعتْ السلطة توسّع دائرة الغوغائية الجماهيرية وترسَّخ الولاء المطلق للحاكم الفرد ولم يجد الكثير من الكُتّاب والمثقفين وسيلة للعيش إلا بالاندماج في السلطة وتمجيد الحاكم المستبد والاسهام في تزييف الوعي ولقد تتابعت الانقلابات في الكثير من البلدان العربية فرسخَّتْ الطابع الاستبدادي وقضتْ على كل أمل بالنماء وبالحرية وسدَّت الآفاق أمام أي خيار آخر أمام المجتمعات العربية البائسة...

■ **ما تقوله يخالف ما يعتقده أكثر المصريين كما يخالف الإجماع العربي أو ما يشبه الإجماع؟**

ـ الأحكام يجب أن تُبنى على الحقائق وعلى معطيات الواقع فماذا تحقق بمصر خلال أكثر من نصف قرن وهي فترة حاسمة لا تَعْدُلها أية فترة تاريخية مهما امتدت ففي القرن العشرين تحقَّقت تغيرات نوعية هائلة في الحياة البشرية وعلى سبيل المثال فإن مصر وقت الإنقلاب كانت أفضل حالاً في كل المجالات من حال كوريا الجنوبية وعلينا أن نقارن بين حال البلدين الآن. أسبانيا كانت ترزح تحت أثقال الدكتاتورية والفقر والتخلف وفجأة بعد زوال الاستبداد قفزت إلى المقدمة في النمو بين دول العالم بينما تراجعت الأوضاع بمصر تراجعا مخزيا. ألمانيا دمَّرتها الحرب العالمية الأولى والثانية وأحالتها إلى رماد ولكنها في كل مرة تستعيد قوتها ورخاءها وازدهارها خلال بضع سنوات فهي رغم كل التدمير الذي أصابها فإنها استمرت من أكثر بلدان العالم نمواً وتقدماً فماذا حقَّق الانقلابيون لمصر في الفترة نفسها غير الاستبداد وإفساد البلاد والعباد...؟!!

إن الأوضاع لا تتحسن بانتقال السلطة من مستبد سابق إلى مستبد لاحق وأفظع من ذلك حين يصير اللاحق أكثر استبداداً من السابق كما هي الحال في العالم العربي وإنما تتحسَّن الأوضاع حين تتغيَّر الرؤية وتتبدَّل الممارسة فتنتقل السلطة من حكم الفرد إلى حكم الشعب ومن الرؤية الأحادية المغلقة إلى التعددية الفكرية المفتوحة ومن الإنفراد بالرأي والأمر إلى التعددية السياسية ومشاركة الجميع في الفكر والفعل فيما هو من شأن الجميع...

إن النتائج الكارثية التي أسفرت عنها الإنقلابات العسكرية هي نتائج طبيعية لأنها قامت على القوة والقهر وليس على الإجماع الشعبي فما

حصل بمصر هو انقلابٌ وليس ثورة فالثورات لا تُفرض بالقوة ولا تقوم بها الجيوش وإنما تقوم بها الشعوب وهي لا تأتي عن طريق المدرعات والآلات العسكرية وإنما تأتي من الناس المضطهدين الذين لا يبحثون عن السلطة وإنما يسعون للخلاص من القمع والتهميش والفقر وشواهد التاريخ تؤكد ذلك ومن أبرز نماذجها الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والثورة الروسية والثورة الإيرانية وأخيراً احتشاد الأوكرانيين حتى أسقطوا الحكومة التي لا يرضونها.. هكذا تكون الثورات شعبية وليست عسكرية وهي تأتي لتعيد إلى الناس حرياتهم وكرامتهم وإمكانات أوطانهم أما الإنقلابات العسكرية فهي تأتي لتصادر الحريات وتقمع الرأي وترهب الناس وترغمهم على الصمت المطْبق فمن الطبيعي أن تكون الانقلابات العسكرية كارثة على العرب لأنها أوقفت آليات النضج السياسي وحَجَرَت على الفكر ووأدت بذور النزعة الفردية وعطّلَتْ الفاعلية الإنسانية وفرضت رؤية أحادية مغلقة حيث أبقت المجتمع محروماً من مقومات النمو بمصادرة الحريات وتكميم الأفواه والانفراد بالرأي والأمر فالنتيجة كانت فظيعة ومأساوية ومدمِّرة لكنها كانت نتيجة طبيعية فالاستبداد لا ينتج سوى هذا النوع من النتائج...

■ **لكن الكثيرين من العرب ما زالوا مأخوذين بعظمة الزعيم جمال عبد الناصر فكيف تبرر ما تقول؟**

- إن الزعيم عبد الناصر بمعايير الثقافة العربية لابد أن يُنظر إليه على أنه قائدٌ فذٌّ وزعيمٌ ملهم فالثقافة العربية تنتشي بالقوة لذلك تستسيغ الاستبداد وتستحسن القدرة على القهر بل إنها لا تَعتبر القائد أهلاً للانقياد إلا إذا كان طاووساً يتبختر بغطرسة كما كان يفعل صدام حسين

أيام حروبه العدوانية ولم يكن هذا الإعجاب بالدكتاتور المستبد مقصوراً على العامة وإنما مَدَحَه الكتاب والشعراء والمحسوبون على الفكر والعلم والمعرفة. . .

ومع أن عبد الناصر ينفرد بمزايا مهمة يختلف بها عن الزعيم النمطي في الثقافة العربية فهو يتفق مع النمط بأنه مستبدٌ بالأمر والنهي ولكنه كان صادقاً في سعيه نحو جَمْع شتات العرب وانتشالهم من تخلفهم وكان متعففا في نفسه وأهله يحترم المال العام ويكره البذخ ولا يبدِّد مال الأمة بإنشاء القصور ووسائل الترف ومظاهر الأبهة كما فَعَل صدام حسين وغيره لكن كل مزاياه لا تغفر له الاستبداد المطْلق فهذه علة قاتلة ومدمِّرة إنها خطيئة فظيعة لا ينفع معها أي عمل فهي تُفسد كل شيء فلا يمكن أن يتحقق الإصلاح عن طريق الاستبداد والقهر وقمع الحريات وإنما يتحقق بتأكيد قيمة الإنسان واحترام حريته وحفظ حقوقه وإطلاق الطاقات الكامنة فيه والعمل على استنارة المجتمع وحشد طاقات البناء بالتعاون والتآخي والإنسجام ويكون ذلك باعتماد الوضوح والشفافية والمصارحة وتكافؤ الفرص وغرس الثقة وإشراع أبواب الأمل وفتح سبل المشاركة والاستفادة من كل الآراء واستثمار كل المبادرات والإمكانات والقدرات والمهارات وإقامة العلاقات على الإقناع وليس على الإخضاع أما منطق القوة والقهر فإنه يُديم التخلف ويجمِّد الطاقات ويستبقي الصراع يبدِّد الطاقة وينخر في جسم المجتمع فستغرق الأمة بالصراع عن أعمال البناء ويحول استمراره دون الإنسجام والتآزر فتتعطَّل فاعلية الفرد والمجتمع وهي أهم شروط التنمية الناجحة وقد رأينا في تجربة عبد الناصر كيف أنه بالاستبداد واستمرار منطق القوة جاءت

النتائج محزنة ومخزية رغم إخلاصه وصدق مسعاه فعلّتنا الكبرى المزمنة هي الإنغلاق الثقافي والاستبداد السياسي. . .

إن زعامة عبد الناصر في العالم العربي قد وَجَدَتْ قبولاً جارفاً وكانت له مكانة دولية وكان قادراً على أن يستثمر هذا القبول وهذه المكانة بإحداث تغييرات جذرية في الثقافة العربية تؤسِّس لمرحلة جديدة في حياة العرب غير أن الانجراف إلى الاستبداد أضاع عليه هذا الدور القيادي التاريخي العظيم كما أضاع على العرب تلك الفرصة التي لن تتكرر إن عبد الناصر نتاج الثقافة العربية التي لا ترى الزعامة إلا بالانفراد والإستبداد لذلك أضاع نفسه وأضاع أمته. . .

■ **وماذا عن دور المثقفين العرب هل قاموا بالدور أم نكصوا عنه وكيف؟**

ـ لا دور لأي فرد أو أية فئة إلا بمقدار اعتراف المجتمع له أو لها بهذا الدور فالإعتراف شرطٌ مبدئي للاستجابة فلا يمكن للمثقف أن ينهض بدوره التنويري إلا إذا كان المجتمع يعترف له بهذا الدور فيصغي لفكره أما إذا كان ينكر عليه هذا الدور فإنه سيبقى رافضاً له ومشنِّعاً عليه ومن ناحية ثانية فإنه ينبغي أوّلاً أن نفرّق تفريقاً حاسماً بين المتعلمين والمثقفين لأنه ما زال يوجد خلطٌ شديد بين الفئتين فالمتعلمون مهما عَلَتْ شهاداتهم ليسوا في الغالب أكثر من مهنيين وهؤلاء هم الأكثر ممن يمارسون القول وتقديم الرأي سواء كموظفين أو بالكتابة في الصحف والمشاركة بالرأي بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة وهم عادة يكونون منسجمين مع السائد وملتزمين بالمألوف ويدْعمون الواقع وينبغي أن لا يُنتظر منهم أكثر من ذلك لأنهم مبرمَجون به فالتعليم لا ينقض البرمجة الإجتماعية وإنما يكرّسها فالمتعلم يؤدي مهنته ضمن نطاق المألوف

والأكاديمي يعطي دروساً ومعلومات في مجال اختصاصه وقد يشارك في الكتابة لكنه يبقى في الغالب ضمن إطار السائد. . .

وتوجد قلة من الأكاديميين وغيرهم ممن حققوا اختراقات فكرية ومعرفية يمتلكون القدرة على اكتشاف عيوب السائد ويتعرفون على نقائص المألوف ويدركون أسباب الإعاقة الحضارية ويعرفون عوامل الإنطلاق ومقومات الإزدهار وهؤلاء يكونون في المجتمعات المتخلفة ذات الثقافات المغلقة أمام تحديات حرجة ويواجهون خيارات صعبة ثم إن المعرفة في حدّ ذاتها ليست حافزاً كافياً للعمل والدفاع عن الحق والتمسك بالعدالة وإنما المواقف والإلتزامات الذاتية تأتي من دوافع أخلاقية فالمفكرون إذا كانوا ملتزمين أخلاقيا فإنهم يجهرون بالنقد ولكن قد تنسدُّ أمامهم بسبب ذلك سبُل الحياة ومهما قدَّموا من تضحيات فإن النتائج تأتي في الغالب هزيلة فيدفعون ثمناً باهظاً مقابل ثمرة زهيدة بل ربما دون أي مقابل وأحياناً بخسارة مضاعفة فالمجتمع لا يدرك أهمية طروحاتهم ولا يستجيب لهم وربما يضايقهم ويشكِّك في نياتهم ويسفِّه آراءهم وربما يستعْدي السلطة عليهم أو يحرّض الغوغاء ضدهم. . .

وإذا نحن طبَّقْنا على هذه الفئة القليلة الواعية الناقدة قانون التحدي والاستجابة الذي قال به المؤرخ الشهير توينبي فسنجد أن أفرادها قد ينكسرون أمام ضغط السلطة وضغط المجتمع فتضطرهم ظروف الحياة واليأس من الاستجابة إلى التلاؤم مع الواقع وربما يعملون طوعاً أوكرهاً على تزكيته وتبريره يأساً من استجابة المجتمع واضطراراً للإنسجام مع الوضع القائم وهروباً من مواجهة السلطة والتماساً لمصدر الرزق الذي تملك الدولة في العالم الثالث جُلَّ أبوابه. . .

إن للثقافة الموروثة السائدة تأثيراً شديداً على صياغة العقول ليس فقط على عقول عامة المتعلمين وإنما حتى على عقول الكثير من المبدعين فهم مأخوذون في الغالب بهذا التأثير الحاسم لذلك رأينا الكثير من المبدعين العرب يتقاطرون كل عام على لقاءات (المربد) في العراق أيام طغيان صدام حسين فيغمرونه مدحاً ويشيدون بحكمه ويزكُّون قيادته للعراق وربما لقيادة الأمة العربية كلها!! وهم في ذلك بين مقتنع بما يقول وبين من يبحث عن الكسب الذاتي ولكنهم جميعا لا يشعرون في الغالب بأية غضاضة فهم مثل أسلافهم من الشعراء والكتاب الذين كانوا يختلقون الوقائع ويهدرون الحقائق ويزيِّفون الوعي عمداً دون أن يحسوا بأي ذنب فسياقهم الإجتماعي والثقافي يستسيغ ذلك ويكفي أن نتذكَّر أن المتنبي وهو أعظم شعراء العرب كان يوزع مدائحه على من لا يستحق بل على من هو أجدر بالهجاء ولم يكن يبحث عن المال فقط وإنما كان يستجدي بقيَّةٌ من سلطة مهما كانت حقيرة وكان يعلن أنه يرضيه منها الحثالة الباقية في الكأس «أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله؟ . . .» فالثقافة العربية لم تكن تستنكف من مدح الجبابرة والمتكبرين والمستبدين والعابثين من ذوي السلطان وقد توارث الأخلاف ذلك عن الأسلاف فأصبح سلوكا سائغاً بل صار سلوكا يفخر به صاحبه بقدر قربه من السلطان فالسلطة قيمة محورية في الثقافة العربية ويتباهى الفرد بالقرب منها ومن أهلها حتى لو كان بالمدح الكاذب. . .

إن منظومة القيم العربية تنطوي على خلل بنيوي لذلك لم يكن غريبا أن يتبرع الآلاف من المحامين ورجال القانون العرب للدفاع عن الطاغية صدام حسين بعد سقوطه فإذا كان رجال القانون وهم يُفتَرض فيهم أن يكونوا من حماة العدالة ومن المدافعين عن المظلومين ومع

ذلك يقفون هذا الموقف المؤازر للطاغية والمصادم للعدالة فإن غيرهم سيكون أشد انصياعاً للظالمين واستخفافاً بالمظلومين فالضمير والحس الأخلاقي أصابته الثقافة المتوارثة والواقع السيئ بعطب شديد من الصعب شفاؤه. . .

■ **منذ عقد من السنين يبدو واضحا أن ثمة قلق حول موقعنا من العالم. . وحول مستقبل لم يعد واضحا فهل لديك هذا القلق؟**

- إن أوضاع العرب محزنة ومخزية لذلك فمن البداهة أكون قلقا بل شديد القلق فلقد أدركتُ منذ وقت مبكر من حياتي أن خللاً فظيعاً قد أربك حياة العرب والمسلمين لكنني في ذلك الوقت لم أكن قادراً على اكتشاف الأسباب فعشت قلقاً عميقا ودفعني هذا القلق الممض إلى التأمل العميق في تاريخنا وثقافتنا بحثاً عن مصدر الخلل كما دفعني إلى الإهتمام بالثقافة الغربية الظافرة ابتداء من الفكر الفلسفي اليوناني ومروراً بالعصر الروماني ثم بتاريخ القرون الوسطى ثم عصر النهضة وتوقُّفاً عند انشقاق البروتستانتية عن الكاثوليكية والتعمق بالفكر السياسي والاجتماعي والإنثروبولوجي والعلمي وغير ذلك من إنجازات الغرب الباهرة فاستقرَّ عندي اقتناعٌ تام بأن الحضارة الغربية هي حضارة استثنائية ورائدة وليست امتداداً للحضارات القديمة فهي حضارة إنسانية بامتياز فليس امتياز الغرب بإنجاز العلوم والفنون والتقنيات فقط وإنما هذه نتائج لاحترام الإنسان والاعتراف بفرديته وتوفير الحرية له وتأنيس السلطة وجعلها في خدمة الناس فهي تابعة لهم وليسوا تابعين لها وهذا تحوُّلٌ نوعي غير مسبوق في الحياة الإنسانية وهو مصدر كل ما يعيشه الإنسان في كل الدنيا من تغيرات نوعية مدهشة في كل جوانب الحياة أما نكوص

أوربا عن الفكر اليوناني في العصور الوسطى والمظلمة فقد جاءها بتقليد ثقافات الشرق باعتماد رؤية أحادية مغلقة سدَّتْ منافذ الفكر الحر وأوقفت مسيرة الإبداع التي أبدعها الإغريق. . .

■ **طيب. . المجتمعات العربية والأنظمة العربية أي علاقة بينهما ومن يحاول الآن أن يدمِّر الآخر؟**

- العلاقة بين المجتمعات العربية والأنظمة العربية هي علاقة استسلام أبله أو علاقة توتُّر وصدام أرعن وهي بوضعها الحالي غير مؤهَّلة لتصير علاقة انسجام وتوازن وتآزر فهي بشكل عام علاقة القاهر بالمقهور أو علاقة العنف المتبادل بين السلطة وفئة لا تملك أية رؤية حضارية بديلة ثم إنه لا يوجد كيانات يمكن تسميتها المجتمعات العربية بل يوجد نثارٌ من الأفراد مستغرقين بهموم الحياة اليومية ولا ينتظمهم مجتمعٌ ذو بنية واضحة التكوين ومحدَّدة المعالم ولها وجود مستقل يمكن تمييزها بمؤسساتها وهيئاتها المؤثرة والفاعلة وإنما هم حشودٌ بغير روابط اجتماعية منظمة إنهم طوفان من البشر تحركهم العواطف وتستبدُّ بهم اللحظة العابرة ومهيأون للإثارة في أي اتجاه فليس لدى الفرد في الكثير من أقطار العرب ما يفقده ومن السهل استغلال عاطفيته المفْرطة وعجزه عن ممارسة المنطق العقلاني وقابليته الشديدة للإثارة أما المؤثِّرون من قادة الفكر والفعل فإنهم إما أن يكونوا مع السلطة القائمة ومندمجين بها وهم الأكثرية أو يكونوا غير متلائمين مع الواقع السيء ولكنهم غير مؤثرين تأثيراً فاعلاً وهم قلة من المفكرين الملتزمين الذين يجهرون بما يعتقدون أنه الحق ولو جرَّ عليهم المضايقات وعموماً فإنه إذا حصل أي انفراج في أي قطر عربي فهو بتأثير الثقافة الإنسانية الطارئة

وليس هو من نتاج الثقافة العربية التي تطمس فردية الإنسان ولا تعترف له بحقوق فهي تؤكد دائماً على واجباته ولكنها تُغفل حقوقه إغفالاً تامًا. . .

■ **هل تعتقد أن المثقفين مسؤولون عن مستقبل الثقافة العربية حقاً فإذا كان هذا هو رأيك ما هي هذه المسؤولية ما هي حدودها وكيف يمكننا أن نحدد حقا هوية مجتمعنا وثقافتة؟**

ـ الحياة البشرية تقوم على القيادة والإنقياد. . على الإبداع والإتباع. .على الاقتحام والإنتظام. .لكن المجتمعات العربية لا تعترف للمثقفين والمبدعين بأي دور بل هي تحاول إقصاءهم ومنعهم من نشر أفكارهم لذلك فإنهم ما زالوا غير مؤثّرين فلا قيمة لأية أفكار إلا بالاستجابة لها من المجتمع ولا مكانة لأي مفكر إلا إذا اقتنع الناس بأهمية دوره. . .

إن معضلة العرب أنهم ما زالوا مأسورين برؤية ثقافية مغلقة فالأمة بكل طاقاتها الهائلة وعددها الكبير ترى أنها غير قادرة على أن تغير ذاتها لذلك فهي تنتظر دائماً قائداً عادلاً مستبداً يُحقّق لها كل شيء!!!مع أن هذا القول ينطوي على تناقض شنيع لأن العادل لا يمكن أن يكون مستبدًا إن انغلاق ثقافتنا قد أصابها بالعُقم والإمحال لأنها تدعي الكمال لذلك لم نستفد من فتح المدارس والجامعات ولا من تعميم التعليم فلا جدوى من استيراد المعلومات والأفكار ما لم تنفتح هذه الثقافة وتتغذى بالمنجزات الإنسانية الهائلة أما إذا بقيتْ مغلقة فإن كل منجزات العلم والفكر تبقى طلاءً خارج البنية الذهنية للإنسان العربي. . .

لذلك فإن الواجب الأول للمثقفين هو مراجعة وتحليل الثقافة

العربية وكشف العوائق الثقافية التي تحول بيننا وبين مقومات الإزدهار والعمل على توطين ثقافة الإقناع ونبذ ثقافة الإخضاع ولا بد أن ينزل المثقفون إلى خطاب العامة وأن يتبسّطوا لهم وأن يُقرّبوا لهم الأفكار فمع سقوط الاتحاد السوفييتي وتخلُّص الغرب من الصراع معه زالت حاجته إلى المستبدين الذين كانوا يؤازرونه في محاربة الشيوعية فحصل هذا الانفراج كما أصبح متاحاً للمثقفين أن يتحدثوا للناس لأن وسائل الإعلام لم تَعُدْ كلها حكومية وصار الانترنت وسيلة رائعة للتواصل ونشر الأفكار وتقديم الرؤى...

لكن علينا أن نتعرّف على ثقافتنا التي تتحكّم بنا وأن نُحلل مكوّناتها وأن نُبرز أسباب الإعاقة الحضارية التي نعيشها فآفتنا من داخلنا أما محاولة تحميل الآخرين أسباب عجزنا فهو هروبٌ من الحقيقة وتزييفٌ للواقع وتضليلٌ للناس وإبقاءٌ للأوضاع الرديئة...

■ **ثمة اعتقادٌ شامل بأن الثقافة هي المكان الوحيد الذي يجمع العرب حاليا.. فهل ترى هذا وهل وحدة الثقافة في ازدهار أم في نكوص؟**

- نعم الثقافة العربية هي الجامع الناظم للعرب لكن فُهومنا لمكوّنات هذه الثقافة ولأساليب تفعيلها في حياتنا الحاضرة شديدة التباين والاختلاف فالأكثرون منا يريدون أن نبقى محكومين بهذه الثقافة لا حاكمين لها وأن نُعَطّل عقولنا ونلغي معارفنا أمام ممارسات وأقوال أشخاص من البشر لا يختلفون عنا إلا بكونهم أمواتا بل نمتاز عنهم بأنه توفّر لنا من المعارف ووسائل التحقُّق ما لم يُتَح لهم فالقول بعدم أهلية الإنسان المعاصر للفهم مناقضٌ لكل الحقائق التي يشهدها الجميع كما أنه عدوانٌ على الإنسان الحاضر وتحقيرٌ لقيمته وتقليلٌ لشأنه كما أنه

استخفافٌ بحاضر الإنسان ومستقبله وإغفالٌ لكل ما تحقق من منجزات هائلة في العلوم والأفكار والممارسات والتجارب إن هذه الرؤية السائدة تريد أن يبقى الإنسان العربي منفعلاً لا فاعلاً ومقلّدا لا مبدعاً ومردِّداً لا مبتكرا ومستسلما لا متسائلاً ومتخلفاً لا مزدهراً وبسبب استحكام وهيمنة هذه الرؤية بقينا خارج التاريخ بالنسبة لحضارة العصر وإذا دخلناه فإننا ندخله لنربك حياة العالم ونجرُّه نحو التقهقر وتضييق الحريات وسيادة الريبة والشك وتوقُّع الغدر وانتظار الدمَّار وهذا أبشعُ دخول لنا في عالم الإنسان. . .

أما تعاملنا فيما بيننا فإننا الآن نعيش حالة نكوص ثقافي مُريع فالخلافات الفكرية على المستوى الشعبي إلى وقت غير بعيد كانت تُحَلُّ بالمواجهة بين الفكرة والفكرة المضادة أما الآن فتعالج بالقوة والإرهاب والملاحقة الإستئصالية ليس من السلطة السياسية كما كان الحال من قبل وإنما من الناس الذين يحاول المفكرون تخليصهم من خوانق الحياة وإخراجهم من أنفاق التخلُّف وهذه نهاية نكوصية فظيعة ومأسوية لم تمر بها أمة أخرى وهذا هو حصاد الانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي وتنمية عواطف الكُره وملء العقول بالخوف والارتياب والتوجُّس وعلينا مواجهة هذه الحالة الشنيعة بتوطين ثقافة العلم والسّلم وإعلان التآخي ونبذ الكراهية وسوء الظن. . .

■ **بعض المثقفين دُجِّن وبعضهم سكت وبعضهم انضم إلى أفكار التطرف. . فما هو موقفك وسط هذا؟**

ـ بالنسبة لمواقف المثقفين فقد تناولتها بتفصيل في كتابي عن (القيادة والانقياد) أما بالنسبة لي فإنني ملتزمٌ بثقافة العلم والسّلم والدعوة

إلى الإنتقال من ثقافة الإخضاع إلى ثقافة الإقناع ونبذ العنف إنني أجهر بما أرى أنه الحق ومقتنعٌ في الوقت نفسه بأن إدراكنا للحقيقة هو إدراكٌ نسبي لذلك فإني أُبقي ذهني مفتوحاً للمراجعة الدائمة والتصحيح المستمر والإضافات الموصولة إننا بحاجة قصوى إلى أن نتعلَّم من الآخرين وأن نستفيد من التجارب الإنسانية السخية وأن نهتم بالحقيقة وأن نتمرّن على الحياد الموضوعي وأن نكفَّ عن الاستغراق بأوهام نظرية المؤامرة...

إن كل مكاسب الدنيا لا تستحق غمط الحق ولا خيانة الحقيقة ولا تضليل الناس فالحياة جدُّ قصيرة ومن الخَبْل والسَّفه إهمال الحقيقة من أجل مطامع دنيوية هي بالضرورة حقيرة مهما بلغت قياساً بأهمية الحقيقة...

- **إذا كنت تؤمن بأن في إمكان الفكر أن يلعب دوراً كيف وأين يمكن أن يلعب هذا الدور في الكتب في الإعلام في الجامعات. أنت شخصياً أين تبشر وكيف؟**

- أثبت التاريخ في الماضي وتجارب الشعوب في الحاضر بأن للفكر التنويري الناقد دوراً رئيساً في التقدم والإزدهار وأنه من غير ذلك لا يمكن لأي مجتمع أن يتقدم أو يزدهر فالأصل في المجتمعات أنها تبقى أسيرة السائد من الأفكار والأدوار والسلوكيات فلا يخرجها من هذا الدوارن الأُفقي سوى الأفكار الناقدة ولا يحفزها على النهوض سوى المفكرين الذين يستوعبون مكوِّنات ثقافة مجتمعاتهم كما يستوعبون التغيرات النوعية التي طرأتْ على الحضارة الإنسانية فينهضون بدور التنوير والحفز وتقديم الرؤى وإرشاد المسيرة...

وبالنسبة لي فإني استخدم كل الوسائل المتاحة وهي بشكل رئيسي الكتابة والتأليف ثم إلقاء المحاضرات أو اللقاءات التلفزيونية إذا أتيحت لي...

إننا نحن العرب ما زلنا مأخوذين بثقافة المشافهة فلسنا مجتمعات قارئة والدراسات والتقارير الدولية تؤكد أننا نعيش حالة مخزية وفضائحية ومأساوية بالنسبة للقراءة وإنتاج المعرفة والبحث عنها لذلك فإن الفضائيات مادمنا كذلك هي الوسيلة المثلى لنشر الأفكار والتبشير بالمستقبل المزدهر المأمول إلى أن ترتقي الأمة إلى مستوى المعرفة المقروءة فتجعلها المصدر الحقيقي للفهم وتكوين الرؤى وإصدار الأحكام بدلاً من ثقافة المشافهة والارتجال التي ما زالت تتحكم بعقولنا وتتلاعب بعواطفنا...

حوار منشور بجريدة الشرق الأوسط

أجرى الحوار الأستاذ مشاري الذايدي

ونُشر الحوار يوم الجمعة ١٤/ ١١ / ٢٠٠٣ م

إبراهيم البليهي لـ (الشرق الأوسط): أدعو إلى تأسيس علم للجهل وتفكيك بنية التخلف

المفكر السعودي الذي خرج من رئاسة البلديات يتساءل: لماذا نحن فاشلون ولماذا تقدم الغرب وأخفقنا نحن؟!

الحديث مع إبراهيم البليهي صاحب التجربتين: الإدارية والثقافية حديثٌ ممتع ومفاجئ ومحزن!

فالرجل شديد المباشرة سريع الإشارة إلى ما يريد دون إطالة وقد تناقل عنه الناس الذين جربوا التعامل معه نزاهته الشديدة عندما كان المسؤول الأول عن البلديات بمنطقة حائل بالمملكة العربية السعودية ثم بالمنطقة الشرقية ثم بمنطقة القصيم مسقط رأسة كما تناقلوا عنه صرامته وربما غضب منه البعض لكنه خرج من هذه التجربة الطويلة وهو يحمل سؤالا مزعجا: لماذا نحن فاشلون ولماذا تقدم الغرب وأخفقنا؟!

وكان ينظر لعمله بعينين عين الإداري وعين المفكر الذي يجمع الملاحظات ويتأملها حول سلوك العمل والعامل في الثقافة المحلية.

صار هذا السؤال هو المغزل الذي نسج حوله البليهي نسيجه الفكري والنظري لقد حمل هذا السؤال خشبة ثقيلة فوق كاهله يضرب ويقصف بها متاريس اجتماعية وفكرية طال عليها الأمد.

كتب كثيرا سواء عبر مقالاته المنتظمة في صحيفة الرياض السعودية أو عبر كتبه منذ كتابه التجميعي «النبع الذي لا ينضب» الذي دارت

موارده حول العمل والإدارة الناجحة وصولا إلى «بنية التخلف» الذي حاول فيه تفكيك البنية الذهنية والنفسية والاجتماعية للتخلف من داخله وغير ذلك.

الآن وبعد أن تقاعد البليهي من العمل وتفرغ أكثر للكتابة نتيح للقارئ العربي التعرف على فكر هذا المثقف السعودي الاحتجاجي:

- **مررتَ بثلاث مراحل تبدأ ببحثك الجامعي الذي صدر عام ١٩٧٠ عن (سيد قطب وتراثه الفكري والأدبي) وكان يمثل مرحلة منفصلة عما لحقها من مراحل فقد كانت المرحلة الثانية إنشغالاً تاماً بالعمل الوظيفي بالبلديات ممارسة وتنظيراً وظهر لك عنها ثلاثة كتب وكان ختام هذه المرحلة كتابك (النبع الذي لا ينضب) ثم انتقلت إلى النقد الثقافي مبتدئاً بتحليل (بنية التخلف) وبالدعوة إلى (تأسيس علم الجهل) وبنقد التعليم التلقيني والتأكيد على ما تسميه (عبقرية الإهتمام) فهل تُمَثِّل كل مرحلة انقطاعاً عما قبلها؟؟**

- لا يوجد في حياتي انقطاعات ولكن مع البحث الجاد والإهتمام القوي المستغرق تنمو معرفة الإنسان وتنضج خبرته وتتطور رؤاه وتتسع إنشغالاته وتتنوع همومه ويكتشف تعدُّد أسباب الأشياء ويعرف أن حركة الحياة ليست قطاعات متمايزة وإنما تجمعها شبكة من الروابط الخفية والقوية فهي تتحرك مجتمعة نحو الأفضل أو نحو الأسوأ ولأنني كنتُ مشغولاً بالبحث عن إجابة شافية لسؤال محوري رافقني منذ البداية وهو: لماذا بقي التطور الحضاري المذهل في العصور الحديثة محصوراً بمجتمعات قليلة بينما طوفان التخلف ما زال يغمر أكثر مجتمعات الدنيا؟! ولماذا ظللنا نحن المسلمين ضمن المجتمعات المتخلفة؟! فإذا

كنا خير أمة أخرجتْ للناس فلماذا بقينا أدنى الأمم في العلوم والتقنيات وفي الإدارة والسياسة وفي القوة والاقتصاد وفي كل ما تعج به الدنيا من أمور الإنسان والحياة؟!...

■ **هل كانت ثقافتك التأسيسية دينية خالصة أم كان هناك مؤثرات أخرى؟**

ـ لقد تخرَّجْتُ في كلية الشريعة بالرياض وقبل ذلك نشأت متديناً وفي الوقت ذاته كنت ومازلت شغوفاً بالمعرفة لذلك كنتُ أقرأ بنهم في التراث الإسلامي ثم تعلَّقْتُ بالكتابات المستنيرة عن الإسلام أبحث فيها عن جواب مريح لهذا التناقض المحيِّر بين عظمة تعاليم الإسلام وهوان أهله فقرأت لكل دعاة الإصلاح كالأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وشكيب أرسلان ومالك بن بني ومحمد الغزالي وحسن البنا والمودودي والندوي ومحمد أسد ومحمد البهي ومحمد عبد الله درَّاز وعباس محمود العقاد وغيرهم كثير ثم شدَّني (سيد قطب) فأعددت عنه بحثي الجامعي ولما تخرَّجتُ من الكلية تعينت رئيساً لإحدى البلديات فهالني الفرق الشاسع بين ما ندعيه لأنفسنا من خيرية واستقامة وما رأيت من تكالب على المصالح الخاصة واستخفاف بالمصالح العامة لقد شاهدت طوفان الأهواء وعواصف الرغبات الخاصة وهي تعصف بأهل النزاهة وتضع أمامهم العراقيل والصعوبات وتحاول إفشالهم بشتى الطرق وهنا أمسكتُ بطرف الخيط وعرفت أنه لا يوجد تجسيدٌ حقيقي لتعاليم الإسلام العظيمة في حياة وتعاملات الناس فالإدعاءات واسعة أما الحقائق فهي شديدة المرارة كما أمسكت بخيط آخر حين رأيت شيوع الإهمال بين العاملين وغياب الإلتزام وكلال الأداء الوظيفي وضعف المهارات وانعدام الرؤية المهنية وغياب الولاء للعمل وجرأة المشاكسين

الكسالى والعاجزين من الموظفين وشراسة تعاملهم مع زملائهم ومديريهم وقدرتهم على التوهين والتثبيط والتشويه ووجدتُ أن أكثر الناس يتأثرون بالمفترين والمشاغبين ولا يلتفتون إلى الحقائق مهما كانت شديدة الوضوح وتراكمتْ أمامي كل هذه الصور وغيرها كثير مما يسوء ويؤلم فواصلتُ التأمل والبحث من أجل أن أعرف لماذا نحن العرب عاجزون عن التعاون وحسن الأداء؟! وما هي أسباب هذا التفاوت الشاسع بين المجتمعات القليلة المزدهرة والمجتمعات الكثيرة المتخلفة؟!

■ **وأين بحثت عن الإجابة في الفكر العربي أم في الفكر العالمي؟**

ـ قرأت كل ما أتيح لي أن أحصل عليه من مصادر الفكر والعلم والفن والمعرفة وقد حرصت على القراءة في الفكر العالمي واتجهت إليه بنهم فقرأت الكثير من الكتب المترجمة في الفلسفة العامة وفلسفة العلوم والفلسفة السياسية والإجتماعية وفلسفة التاريخ وعلم النفس الفردي وعلم النفس الإجتماعي والانثروبولوجيا الثقافية وغير ذلك من العلوم الإجتماعية والإنسانية وأوليت اهتماماً خاصاً بتاريخ الفكر العلمي وبتاريخ نشوء وتطور العلوم وتاريخ الاختراعات وتاريخ الإبداع وبسبب هذا الإهتمام القوي والموصول فقد كانت الأفكار عندي تتطور والرؤية تتضح والموضوعية المتأنية تزيح الحماس الأعمى وتُحل محله البحث الجاد فالمسيرة متَّسقة ونامية وليست انقطاعات فكل مرحلة هي امتدادٌ لما قبلها مثل المولود يبدأ طفلا ثم مراهقاً ثم راشدا...

■ **هل يوجد علاقة عضوية بين ما تسميه (بنية التخلف) وبين الدعوة الملحة إلى (تأسيس علم الجهل)؟**

ـ لقد دعوت إلى تأسيس علم الجهل قبل صدور كتابي (بنية التخلف) بسنوات فتحليل هذه البنية لا يمكن أن يتحقق إلا بواسطة (علم الجهل) الذي أدعو إلى تأسيسه لأن الجهل المركَّب أعني جهل الإنسان لجهله واغتباطه بهذا الجهل اعتقاداً منه بأنه الحق والصواب هو أقوى استحكامات بنية التخلف فغبطة المجتمعات المتخلفة بثقافاتها وتوهمها الكمال لذاتها واقتناعها بأوهام الإكتفاء قد حالت بينها وبين أي تقدم إن هذه الغبطة الواهمة هي القلعة الفولاذية التي تتحصَّن بها بنية التخلف وبذلك توصَّلْتُ إلى أن العقل البشري يصوغه الأسبق إليه وأنه متى تحدَّد اتجاهه ومنظومة قيمه واهتماماته وطرق تفكيره وأسلوب حياته بالتنشئة المبكرة فإن العلوم التي يتلقاها بعد ذلك في المدارس والجامعات تبقى طلاء خارجياً لا تأثير له على البنية الذهنية والوجدانية والأخلاقية ولا على طريقة التفكير ولا على تكوين الإهتمامات وتحديد الإتجاهات. . .

إن المجتمعات المحكومة بالبنى الثقافية المغلقة تمر عليها السنون والعقود والقرون وهي تدور في نفس المكان مغتبطة بهذا الدوران فهي تعتزُّ اعتزازاً أعمى بثقافتها لذلك فإنها لاتعترف بتخلفها ولا ترضى بأن توصف بأنها مجتمعات متخلفة بل هي ترى أنها في القمة مهما تدهورت فيها الأوضاع وترى الآخرين في القاع مهما صعدوا ومهما حقَّقوا من التقدم والإزدهار. . .

وهنا لا بد من الإستدراك حول مفهوم التخلف فهذا المفهوم يوهم بأن المتخلف يسعى للخروج من حالة الركود لكنه لم يلحق بعد وهذا عكس الواقع فهذه المجتمعات تدور في المكان نفسه ولا تريد أن

تتجاوزه لذلك فإنها ستبقى حيث هي ولن تلحق أبداً حتى تغيّر ذاتها ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ فالتخلف مرحلة متقدمة قياساً بحالة الدوران الثابت الذي لا يتجاوز مكانه فوصْف هذه المجتمعات بالتخلف يُغطّي حقيقة عجزها البنيوي وتقهقرها المريع قياساً بحركة الحضارة المتسارعة. . .

■ **إذا كنت لا ترضى التخلف وصفاً وتراه مموّها فما هو رأيك في وصف الدول النامية؟**

ـ إن المجتمعات التي أظهرت عجزاً دائماً عن تجاوز حالة الركود أو تعيش تقهقراً متصلا عن مسيرة الحضارة العالمية لا تستحق بأن توصف بأنها متخلفة لأن هذا الوصف ينطوي على الكثير من المدح والمجاملة وتمويه الواقع وتلميع الصورة أما حين توصف هذه المجتمعات العاجزة بأنها نامية فإن هذا الوصف يكون أفدح تزييفا للحقائق فهو يندرج في باب المداهنة أو الخداع والتزييف والتضليل. . .

إن الوصف بالتخلف يوحي بالحركة المستمرة نحو الأمام فكأن المتخلف يركض خلف الذين سبقوه لكنه لم يتمكن بعد من اللحاق بهم وهذا يشير إلى أنه سوف يلحق في وقت لاحق وهذا يتناقض مع واقع الكثير من أقطار أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية إن هذا الوصف يوهم بأن المزدهرين والمتخلفين ينطلقون من نفس المنطلقات وأنهم يسيرون مع نفس الطريق وأن لهم نفس الرؤى وأنهم يسعون لنفس الأهداف وأنهم جميعا تُحرّكهم نفسُ القيم والقناعات ويوهم بأن المزدهرين سبقوا غيرهم في بداية الركض وأن هذه المزية هي التي مكّنتهم من السبق وأن الزمن سوف يطوي هذا الفارق. . .

لكن أية مراجعة لثقافات الإزدهار وثقافات الركود تكشف بأن الإختلاف بين المزدهرين والمتخلفين ليس كمياً وإنما هو اختلافٌ نوعي إن التخلف لا يعود إلى التأخر في بداية الإنطلاق وإنما يرجع إلى الجهل بنقطة البداية أو الرفض الصريح أو الضمني لهذه البداية . . .

إن التخلف ليس حالة عابرة وإنما هو بنية قوية متماسكة تملك من الصلابة والرسوخ ومن متانة التحصينات وقوة الرفض ودوام المقاومة ما يضمن لها القوة والإستمرار إنها تُغلق الأبواب والنوافذ وتوصد الأذهان والعواطف وتحرس نفسها حراسة شديدة لا تسمح للضوء أن ينفذ ولا للفكر أن يستيقظ ولا للمعرفة أن تنمو فيبقى الناس مغتبطين بما هم عليه متوجسين من حسد الحاسدين وكيد الحاقدين وتآمر المتآمرين هكذا يتوهَّم الإسكيمو في القطب المتجمد أو قبائل هضبة التِّبت في صحاري آسيا ومثلُهم كلُّ مجتمع منغلق يجترُّ نفس التغذية ويرفض أية تغذية طارئة . . .

إن المجتمع المتخلف يرى أنه البقعة الوحيدة المضيئة في الأرض وأن المجتمعات الأخرى حتى أشدها إزهاراً تعيش في ظلام حالك وأنها تختزن حقداً متأججاً وتتمنى أن تطمس هذا الضوء الإستثنائي وبهذا الإغتباط الغامر بما هو قائم يستحيل على المجتمع المتخلف أن يتزحزح عن مواقعه أو أن يتقدم عن مكانه بل إن حركته إن حصلتْ فإنها تكون في الغالب نحو الخلف والمزيد من تقوية استحكامات بنية التخلف والإنطواء على الذات ومواصلة تأكيد أوهام الإمتياز والإصرار على الإكتفاء وتعليق العجز على مؤامرات الأعداء لتبقى الذات بريئة من الخطأ والتقصير . . .

■ **في طرحك المتكرر عن تأسيس ما أسميته بـ (علم الجهل) اعتبرت أن الاضاءات العلمية ما هي إلا جزر متناثرة في محيط الجهل الشاسع، كما تُحيل إلى الجهل السابق مشكلة عدم حدوث نقلة معرفية وثقافية لدى من يتلقى علوما تطبيقية وبحتة لا تؤثر على (برمجته) الاجتماعية وخريطته الذهنية السابقة، هل لك أن تشرح لنا الموضوع بشكل أوضح وأكثر مساسا بواقعنا؟**

- أجل إن العلوم تتقدم على هيئة جزر منفصلة ومتباعدة وسط المحيط الشاسع للجهل المركَّب فالعلوم طارئة أما الثقافات القديمة فهي عريقة وراسخة فالقيم والآراء والأفكار والتصورات والعادات والتقاليد المتوارثة سابقة للعلوم ولم تخضع لأية مراجعة أو تحليل لا أثناء تكوينها ولا خلال العصور من وجودها لذلك فهي غالبا من الجهل المركَّب الذي يغتبط به أهله ويحسبونه حقاً وعلما وهذا الوهم يصدُّ عن الحقائق ويُضعف تأثير العلوم بل إن هذه البنية الذهنية والوجدانية تكافح من أجل أن لا يكون للفكر العلمي موطئ قدم ولأن الجهل المركَّب متأصِّل في النفوس وعميق الغور وشديد المقاومة فإن الغَلَبة مضمونة له فيقتصر تأثير العلوم على جزئيات النشاط المهني فيتمكن المتعلم من دراسة الطب أو الهندسة أو القانون أو البحث العلمي في موضوع معين أو في أي تخصص جزئي ويستطيع أن يكتسب عمليا مهارة الأداء بقدر مرانه وتدريبه واجتهاده وإخلاصه لمهنته وبقدر شدة حماسه وطول ممارسته لها أما طريقة التفكير والحكم على الأشياء خارج النطاق الضيِّق للتخصص فيبقى محكوماً بالخريطة الذهنية والوجدانية السابقة للتعليم وإذا كانت هذه الخريطة مغلقة فإنها لا تسمح بالحذف ولا بالإضافة ولا بالمراجعة والتصحيح فتبقى المعارف الجديدة خارج البنية الراسخة

وتكون المعلومات بمثابة قشور خارجية أو طلاء مؤقَّتاً وغير مؤثِّر خارج مجال التخصُّص لذلك تشتد الحاجة إلى إنشاء علم الجهل لينهض بمهمة تفكيك وتحليل هذا الأخطبوط المهيمن على الأذهان والعواطف وليعمل هذا العلم المقترح على تسليط الأضواء على بنية الجهل المركَّب ليتعرَّف الجميع عليها فالعلوم القائمة حالياً تحاول أن تفهم الأشياء والأوضاع وتساعد على الأداء المهني وتُقَلِّص مساحة الجهل البسيط لكنها لم تهتم بالتناسل الثقافي الذي تتوارثه الأجيال وتمتلئ به النفوس قبل التعليم فالسائد حالياً في التعليم أن المعرفة لا تتكوَّن كرؤية عامة وإنما تأتي التخصصات كقطاعات متمايزة منفصلة بل وأحيانا متنابذة فالتخصصات أشتاتٌ متناثرة وليست نسيجاً متماسكا وهي مع تناثرها تأتي إلى عقول سبق تشكيلها وأُحكم إغلاقها فالدراسة الشكلية لا تهتم بالموانع الثقافية والنفسية السابقة للعلوم مع أن هذه الموانع أحق بالدراسة من كثير من مجالات البحث العلمي لأن المعارف الممحَّصة ستبقى محدودة الأثر ما لم تنكشف بنية الجهل السابقة للعلوم وتنفك أقفالها . . .

■ **أليس هذا مناقضاً لما حصل ويحصل من تطورات مذهلة في مجالات الأفكار والتنظيمات والعلوم والفنون والآداب والتقنيات؟**

- إن المعرفة الإنسانية الممحَّصة والأفكار الخلاقة والإبداعات الجديدة والإبتكارات الرائعة قد تحقَّقَتْ بواسطة قلة من الأفذاذ ولم يجر تعميم الإقتناع بجدواها إلا بواسطة النتائج المادية الملموسة ثم تحولَّتْ في الغرب بالمعايشة اليومية الطويلة وبالتحولات التاريخية الجذرية إلى ثقافة عامة يعيشها الناس هناك تلقائياً لأنهم قد تشرَّبوها من البيئة ثم يأتي

التعليم في المدارس والجامعات منسجماً معها فالأفكار مطبَّقة على الواقع ومعاشَة في الحياة اليومية حتى وإن كان عامة الناس لا يدركون الفلسفة العامة التي كانت خلف الكشوف والإبداعات ولا الأسباب والعوامل التي أوصلتهم إلى أسلوب الحياة الذي يعيشونه ولكنهم تشرّبوه امتصاصاً تلقائيا في الطفولة حين كانت القابليات مفتوحة فجرى فيهم مجرى الدم وسرى فيهم سريان الحياة...

أما في العالم الثالث فإن الإطار العام الذي يجمع هذه العلوم والرؤية الفكرية التي تمخَّضَتْ عن هذا الإزدهار قد بقيتْ بعيدة عن محيطهم الثقافي والإجتماعي فظَّلت محجوبة عن أفهام أغلب المتعلمين فقد درسوا العلوم تفاريق بعد اكتمالها وتعاملوا معها ببرود كحقائق ناجزة ولم يعايشوها كحركة ووقائع ولم يتعرفوا على مراحل تكوينها ولا على المخاضات العسيرة التي سبقتها وصاحَبَتْها فهم مثل الذي يأكل الثمرة دون أن يعرف الشجرة ولا كيف نبتت ولا الظروف التي هيأت لها النمو والإثمار ثم إن الحقائق العميقة والروابط المتشابكة الخفية لا تنكشف إلا للذين يكافحون من أجلها ويملكون الإخلاص للحق والرغبة في المعرفة وترفدهم مواهب سخية ويدفعهم اهتمام قوي مستغرق وهذه الحقيقة البادهة تؤكد ندرة التفكير العلمي بين الناس كما تؤكد أن المعرفة التي لم تخضع للفحص والتحليل والمراجعة ليست معرفة حقيقية وليست أيضا معرفة محايدة ولكنها تقاوم حقائق العلم وتُحبط إمكانات نماء التفيكر العلمي...

إننا لا نستطيع أن نتصور طبيعة الجهل المركَّب وقوة تحصيناته وإدراك أسبقيته على كل معرفة علمية وامتداد سلطانه على الأفراد

والمجتمعات حتى ندرس تاريخ الثقافات وتاريخ الفكر العلمي فبضدها تتميز الأشياء فالعلوم لم تتوصل إلى الحقائق الجزئية إلا بعد جهود طويلة وعثرات متكررة ومراجعات مستمرة وتصحيحات متتالية بينما أن رؤوس أكثر الناس في كل مكان مليئة بما لم يخضع لأية مراجعة ولا أي تمحيص فإذا كان العلم وهو نتاج العقل في أحسن حالات وعيه وأروع تجليات انتباهه قد بقي موضوعاً للمراجعة الدائمة والفحص المستمر والتصحيح الموصول فإن الجهل المركّب السابق للعلوم والمحصَّن بالعواطف والمدعوم بالافتخار والمتوطد بالإلفة والمقدس بالتوارث والمغفول عنه بالبرمجة التاريخية وبالتنويم الاجتماعي يكون أشد احتياجاً إلى علم يهتمُّ به ليوضح تعقيداته وأصالته وأسبقية وجوده وليكشف أساليبه وَيُعرِّي منابعه ويحلل عناصر تكوينه ويحدد آليات عمله ويُظهر قوة سلطانه ويجعله موضوعاً للدراسة الفاحصة والتحليل الكاشف...

■ **قلت في بعض مقالاتك إن الطالب من العالم الثالث يذهب إلى منابع الحضارة الإنسانية في الغرب ويتلقى علومه هناك إلا أنه يظل محتفظا بخصائصه الثقافية المتخلفة، وأن ثقافة المواطن العامي في الغرب أكثر تقدما من المتعلم في العالم الثالث، وواضح من كلامك هذا أنك تدرج الثقافة الغربية في المرتبة العليا من الثقافات الإنسانية، ولكنك في نفس الوقت اعتبرت روجيه جارودي ومراد هوفمان وأمثالهما قد كسرا جدار البرمجة الاجتماعية الثقافية ونجحا في الانتقال إلى الثقافة الأفضل، كما شرحت في مقالك (الجهل بوصفه موضوعا للدراسة) كيف نفهم ذلك دون أن نشعر بالتناقض؟!**

ـ إن معيار الإنفكاك عن البرمجة الثقافية هو إستقلال التفكير وقدرة الفرد على تكوين رؤية ذاتية أداتها البصيرة النافذة والبحث الحر والإخلاص للحقيقة وقد كان تحوُّل ليوبولد فايس (محمد أسد) وجارودي ومراد هوفمان وجفري لانق وأمثالهم من اليهودية أو المسيحية إلى الإسلام نموذجاً على الاستقلال الفردي في التفكير وفي الرؤية والموقف والقرار وهم لم يتحولوا إلى الثقافة السائدة في واحد من المجتمعات الإسلامية وإنما تحولوا إلى الإسلام ذاته في نصوصه الصافية وتعاليمه العظيمة. . .

إن استقلال هؤلاء المفكرين في التفكير والرؤية والموقف قد جعلهم يكتشفون عظمة الإسلام رغم تدهور أحوال أهله وهذا منتهى القدرة على الإختراق فلم يصرفهم عن الحق سوء أوضاع المسلمين فلقد أدركوا عن طريق البحث الجاد والتأمل العميق والدراسة الواعية للقرآن الكريم بأن الإسلام وحي الله إلى الناس كافة وأن ما يعيشه المسلمون من ضعف وتخلف وتشتت لا يتفق مع عظمة الإسلام لقد استطاعوا أولاً أن ينفكُّوا عن ثقافتهم الموروثة ثم استطاعوا ثانياً أن يتأكدوا بمحض الإهتمام والجهد والإخلاص بأن الإسلام في نصوصه وتعاليمه يمثل قمة الحقيقة وأن هوان المسلمين وتخلفهم ناتج عن سوء الفهم للإسلام وعن سوء التطبيق لتعاليمه وتمكنوا ثالثا من اتخاذ القرار المستقل باعتناق الإسلام إن الذين يعرفون طبيعة البرمجة الثقافية وعمقها في الوجدان واستيلاءها على العقل يدركون أنه ليس من السهل على من تربّى على الثقافة اليهودية أو المسيحية أن يخترق كل هذه الحواجز وينتقل للإسلام إلا إذا كان ممن يستطيعون الإفلات من قبضة البرمجة الثقافية. . .

■ **ألا تنطوي الدعوة إلى تأسيس علم للجهل على مفارقة لافته فكيف يكون للجهل علمٌ؟**

ـ إن الجهل المركَّب الناتج عن غبطة كل مجتمع بثقافته واعتزازه بموروثه مهما كان سوؤه ليس فراغاً وإنما هو كائن شديد التعقيد وعريق الوجود وراسخ القواعد وغزير المنابع وقوي الكيان وشرس المقاومة إن الجهل المركَّب المعاش يحتلُّ العقول ويصوغ العواطف منذ الطفولة قبل أية معرفة ممحَّصة إنه ينعم بالاستقرار والثبات والأمان داخل حصون المألوف محميًا بقلاع السائد إنه كائن ضخم وعنيد يقاوم المعرفة الجديدة الممحَّصة ويغلق إمكانات التدارك والتصحيح ويستبقي الأباطيل والضلالات والأخطاء والمظالم سائدة فما يعتبره البوذيون مثلاً من القيم الرفيعة أو من الحقائق الثابتة التي لا يجوز تعريضها للشك هو ذاته عند اليهود من التصورات والممارسات الوضيعة والخرافية ورغم ذلك تبقى هذه التصورات المتناقضة صامدة أمام زحف العلوم وتبقى البنية الذهنية المغتبطة بذاتها متمركزة حول نفسها ورافضة لأية حقائق تمس وجودها فيذهب المبتعثون من مختلف البلدان من أفريقيا وآسيا وغيرهما إلى جامعات الغرب ويكملون الدراسة ويحصلون على شهادات عالية ولكنهم يعودون إلى بلدانهم دون أن تتأثَّر خرائطهم الذهنية والوجدانية والذوقية بينما أن الأمريكيين والبريطانيين والكنديين والألمان والفرنسيين وبقية شعوب أوربا الغربية واستراليا ونيوزيلندا تكون بداهات عامة الناس متماثلة تقريباً مع بداهات أساتذة الجامعات في نفس البيئة وكذلك منظومة القيم والممارسات السائدة وأسلوب الحياة وطريقة التفكير وعدم الوثوق المطلق بما في رؤوسهم من تصورات وكذا الإحساس بالفردية واحترام الرأي الآخر وعدم الخوف من سماع الأفكار الجديدة أو الأراء

المغايرة والاستعداد للتغيُّر والتحول والتَّرَبِّي على أولوية الخطأ والحرص على تحاشيه وإدراك أن كل شيء محكوم بمبدأ التغليب ومبدأ الاحتمال فلا مكان لأوهام الكمال ولا للوثوق المطلق بالأحكام والرؤى كما أن الثقافة التعددية المفتوحة تجعل الناس يهتمون بالأفكار ذاتها وليس بالأشخاص وغير ذلك من القيم الثقافية التي يتساوى فيها المتعلم وغيره ممن نشأوا في نفس البيئة فالمناخ الثقافي هو محضن العقول والعواطف والأذواق أما المعلومات فكلها تتكيف بهذا المناخ سلباً أو إيجابا.

ومما يشهد لأولوية وهيمنة الثقافة الموروثة على الثقافة العلمية الطارئة استمرار الوثنية حتى الآن في أفريقيا وآسيا وغيرهما فلم تُفلح كلُّ تطورات العلوم ووسائل التواصل أن تخفِّف من هذه الهيمنة فالغارقون بمعتقدات خرافية يبقون مغتبطين بها ومعتزين بانتمائهم إليها مهما واصلوا التعليم النظامي حتى النهاية إن البرمجة السابقة للتعلم في الثقافات المغلقة تحمي ذاتها من أي فكر طارئ ولا تسمح للعلوم أن تتدخَّل أو تُشَكِّك أو تُراجع أو تُصحِّح أو تَستدرك أو تتساءل إلا في حدود التخصصات المهنية المنفصلة عن البرمجة السابقة لها فالمنتمون إلى شتى الملل الخرافية قد يواصل أحدهم التعليم في أرقى الجامعات حتى الدكتوراه ولكنه يظل يجهل جهله المركّب ويغتبط به لأنه باشر عقله وقت فراغه فاحتلَّه احتلالاً أبديا إلا ما شاء الله فيبقى الوثني على وثنيته وضلاله ويظل متمسكا بقيمه وعاداته الذهنية والسلوكية مهما نال من تعليم وهذا يؤكد أن التأسيس الثقافي الذي يسبق التعليم هو المهيمن فيكون تأثير المعارف الصحيحة الممحَّصة التي يتلقاها الناس في المدارس والجامعات مماثلاً لتأثير مياه الأنهار العذبة حين تصب في المحيطات الواسعة المالحة فالمحيط المالح الواسع يبتلع الماء العذب

دون أن يتأثر به فإذا تبرمج عقل الإنسان ووجدانه وذوقه في صغره بثقافة سيئة فإن العطب يكون دائماً وماحقاً إن الإفساد الذهني والعاطفي والقيمي والأخلاقي والذوقي لا رجعة فيه إلا في حالات استثنائية حين يستطيع المجتمع أو الفرد أن يكسر أطواق البرمجة ويكتشف عوالم الحقيقة خارج هذه الأطواق. . .

إن الروح العلمية نادرة في الناس حتى بين من يحملون أرفع الشهادات الدراسية فالعلم ليس معلومات وإنما هو رؤية إن الروح العلمية انتقالٌ من العيني إلى المجرد ومن الاستسلام للمألوف إلى إخضاع هذا المألوف للمراجعة والتمحيص ومن الخضوع لأوهام الوضوح إلى إدراك أن الحقائق لا تنجلي إلا للذين يكافحون من أجلها إن الناس في كل مكان وخصوصاً الذين يعيشون ضمن ثقافات مغلقة هم بأمس الحاجة إلى معرفة الجهل المركَّب الذي يتحكَّم بأذهانهم وعواطفهم ليدركوا أن معظم محتويات عقولهم ووجدانهم قد ترسَّبَتْ فيها بفعل المعايشة اليومية والامتصاص التلقائي ولم تمر بأية مراجعة علمية أو تحليل مقصود ليس هذا فحسب بل إن حقائق العلم التي يتلقونها في المدارس والجامعات تتحوَّر لتتوافق مع البرمجة الذهنية السابقة حتى تتلاءم مع محتوى الأذهان فالتعليم المدرسي لا يُلغي الجهل المركَّب وإنما يَخضع له أما الذي يُعَرِّي الجهل المركَّب ويفضحه فهو إخضاعه للدراسة والتحليل بواسطة علم الجهل الذي أقترح تأسيسه وقد أعددتُ فيه كتاباً يمهِّد لهذا التأسيس ويفتح الأبواب للمزيد من التأصيل والتوسُّع ويكفي في البداية أن تشيع الفكرة وأن يحصل الإهتمام بهذه القضية المحورية. . .

- **أبو حامد الغزالي كان موضع التثمين والاحتفاء لديك بسبب نفضه لكل معارفه السابقة ووضعه لجميع التيارات الفكرية على حد سواء في كونها طالبة للحق (المتصوفة والمتكلمة والمتفلسفة والباطنية) إلا أن أبا حامد الغزالي اختار الانحياز للتصوف، وهو خيار لا عقلاني بلا شك، أليس ذلك دليلٌ على أن الحل لا يكمن فقط في كسر البرمجية السابقة؟**

ـ كانت القضية الوحيدة التي تشغل عقل الغزالي هي قضية الإيمان بالله والطريق الموصل إليه ولم تكن تشغله قضية أخرى وحين تفحَّص الإتجاهات المعروفة في عصره قبل ظهور العلوم الحديثة وجد أن كل اتجاه يدعي أن الحق معه كما وَجَدَ أن حجج المتخاصمين متناقضة رغم أنهم جميعا يعتمدون على العقل ووجد كل هذه الحجج قابلة للنقض اعتماداً على مهارات الجدل وتوصل إلى أن الإتجاه الوحيد الذي يراه يلامس الوجدان وتطمئن إليه النفس هو الإتجاه الصوفي لأنه اتجاهٌ يشهد له الإحساس الداخلي الذاتي الغامر الذي يفيض بالطمأنينة واليقين والأمان ويشعر الإنسان معه بقوة الصلة بالله لذلك مال إليه الغزالي ورضيه سبيلاً إلى توثيق الصلة بالله تعالى فالغزالي في سعيه الحثيث كان يبحث عن الخلاص الفردي فقط ولو كانت تشغله قضايا الأمة أو مسائل إنسانية كبرى لكانت النتائج مختلفة والمهم أنه قد تمكَّن من الإفلات من قبضة البرمجة الذهنية والعاطفية فخرج على التقليد واعتمد على الله ثم على جهده واجتهاده في اختيار الطريق وليس المهم أن نوافقه على النتائج التي توصَّل إليها وإنما الذي يعنينا هو قدرته على الانعتاق من التقليد الأعمى والتخلص من البرمجة السابقة للوعي ثم قدرته على

اختيار الإتجاه الذي اهتدى إليه اختياراً يقوم على البحث الحر والتدقيق والمراجعة والإخلاص والقناعة الذاتية. . .

- **إذا تحدثنا بشكل أخص عن واقعنا الإسلامي بعد ١١ سبتمبر كيف الحدث الكبير، هل كان مفاجئا لك، أم أنك تعتبره نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية، وهل لك أن تفسر لنا لماذا يوجد لدينا مبدعون في التدمير كما في الإبداع السبتمبري المُبهر!؟**

ـ التعامل بمثل هذا العنف الصاعق هو نتاجٌ طبيعي لثقافة تقوم على مبدأ الإخضاع ولا تحترم مبدأ الإقناع فقد اعتدنا في ثقافتنا أن نتحاكم إلى القوة فالعلاقات كلها قائمة على القوة والسيطرة ابتداء من علاقة الزوج بزوجته والأب بأولاده والمعلم بتلاميذه والرئيس بمرؤوسيه فالعلاقات في الثقافة العربية لا تقوم على التفاهم والإقناع وإنما تقوم على القوة والإخضاع لذلك لم نحاول إفهام العالم بقضايانا خلافاً للمبدأ العظيم الذي أرشدنا الله إليه بقوله: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» وقوله: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» وقوله تعالى: «ولا تسبوا الذي يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم» فهذا المبدأ العظيم شديد الوضوح في القرآن لكننا أضعناه وأعلنا الخصومة العنيفة والمنابذة الفجة لكل من يخالفنا الرأي فتفاقمت الخسائر والإنتكاسات والكوارث فنحن لم ندرك بعد التغير الجذري الذي طرأ على العلاقات الدولية ولا التبدل الكبير الذي حصل في الثقافة الإنسانية ولم نهتم بوسائل التواصل العالمية التي أتاحت آلاف الفرص للإيضاح والإقناع وتغيير الآراء والمواقف فما زلنا نفكر بمنطق الغزوات والفتوح ولم نفطن بأننا في عصر الدعاية والإعلام

والتواصل ولا أن هذه الوسائل أصبحت قادرة على إعادة تشكيل العقول والعواطف وتغيير الإتجاهات ولم ننتبه أن المسيحيين كانوا يكرهون اليهود كرها لا هوادة فيه ولكن اليهود تمكنوا باستخدام كل وسائل الإقناع وكل طرق التواصل أن يُقنعوا العالم بأنهم مظلومون وأنهم دعاة سلام أما نحن العرب فرغم ضعفنا المخزي وهواننا المكشوف ما زلنا نتوهم أننا مركز العالم وأن الحقائق في جانبنا واضحة وأن العالم لا يريد أن يعرف الحقيقة الجليّة وأنه لن يصغي لنا إلا حين نوجعه بالعنف أو نهزمه بالقوة ثم تكون النتائج كارثية على ديننا ودنيانا وعلى قضايانا وأوضاعنا وصورتنا في العالم فنخسر خسائر فادحة ومروعة دون أن نتقدم خطوة واحدة نحو أي شيء إيجابي ومن هنا بقي العالم يجهل حقيقة ديننا ويجهل المظالم التي لحقت بنا فنحن نتوهم أننا نستطيع هزيمة القوى الكبرى بمثل هذه الخربشات ولم نجرب أبداً تأثير التواصل ومنطق العقل فبقي المجال مفتوحاً لإسرائيل لقد استطاع اليهود باستخدام الإعلام وتكثيف التواصل مع كل القوى الفاعلة في الدنيا أن يُقنعوا العالم بأنهم محاصرون من شعوب غوغائية وأنهم لا يريدون سوى السلام فانقلبت صورة المعتدي إلى معتدى عليه وتحول الظالم إلى مظلوم.

■ **برأيك ما هي أبرز عيوب الشخصية السعودية، خصوصا وأنه لا توجد هناك على حد علمي أي دراسات تحلل وتشرح التكوين الاجتماعي والنفسي والثقافي للشخصية السعودية كما حصل مع الشخصية العراقية في دراسات علي الوردي؟**

ـ رغم القواسم الثقافية الكثيرة المشتركة بين المجتمعات العربية

والإسلامية إلا أن المجتمع العراقي هو أشدها شبهاً بالمجتمع السعودي فالعراق عانى من الهيمنة العشائرية كما عانى من الصراع الدائم بين البداوة والحضارة غير أنه يوجد فرق كبير بين المجتمع العراقي والمجتمع السعودي فالحضارة في العراق هي الأصل خلال قرون طويلة أما البداوة فهي العدوان المتكرر على هذا الأصل تصرفه عن مساره وتعوقه عن انتظام سيره أما المجتمع السعودي فهو عكس ذلك فالبداوة في هذه الصحراء هي الأصل أما المدن والحضارة فهما طارئتان عليها باستثناء حواضر الحجاز في غرب المملكة والأحساء في شرقها فنحن مازلنا عشائريين حتى النخاع وينبغي أن لا يخدعنا عن هذه الحقيقة فخامة المدن واتساعها واكتظاظها بالناس فعالم الأشياء يتطور بسرعة متى توفر المال أما عالم الأفكار فهو عسير التطور لذلك فإن أهل المدن الصحراوية الطارئة لم يكتفوا بالإنغماس في عشائرية الدم والنسب بل استحدثوا (عشائرية المدن) وانغمسوا بها حتى الغرق فأضافوا إلى التعصب القبَلي تعصُباً جديداً أسوأ منه فالتعصب للقبيلة رغم سوئه يكون في الغالب صادقاً أما التعصب الجديد فهو تعصُبٌ مملوء بالإفتعال والفجاجة والإدعاء ومن الملاحظ أن الطارئين على المدن هم الأكثر إدعاءً وتعصُباً لها لإثبات صدق الإنتماء لعشيرة المدينة إن المدن في المجتمعات المتحضرة هي منبت الحضارة ومحضن النزعة الفردية وهي البيئة التي تنشأ فيها الطبقة الوسطى وهي التربة الخصبة لنمو المعرفة وتلاقُح الأفكار وتطور التقنيات لكن في البيئات العشائرية تتحول المدن إلى بيئات خصبة لنمو الكراهيات بين المدن المتجاورة وفق قانون الفعل ورد الفعل إن هذه العشائرية الجديدة تتكشّف عن خواء أخلاقي بئيس وعن اهتمامات سطحية ساذجة وعن تظاهر زائف بالولاء وإدعاء ممجوج

بالحماس لمصلحة المدينة إن بعض الناس في بعض المدن يتظاهرون بالتعصب لمدنهم أكثر من تعصب أفراد القبيلة لقبيلتهم وذلك لتأكيد وجاهة قائمة أو بناء وجاهة مفقودة لذلك فلا يصح أن نقول (مدينة كذا) وإنما يجب أن نقول (قبيلة كذا) فالمدن الأنيقة المكتظة لم تستطع أن تُكسب الناس شيئاً من روح المجتمع المدني بل صارت موطناً لتفشي عشائرية جديدة لا تتسم بالصدق والوضوح والإخلاص وإنما هي نوعٌ من التظاهر الذي يقمع صوت العقل ويخنق الرغبة في الحق ويستهدف التلاعب بعواطف الناس والترويج للذات والمزايدة لاكتساب الوجاهة الزائفة باسم الولاء للمدينة أو إدعاءات الإهتمام بالمصلحة العامة!!...

■ كيف ومتى تقبل المجتمعات بالتحول والتقدم وترحب به أو ترفضه، ومتى يتقدم السياسي على المجتمع ومتى يتأخر عنه؟

ـ حركة المجتمعات والثقافات محكومة بقانون القصور الذاتي الذي يضمن استمرار الدوران في نفس المكان ومع نفس المسارات القديمة فإذا بقيت محرومة من التحريك والدفع الإضافي من خارجها فإنها تبقى على حالها دون أي تقدم إن التاريخ والواقع كلاهما يشهد بأن المجتمع لا يمكن أن يعلو فوق ذاته لذلك يبقى في حركة دائرية ضمن مسارات تاريخية ثابتة حتى تأتيه تغذية معرفية قوية من خارجه تنتزعه من خطوط الدوران التاريخي الثابت وتضعه في بداية طريق الصيرورة المتقدمة والصاعدة وتأتي هذه التغذية المعرفية المحركة والدافعة بواسطة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو عن طريق التأثر بالمجتمعات المزدهرة الأخرى وقد أخبرنا الله سبحانه في كتابه الكريم بأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير ومع وضوح الحق الذي أتى به الرسل فإنه ما من نبي

إلا وحورب وأوذي وطورد فالثقافة السائدة في أي زمان ومكان إذا كانت متخلفة فإنها حتماً تكون مغلقة لذلك فهي تملك من قوة الرفض والطرد والتحصينات ما يحول بينها وبين أشعة الضوء فيبقى الأفراد منقادين للواقع ومحاربين للمعرفة الطارئة. . .

- **الملاحظ (طبقا لبرنارد لويس في كتابه الأخير أين الخطأ) أن البعثات العلمية التي إبتعثتها الدولة العثمانية إلى أوربا لتلقي العلوم والعسكرية على وجه الخصوص، قد أدت مع مرور الوقت إلى نفوذ التأثيرات الثقافية والسياسية للغرب في الشرق العثماني مما كان له أكبر الأثر لاحقا في نشوء الحركة العلمانية في تركيا، هل يدل ذلك على أن الغلاف الذي صنعته البرمجة الاجتماعية السابقة ليس بتلك القوة والسماكة التي تقدمها في ملاحظاتك؟**

ـ للتجربة التركية خصائص تنفرد بها عن غيرها فمحاولة إعادة برمجة المجتمع التركي لم تأت بجهود فكرية محضة ولا بمبادرات فردية وإنما جاءت من الأعلى وبالقوة فالعلمانيون في تركيا وثبوا إلى السلطة وفرضوا العلْمنة بكل الوسائل عن طريق التعليم والإعلام والقوانين والقهر وكبت المخالفين واستخدموا وسائل الإخضاع والإقناع معاً وأقاموا لذلك مختلف التنظيمات ومارسوا أنواع الضغوط وعمليات التدجين والمسخ ومع ذلك لم يتمكنوا من سلخ الشعب التركي عن دينه بل إن تلك المحاولات القسرية رغم عنفها وطول أمدها لم تُعَلْمِنْ المسلمين في تركيا وإنما أيقظتْ الأتراك للمسخ الفظيع الذي يراد بهم وجعلتهم أكثر تنوُّراً ونضجاً من بقية الشعوب الإسلامية لقد بقوا متمسكين بدينهم لكنهم اكتسبوا وعياً ثقافياً وسياسياً غير عادي بالنسبة

لبقية المسلمين وكافح الإسلاميون الأتراك بالطرق السلمية حتى تمكنوا من الوصول إلى السلطة عن طريق صناديق الإقتراع لقد تعرضوا للقمع والمنع والظلم ولكنهم بقوا هادئين أمام الإستفزازات وملتزمين بالطرق السلمية ولم يواجهوا القوة بالعنف ولا بالشغب فأثبتوا أنهم قادرون على العمل السياسي الناضج وأنهم مؤهلون أكثر من غيرهم لقيادة البلاد نحو الإستقرار والإزدهار ونحو الحرية والديمقراطية. . .

كانت ديمقراطية الكماليين منقوصة ومتناقضة بشكل مُريع فهي تريد أن تحصر تداول السلطة بين الأحزاب العلمانية فقط وتستسيغ أن يتدخل الجيش لقمع أي توجُّه إسلامي لا يلتزم بتقديس كمال أتاتورك ورغم كل ذلك وصل الإسلاميون إلى السلطة بفضل حنكة نجم الدين أربكان وتلامذته الناضجين فلم يكونوا متعجلين ولا قابلين للإغراء بالعنف وإنما كانوا يسعون بتعقُّل لغاية عليا عظيمة ويدركون أن تحقيق هذه الغاية يتطلب صبراً طويلاً وأن المواجهات العنيفة تدمر البلاد وتفسد العقول وتلوث الأخلاق وتحول دون تحقيق الغايات ولا تحقق للأمة أي كسب فدائرة العنف ليس لها نهاية إلا إذا كبحها العقل قبل الإنفجار لذلك واجه الإسلاميون الأتراك الإقصاء المتكرر والجور المكشوف بهدوء ووضوح وبرودة أعصاب إنهم يعملون في العلن ولم يحاولوا العمل السري أبداً لقد استفادوا من شطط العلمانيين فأنضجهم التحدي وتعلموا من غطرسة المتسلِّطين الأقوياء أهمية التعقُّل والحوار وضرورة التدرج واكتسبوا الإعتدال والتسامح لقد دخلوا مع الكماليين المتعصبين في صراعات فكرية فاكتسبوا من هذه التجربة المريرة قدرة على السجال وإحترام الرأي الآخر والتخلي عن أحادية الرؤية والبعد وعن أوهام الوصاية على الناس فلم يبقوا منغلقين وإنما امتدت رؤاهم واتسعتْ

اهتماماتهم إلى كل قطاعات الحياة وتعلموا نسبية الفُهوم ومحدودية العقل البشري وحاجته الدائمة إلى النقد والمراجعة والتحريك من أجل التفهم والتسامح والإنصاف وعرفوا أن الإقتراب من الحقيقة لا يمكن أن يتحقق إلا بالمران الطويل على محاولة الإلتزام بالعدل وبالموضوعية والإعتراف بأن كل الناس مشمولون بالنقائص البشرية وأن الخطأ هو الأصل في تفكير الإنسان وسلوكه وأن خير الخطائين التوابون الذين يعترفون بأخطائهم ويدركون نقائصهم ولا يدعون الكمال ولا امتلاك الحقيقة المطلقة...

- **يرى بعض المثقفين العرب أن الايدولوجية الوحيدة التي تحظى بقاعدة جماهيرية في العالم العربي والإسلامي هي أيدولوجيا الإسلام السياسي، هل تتفق مع هذه الملاحظة؟ ثم هل تعيد ذلك إلى كونها أيدولوجية احتجاجية أم لفقدان المُدخلات الثقافية الأخرى التي تيسر انتماء وحماسة العربي إلى منظومات فكرية أخرى؟**

- في العالم العربي كانت تهيمن على الناس في كل قطر أيديولوجيا السلطة الحاكمة ولا مكان للحوار ولا للتعددية ولا لتلاقح الأفكار والإتجاهات لذلك فلا تأثير إلا للأيديولوجيا السائدة فالإنسان العربي بقي مبرمجاً على الإنقياد الأعمى لذلك اعتاد أن يكون مع القطيع الساكن أو الهادر حيث يسود الجمود أو تسود العواطف ويشتد الحماس وتستبد به الرؤية التي يكثر أتباعها فلا مكان في ثقافتنا للتعددية لا في الأفكار ولا في الممارسات ففي السابق حين اعتنق قادةُ اليمن الجنوبي الماركسية صاروا ماركسيين أكثر من ماركس فقمعوا كل الإتجاهات الدينية والقومية والليبرالية وفي البلدان العربية التي تبنَّتْ قياداتها الإتجاه

القومي أو البعثي لم يُتح للإتجاهات الأخرى أن تتنفّس فكانت المطاردة والإخضاع هي الأسلوب المعمول به عند كافة الإتجاهات التي تملك السلطة. . .

إن الإسلام قادر على بناء الأمة والفرد والصعود بالمجتمعات إلى الإزدهار في كافة المجالات لكنه يساء استخدامه كثيراً فالحماس السائد حالياً عند بعض الناس هو حماسٌ احتجاجي غير مصحوب بوعي حقيقي ولا يمكن أن تتحول فورة الحماس إلى هدوء النظرة الموضوعية وتبادل الإحترام بين كافة الإتجاهات إلا في مناخ يسوده الحوار وتتوفر فيه التعددية الفكرية ومضمونة فيه حرية التواصل بعيداً عن التخوين والتكفير وإساءة الظن التزاماً بتعاليم القرآن: «لولا ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً»

■ **تطرحُ فكرة مهمة في كتاباتك وهي أن العقل يحتله الأسبق إليه، وهي فكرة تم تداولها من قبل، لكن المثير فيها تجلياتها في راهننا المحلي السعودي، من سبق إلى العقل السعودي؟!**

- ليس صحيحاً بأن فكرة احتلال العقل بالأسبق إليه هي فكرة متداولة ولو كانت كذلك لصار الإعضال محلولا فالفكرة ما زالت غير متداولة لذلك حرصت خلال السنوات الماضية على محاولة التأصيل النظري لهذه الفكرة وستظل مقولة: (العقل يحتله الأسبق إليه) بحاجة إلى المزيد من التأصيل والشرح والبيان وكذلك (علم الجهل) ومثلهما نظرية (عبقرية الإهتمام) وكذا (مبدأ الترجيح والتغليب) كمبدأ عام في الكون والحياة أما الأسبق إلى العقل السعودي فهو القيم البدوية والعشائرية التي نجمت عن الشتات الصحراوي وعن المجاعات الأبدية

في هذه البيئة المعادية للحياة لذلك فإنه رغم الرخاء الذي طرأ على الحياة فقد بقيتْ منظومة القيم متمركزة حول قيمتين أساسيتين هما إطعام الطعام والقدرة على الطِّعان:

لولا المشقة ساد الناس كلهموا   الجود يُفقر والإقدام قتَّال

فالسخاء بالطعام والشجاعة في القتال هما القيمتان الأساسيتان في حياة الناس بالصحراء وهما من القيم البعيدة عن مفاهيم ومقومات الحضارة النامية وليس من السهل أن يتخلى المجتمع عن القيم التي توارثها أجداده قرونا ونشأ هو عليها فامتزجتْ بروحه وسرت في دمه مهما تبدَّلَتْ أحواله المادية ومهما طرأ على حياته الملموسة من تغيُّر فتعديل منظومة القيم لا يتحقق إلا بطفرة ثقافية أما الطفرة المادية فتأثيرها على القيم والأفكار وطريقة التفكير محدودٌ جداً. . .

■ **ملاحظاتك الكثيرة عن عيوب الشخصية العربية ومكامن الخلل في الذهنية الإسلامية، غنية وساخنة كأنها نتاج تجربة ذاتية، فهل كان لخبرتك في ميدان العمل الإداري في مجال شديد الالتصاق بحياة الناس أعني مجال الخدمات البلدية، دور في ذلك، وما هو حجم هذا الدور؟**

ـ بعد تخرجي من الكلية وضعتني الأقدار موضع المسؤولية في البلديات وتدرَّجْتُ في هذا القطاع من رئيس بلدية إلى مسؤول عن عدد كبير من البلديات بحائل والشرقية والقصيم حتى تقاعدتُ وخلال أكثر من ثلث قرن عانيت من تكالب أهل المصالح ومن شراسة أهل الأهواء كما اكتشفت العجز عن حُسْن الأداء فالكلال المهني هو المسيطر وانعدام الولاء للعمل هو السائد والرغبة في الإتقان غير موجودة

والتهرب من المسؤولية ظاهرٌ للعيان والخوف من المبادرة يشل حركة القلة النابهين وكان أسوأ العاملين أداء هو أكثرهم شغبا وإفسادا وأشدهم إدعاء وانتفاشاً وكان كتاب (النبع الذي لا ينضب) مرافعة غاضبة ضد هذا الكلال المصحوب بالإنتفاش الفارغ. . .

واكتشفت بالعمل الميداني في البلديات مع مختلف الجنسيات الفرق الشاسع بين مهارة وإتقان والتزام وتواضع الإنسان الكوري مثلاً وكلال وإهمال وانتفاش الإنسان العربي وتبيَّن لي من ذلك أن الاختلاف ناتجٌ عن تباين منظومة القيم واختلاف البرمجة الثقافية السابقة للتعليم وليس عن اختلاف المواد الدراسية فأصبح واضحاً عندي بأن هذا العجز العام في العالم العربي ناتجٌ عن خلل ثقافي سابق للتعليم ومصاحب له وهو خلل عام وعميق الجذور وبذلك توصَّلْتُ إلى أن التخلف ليس حالة أو عَرَضاً يمكن علاجه بإنشاء المدارس والجامعات وإنما هو بنية ذهنية وعاطفية قوية وراسخة وشديدة التماسك ومتعددة المكوِّنات ومتداخلة العناصر وأن هذه البنية ذات أبواب مغلقة وأسوار مخكمة وتحصينات قوية لا تسمح بأي مساس بذاتها ولا التشكيك بتكوينها وأنها تحتمي بأوهام الكمال عن أية مراجعة أو تصحيح وأنه كلما اشتد التخلف تضاعفت أوهام الامتياز واستحكم الانغلاق وأنه لا يمكن الإفلات من هذه الأوضاع المزرية إلا بالإنفتاح الحقيقي على المنجزات الإنسانية في مجالات الفكر والعلوم والممارسات. . .

- **بمن تأثرت في تكوينك الفكري، ولماذا يشح وجود مفكرين لامعين في الساحة السعودية يتحدثون في المجال الذي تتحدث فيه، أعني نقد الذهنية المحلية والثقافة الاجتماعية بشكل علمي ومستمر؟**

ـ لم أتأثر بشخص ولا باتجاه وإنما أحسست إحساساً عميقاً منذ وقت مبكر جدا من حياتي بحقيقة تخلُّف العرب والمسلمين وعدم مشاركتهم في انجازات العصر العلمية والتقنية والتنظيمية والفكرية فاندفعتُ أبحث عن مكمن الخلل في الشخصية العربية لأني مؤمن إيماناً تاماً بعظمة الإسلام وسمو تعاليمه مما جعلني أجزم بأن الخلل ناتجٌ من مصدر آخر ومن هنا واصلتُ البحث في الثقافة العربية مع المقارنة بالثقافات الأخرى خصوصاً ثقافات الغرب ووجدت أن للإزدهار الثقافي والعلمي والفكري والسياسي والإجتماعي والإقتصادي والأدبي شرطاً محورياً واحداً هو الإنفتاح والتعددية والنقد ونقد النقد في عملية تكاملية لا تتوقف فالتزاوج هو القانون العام الذي لا تتكاثر الأشياء ولا الأحياء ولا الأفكار إلا به: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» فالوجود تزاوجٌ وتدافع وأخذٌ وعطاء وفعلٌ وردٌ فعل ومؤثِّر ومتأثِّر إن الديالكتيك هو القانون العام فآلية النقد والتصحيح هي أنجع آليات التقدم في كل المجالات...

■ **تستشهد كثيرا بمفكرين غربيين، هل ذلك بسبب عدم إقناع المصادر العربية لك في سياق تعزيز ملاحظاتك وتأملاتك؟**

ـ القضية المحورية التي تشغلني هي تخلُّف المسلمين في العصور الأخيرة وإزدهار غيرهم فنقطة الإعضال تبدأ وتنتهي بهذا التفاوت الشاسع في إدارة شؤون الحياة المعاصرة بين المتخلفين والمزدهرين لذلك فإن الاستشهاد لا يصح أن يكون خارج هذه القضية ولأن الغربيين هم الذين أنجزوا حضارة العصر فإنه من الطبيعي أن يكون الإستشهاد بهم ولو فكرنا بالمسألة قليلاً لما وجدنا هنا أي إشكال...

حوار منشور بجريدة الحياة

أجرى الحوار الأستاذ خضير الشريهي

ونُشر الحوار يوم الخميس

٢٤/ مارس / ٢٠٠٥ م الموافق ١٤ / ٢ / ١٤٢٦ هـ

يحاول تشكيل اهتمامات جديدة وجذب الناس للتعرف على أسباب مشاكلهم

إبراهيم البليهي: تتجمّد الثقافات وتفقد الأذهان فاعليتها...إذا لم تتعرض للمواجهة بأفكار معارضة

إبراهيم البليهي عَيِّنَةٌ لمفكر نادر ليس هذا القول مجازاً بل حقيقة تتأكد أكثر عندما نطالع ونتأمل في ما يفعله هذا الرجل حين يضع حال العرب تاريخياً وحضارياً على طاولة التشريح وتحت مجهر البحث والتساؤل. . .مفكر دخل إلى متاهة العقل العربي وعمق تفكيره وخاطب الجمهور موضحاً «بنية التخلف» (عنوان كتاب له) التي تأثروا بها قبل الإسلام احتفى بالإسلام ديناً فآلمه حال المسلمين ونظر إلى غيرهم فرأى التقدم والحضارة تسير في أوسع خطواتها. . .وهو الآن كما منذ نحو ربع قرن يحاول دفع العرب إلى التقدم والازدهار فكرياً.

المفكر البليهي لا يكتب عن حدث آني أو لحظة عابرة في تاريخ العرب ولكنه يغوص عميقا إلى أبعد. .هنا حوار معه حول قضايا فكرية واجتماعية عدة.

■ **تدعو كثيراً لمحاربة الوثوقية فكيف يُقدِّم المثقف أو الكاتب أو المصلح أو الداعية أفكاره دون وثوق بها؟**

ـ الوثوقية هي أن تكون واثقاً بالسائد ثقة مطلقة عمياء مع أنك لم تنهض بأي مراجعة ولا تمحيص وأن تبقى مرتهناً بهذا المألوف ومأخوذاً

بوهم كماله وتفرُّده فتكتفي به وترفض نقده أو مراجعته ولا تصغي لما يخالفه ومع كل هذه السلبية في التكوين الذهني والمعرفي والعاطفي تتوهم أنك بنيت هذا الوثوق بنفسك وتتجاهل أنك مبرمَج به من البيئة التي نشأتَ فيها دون أية مشاركة واعية منك أما حين تبني بنفسك لنفسك موقفاً مستقلا متأسّساً على التحليل والبحث والإستقصاء والمراجعة والنقد ونقد النقد فليس ذلك من الوثوق في شيء إن التأسيس على الشك والمراجعة لا يعني عدم الوثوق بالحقائق التي يتم الوصول إليها وإنما يعني هذا التأسيس الواعي إدراك خفاء الحقائق والتباسها الشديد وحاجتها إلى البحث الجاد والنقد البصير من أجل النفاذ إليها بعد اختراق الحُجُب الكثيفة التي تفصلنا عنها وبذل الجهد لاستخراجها من تحت الركام الثقيل المزمن والسعي الجاد للوصول إليها بعد تجاوز العوائق والصوارف الكثيرة ولا بد من الثقة بما يوصلنا إليه البحث ولكن على مستوى التكوين تبقى ثقة نسبية يستمر معها البحث والإستقصاء والإستخلاص والمراجعة أما على مستوى التقديم فلا بد أن يكون العرض واثقاً. . .

■ **كيف نميّز بين الوثوق الأعمى والوثوق البصير؟**

- الوثوق الأعمى يتأسّس بالتناسل الثقافي عن طريق الإمتصاص التلقائي للثقافة السائدة وهو في ثباته يشبه التناسل البيولوجي أما الوثوق البصير فإنه يتأسّس على الحقائق الممحّصة إنه يبدأ بالشك والإستشكال حول بعض التصورات والممارسات السائدة فيأخذ بالتساؤل الهادف إلى معرفة الحقيقة النقية ليستخلصها من ركام الحقائق المزيّفة ويجتهد في البحث والمراجعة والإستقصاء والغربلة وبذلك يكوّن لنفسه رؤية مستقلة

وموقفاً حراً ثم يقدِّم للناس ما انتهى إليه بحثُه وكدُّه بأسلوب واثق لكنه مع وثوقه في التقديم فإنه يستبقي الأبواب مُشْرعة للمزيد من المراجعة والتصحيح وتطوير الأفكار وربما تعديل ما سبق أن انتهى إليه فالإنسان في حالة تعلُّم وتدقيق ومراجعة من المهد إلى اللحد فالمهم أن يكون مخلصاً للحقيقة وأن يجتهد في التحقُّق منها وأن يدع الأبواب مفتوحة للمزيد من المراجعة والتدقيق فامتلاك الحقيقة المطلقة محال على البشر وإنما أقصى ما يتوصلون إليه بالبحث والاستقصاء هو مجرد مقاربات بشرية قابلة للتعديل والمزيد من الاقتراب والمزيد من ا لوضوح والمزيد من الثقة النسبية بالنتائج فالجهد البشري محدود بمحدودية البشر . . .

■ **هذه قضية مهمة وبحاجة إلى مزيد من الإيضاح عن الفرق بين احتمالية الرؤية ووثوق التقديم؟**

ـ الفرق بينهما فرقٌ هائل فليس الوثوق هو أن تُقَدِّم أفكارك وآراءك بثقة فهذه الثقة لا بُدَّ منها ليكون فكرك مقبولاً فالناس لا يقبلون من المتردد وغير الواثق في نقل خبر أو عرض معلومة أو طرح فكرة فكما أن المعلمين يقدِّمون المعارف للدارسين بجزم وثقة ودون تردُّد وكذلك تفعل وسائل الإعلام في تقديم الأخبار والوقائع فكذلك المشتغلون بالفكر عليهم أن يتبعوا نفس الأسلوب إذْ لا بد أن تُقَدَّم الأفكار بثقة وهذا ليس من الوثوق في شيء بل هو أُسلوبٌ مطلوب وضروري لتكون الأفكار مقبولة فالوثوقية ليست هي التي تقدِّم ما لديها بثقة وإنما هي التي لا تقبل المراجعة ولم تكوِّن ما لديها ببحث واستقصاء وإنما ورثته كما ورثت تكوينها الجسدي ومع هذه التلقائية العمياء تغيب عنها احتمالات الخطأ في التقييم والوهم في التصور والنقص في المعلومات والخلل في

التكوين إن الوثوقيين لا يتصورون أن هذه الإحتمالات تنطبق عليهم فهم واثقون من كمال معارفهم وكمال استنتاجاتهم وكمال مواقفهم مع أنهم لم يكوِّنوها بجهد شخصي وإنما امتصوها من البيئة امتصاصاً تلقائيا إنهم غير مستعدين للمراجعة ولا للتراجع مهما كانت المعطيات المضادة تنقض أفكارهم وتُدين مواقفهم إنهم يرفضون الإصغاء ابتداء ويحكمون على خطأ الآخر وانحرافه دون سماع ما لديه وما يميز الوثوقي أنه مندمجٌ في السائد ولا يتطرق إليه الشك في المألوف فهو لم يُكوِّن أفكاره وآراءه ومواقفه باستقصاء ووعي وإنما هو امتصَّ محتويات ذهنه امتصاصاً تلقائياً من البيئة ولم يقم في أي وقت من حياته بفحصها ولا الشك فيها ولم يتطرق إلى ذهنه حاجتها إلى المراجعة والتحليل ومن هنا يبقى الهندوسي هندوسياً والبوذي بوذياً والوثني وثنيا وكذلك يفعل من نشأ في بيئة يُعبد فيها الشيطان إن هذا هو الوثوق الفظيع أما الأفكار التي لم تتكوَّن إلا بعد الشك المقلق والبحث المضني والتأمل العميق والإستقصاء الشاق والمراجعة الدائمة فلا يمكن اعتبارها وثوقية مهما قُدِّمت بثقة وإلا فلا يمكن أن نصل إلى نتائج فاعلة ومؤثِّرة ولولا هذا الوثوق المسبوق بالإستقصاء لما تأسَّست العلوم. . .

■ ألا يعني الركون إلى هذا التأسيس إستبعاد الشك والعودة إلى الجمود؟

ـ إن التأسيس لا يعني الإنتهاء من عمليات البناء ولا التوقف عن مواصلة التحسين وإنما يعني إيجاد أساس سليم لاستمرار التشييد المعرفي ولكن لا بد من الوثوق النسبي بما يوصلنا إليه الإستقصاء وإلا أصبحنا لا أدريين إن الشك والتردُّد أو التوقف يجب أن يسبق تكوين الأفكار والرؤى أما بعد تكوينها بالبحث والمراجعة والتحليل فيجب أن

تُقَدَّم بثقة وإلا فَقَدَ الإستقصاء قيمته وفَقَدَ الشك فاعليته إن الشك مطلوب أثناء تكوين الأفكار وليس أثناء تقديمها وعرضها بعد أن تكون قد تم بناؤها وتكوينها ببحث جاد وحرص شديد ومراجعة فاحصة إن استمرار التردد وعدم الوثوق يُفْقد الإنسان فاعليته إن التردُّد بعد بذل الجهد يجعل البحث عقيما وغير مفيد ولا منتج فهو إذا بقي عند هذا المستوى لا يزيد عن أنه ينقل الإنسان من الوثوق الدغماتي الأعمى إلى اللا أدرَيَّة التي تسلب الإنسان فاعليته وهذه الثقة في التقديم لا تعني توهُّم امتلاك الحقيقة ولا التوقف عن المراجعة ولا الإستغناء عن إعادة النظر ولا الاستنكاف عن معاودة الإضافة والحذف كلما ظهرت معطيات جديدة تستوجب ذلك وإنما الناس لا يقبلون التردد في طرح الأفكار فمن أجل أن نُقنع الناس بضرورة الانفتاح والاستنارة والتحول لا بد أن نقنعهم بأسلوب واثق مع استمرار الإقتناع بضرورة المراجعة الدائمة والتطوير المستمر. . .

■ **الملاحظ أنك لا تكتب عن الأحداث الجارية ولا قضايا المجتمع اليومية وهي التي تشغل اهتمام الناس؟**

ـ لا أكتب استجابة لحدث آني ولا انفعالا مع مشكلة طارئة وإنما أنا مشغولٌ بتشخيص وتحديد الأسباب العميقة للأحداث والمشكلات فنحن قد انشغلنا طويلاً بالآني إلى درجة الإستغراق ننفعل به ويصرفنا عن الإنشغال بالبحث عن الأسباب المزمنة لذلك فإنني أحاول أن أتعرّف على الجذور العميقة والموغلة في الخفاء التي تغذي هذا الواقع المتخلف وتمدُّه بأسباب الديمومة والمقاومة. . .

■ **لكن الناس مشغولون بالآني والطارئ ولا يهتمون بمن ينشغل بغير اهتماماتهم الآنية؟**

ـ لا يمكن أن يتحقق أي تقدم إلا إذا جرى تغيير اهتمامات الناس ليتجاوزوا الراهن السطحي ويبحثوا في الأعماق ليروا من أين تنبع مشكلاتهم إن معضلاتنا ذات جذور ثقافية عميقة مزمنة وليست المشكلات الآنية سوى تفريعات واستطالات لتلك الجذور العميقة إنني أحاول الإسهام في خلق اهتمامات جديدة وجذب اهتمام الناس إلى التعرُّف على الأسباب الخفية المزمنة لمشاكلهم لأنني أدرك أن الجهل المستشري بهذه الأسباب ليس سببه ضعف الذكاء وإنما بقيتْ هذه الأسباب مجهولة لأنها ظلت خارج مناطق الهم اليومي للناس وبعيدة عن مجالات تفكيرهم ولو اهتموا بالتعرف على هذه الجذور العميقة لبدتْ لهم واضحة بل صارخة فالمعضلة تعيش في أعماقنا وليست طارئة علينا ولا هي من خارجنا إنها معضلة ثقافية بالدرجة الأولى وليست مظاهر التخلف الكثيرة سوى تجسيدات لهذا الخلل الجذري الذي تعمَّق وتفرَّع وتكوَّن عبر مئات السنين وتضافرتْ أسبابٌ كثيرة لتكوينه وترسيخه وضمان استمراره. . .

■ **كيف نشأ عندك هذا الإهتمام وكيف أدركت أن التخلف ناشئ عن خلل ثقافي مزمن؟**

ـ إن استحكام قبضة التخلف الثقافي على المستوى العربي كله والإسلامي جميعه قد دفعني إلى الإهتمام الشديد بالتعرف على الأسباب وقد تكوَّنتْ عندي قناعة تامة بأن التخلف ليس حَدَثاً طارئاً وإنما هو الأصل وأن تجاوز هذا الأصل يتطلب مجهودات استثنائية فكرية وعملية مكثَّفة كما

تكوّنتْ عندي رؤية واضحة بأن التخلف ليس عَرَضاً وإنما هو بنية شديدة التركيب والتعقيد والتماسك وأن الخروج من هذه البنية المغلقة لا يمكن أن يتحقّق إلا بحدوث تغييرات جذرية في البنية الثقافية . . .

■ ما دام أنك ترى أن الخلل موجودٌ في الثقافة وهي تحكمنا ولا نحكمها فكيف يمكن أن نعيد تكوينها ونحن محكومون بها؟

ـ إن إعادة تكوين الثقافة مهمة عسيرة بل لولا الإنفتاح القسري الجديد على الثقافات العالمية لاقتربتْ المهمة من درجة الإستحالة ولكن تدفُّق المعارف وعالمية التواصل وانتشار الانترنت وطوفان الفضائيات كل هذه المؤثرات الجديدة الغامرة قد جعلتْ هذه المهمة المستحيلة مهمة ممكنة غير أنها ليست مهمة سهلة بل ما زالت بالغة العسر لأن ثقافة المجتمع هي عقله ومن العسير أن يعترف الناس بأن عقلهم ينطوي على خلل جوهري دون أن يعلموا ولكن لا بديل عن هذا الإعتراف فالمسيرة الحضارية تؤكد أنه لم يتقدم أي مجتمع إلا بعد أن راجع ثقافته وأعاد صياغة ذاته وتولى بنفسه إعادة تشكيل عقله!! . . .

■ كيف يمكن التوفيق في التناول بين المستوى المحلي والعربي والإسلامي؟

ـ الأوضاع من الناحية الثقافية متشابهة لذلك فإنني فيما أكتب أحاول تحديد عناصر بنية التخلف وتشخيص موانع النهوض ووصف شروط التقدم والتعريف بمقومات الإزدهار وذلك من خلال التعرُّف على تجارب الشعوب المزدهرة والمقارنة بينها وبين المجتمعات المتخلفة فما أكتبه يأتي من منظور عام ينطبق على أي مجتمع متخلف يعيش محصوراً بثقافة مغلقة فهو تناوُلٌ لا يرتبط بمجتمع معيَّن وإنما هو تشخيصٌ عام

يمكن تنزيله على مجتمعات كثيرة متخلفة إنني لا أكتب وفي ذهني المجتمع المحلي فقط وإنما أتناول القضية من حقيقة أن كلَّ المجتمعات العربية والإسلامية تعاني من التخلف بشتى أبعاده لكنني مقتنعٌ بأن التخلف الثقافي هو الذي يغذي الأبعاد الأخرى للتخلف أما كيف تكوَّنَتْ هذه الثقافة وكيف استبطنَتْ هذا الخلل وما هي العوامل التي كوَّنَته فهذه موضوعات أخرى فالمهم أن نعلم بأن الثقافة في المجتمعات الإسلامية واحدة وأن أسباب التخلف متشابهة أو متماثلة فنحن المسلمين ما زلنا أسرى لثقافة القوة ونتصرَّف وفق منطق الإخضاع ولم ندرك التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية حيث باتت المجتمعات المتحضِّرة والمنظمات الإنسانية الدولية تهتم بتعميم ثقافة التواصل والإقناع وتمارس هذا التواصل بشكل يختلف نوعاً وأسلوبا ووسائل عن أية حضارة سابقة ولكن عدم تفاعلنا مع هذا التوجُّه الإنساني الجديد أبقانا خارج التيار العالمي بل أصبحنا عبئاً ليس فقط على أنفسنا وإنما أيضا صرنا عبئاً على العالم كله فقد أدَّتْ تصرفات بعضنا وباسمنا إلى نكسة حضارية عامة وعارمة إلى درجة أن المجتمعات الديمقراطية الحرة المفتوحة اضطرت إلى إغلاق الكثير من المنافذ وتعديل الكثير من القوانين وتقييد الحريات وكبح الإنطلاق الذي كان أهم أسباب الإزدهار فأصبح الضرر عاماً على المستوى الإنساني كله كما أصبحنا مؤاخذين أفراداً ومجتمعات على هذه الأفعال بحكم الدين الجامع بغض النظر عن الجنسيات فما يفعله أفرادٌ من أي قطر عربي أو إسلامي يمتد تأثيره السيئ إلى جميع المسلمين في كل مكان بمن في ذلك الكثيرين الذين احتضنتهم وآوتهم المجتمعات الغربية كالمسلمين الأمريكيين أو البريطانيين أو الفرنسيين أو غيرهم. . .

■ **أنت مغتبطٌ بالإسلام بينما تدين المسلمين آلا تشعر بالتناقض؟**

ـ الإسلام هو الحق في صيغته النهائية فهو هداية الله إلى البشرية كافة أما الثقافة فهي ميراثٌ بشري إنها فُهومٌ وممارسات بشرية اختلطتْ بالأهواء وتأثَّرتْ بالخصومات وتلبَّسَتْ بالصراعات وتباينتْ فيها التأويلات وهيمنت عليها السياسات هيمنة طويلة وشاملة وخانقة لذلك ابتعدتْ كثيراً عن صفاء الإسلام وتخلَّتْ كثيراً عن مبادئه في الإخاء والحب والتسامح والصدق والوضوح وجَنَحَتْ كثيراً للتشدُّد والتعصب والمفاصلة وعمَّمتْ الكُره وانشغلت بالتحريض على المخالفين ومطاردتهم واعتمدتْ العنف والإستئصال للتعامل مع من يظهرون أي قدر من الإستقلال الفكري أو التساؤل حول ما هو سائد وهذه الصورة البائسة تنطبق على كل المجتمعات الإسلامية تقريبا فلا يوجد فروق جوهرية بين مختلف البلدان الإسلامية باستثناء ماليزيا وتركيا في عهدها الجديد أما عموم الأقطار الإسلامية فإنه مهما بلغت المظاهر والشكليات فإنها جميعا ما زالت متخلفة بل شديدة التخلف بالمعايير الحضارية المعاصرة فهي جميعا خارج الحركة الإنسانية الجديدة ولا تلتقي مع القواسم العالمية المفتوحة إلا في الشكليات أما معظم جوانب الحياة الثقافية والعلمية والسياسية والتقنية ومهارات الفكر والفعل ومهارات التواصل والإقناع فإنها ما زالت متأبِّية عليها ومتمنِّعة عنها لذلك ينبغي أن يتركز الجهد على إحداث تغيير ثقافي جذري وإعادة المسلمين إلى صفاء دينهم وإنسانيته ورحابته وتخليصه من التفسيرات الجاهلة والخطيرة. . .

■ **من أين جاء هذا الخلل الثقافي الخطير؟ وهل للسياسة دور في إحداث هذا الخلل؟**

ـ لم يَعُدْ يخفى على أي متابع أن الرؤية الحدِّية والتفكير الثنائي والإنغلاق الثقافي وتزكية الذات تزكية مطلقة وتجريم الآخرين تجريماً مطلقا وإدعاء الكمال في الفكر والفعل وتوهُّم كفاية الموروث رغم التغيرات النوعية في الحياة الإنسانية وهيمنة السياسة على الثقافة إن كلَّ هذه قد أدّت إلى تراكم الأخطاء وانسداد الآفاق وتفاقم أسباب التخلف لقد مضى على بزوغ الحضارة الإنسانية الحديثة أكثر من أربعة قرون ومرَّ على الصدمة الإسلامية بهذا النهوض الأوربي المفاجئ والباهر أكثر من قرنين منذ حملة نابوليون وقد استورد المسلمون بعد الصدمة منتجات هذه الحضارة الإستثنائية الباهرة كما استوردوا العلوم الجاهزة ونُظُم التعليم ونُظُم الإدارة ونُظُم الاقتصاد وغيرها من نُظُم الحياة الجديدة لكنهم رغم كل ذلك ما زالوا يجهلون طبيعة هذه الحضارة الإستثنائية ولا يهتمون بالتعرُّف على الأساس الثقافي الذي كان خلف هذا الإبداع الهائل ولا يدركون التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية لذلك فلا بدَّ من العمل الأمين الجاد لإدخال المسلمين في حضارة العصر تفكيراً وممارسة وبذلك يكتسبون القدرة على المشاركة الحضارية فينعتقون من التخلف المشين الممسك بهم ويرفعون الغبن الفاضح الذي ألحقوه بدينهم بسبب أهوائهم وطيشهم وإنغلاقهم وتخلُّفهم وسوء تصرفاتهم وعجزهم عن الحد الأدنى من التعايش مع التطورات الإنسانية . . .

■ **تُكرر دائماً في مقالاتك أن الخلل في الذهنية العربية عميق الأثر لا يمكن حله بإنشاء المدارس والجامعات فما هو هذا الخلل؟ وهل للموروث الفكري العربي أثر في ذلك؟ وإن كان فمن أين بدأ...؟ وما السبيل إلى حله؟**

ـ كلُّ ثقافة تبقى محكومة بنقطة البدء مثل النهر يتحدَّد اتجاهه من نقطة البداية ومن المعلوم أن الثقافة العربية تكوَّنتْ في بيئة صحراوية طاردة ومعادية للحياة فرغم ضآلة السكان في هذه الصحراء القاحلة فإن موارد الماء والغذاء لم تكن كافية لهم فلقد كانت شحيحة جدا ومُتَقَطِّعة وغير منتظمة فما يأخذه طرفٌ يكون على حساب طرف آخر حتى الماء كان ضحلاً وشحيحاً وموارده نادرة إلى درجة أنهم كانوا يقتتلون على تلك الموارد النادرة والشحيحة لأن مَن يَرِدْ إليها أوّلاً لا يُبقي شيئا لمن بعده فما تجمَّع ببطء في المورد الشحيح ينزحه الأسبق إليه فيبقى الآخر ظامئاً لذلك كانت الحياة صراعاً مريراً من أجل الإحتفاظ بالحياة بأقسى وأدنى مستوياتها فالناس كانوا مشغولين بالحصول على الحد الأدنى من الماء والغذاء للإمساك برمق الحياة فقط فالبقاء كان هو المطلب الوحيد الدائم الذي لا ينشغلون بغيره وحتى هذا المطلب الكئيب لم يكن يَحْصُل إلا بالتدافع الشديد والعراك المستغرق مما أدى إلى عدم نمو منظومة القيم الإنسانية والحضارية لأن الإهتمام بقي مرتهنا بمطلب البقاء وحده فقد دلَّ علم النفس وفلسفة القيم وعلم الإنثروبولوجيا وبقية العلوم الإنسانية والإجتماعية على أن القيم التي تحدِّد اتجاه الإنسان تُحدِّدها البيئة الطبيعية والإجتماعية فإذا كانت البيئة قاسية ومواردها شحيحة فإن مهمة البقاء تستغرق كل اهتمام الإنسان فلا تتكوَّن لديه قيم الحرية والعدل والفردية والعلم والمعرفة والموضوعية ولا قيم الجمال

والحب والحق والتسامح والإخاء إلا في الحدود التي تساهم في البقاء فقط لذلك يبقى إطار هذه القيم محصوراً بأفراد الأسرة أو العشيرة أو القبيلة أو نحو ذلك من الأُطُر المتعلقة بغريزة حب البقاء ولا تمتد لغير الأقارب والمؤازرين فلا اعتبار للآخرين ولا للغرباء لذلك لم تكن الأُسر والعشائر العربية تشعر بالإحترام للقبائل العربية الأخرى ولا التعاون معها وإنما كان الصراع هو القاسم المشترك فلم يتكوَّن لدى العرب انتماء قومي أو وطني فالعربي لم يكن ينتمي ويفتخر بالعرب عموماً وإنما كان يقصُر انتماءه لقبيلته ويفتخر بها وحدها على القبائل العربية الأخرى فعواطفه محدودة الإمتداد وآفاقه شديدة الضيق واهتماماته محصورة بمطلب البقاء فلم يتكوَّن في الثقافة العربية للقيم سُلَّم ممتد إلى الأعلى ومتدرِّج كما هو شأن الثقافات التي تكوَّنت في بيئات رخيَّة وذات عراقة حضارية تسمح لتنوع الإحتياجات وتدفع لتعدُّد المطالب ويتوفر فيها الوقت والطاقة للإهتمامات الفكرية والتأملية والمعرفية والأخلاقية والجمالية. . .

■ **لكن العرب بعد الفتوح خرجوا من صحرائهم القاحلة واستوطنوا بلاد الأنهار والأمطار وتنعموا بالعيش الرغيد ألا يقتضي هذا أن تتغيَّر القيم وتتطور الثقافة؟**

- خرج العربُ من صحرائهم فاتحين لا دارسين ومعلِّمين لا متعلِّمين ومُرشدين لا مسترشدين حتى وهم في الغالب أُمِّيُّون واستمروا يعتبرون أنفسهم أهل السيادة ويعتمدون في هذه السيادة على الإخضاع وليس على الإقناع فتوهَّموا التفوق في كل شيء وظلوا أسياداً يخدمهم الآخرون فهم يمثلون دور الغالب للآخرين فلم يشعروا بالحاجة إلى

التغيُّر فبقيتْ قيمهم كما هي وبقوا مأخوذين بمنطق القوة ومندفعين للصراع على السلطة والوجاهة والنفوذ وحتى في العصر الحاضر ورغم تغيُّر الأحوال الإقتصادية في البيئات الصحراوية القاحلة تغيُّراً جذرياً بسبب القيمة الطارئة التي منحتْها الحضارةُ الإنسانية المعاصرة لمخزون الصحراء من النفط فصارت تأتيها الخيرات من خارجها وتحيل مياه البحر المالحة إلى مياه عذبة تغدقها على الناس في عمق الصحراء ورغم كل ذلك فإن التكوين البائس للثقافة العربية ما زال ملازماً لها ومحكوماً بها فالأقطار العربية التي يغمرها الرخاء الطارئ لم تغتن قيمها رغم زوال أسباب جدب القيم بل ما زالت تعيش نفس القيم الهزيلة لأن هذا الهزال قد رافق التاريخ العربي كله لأن الثقافة تبقى محكومة بنقطة البدء حتى وإن تغيَّرت الأحوال المادية فلا يتبدَّل مجراها ويتغيَّر تكوينها إلا إذا طرأ عليها تيارٌ شديدٌ جارف. . .

■ لقد طرأ الإسلام على حياة العرب ألم يُحدث تغييراً في العقل العربي؟

ـ استمرت قيم الصحراء كما هي لأن العرب لم يتشرَّبوا قيم الإسلام تشرُّباً بطيئاً قائماً على القناعة به فلقد جاء الإسلام بمبادئ عظيمة وقيم عالية ولكن العرب امتنعوا عن قبول الدعوة طويلاً وعندما انتصر الإسلام دخلوا فيه أفواجاً دون أن يتربَّوا على مُثُله العليا فقد كان يُسْلم زعيمُ القبيلة فتُسلم معه قبيلته كلها ولكن هذا الإقبال الجماعي على الإسلام كان قُرب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يتشرَّب العربُ مبادئ الإسلام العظيمة لذلك لمَّا توفي الرسول ارتدَّ أكثرُ العرب ثم كانت الخلافة الراشدة قصيرة ومليئة بحروب الردة وبحروب الفتح ثم تكاثرت

الصراعات على السلطة وتفرّقَتْ الأهواء ومثلما كان الناس يتربون على شعر الهجاء والفخر والنقائض عاشوا أيضا على صراعات سياسية ومذهبية أبعدتْ العقل العربي عن مسار النضج ودفعته إلى البقاء في دوائر التعصب والخصومات الدائمة. . .

■ **يقبل العقل العربي المنجزات المادية للأفكار الفلسفية الغربية ويحرم بالمقابل هذه الفلسفة برأيك ما سبب هذه الازدواجية؟**

ـ إن استخدام الأشياء الجاهزة لا يتطلب علماً وحتى الأجهزة المعقدة لا يحتاج استعمالها سوى تدريب بسيط فهو لا يتطلب إعداداً علمياً واسعاً وعميقاً بل إن منجزات كثيرة لا يحتاج استخدامها إلى أية معرفة ولا أي تدريب فالناس يستخدمون الكهرباء وأجهزته الكثيرة وهم لا يعرفون كيف اختُرِعَتْ ولا كيف تطورت ولا كيف صُنِعَتْ ومثل ذلك يقال عن الطائرات والسيارات وما لا عدَّ له من الصناعات والمنتجات المدهشة. . .

لقد دلّتْ الدراسات الحضارية والانثروبولوجية على أن العقل البشري في المستويات الثقافية الدنيا يتعلق بالأشياء والأشخاص وأنه لا يستطيع التعامل المباشر مع الأفكار المجردة إلا في مرحلة النضج الثقافي لذلك فإنه من السهل على المجتمعات المتخلفة أن تتعامل مع الأشياء الجديدة لكن من الصعب عليها فهم الأفكار الجديدة أو التفاعل معها أو تبنّيها فحتى أشد المجتمعات تخلفا تستطيع بسهولة أن تستخدم الأشياء وأن تتعامل مع الماديات لكن هذا الفهم وهذا التعامل يبقى معزولاً عن الأفكار الجياشة التي انتجتْها إن التعلق بالأشياء هو سمة الثقافات المتخلفة أما الإرتقاء إلى التعلق المباشر بالأفكار دون ربطها

بالأشخاص فهو نضجٌ لا زال بعيد المنال في المجتمعات الإسلامية لأنه لا يأتي إلا بعد مخاضات ثقافية عسيرة ونحن لم نمارس هذه المخاضات وما زلنا نجهل أسباب مشاكلنا وننفي بأنها ذات عوامل ذاتية بل نبرئ أنفسنا وندّعي دوماً بأن التآمر الخارجي هو المصدر الأول والأخير لهذه المشاكل!! ولن يُفلت العرب والمسلمون من قبضة التخلف حتى يتشجّعوا ويَتَجَرّؤوا على نقد أنفسهم ومراجعة قيمهم وإحداث تغيير جذري في ثقافتهم وبذلك يعيد العربُ تشكيل وصياغة العقل العربي...

■ **لماذا الخطاب الفلسفي هو أقل الخطابات تأثيراً على العقلية العربية؟**

ـ في الثقافة العربية ما زال تعلُّق الناس بالأشياء والأشخاص أما الأفكار الفلسفية المجردة فلم يعتادوا التعامل معها ولا الإرتباط بها ولا إدراك أهميتها القصوى كما أنهم لم ينعَموا أبداً بالحقوق الفردية ولا بالحريات ولا بالنتائج العظيمة التي أنتجتها الفلسفة بل قد تربَّوا مبرمجين على رؤية أحادية مغلقة ونشأوا على الخوف من الأفكار المغايرة ومن هنا نفروا من الفلسفة ومن النقد ومن تنوع الأفكار أما القلة الذين يدركون أهميتها ولكنهم يحاربونها فإنهم يفعلون ذلك بدوافع نفعية محضة إن الفكر الفلسفي جهدٌ عقلي محض وهو ينهض على الشك الملح والتساؤل الدائم والتأمل العميق والإستقصاء الواعي والتحليل الدقيق والمقارنات الواسعة والإستعداد للتخلي عن المألوف وكل هذه المقومات يفتقر إليها العقل العربي افتقاراً يكاد يكون كليا أما الذين يرفضون الفلسفة وهم يدركون أهميتها فإنهم يفعلون ذلك حرصاً على استمرار الأوضاع التي يريدون استمرارها إن الثقافة العربية تنهض على

الوثوق المطلق والإجابات الجاهزة وارتجال الأحكام ورفض تحليلات العقل والإعتماد على النقل فمن الطبيعي أن يستمر التنافر بين الفكر الفلسفي والعقل العربي فهما متناقضان تناقضا تاماً. . .

■ **تتخذ الثقافة الغربية مرجعاً لأطروحاتك بينما أن المجتمعات العربية والإسلامية ما زالت تتخوّف مما يُسمَّى الغزو الفكري وهذا يجعلك في مواجهة التيار السائد الجارف؟**

ـ لا بد من مواجهة التيار لأنه لا يمكن إحداث تغيير ثقافي إلا بنقد الثقافة من داخلها وبأفكار وأدوات من خارجها هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن مَن يتصف بقدر من الرؤية الموضوعية والإنصاف والواقعية سوف يعترف بأن كلّ ما تعيشه الدنيا من تطورات هائلة في كل المجالات هو نتاجُ الثقافة الغربية فهي بكل المقاييس ثقافة استثنائية مثيرة ومتميزة بين ثقافات الدنيا كلها ماضيا وحاضراً فمن البديهي أن يكون الرجوع إليها والتعرُّف على منابعها واكتشاف العوامل التي ميزتها والحث على الأخذ بالأسباب التي اهتدت إليها وإبراز البواعث التي صعدتْ بها إلى هذه المستويات العالية والآفاق المفتوحة فمثلما أنني لا أقبل العودة إلى ركوب الحمار والجمل مع وجود السيارة والطائرة فكذلك لن أبحث عن علاج معضلة التخلف بالرجوع إلى كتاب الأغاني أو العقد الفريد أو جواهر الأدب وإنما لا بد من الرجوع إلى الثقافة التي أنتجت كلّ هذه الإنجازات الباهرة في الفكر والفعل فليس أمام المجتمعات في هذا العصر سوى خيار واحد هو إتقان الأخذ بالأفكار والنُظُم والعلوم والآليات والتقنيات الغربية والتعرف على العوامل التي أدّتْ إلى كل هذه الإختراقات الباهرة والإستفادة من المنجزات الإنسانية إلى الحد الأقصى. . .

■ **لكن أكثر الناس في المجتمعات الإسلامية لا يعترفون بأن الحضارة الغربية حضارة استثنائية ومتميزة مما يجعل رأيك نشازاً بين قوم لا يرون هذا الذي تراه؟**

- إن الألفة تقضي على الدهشة ولكي تحس إحساساً حقيقياً ومندهشاً بأنك أمام حضارة استثنائية باهرة عليك أن تخترق حجاب الألفة فتتذكّر ما أنجزته الحضارة الغربية من الأفكار والعلوم والتنظيمات والتقنيات وما لا حصر له من الإبتكارات المدهشة إلتفتْ يمينك وشمالك وفوقك وتحتك وانظر ما تحمله يدك وما تكتب به وما تلبسه فوق جسدك وما تنتعله وما تركبه وما تعلَّمتَه في المدرسة والجامعة وما تتصل به وما تستضيء وما يحقق لك المعرفة وما يجلب لك الراحة وأمعن النظر في المنزل الذي تسكنه وكل ما تستخدمه في يقظتك وفي نومك وفي مسيرك وقعودك وفي ركضك وراحتك وأينما ذهبت في السفر والحَضَر وسوف تجد أنك مغمورٌ بمنجزات الثقافة الغربية فكل شيء من المعلومات والمعارف ومن الأدوات والوسائل ومن روائع الأجهزة والمخترعات ومن طرائق العمل المنظَّم ومناهج التفكير الناجع وكل ما تعمل به في البيت والمكتب والمدرسة والسوق والمشفى والمسجد (البناء المسلَّح ومكبرات الصوت والأضواء والمكيفات والتجهيزات. . . إلخ) إن كل ذلك من إنتاجها أو مما اقتبسه منها غيرها وهذا يؤكد حقيقة صارخة وهي أننا أمام ثقافة استثنائية مدهشة استطاعت أن تتجاوز كل خطوط الدوران التاريخي التي بقيتْ تدور فيها كلُّ الحضارات القديمة خلال آلاف السنين المديدة الماضية لقد تمكّنتْ هذه الحضارة الإستثنائية وحدها أن تنفلت من أسْر ذلك الدوران المقيم وأن تَثِبَ وثبة هائلة خارج تلك المسارات المزمنة والأخاديد العميقة وأن

تتنقل بالحضارة الإنسانية إلى مستويات جديدة عالية في الفكر والفعل والنُّظُم والآليات وكل عناصر الحياة لذلك يكون من الطبيعي أن نهتم بهذه الحضارة الإستثنائية وأن نبحث عن السر الذي جعلها كذلك إننا حين نعالج أمراضنا الجسدية في المشافي نستخدم طرق ومفاهيم العلاج الغربي ولا بد أن نفعل الشيء نفسه في علاج الأمراض الثقافية أما المجتمعات التي لا تعترف بهذه الحقيقة الصارخة فإنها تماثل العائل المستكبر. . .

■ **أنت مشغول بالهم الثقافي على المستوى الإسلامي والعربي والوطني كيف ترى العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة؟**

ـ إن العلاقة عضوية بين هذه المستويات فالمسلمون في كل الأقطار قد ورثوا ثقافة واحدة مشتركة تَلَبَّسَتْ على امتداد القرون بالأهواء البشرية وبالصراعات السياسية والطائفية والعرقية والإقليمية والعشائرية والأُسرية والفردية فحجبتْ نصاعة الإسلام وأوهنتْ ضمائر الناس وأربكتْ عقول المسلمين وحوّلت ثقافتهم إلى ثقافة خصامية كلُّ طرف يزكي ذاته تزكية مطلقة ويجرِّم الأطراف الأخرى تجريماً مطلقا لذلك اهتمت هذه الثقافة الخصامية المشوَّهة اهتماماً مفرطاً بالشعائر وضيَّعَتْ المبادئ تضييعا شديداً فصار اهتمام الناس بالمظاهر والشكليات أكثر من اهتمامهم بالمبادئ والأساسيات فبات الإلتزام بالمظهر وبالشكل أهم من الإلتزام بإقامة العدل أو تنوير العقل كما أن تكريس الذهنية الخصامية قد أبعد الناس عن الرؤية الموضوعية وأعماهم عن حقائق التاريخ وعن بداهات الواقع مما جعلهم منفعلين لا فاعلين وأبقاهم خارج حركة التاريخ المعاصر. . . .

إن مما يؤلم النفس ويُدمي القلب أنه رغم أن للمسلمين نحو ستين دولة وأن دولهم كانت تمثِّل نحو نصف أعضاء هيئة الأمم المتحدة إلا أن المكانة الدولية لكل هذه الدول مجتمعة أقلُّ بكثير من تأثير دولة واحدة من دول أوربا الغربية كبريطانيا أو فرنسا وهذا يعني أن المجتمعات الإسلامية ما زالت هامشية في هذا العصر فهي خارج ميدان السباق العالمي ويعود هذا الهوان إلى أنها تدعي الكمال فلا تسعى إليه وتدعي الإكتفاء بما لديها من الأفكار والعلوم وآليات العمل فلا تضيف لنفسها ما هي بأمس الحاجة إليه فبقيت خارج المسيرة الإنسانية المعاصرة وبقى الناس فيها عاجزين عن التعامل مع مستجدات الفكر والفعل وغير قادرين على الإسهام بالحركة الحضارية الظافرة والمدهشة وظلوا غير مدركين للتغيرات النوعية التي طرأت على الفكر الإنساني وعلى الحضارة الإنسانية إنهم ما زالوا يعيشون في قيود المفاهيم والقيم والتصورات والمواضعات القديمة التي تقوم على منطق القوة ويستهويها التعلق بالأشياء والأشخاص ولم تتكوَّن فيها قدرات وعادات التعامل المباشر مع الأفكار إن المسلمين في معظم أقطارهم لأسباب يبرأ منها الإسلام بقوا بعيدين عن الانتباه لطبيعة الإنتقالات الثقافية الجوهرية التي حصلت في الثقافة الإنسانية فلم يستطيعوا تصوُّر التغيرات النوعية التي حدثتْ في القيم والمفاهيم وفي الفاعلية الإنسانية وفي الانفتاح الثقافي والتآخي الإنساني فرغم هذه الكثرة الفاضحة في الدول الإسلامية فإن أوضاع المسلمين في كل مكان متشابهة في الإنحطاط والعجز والهوان فهم يعيشون ظروفاً ثقافية وسياسية واجتماعية محكومة بالإنغلاق والإرتباك والتخلف وإذا كانت بعض الأقطار الإسلامية أضحت غنية فإن هذا الثراء ليس من إنتاج المجتمعات نفسها وإنما هو من نتاج أرضهم

فهم عالة على الثروة الطبيعية المخزونة منذ آلاف السنين في باطن الأرض كما هي حال المجتمعات النفطية فالمجتمعات الإسلامية ما زالت غير منتجة باستثناء المجتمع الماليزي الذي بنى إزدهاره بفاعليته ووعيه إن المعضلة في العالم الإسلامي كله هي معضلة ثقافية وهي معضلة موروثة تكوّنت تاريخياً لذلك يبقى الشفاء مرهوناً بتصحيح هذا التكوين الثقافي...

■ العقل الفلسفي قادر على صياغة الفكر والحضارة ودفعها للأمام هل يمكن المزاوجة بين العقل الفلسفي والفكر التقليدي؟

ـ الإسلام ذاته قد رَبَطَ مسؤولية الإنسان ومكانته بالعقل فالعقل هو مناطُ التكليف فلا مسؤولية على من لا عقل له وتخفُّ مسؤولية الشخص بمقدار ضعف عقله أو اختلاله وبالمقابل تتعاظم مسؤولية الفرد بمقدار عظمة عقله وبحسب ما أعطاه الله من مواهب ذاتية لكن الإسلام كتنزيل من عند الله يختلف عن الإسلام على مستوى الممارسة فنحن نعلم أن العرب قاوموا الإسلام مقاومة عنيفة ولم يُسلم أكثرهم إلا بعد العجز عن هزيمته والإقتناع بانتصاره ثم توفي الرسول عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإقبال الجماعي بوقت قصير فارتدَّ أكثر العرب ثم إن الكثيرين من الذين ربّاهم الرسول قُتلوا في حروب الردة ثم كانت فترة الخلافة الراشدة قصيرة فأدّتْ هذه العوامل مجتمعة إلى حصول انحرافات خطيرة جعلت المسلمين ينشغلون بالصراع على السلطة فانتشرت بينهم الأهواء وتنكّروا للعقل وأصبحوا يتوجسون من البحث الحر ويحاربون الفكر الفلسفي ومن هنا أساءوا لدينهم وأطفأوا إشراقات عقولهم وحرموا أنفسهم من النتائج العظيمة الباهرة التي يتمخض عنها

العقل الفلسفي فالإزدهار في أمور الدين والدنيا مشروطٌ بالإعتياد على التفكير المنهجي الحر المنظَّم والقبول لهذا التفكير المنفتح والمنضبط والإلتزام به والقدرة على ممارسته. . .

■ تؤكد مراراً أنه لا فضل للعرب على الحضارة الغربية ماذا تقول عن مجموعة العلماء والفلاسفة العرب في العصور السابقة؟

- في شبابي كنتُ ابتهج حين أجد كتاباً يشيد بفضل العلماء والفلاسفة العرب على الحضارة الغربية وأقتنيت وقرأت كتُبا كثيرة في هذا المجال وربما لم يَفُتْني شيء من هذه الكتب الفخرية التقريظية حتى كوَّنتُ منها جناحا في مكتبتي الخاصة ولكنني بعد القراءة وإمعان البحث وجدتُ أن كل العلماء والفلاسفة العرب الذين انتقلتْ آثارهم إلى أوربا كانوا أساساً قد تتلمذوا على الفكر اليوناني فالرُّشْدية على سبيل المثال هي الأبرز تأثيراً على أوربا ومعلوم أن ابن رشد ليس أكثر من شارح لأرسطو فالرُّشْدية التي استعادها الأوربيون هي بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ولم أجد أحداً شذَّ عن هذه القاعدة لا من الفلاسفة كابن رشد وابن سينا والفارابي والكندي والرازي وغيرهم ولا من العلماء كابن الهيثم وجابر بن حيان وابن النفيس وغيرهم ثم إننا نفاخر الغرب بفلاسفة وعلماء كانوا وما زالوا منبوذين ومُدانين عندنا فابن رشد جرى إحراق كتبه فهو وأمثاله من الفلاسفة والعلماء كانوا خارج النسق الثقافي العربي إنهم أفرادٌ كانوا منعزلين وليسوا امتداداً لتيار سابق لهم ولم يتكوَّن بعدهم مدارس تواصل مسيرتهم وإنما هم أفرادٌ خَلَوا بأنفسهم وانفصلوا عن الثقافة السائدة وأبدعوا ولم يهتم العرب بإبداعاتهم بل أدانت الثقافة العربية هذه الإبداعات ومن المعلوم أن المبدعين يظهرون في كل

المجتمعات حتى لو كانت متخلفة ولكن هناك ثقافات تتيح لهم التأثير وتستجيب لهم فتتقدم وهناك ثقافات أخرى تعزل المبدعين ولا تستجيب لهم بل تحاربهم وتخيف جماهيرها منهم فيموتون كمداً دون أن يتركوا في الثقافة والمجتمع أثراً فاعلا بل يكون تأثيرهم عكسيا لأن الحرب الثقافية التي تُشَنُّ عليهم تبقى حية ومتدالة وتتوارثها الأجيال على مر العصور وهذا هو شأن الفلاسفة والعلماء العرب خلال التاريخ العربي فالأصح أن لا نتباهى بأولئك المبدعين لأن رفْضَنا لهم وعدم تأثُرنا بهم يجعل نسبتهم إلينا من المثالب التي يجب علينا الإعتذار منها وليست من المناقب التي يحق لنا التباهي بها إن مرور كل أولئك المبدعين واستمرار هذا الرفض لهم طيلة القرون ليس مدعاة للتباهي وإنما هو فضيحة ثقافية شنيعة فهو شاهدٌ على عجز الثقافة العربية عن استيعاب الإبداعات وعدم قدرة العرب على إدراك قيمة المبدعين بل ومحاربتهم للإبداع والمبدعين. . .

■ ترى ما سبب هيمنة خطابات فكرية بعينها في مجالاتنا العلمية وحواراتنا الثقافية؟

- كل ثقافة شمولية لا بدَّ أن تستبقي الناس عاجزين عن تحمُّل الإختلاف وتجعلهم متوجِّسين دائماً من أي فكر مغاير ومن المفارقات في هذا الصدد أن أشد الثقافات وثوقاً بذاتها هي أشدها خوفاً من الرأي الآخر مع أن الوثوق المطلق يقتضي منطقيا أن الواثق قد أطلع على كل الإتجاهات وأنه قد اطمأن إلى الرؤية التي انتهى إليها ثم لا يخاف من تأثير أية رؤية مغايرة لكن الحقيقة أن هذا الوثوق الشديد يُخفي بداخله هشاشة متداعية فهذا الرعب ليس ثمرة الوثوق الحقيقي وإنما هو نتاج

عدم الإطمئنان والشعور بالضعف أمام الفكر الآخر فالذي يُظهر الوثوق المطلق ويرفض الإصغاء لوجهات النظر المغايرة يستبطن الخوف ويسيطر عليه عدم الوثوق فهو يخاف الإنهيار فيهرب من المواجهة...

■ **يرى البعض في (سيد قطب) المنظِّر الأكبر لفكر التطرف وأنت أحد الذين أعدوا بحثاً جامعياً عنه فكيف ترى سيد قطب الآن؟**

- إذا استحكم الطغيان سلَبَ الناس موهبة التروي وحرمهم من صواب الرأي وأبعدهم عن موضوعية التقييم وأفسد فيهم كلَّ شيء فهو يفسد الثقافة ويفسد الأخلاق ويفسد العقول ويفسد الذِّمم ويفسد العواطف ويفسد السلوك ويفسد القيم ويفسد الإقتصاد ويملأ حياة الناس بالبؤس والخوف والنفاق أو يملؤها بالتمرد والإنشقاق فبيئة الإنغلاق والإستبداد لا تعرف الإعتدال فهي منحازة بشكل مطْلق إنها تكون دائماً معك بتطرُّف أو ضدك بتطرُّف أيضا إنها تندفع في المناصرة بشكل مطلق ودون أي تحفُّظ ومن غير شروط ودون إحساس بالأخطاء والنقائص مهما كانت فظيعة أو تندفع في المعارضة بصورة مطلقة أيضا ومن غير اعتدال ولا إنصاف ولا اعتراف بأية مزية إن الطغيان يؤزِّم الأوضاع ويستفزُّ النفوس ويدفع أكثر العقول استنارة وإشعاعاً وانفتاحاً إلى الإنغلاق والتطرف كردٍّ فعل تلقائي على عمليات الإلغاء والإفساد الشاملة فكل فعل له رد فعل مساو له في القوة ومضادٌّ له في الإتجاه وسيد قطب قبل احتكاكه بطغيان السلطة كان مثقفا واسع الآفاق وشاعراً رقيق المشاعر وصاحب حس مرهف نادر المثال فهو كاتب عبقري لكن الطغيان الناصري واستبداد الحزب الواحد وهيمنة الرأي الواحد وتسلُّط الإتجاه الواحد أحدث في سيد قطب رفضاً جارفاً لهذا الطغيان وملأه

بالثورة على الطغاة والنقمة على المجتمعات التي تستكين لهم إن كتاباته الثائرة تُلهب مشاعر المستَعَدِّين للهيجان وتستفزُّ الجاهزين للإندفاع الأعمى لذلك ينبغي أن لا يتداولها العوام وأشباههم من بادئ الرأي فهذه الكتابات لم تكن نتاج فترة التروي والهدوء والمراجعة والإستعداد للموضوعية وإنما هي نتاج فورة الغضب والتحيُّز الجارف فقد جاءت رداً على الإعتقالات والمطاردة والتعذيب والوحشية ومصادرة الفكر والحجر على العقول وتحريم النقد والإنفراد المطلق بالسلطة وبالرأي: «ما أريكم إلا ما أرى» فمن البديهي أن تأتي هذه الكتابات ملتهبة وثائرة ومتطرفة لأنها جاءت رداً على تطرف أكثر إيغالاً فسيد قطب رغم عبقريته ما هو إلا واحدٌ من البشر يتأثر بحالته الإنفعالية وبوضعه النفسي وبمعاناته الجسدية وبالإنكسارات الفظيعة التي تعيشها الأمة وبالإحباطات العامة التي ملأته كمداً وثورة ولكن بدلاً من أن يحصل تداول أفكاره بهذا الإعتبار الإستثنائي فإنها وجَدَتْ قبولاً لدى أصحاب الميول التكفيرية حيث وجدوا فيها تعزيزاً لما هو شائع بينهم وهي أفكارٌ متداولة خلال تاريخنا كله ثم جاءت تجربة الجهاد الأفغاني فأخرجت التنظيرات التكفيرية من نطاق الفكر إلى نطاق الفعل ثم تبعتْها الانتفاضة الفلسطينية والإنتفاضة الشيشانية ومشكلة البوسنة والهرسك لتجعل الإستنفار عاماً فاتّسع نطاق العمل الميداني الجهادي وبذلك انتقلَتْ أفكار المفاصلة وقاعدة الولاء والبراء من حيِّز التنظير الواسع والمتداول والمستقر إلى حيِّز التطبيق والتنفيذ والممارسة فيجب أن لا يغيب عنا أن الأفكار التكفيرية لها في تاريخ العرب وفي واقعهم وجودٌ عريق وواسع فهي نتاج الإنغلاق الثقافي وثمرة إيصاد منافذ الفكر الحر ويكفي أن نعلم أن

أحد المعاصرين السعوديين ألَّف كتاباً عن: (الضَّلال في الظِّلال) وهو لا يطالب سيد قطب بالتسامح وإنما يكفِّره وهذا هو الأكثر مدعاة للتساؤل وبهذا يتضح أن سيد قطب رغم كل أفكاره التحريضية الثائرة كان شديد التسامح قياساً بمن لا زالوا يهيِّجون العوام ويُشعلون الحرائق ويلهبون عواطف الناس ويُكَفِّرون المسلمين على أمور خلافية!!!...

■ **ما الذي جعل سيد قطب يتحوَّل من مثقف منفتح إلى إنسان تكفيري؟**

- إن هوان المسلمين وضياع حقوقهم واستمرار فقرهم ودوام تخلفهم وتكرار الوقائع التي تؤكد عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وانسداد الآفاق أمام إمكانات تغيير أوضاعهم ووقوف الطغيان والإستبداد أمام أيِّ تنوير أو تغيير نحو الأفضل وسطوة الرقابة الخانقة للفكر وكون البيئة محكومة برؤية أحادية مغلقة وقامعة لا مجال فيها لتداول الآراء ولا لطرح الأفكار إن هذه من أبرز الأسباب القوية التي تضافرت وحوَّلت سيد قطب من مفكر حر ومثقف منفتح وناقد بصير إلى باحث تكفيري ومحرِّض على المفاصلة مع السلطة ومع المجتمع فهو قد نشأ متدينا في أسرة متدينة وحين اغتيل حسن البنا كان يدرس الماجستير بأمريكا وقد لاحظ ترحيب الإعلام الغربي بهذا الإغتيال فأفزعه ذلك واستفزَّه فعاد من أمريكا مُعْرِضاً عن إكمال الدكتوراه وكان الصراع بين جماعة الأخوان المسلمين والضباط قد بلغ ذروته فانضم إلى الإخوان وانصرف عن اهتماماته الفكرية والإبداعية والنقدية إلى الإهتمامات الدينية بقالبها الحركي السياسي وأظهر ندماً على انشغالاته السابقة وعزوفاً شديدا عن كل ما هو دنيوي أو هازل أو لا يخدم الإسلام واستغرق استغراقاً تاماً في الاتجاه الجديد وكان من نتائج ذلك ما هو معروف عنه ثم ما صارت

إليه نهايته حيث أعدمه منطق القوة لكن يجب أن لا يغيب عن البال بأنه لولا أن البيئة العربية والإسلامية من الأصل مشبعة بأفكار المفاصَلة وبالأفكار التكفيرية وأن لديها قابلية مفرطة للإنفعال بأي تعزيز لتلك الأفكار لما كان لمثل هذه الكتابات أثرٌ يذكر فالطوفان التكفيري الشائع الآن لا يعود إلى تلك الكتابات بقدر ما يعود إلى الثقافة المتْخمة بهذه الأفكار من قَبْل فالذهنية العربية تختزن قابلية شديدة للإثارة والمنابذة فتنظيرات التكفير والتبديع والتفسيق والمفاصلة والهجران والقطيعة كانت شائعة وممارسة بقوة قبل سيد قطب فكتاباته في المفاصلة وفي الولاء والبراء ليست جديدة على العقل العربي والإسلامي وإنما هي امتدادٌ لثقافة الإستئصال العريقة الشائعة في البيئة وإنما الذي أعطاها هذا الحضور في الكتابات المعاصرة الناقدة هو أن المثقفين لا يقرأون كتُب التكفيريين التقليديين بينما يقرأون لسيد قطب ويعود ذلك إلى أنه قبل أن يكون كاتبا إسلامياً كان أديبا وشاعراً وناقداً له شهرة واسعة بالإضافة إلى الجاذبية القوية التي تمتاز بها كتاباته فلغته جميلة وأسلوبه آسر ومعارفه عصرية ومعلوماته غزيرة وكتاباته زاخرة بالحيوية والقوة والتدفق إن هذه المزايا هي التي أعطته هذا البُعْد العصري فتوهَّم الناسُ أنه جاء بأفكار جديدة في المفاصلة والقطيعة والتكفير ولكن يجب أن لا ننسى أن سيد قطب قد أُعدم عام ١٩٦٥م أي منذ أربعين عاماً بينما أن الممارسات الإرهابية لم تظهر إلا بعد الإنخراط ميدانياً في الجهاد الأفغاني فالأفكار التكفيرية موجودة ثقافياً منذ عهد بعيد قبل سيد قطب أما الذي حوَّل تلك الأفكار إلى أفعال فهو التمرس بالقتال أثناء الجهاد الأفغاني والدخول ميدانياً في بيئة مشحونة بالتحفُّز والكراهية للآخر. . .

■ **كيف إذن حصل رواج إرجاع أفكار التكفير في هذا العصر إلى سيد قطب؟**

- في البيئة العربية والإسلامية دائماً يكون الرواج للطرح الأول فإذا طرح أحدهم فكرة تناقلها الآخرون عنه دون تمحيص ومن ناحية أخرى فإن القلة من المثقفين الذين قرأوا سيد قطب لا يقرأون لغيره من التقليديين الذين يتوارثون أفكار التكفير مما جعلهم يتوهمون أنه هو مُنتج هذه الأفكار فأشاعوا عنه هذا الوهم وهم يجهلون التنظيرات القديمة في التكفير والتبديع والتفسيق والهجر والقطيعة والمفاصلة وهذا ابتسارٌ شديد للحقائق واختزالٌ مفْرط لقضايا شديدة الخطورة كقضايا التكفير التي يجب أن نعرف منابعها بوضوح ودون اختزال إن من البديهي أن سيد قطب رحمه الله لم ينشئ ثقافة جديدة ولم يخترع أفكاراً غير مألوفة فكتاباته ليست نشازاً على الثقافة العربية بل هو مثل غيره من العرب نتاج الثقافة المغلقة والرؤية الأحادية كما أنه نتاج ثقافة الإستبداد والتعذيب والمعتقلات إن التاريخ العربي سلسلة مَن الصراعات على السلطة والإستئثار وقمع الأفكار ومحاربة التعدُّدية وقد تعرَّض هو للسجن والقهر والتعذيب ثم انتهى إلى الإعدام فالبيئة التي عاش فيها محكومة بمنطق القوة ولا تعرف منطق العقل ولا منطق العدل ولا منطقِ الإعتدال إنها ثقافة لا تعرف التسامح ولم تتمرس باستيعاب الآخر وإنما هي ثقافة استئصالية قامعة لا تعرف الحوار ولا منطق الإقناع ولا العصيان المدني السلمي ولأن سيد قطب وُوْجِهَ بالقمع الفظيع ولأنه نشأ على الثقافة العربية الخصامية فإنه واجه ذلك القمع بأفكار المفاصَلة والعنف ذات العراقة التاريخية والواقعية في الثقافة العربية ولو تربَّى سيد قطب ضمن ثقافة منفتحة ومتسامحة وتقوم على منطق العقل ويتوفر فيها العدل وتتاح

فيها التّعدُّدية ويمكن التعبير عن الأراء دون خوف لكان مفكراً حُراً ومثقفاً منفتحاً على الآخر ولكنه وُوْجِهَ بالطغيان فثار عليه فهو نتاجُ بيئتة فالعوشز لا ينتج رُطَباً والطلح لا يثمر تفاحاً وإنما كل شيء نتاجه من جنسه وما يجب أن نكرر التأكيد عليه هو أن الأفكار التكفيرية واسعة الإنتشار قبل سيد قطب ولم تكن كتاباته هي سبب اندلاع الأعمال الإرهابية وإنما السبب الحقيقي هو أن الأفكار التكفيرية المنتشرة قديما وحديثا قد انتقلت من حيِّز الكلام والتحريض والمفاصلة في التعامل إلى حيز الفعل والتنفيذ والممارسة وسبب هذا الإنتقال من الأفكار إلى الأفعال هو الإستنفار الجهادي أثناء الإحتلال السوفييتي لأفغانستان ثم معايشة القتال عملياً في الميدان فهذه المعايشة قد أزالت رهبة الموت وأعادت وهج البطولة وأحيت الروح القتالية التي تمجدها الثقافة العربية حتى في الجاهلية. . .

■ **نحن الآن في مرحلة تحول أنتجتها أحداث الأربع سنوات الأخيرة. . ما أبرز ملامح المرحلة القادمة بنظرك؟**

- إن اندثار منطق القوة أصبح حتميا فالسيادة انتقلتْ في أغلب أقطار الأرض من الحكام إلى الشعوب وهذا الإتجاه صار ينمو بسرعة شديدة وهو من ثمار النزعة الفردية والإتجاهات الإنسانية الغامرة التي باتت قوية وعامة بين سكان الأرض بمختلف الأديان والقوميات واللغات كما دلَّ على ذلك وقوف العالم ضد الصرب حين حاولوا إبادة مسلمي البوسنة وضد صدام حسين حين غزا الكويت وكذلك أعمال الإغاثة العالمية لأندونيسيا وغيرها من البلدان المنكوبة بالمد البحري المدمِّر كما بات للرأي العام العالمي ولمنظمات حقوق الإنسان وللهيئات الإنسانية قوة

محسوبة حتى على المستويات المحلية في كل الأقطار ولم يَعُدْ بإمكان فرد طاغية أن يُذلَّ شعبه ويغلق عليه ويتصرف به كما يشاء مثلما كان يحصل في السابق وإنما أضحى العالم يراقب كل شيء ويعترض على أي طغيان. . .

إن العالم الإسلامي يعيش فترة مخاض عسيرة فإما أن يولد التسامح والتعدُّدية واحترام الرأي الآخر في العالم الإسلامي كله أو يتغلَّب منطق القوة ويعود مبدأ: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر» فنسقط جميعا في الهاوية المهلكة. . .

■ **نسمع في الآونة الأخيرة دعوة لعقلنة الخطاب الديني. . هل أنت مع هذه الدعوة. . ؟**

ـ العقلُ هو مناطُ التكليف وهو موضع المسؤولية لذلك فإن الإسلام يقوم أساساً على العقل فلا مسؤولية دون العقل ولا عقل دون الإختيار الحر فاستحضار العقل للتفكُّر والتدبُّر والفهم والإستنتاج والحُكْم والإختيار هو الأصل أما إدانة العقل أو استبعاده أو انتقاصه أو الحجر عليه كما هو شائع فهو دخيلٌ على الإسلام وجنايةٌ عليه وحجبٌ لإشعاعه وصرفٌ للناس عنه وحكمٌ على المسلمين بالبقاء في أسر التخلف. . .

■ **لا تزال هناك خطوط حمراء عريضة تحيط بكثير من الأفكار في المجالين الثقافي والاجتماعي ما موقفك منها. . ؟**

ـ كلُّ تقدم وازدهار هو نتاج إلغاء أو تقليل الخطوط الحمراء التي تحدُّ من تداول الأفكار ومن الحراك الإجتماعي وكلُّ تخلف شائن هو نتاج استحكامات الخطوط الحمراء والحجر على العقول وتدجين الأفراد

إن الإنسان صار إنساناً لأنه حُرٌّ ومختار وهو لم يكن كذلك إلا لأنه عاقل والخطوط الحمراء هي إلغاءٌ للعقل وتقييد للفكر وعدوانٌ على إنسانية الإنسان وكل مسؤولية تقوم على العقل والاختيار الحر فإذا غاب العقل أو حصل الحجر عليه أو انتفى الاختيار انتفتْ المسؤولية وإذا اختل العقل أو انتُقصَتْ الحرية نقصَتْ المسؤولية بقدر انتقاصهما فإنسانية الإنسان مرتبطة بعقله وبحريته بل هي نتاج هذا العقل وهذه الحرية وتقدُّم الأمم هو نتاج حرية تداول الأفكار وإطلاق طاقات الأفراد والمؤسسات. . .

■ **أنت أحد المشاركين في الحوار الوطني كيف تقيم هذا الحوار؟ وهل ترى فاعليته على الصدى الجماهيري؟**

ـ إن التأكيد على استمرار الحوار الوطني وإنشاء مركز دائم لمتابعة هذه المهمة الكبرى يُعَدُّ أفضل ما تحقَّق حتى الآن في مجال الإصلاح الثقافي والإجتماعي والسياسي في المملكة إن الحوار له فاعلية عظيمة في تخفيف التعصب وفتح الأقفال الذهنية المغلقة وتقريب الإتجاهات المتنافرة وتحريك المواقف المتحجرة كما أن له فاعلية مهمة في فهم الذات وفهم الآخر وفي تأسيس ثقافة الإقناع والإقلاع عن ثقافة الإخضاع واكتشاف خرافة دعاوى امتلاك الحقيقة المطلقة فالحوارات تكشف للناس أوهامهم ونقائص تصوراتهم وتبيِّن لهم خلل معارفهم وتقنعهم بأنهم لا يختلفون عن البشر في احتمالات الوقوع في الأوهام والأخطاء والإنسياق مع الأهواء فالمعضلة في العالم الإسلامي هي أساساً معضلة ثقافية ولا مجال لحل هذه المعضلة إلا بالحوارات الدائمة والنقاشات المفتوحة والمراجعات الجادة المستمرة لذلك ينبغي أن ندعم

هذا التوجُه بأقصى ما نستطيع وأرى أن من أهم أسباب نجاح هذا الإتجاه الوطني الجديد في المملكة اختيار الشيخ صالح الحصيِّن رئيساً له فهو يجمع من خصال العلم والنزاهة والصدق والتقوى والإخلاص ما جعله يستحق إجماع الناس على مباركة اختياره كما أن نائبه الدكتور عبد الله نصيف يُحظى باحترام الجميع أما الأمين العام لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني فيصل المعمَّر فله دورٌ كبير في هذا النجاح فهو وزملاؤه في المركز يعملون بحماس شديد ويبذلون جهداً كثيفاً في التنظيم الدقيق والإعداد الجيد والمتابعة النشيطة وهذا يؤكد أنه ليس المهم إنشاء المؤسسات وإنما الأهم هو حُسن الإختيار لمن يتولون إدارتها وقيادة نشاطها. . .

■ **كتبتَ أكثر من مقال عن ماليزيا برأيك لماذا تراجعت النهضة في العالم العربي ونجحت في ماليزيا؟**

- إن تراجُع العرب حصل بسبب عودة الإستبداد المطلق فمصر قبل الإنقلاب الذي قام به العسكريون وسموه (ثورة) كانت تعيش تجربة تعدُّدية واعدة وكان هناك تداولٌ سلمي للسلطة وكانت حرية الرأي مكفولة وكانت حركة الأفكار ناشطة وكانت الأمة تتدرب وتتدرج نحو النضج السياسي والثقافي والإعلامي ولكن جاء الإنقلاب الذي سمَّى نفسه ثورة فقضى على الحريات وأمَّم الإعلام وكمم الأفواه ودفَعَ الأمة إلى هذا الواقع الكئيب أما ماليزيا فقد خرجتْ من نفق الاستبداد وعاشتْ تعدُّدية ناضجة على كل المستويات وانفتحتْ على كل الآفاق وشجَّعَتْ المبادرات ووضعتْ لنفسها أهدافاً طموحة والتزمتْ بصدق وإخلاص وبصيرة بتحقيق هذه الأهداف بمنتهى الجدية والمرونة

والإنفتاح ومع هذه الفاعلية الجديدة الرائعة ومع تعدُّد الطوائف الدينية والإنتماءات العرقية فإنها استطاعت أن تُنَحّي وتستبعد هذه الاختلافات الشديدة وأن تحشد طاقة الشعب كلها للبناء والعمل والإنتاج وتحقّق كلُّ ذلك دون أي تفريط بشيء من الالتزامات الدينية فماليزيا من أشد الدول الإسلامية اهتماماً بقضايا المسلمين وأكثرها إلتزاماً بالإسلام وقد حقّقت نجاحات مشهودة في كل المجالات الثقافية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية والإدارية والصناعية والعمرانية فأصبحت من أكثر البلدان تطوراً ومن أشدها إزدهاراً وبنتْ لنفسها مكانة متميزة في العالم الإسلامي أكسبتْها مكانة دولية محسوبة ومؤثّرة...

■ ألم يكن عبد الناصر زعيماً قويا ومخلصا يهدف إلى توحيد العرب وإعادة مجد الأمة وتحرير فلسطين وكانت أمانته المالية فوق الشبهات؟؟

- أجل هو كذلك فقد كان زعيماً قويا وحاسماً في قراراته وصادقا في غاياته ومخلصاً في مسعاه وأمينا في تعامله مع المال العام لكنه كان مستبداً استبداداً مطلقا وكان يعمل ويتصرف وكأن الأمة جزءاً منه وتابعة له وليس هو واحداً منها وتابعاً لها فألغى التنوع وقَمَعَ النزعة الفردية وقَهَرَ الرأي الآخر وأغلق الإتجاه التعدُّدي في الفكر والممارسة وأحال المجتمع إلى كتلة عمياء ترتجف خوفاً ورُغبا من السلطة وتستجيب للشعارات دون تحليل وتستفزُّها الخطب الرنانة دون تعقُّل نعم إن عبد الناصر كان قويا وحاسماً ولكنه استنفد قوته وحسمه في قمع شعبه وكبت الحريات والإنفراد بالرأي وبالقرار فتراكمتْ الأخطاء وتجمّدَتْ الطاقات البانية واستَشْرَتْ الطاقات الهدامة وصار همُّ الناس إعلان الولاء

وإهمال الأداء نعم أيضا كان عبد الناصر مخلصاً لكن الاستبداد يفسد الإخلاص فبدون التعدُّدية ومن غير حق المراجعة يصبح الإخلاص دافعاً إلى المزيد من الطغيان والإنفراد بالقرار والحجر على الناس واعتماد منطق القوة للمضي بتنفيذ ما يراه ويقرره بصلف وغطرسة دون أن يتيح مجالاً للتداول والمراجعة حول الخيارات المتاحة ولا مناقشة الأخطار المحتملة وبذلك جرَّ الأمة إلى الإنغلاق الثقافي والشوفينية الغوغائية والهزائم المروِّعة والكوارث الإقتصادية الخانقة نعم أيضا كان عبد الناصر عفيفاً عن المال العام وكانت نزاهته فعلاً فوق الشبهات وهذه مزية عظيمة يعترف له بها أعداؤه وأصدقاؤه لقد كان عبد الناصر يملك مزايا عظيمة لكن الإستبداد أفسد كل تلك المزايا إن عبد الناصر نتاج الثقافة العربية التي تمجد القوة وتتباهى بالإستبداد: «إنما العاجز من لا يستبد» وهنا يظهر الفرق بين عبد الناصر ومُحاضر (مهاتير) محمد لقد كان الرئيس الماليزي قويا وجريئاً وحاسماً لكنه لم يكن مستبداً وكان يسعى لبناء الثقة في كل فرد ماليزي لا أن يذيبهم في شخصية القائد لقد حرص على تأكيد النزعة الفردية لدى الشعب كله لذلك تخلَّى عن الحكم وهو في ذروة تألقه وأتاح الفرصة لجيل جديد من القيادات التي بناها بإخلاص ووعي ولكنه لم يكن يتوانى عن القرارات الجريئة الحاسمة حين تكون الأوضاع خطيرة وتستوجب الحسم كما فعل في مواجهة أزمة الإنهيارات المالية التي اجتاحتْ النمور الآسيوية فواجه السلوك الانتهازي من أنور إبراهيم وهو أقرب الناس إليه وحمى ماليزيا من انهيار كاد يبتلع ازدهاراً عظيما حقَّقه بالخطط الطموحة وبالإلتزام بهذه الخطط كما حققه بالتعدُّدية والمشاركة الشعبية الشاملة وبالصدق والكد والجرأة والمرونة والإنفتاح . . .

■ **ما هي رؤيتك للمستقبل السعودي والمستقبل العربي الإسلامي في ظل المعطيات الراهنة؟**

ـ الأوضاع في العالم الإسلامي في غاية السوء ووفقاً لقانون القصور الذاتي فإن أوضاع المسلمين لن تتحسّن من داخلها فالسوء أصبح يتفاقم بأشكال مروّعة لذلك فإن التحسُّن مرتهنٌ بالمناخ العالمي وامتداد النزعة الإنسانية من خارج البيئة إن أوضاع المسلمين أصبحت تزداد سوءاً بسرعة مخيفة فمعضلات المسلمين تتفاقم وهم لم يتمرسوا لمواجهة المعضلات إلا بمنطق القوة إن إنسداد الآفاق أمام الشعوب المسلمة والشعور بالهوان الفظيع مقابل هيمنة القوى الكبرى ولأن الثقافة العربية لا تعرف لإدارة الصراع سوى منطق القوة لذلك لجأ المحتجُون على هذه الأوضاع إلى العنف فنشروا الرعب في كل أصقاع الأرض فضاعفوا المشاكل فهذا الأسلوب المهترئ في إدارة الصراع هو الأسلوب الذي اعتاد عليه المسلمون ولم يدخلوا بعد في أساليب العصر التي تقوم على التواصل والإعلام والإقناع لذلك سيتوالى الإخفاق حتى ندرك طبيعة العصر ونتقن أدواته ونتمرس على وسائله ونستخدم إمكاناته بمهارة وذكاء وجد ومثابرة ولن يكون ذلك إلا بتأثيرات من خارج البيئة فلا شيء يعلو على ذاته والأوضاع محكومة بقانون القصور الذاتي. . .

■ **ما هي رؤيتك للعلاقة بين المثقفين والعامة خاصة في الشأن الثقافي؟**

ـ الناس في المجتمعات العربية لا يعترفون بالمثقف ولا يقرُّون له بأي دور فالمثقف يخاطبهم بلغة العقل وهم لم يعتادوا على هذا الخطاب لذلك يستنكرونه وينفرون منه فالعربي يستجيب للهياج الأيديولوجي مهما كان اتجاه هذا الهياج وقد رأينا العرب يندفعون

اندفاعاً أعمى حول كل الشعارات الماركسية والقومية والبعثية ثم ينقلبون من الشيء إلى نقيضه فالكلام يلهب عواطفهم والشعارات الجوفاء تستنفرهم أما الخطاب العقلاني فإنهم لا يُصغون له بل يرفضونه ابتداء قبل أن يسمعوه...

■ **كيف ترى الأجيال الجديدة؟**

ـ حاضرُ الأجيال ومستقبلهم مرتبطٌ بما سيتاح لهم من المعرفة والوعي والمشاركة وتداول الأفكار وتوطين التعدُّدية...

■ **أنت ترى أن (العقل يحتله الأسبق إليه) وبالتالي يستلزم الإنعتاق من هذا الإحتلال نقد الموروث.. كيف ترى هذا النقد؟ وما هي حدوده؟ وما هو مفهوم البليهي للعقل؟**

ـ من أهم الحقائق التي علينا أن نعيها وعياً شديداً هي حقيقة أن العقل يحتلُّه الأسبق إليه فالإنسان بطريقة تفكيره وقيمه ومعاييره للخير والشر وللحق والباطل وللصواب والخطأ يكون محكوماً بالبيئة التي نشأ فيها وهو في الغالب يظل مأخوذاً بها ومن النادر أن يكتشف نقائصها أو أن يشعر بحاجتها إلى المراجعة والتحليل والتصويب فالفرد يظل مغتبطاً بما سبق إلى احتلال عقله وتشكيل رؤيته وقيمه وعواطفه...

هذا من جهة علاقة الفرد بالثقافة أما الثقافة كإطار عام للتفكير وكأسلوب حياة لمجتمع بأكمله فإنها تظل صامدة لا تتغيَّر مهما تعاقبت العصور فالأصل في الثقافات أنها تتجمَّد وتتحجَّر وتفقد الأذهان فيها فاعليتها إذا لم تتعرَّض للمواجهة بأفكار معارضة وتُحفز بالتنافس وتمتحن بالتحدي وتُمحَّص بالمراجعة المستمرة ولكن من أخص خصائص الثقافات المغلقة أنها لا تراجع ذاتها إلا إذا دُفِعَتْ إلى ذلك

دفعاً قويا ولا يأتي هذا الدفع إلا إذا أتيح للأفكار أن تتنافس فالثقافات مثل الصنائع والخدمات لا تتطور إلا بوجود المنافس القوي الذي يتمتع بنفس الحقوق وتتاح له نفس الفُرص فالثقافة التي لا تتعرض للنقد والتحدي والمواجهة المباشرة تبقى كما هي دون أي تطور بل إنها تتراجع وتضيف مع كل جيل قيوداً جديدة على نفسها وعلى الواقعين في أسْرها فالنقد المنهجي بآلياته ومهاراته والتزاماته هو مفتاح التقدم الثقافي وهو العامل الأول لتطوير عقل الفرد والمجتمع ولكن يجب أن يكون هدف النقد اكتشاف الحقيقة وأن يتحرى الصدق والأمانة والموضوعية وأن يستشعر الناقد احتمالات خطئه مثلما يرى أخطاء الآخرين فالهدف من النقد هو المراجعة والتدارك والتصحيح والبناء وليس الهدم...

أما عن مفهوم العقل فإنه أصبح معروفاً لدى المهتمين بأن الفرد لا يولد بعقل ناجز فالعقل عند الولادة هو مجرد قابلية ويتشكل العقل بالثقافة التي ينشأ عليها فأنماط التفكير تتعدَّد بتعدُّد الثقافات ومن هنا يصح أن يقال العقل العربي والعقل الأمريكي والعقل السلافي والعقل الياباني والعقل اللاتيني إلى آخر الكيانات الثقيافية وهذا المفهوم عن العقل هو مفهوم جديد لا بد من استيعابه وهضمه لنحسن تشكيل عقولنا ونجيد تشغيلها...

■ **أفكار البليهي هي نتاج تأملات طويلة ترى ما هو المنهج الذي يتأمل البليهي من خلاله؟**

ـ لا ألتزم بمنهج واحد ولا أتقيد باتجاه معين وإنما أستعين بكل ما هو متوفر من المناهج والرؤى إنني في البحث عن الحقيقة استمطر كل السحب وأشرب من كل الأنهار وأبحث في كل الزوايا وأُحلّق في كل

الآفاق إنني أمعن التحديق في هذا المجتمع أو ذاك ثم أقارنه بمجتمع آخر مباينٌ له فأبحث عن أسباب التباين إنني أقرأ الواقع المتباين كما أقرأ الأفكار المتباينة أيضا وأحاول التعرف على العوامل المختلفة التي جعلت العقول والأوضاع تتشكّل على هذه الانحاء المتباينة وتتكوّن بهذه الأنماط المختلفة. . .

إنني أستفيد من كل المناهج العلمية والفلسفية واستخدم كل الأدوات المتاحة فالحقيقة لا تنجلي إلا للذين يكافحون من أجلها لقد كان وما زال همي أن أقارن بين الإتجاهات المتعارضة من أجل أن أعرف أين توجد الحقيقة وما هو النصيب المتاح منها لكل اتجاه وقد عانيتُ سنوات طويلة من عدم توفُر المراجع ثم حصلتُ على الكثير ولكن بعد أن كابدتُ الحرمان طويلا حيث كانت الرقابة على الكتب شديدة وقاسية لقد بدأت مبكراً في رحلة المراجعة والإستقصاء فقضيتُ حياتي في التأمل العميق والبحث الجاد والقراءة الفاحصة وكانت الحقيقة هي همي وهي مطلبي وهي عشقي وكان خفاؤها مصدر شقائي كما كان العثور عليها والإطمئنان إليها يمنحني سعادة غامرة. . .

■ **الفلسفة الغربية مرت بمراحل مختلفة من النهضة فالتنوير فالحداثة فما بعد الحداثة وبحكم أن الفلسفة مشترك بشري وأن لكل عصر مقولاته الخاصة فما هي المقولات المناسبة لواقعنا الحالي؟**

ـ نظرياً الفلسفة مشتركٌ بشري أما واقعاً فهي معرفة غربيةمحضة إنها غربية إنشاءً وتكويناً وانجازاً وغربية تأثيراً وممارسة فالمعرفة الفلسفية إبداعٌ يونانيٌ محض وقد تبناها الغربُ بعد أن نشرها الرومان ثم نُحّيَتْ عن التأثير بعد أن اعتنق الرومان المسيحية ثم عادت إلى الحياة بالتدريج

حتى تم إحياؤها بقوة في العصر الحديث وبسبب تأثير الفكر الفلسفي الفاحص والناقد حصلت في الغرب التطورات الثقافية والإجتماعية والسياسية والعلمية فكل الذي تعيشه المجتمعات الغربية من تقدم وإزدهار وانفتاح ما هو إلا النتائج الهائلة التي أسفر عنها التفكير الفلسفي لأن هذا التفكير فكَّ قيود العقل وأطلق حرية التفكير والتعبير وأحال الأفراد من نسخ مكررة إلى تنويعات فكرية وإبداعية مذهلة. . .

■ الفلسفة مذاهب ومدارس ما هي الفلسفة؟ ومن هو الفيلسوف؟

- ليس مهما للناس أن يعرفوا المذاهب والمدارس الفلسفية وإنما المهم أن يدركوا قيمتها الكبرى وتأثيرها البالغ فقد أمضت البشرية آلاف السنين وهي تُراوح مكانها ضمن مسارات حضارية ثابتة متماثلة ولكن بابتكار الفكر الفلسفي خرج الإغريق ثم الأوربيون من خطوط الدوران التاريخي واستمروا في الصعود حتى بلغوا هذا المستوى المذهل وأهم ما في الفلسفة هو الفكر النقدي فهو الحافز الحضاري العجيب إنه لا يسمح بالجمود ولا بالتحجُّر ولا بالوثوق الأعمى ولا بالظلم ولا باستعباد الناس ولا بمصادرة حرياتهم وحقوقهم الإنسانية. . .

وبغض النظر عن تعريفات الفلسفة فإن المهم للقراء أن يعرفوا بأنها تعني عدم البقاء في أسر المألوف وبأنه بدونها يبقى السائد جامداً دون أي تطور وبأنها في أوربا أطلقت طاقات العقل ودفعته إلى البحث والتأمل والإبداع دون عوائق ولا قيود سوى قيود الحق ومقتضيات الحقيقة وبأنها تثير الشك وتتوسل به إلى إثارة العقل وتوسيع المعرفة فالشك وسيلة وليس هدفاً وهي تشترط أن يكون الشك منهجيا منظّما إنها وسطٌ بين الوثوقية المغلقة واللا أدرِيَّة المُعَلَّقة ولا بد أن يدرك

الناس بأن الفلسفة تجعل المعرفة الممحّصة في ذروة القيم وبأنها تجعل هذه المعرفة الحية طريقاً إلى العدل والإخاء الإنساني وإسعاد الناس والتوقف عن العدوان وقد اعتاد تاريخ الفلسفة على أن يُطلق وصف الفيلسوف على الذي يمعن في اختصار أسباب الأشياء ويدير فلسفته حول محور واحد مثل محور المُثُل عند أفلاطون ومحور الديالكتيك عند هيجل ولكن بالنسبة لنا ليس هذا التمذهب مطلوباً فالمهم هو الإقدام على إتقان الفكر النقدي وامتلاك أدوات المعرفة واستخدام هذا الفكر وهذه الأدوات في زحزحة هذا الوثوق الأعمى والخروج من مأزق التخلف. . .

إن الذي يفيدنا من الفلسفة هو الفكر النقدي بشتى تجلياته لينقلنا هذا الفكر من الوثوق الأعمى بكل ما هو مألوف ومن الرفض الأعمى لكل فكر طارئ إلى المراجعة والتحليل والغربلة إن الإسلام هو الحق المطلق ولكن الفهوم القاصرة والوثوق الأعمى وإغلاق أبواب الإجتهاد وتقديس القديم من الأقوال والأشخاص والممارسات هي التي انحدرت بالمسلمين إلى هذا الدرك السحيق ولن يتمكن المسلمون من مبارحة هذا الدرك إلا بالفكر النقدي الأمين الذي ينشد الحق ويسعى للإصلاح ويهمه الخير العام للدين والمجتمعات والأوطان. . .

■ **مشروع البليهي عن (بنية التخلف) لم يوضع بعد في كتاب ألم تكتمل هذه البنية؟ أم أنها أكبر من كتاب؟**

ـ أنت تعلم بأنه صدر لي كتابٌ منذ عشر سنوات بعنوان (بنية التخلف) وهو يتضمن موضوعات رئيسية لبعض مكوِّنات بنية التخلف وليس ذلك الكتاب سوى مدخل أو توطئة لمشروع كبير عن هذه البنية

التي هي كيانٌ شديد التعقيد وكثير التشعُّب ولكن الواقعين تحت ضغط هذه البنية لا يعرفون طبيعتها الخانقة بل يعتبرونها مصدر فخرهم وحافظة كيانهم لذلك لا يكفي أن نكشف عناصر هذه البنية ونبيِّن مكوِّناتها وإنما لا بد من إجراء مقارنة بين ثقافة التخلف وثقافة الإزدهار وهذا يقتضي أن يكون البحث شاملاً إن المجتمعات المتخلفة تجهل أسباب تخلفها بل تنكر هذه الأسباب الحقيقية وهذا يستوجب إنشاء علم جديد يحلل هذا الجهل وهو ما أحاول إنجازه بعنوان (تأسيس علم الجهل) كما أننا نجهل الدور الحاسم للقيم ونجهل أنها هي التي تحدِّد إهتمامات الأفراد والمجتمعات وهي التي تستبقي المجتمع متخلِّفاً أو تصعد به نحو الإزدهار وفي هذا الصدد قدَّمْتُ نظرية عن (عبقرية الإهتمام) وأرفقتها بشواهد كثيرة لإثبات النظرية وعموماً فإن الموضوع الذي اشتغل عليه واسع ومتفرع وله أبعاد كثيرة لذلك تأخَّر إصدار الكتاب الذي سيكون من عدة أجزاء أو عدة كتب يمكن قراءة كل كتاب على حدة لأنه يتناول موضوعاً اعتاد الناس أن يعتبروه مستقلاً ويمكن قراءتها كأجزاء يكمل بعضها بعضا لأنها تتضمن الرؤية التي توصلتُ إليها عن إمكانات العقل ونقائصه وعن أبدية الثقافات المغلقة وإطفائها لقدرات الأفراد والمجتمعات وعن سطوة العواطف والعلاقة الوثيقة بينها وبين العقل وعن الفرد والمجتمع والتاريخ والحضارة والفلسفة والتنوير والشك والوثوق والعلم والتعليم وعن مشروعية الخطأ وعن العادات الفكرية والسلوكية وعن الأداء العلمي والعملي والفرق بين المعلومات والمهارات وعن القيادة والإنقياد والإبداع والاتباع وعن خطورة التفكير الثنائي وعن مبدأ الترجيح بوصفه معيار الحكم على الأفكار والأشخاص والأعمال والمواقف والأوضاع وعن التفكير المدرسي وخطره في تنويم

العقل وغير ذلك مما يقتضيه تحليل بنية التخلف أو ما يستوجبه التعرُّف على أسباب التقدم وعوامل الإزدهار. . .

■ **لقد عملتم سنوات طويلة في العمل الإداري وكانت لكم بصمتكم المميزة فماذا أخذ منكم العمل وماذا استفدتم منه؟**

ـ أخَذَ العملُ مني الكثير لقد أنهك جسدي وأزَّم نفسي واستهلك أفضل سنوات عمري واستنفد طاقتي وصرفتُ فيه من الجهد والإهتمام والإستغراق ما وددتُ أنني صرفتُه في مجال المعرفة والفكر لأن الإنتاج في المجال الثقافي ربما يستفاد منه بعد حين أما الإنجاز الإداري والعملي فإن المجتمع العربي لم يتهيأ له بعد فالإنجاز في البيئة المتخلفة يصير عبئاً على صاحبه أكثر مما هو شافعٌ له فالنفوس المريضة المأخوذة بمصالحها الذاتية وبأهوائها المستغرقة تختلق المثالب وتحجب المزايا إنهم يحاربون بضراوة بكل أدوات التشويه والإرجاف والشائعات مَن يتوهمون أنه يعترض هذه المصالح مهما كانت غير مشروعة أما عامة الناس فإن هؤلاء الأنانيين يتلاعبون بعواطفهم فتجدهم يتذبذبون معهم من أقصى حالات القبول إلى أقصى حالات الرفض دون أن يشعروا بهذا التناقض البليد ومن ناحية أخرى فإن الناس في المجتمع العربي عموماً وفي المجتمع السعودي خصوصاً قد اعتادوا على الشكوى والتذمر والتجريح والثلب والإنتقاص حتى حين يكونون أمام إنجاز رائع أو جهد بديع فلا تجد من يُثني على جهد مخلص أو يغتبط بإنجاز جيد بل إنه من السهل أن يتحوّلوا من الثناء الذي بنوه على المعايشة والوقائع الحية المشاهدة إلى ذم الشيء ذاته أو القدح بالجهد نفسه إنقياداً مع هوى طارئ أو تأثُّراً بشائعة فاجرة ومع هذا التأرجح الصارخ فإنهم لا يحسون بأي تناقض. . .

■ **من لم يعايش ما تصف لا يتصور أن الحالة بهذه الدرجة من السوء؟**

ـ بل هي أسوأ من ذلك بكثير غير أنه لا يمكن أن يتصور الحالة إلا مَن عانى من ضراوة أهل الأهواء وكابد تأرجُح الناس واندفاعهم خلف إرجافات أهل المصالح الأنانيين والمغرضين الجائرين. . .

■ **إذن ما ذا استفدت من هذه المكابدة مع أهواء الناس؟**

ـ الفائدة التي خرجت بها من العمل المديد النكد في البلديات أنني عرفت الناس على حقيقتهم فلم تَعُدْ تخدعني المظاهر ولم تَعُدْ الهالات أو الهمهمات تحجب عني حقيقة ما يسعى إليه الناس أو يستبطنونه في أنفسهم إن البلديات ملتقى الأطماع وفي هذا الملتقى ينكشف المستور ويتعرى الزيف وتسقط الأقنعة إنها معرفة مؤلمة لكن الذي يحصل عليها يبرأ من الغفلة والسذاجة فيصبح يرى حقيقة الدوافع وتتجسّد أمامه الأهواء وتتعرى له النفوس بكل ما تنطوي عليه من آنانية وعدوانية وجشع وجهل وغباء وبُعْد عن الإنصاف. . .

■ **هذه التجربة السخية الساخنة هل ستضيع أم تجد طريقها في كتاب يقرؤه الناس؟**

ـ بل سوف تخرج إن شاء الله في كتاب أرجو أن لا أتأخر في كتابته فهو لا يتطلب سوى النقل من الذاكرة إلى الورق وأخشى إذا تأخّرتُ أن تنطفئ جذوة المشاعر المتقدّة حولها فقد كابدتُ كثيراً وعانيتُ طويلا في هذا العمل النكد وعايشتُ العوائق التي يضعها المجتمع في طريق العمل والإنجاز لقد عملتُ ثلث قرن مسؤولاً في البلديات وهو عملٌ شديد الإحتكاك بالناس لأنه ملتقى المصالح الجامحة ولأن الإنسان العربي في الغالب أناني وجشع وفوضوي وغير منضبط وغير منصف بل تتلوَّن

أحكامه بأهوائه وتتأرجح مواقفه بتأرجح مصالحه لذلك فإن هذا العمل يضع القائم به وجهاً لوجه مع تقلُّب وأطماع ومراوغة هذا الإنسان وشراسته ومع فظاعة أهوائه وجشعه ويكشف له عن استئثاره وهُزال ضميره وضعف الوازع الذاتي لديه كما يجعله على احتكاك دائم مع نزواته وتقلُّبات مزاجه وتأرجُح مواقفه ولن يكفَّ المجتمع عن هذه الممارسات المتخلفة حتى يصارحه أبناؤه بالحقيقةالمفزعة. . .

لقد تنقَّلْتُ بين عدد من المناطق والمدن في المملكة من الوسط إلى أقصى الجنوب ثم إلى أقصى الشمال ثم إلى أقصى الشرق ثم العودة ثانية إلى إحدى مناطق الوسط وقد تعاملتُ بحكم طبيعة العمل البلدي مع كل فئات المجتمع فأتاح لي هذا التعامل المباشر والساخن فرصة التعرف على أنماط البشر وعَرَّضَني للإكتواء بأهواء الناس وعدوانيتهم وأيضا للمواجهة مع رعونتهم وجهلهم وبلادة الحس فيهم كما أتاح لي العمل في البلديات أن أتعامل مع نماذج من ثقافات متنوعة فقد جمعني بيابانيين وكوريين وأجانب من بلاد كثيرة كما جمعني العمل مع زملاء من جنسيات إسلامية وعربية مختلفة وعايشتُ الفرق الهائل في المهارة والإهتمام ومستوى الأداء بين الكوري مثلا والعربي أو حتى بين الفلبيني والعربي بل بين الهندي والعربي حيث شاهدتُ مراتب المهارة عند مختلف الشعوب ورأيتُ أننا في الدرك الأسفل من الكلال والإهمال وغياب الإهتمام وفقدان العناية بالمعرفة وبالمهارة ويعود هذا القحط المعرفي والمهني بالدرجة الأولى إلى هزال القيم مما وطَّن الإهمال وغيَّبَ الإهتمام وتيقَّنتُ بأن معضلتنا ثقافية وأن الشخصية العربية بتكوينها الثقافي الحالي غير متهيئة لفهم الحضارة المعاصرة ولا قادرة على التفاعل مع قيمها الإنسانية العالية ولا المشاركة في حركتها السريعة

والظافرة وأن تعميم التعليم لن يكون فاعلاً حتى يتحقق تغيُّر ثقافي جذري تتعدَّل به منظومة القيم وتتغير بواسطته اهتمامات الناس فلا بد من المكاشفة مع الذات ومحاكمة النفس ومصارحة المجتمع بحقيقة تصرفاته الرعناء وسلوكياته المتخلفة . . .

حوار منشور بجريدة الرياض

أجرى الحوار الأستاذ حسين القحطاني

ونُشر الحوار يوم الخميس

٢٧/ مايو / ٢٠٠٤ م الموافق ٨ / ٤ / ١٤٢٥ هـ

إبراهيم البليهي: مُفكِّرٌ مهموم بقضية التخلف فهو في كل كتاباته يعمل على تحليل ما أسماه (بنية التخلف) أي أنه يرى أن التخلف ليس عَرَضاً عابراً وإنما هو بنية قوية متماسكة تتحصَّن عن مؤثرات العلوم وتستديم ذاتها بالإنغلاق والإقصاء والرفض...

إنه يكتب بانتظام ويحاضر منذ سنوات وكل كتاباته ومحاضراته وأحاديثه تدور حول بنية التخلف حيث يرى أن هذه البنية شديدة التعقيد فهي ليست بنية بسيطة بل إنها تقوم على مجموعة من البُنى مثل بنية المألوف وبنية التعصب وبنية الجهل وهو يدعو إلى تأسيس علم جديد باسم (علم الجهل) إنه يرى أن التعليم في المدارس والجامعات معنيٌّ بإعطاء المعلومات أي أنه محصورٌ بتجاوز الجهل البسيط لكنه غير مهتم بالجهل المركَّب الذي يعطل العقل ويشل الإرادة فهو الحصن الأمنع لبنية التخلف إنه يعتقد أن المعارف العلمية تجد الأذهان أمامها موصدة وأن توطين الروح العلمية يقتضي فك أقفال العقل وإزالة موانع القبول...

إنه يرى أن العقل يحتله الأسبق إليه فالتعليم يأتي متأخراً بعد برمجة العقول لذلك لا يؤثِّر فيها كما أن المعلمين يأتون إلى مهنة التعلبم وقد

اكتملت برمجتهم فيشحنون أذهان الدارسين بما تبرمجوا هم به مما يستبقي الجميع بعيدين عن الروح العلمية. . .

إن عوائق النمو وموانع قبول الروح العلمية كثيرة وهو يواصل الكتابة عن هذه العوائق والموانع بوصفها تحصينات قوية وأركاناً راسخة ومنابع غزيرة لبنية التخلف لذلك حين أردت أن أجري معه هذا الحوار تحيَّرت من أين أبدأ فالقضايا التي تناولها كثيرة وكلها تستحق التوقف والمناقشة لذلك اخترت عدداً من الموضوعات التي تناولها في بعض المقالات والمحاضرات المنشورة وكذلك راجعت كتابه (بنية التخلف) وأجريت معه حولها الحوار التالي:

■ **ترى كيف نقدم تاريخنا العربي للجيل القادم؟**

ـ من أكبر الأخطاء التربوية والمعرفية والوجدانية والأخلاقية أن العرب يقدمون تاريخهم لأبنائهم مليئا بالتمجيد وبهالات التقدير التي تبلغ أحياناً حد التقديس كما أنهم قد اعتادوا عدم السماح بالتساؤل حوله أو القيام بمراجعة أحداثه وتقييم قضاياه وبهذا الموقف الرافض للمراجعة والتقييم تتضاعف الهالات فبقي في نظر الأجيال كأنه كله صلاحٌ مطلق وأمجادٌ صافية أي كأنه ليس من تاريخ البشر الذين تلازمهم الأهواء والنقائص والأخطاء مما أطفأ في الأجيال العربية حاسة التمحيص وحرمهم من الرؤية الموضوعية ونشَّأهم على الاستسلام لأي وضع وأصاب بنيتهم المعرفية والوجدانية والأخلاقية بالخلل والعطب وملأ حياتهم بالنحيب على الماضي المجيد. . .

■ **ما الذي أصاب العرب في هذا العصر وأوقعهم في بؤرة التخلف؟**

ـ إن أسباب التخلف ليست طارئة على حياة العرب لأن الثقافة

العربية ثقافة منغلقة لا تقبل التساؤل ولا المراجعة وتستبعد الشك وترفض النقد الذي هو آلية التقدم في الفكر والفعل فمفتاح التقدم يكمن في قدرة الأمة بأن تنفتح على الآفاق وعلى الآخر وقدرتها على نقد ذاتها ومراجعة موروثها وتحليل ما هو مألوف وسائد لديها أما مقياس الرقي الحضاري فهو قيمة الإنسان وكرامته وحقوقه ومدى مشاركته في الشأن العام ليس قولاً وتنظيراً وإنما ممارسة وتطبيقا وهذا لم يسبق أن تحقق في التاريخ العربي باستثناء فترة الخلافة الراشدة أما بعد ذلك فإن النزاع على السلطة كان هو محور اهتمام السُراة أما بقية الناس فإن الأحداث تؤكد أنه ما اختلف اثنان إلا إنحازوا هم إلى أبعدهما عن الحق وأقربهما للبغي فقد كانوا مجرد أدوات للتغالب بين المتنازعين أما العلماء فكانوا متفرغين للعلم وكانوا منشغلين بما لا يفهمه عامة الناس فأنجزوا أعظم تراث فقهي عرفته الأرض لكن العلماء كانوا نسقاً منفصلاً عن الحياة العامة ورغم أنهم كانوا يقدِّمون العلم وينهضون بمهام القضاء والفتيا والمشورة والمناصحة في الحدود المتاحة فإن تأثيرهم كان أقل بكثير من تأثير أهل الرئاسة والقصاصين والوعاظ وثقافة المشافهة ومن هنا جاء الخلل. . .

أما مصدر قوة المسلمين في عصورهم الزاهرة فيعود إلى أنهم كانت تجمعهم في الغالب دولة واحدة كما أنه لم يكن في الدنيا آنذاك أية قوة أخرى قد تجاوزت خطوط الدوران التاريخي فالمعروف أن الخلافة تعاقبت عليها دول كثيرة ابتداء من الدولة الأموية وانتهاء بالدولة العثمانية وخضعت كلها لخطوط الدوران التاريخي فكل تقدم يعقبه تراجع فالصراع كان سجالاً بين البداوة والحضارة فعند ضعف الدولة القائمة في أية فترة تاريخية تثب إلى السلطة قوة جديدة تكون في الغالب موجة من

موجات البداوة ثم تمر بنفس مراحل التأسيس والإستقرار والانحطاط ثم الإنهيار وكانت هذه الإنقطاعات المتكررة تعيد المجتمعات في كل مرة إلى نقطة البداية مما جعل البشرية تستمر في الدوران في ذات المراحل. . .

لكن بظهور الحضارة الغربية الحديثة تجاوزت مسارات الدوران التاريخي وقفزت إلى مستوى جديد لم تعرفه الحضارات من قبل فانتقلت بالحضارة من الدوران في المكان نفسه إلى الصعود المستمر والفتوحات المتجدِّدة وبذلك نرى الغرب منذ خمسمائة سنة وهو مطرد النمو لأنه استطاع الإفلات من المسارات الرتيبة للحضارات وابتكر من الأفكار والآليات ما ضمن له التجدد المستمر والإرتقاء الدائم وهكذا فإنه لأسباب كثيرة وثب الغرب وثبة هائلة أخرجته من خطوط الدوران التاريخي بينما بقي العرب كما هم في تنازعهم على السلطة وحرمانهم من آلية تصحيح الأفكار والأوضاع وقمعهم للنزعة الفردية في الإنسان وعدم اهتمامهم بالعلم والعمل وضعف الإهتمام بالمصلحة العامة وانعدام الشفافية والتعالي على المراجعة إلى غير ذلك من موانع النهوض. . .

لذلك أعتقد أن العرب لن يتجاوزوا واقعهم المأساوي حتى يأخذوا بشروط الإفلات من قبضة الدوران التاريخي وفي مقدمتها الأخذ بآلية النقد والمراجعة وتغيير منظومة القيم لتكون الجدارة معيار التفاضل وليشيع بين الناس تبادل الإحترام والإنصاف ولتقوم الحياة على الوضوح والصدق في التعامل والتطابق بين الأقوال والأفعال ورفع قيمة المعرفة وقيمة العمل واحترام الوقت تنظيما واستثمارا وتغيير الموقف من الحقيقة

وإحلال قيمة السلطة في مكانها الصحيح من غير إفراط ولا تفريط والإعتراف بفردية الإنسان والإلتزام له بما يترتَّب على هذا الإعتراف ولا بد أن يتجاوزوا مرحلة النحيب على الماضي ويأخذوا بالأسباب التي تمنحهم القدرة على بناء مجد جديد بدلا من مواصلة النحيب على المجد الزائل. . .

■ **المعروف أن التاريخ العربي زاخر بالأمجاد فلماذا تتجاهل ذلك؟**

- المجد للإسلام أما الإدعاء العربي للأمجاد فهو لا يختلف عن دعاوى كل الشعوب المتخلفة وإدعاءات الأمجاد هي أبرز خصائص الطفولة الحضارية فما من أمة في هذا العصر قد إزدهرت إلا وكان سبيلها إلى الإزدهار مراجعة تاريخها والإعتراف بما فيه من نقائص وأخطاء والعمل على بناء الحاضر بجهد الأحياء وليس الإكتفاء بما بناه الأموات أما التاريخ العربي فما زال يقدَّم للأجيال وكأنه خال من النقائص مع أنه مشحونٌ بأحداث كبرى مروعة ولكن كل جيل عربي يقدمه لأبنائه وكأنه تاريخٌ ملائكي ناصع البياض فهو كلُّه يقدَّم وكأنه الاجتهاد الصادق والصلاح الناصع والطهارة الكاملة والإخلاص التام والتجرد من الهوى والرغبة القصوى في الحق وهذا الأسلوب التبريري لكل الأخطاء بما في ذلك الأخطاء الكبرى المروعة التي ارتكبها السفاحون من أمثال الحجاج قد ربَّى الأجيال العربية على انفصال الأقوال عن الأفعال فإذا طاب القول فلتأت الأفعال كيفما شاء الفاعلون ومتى شاع مثل هذا المنهج التبريري فقُلْ على الحق السلام. . .

والباحث المهتم بالحقيقة لابد أن يرى التنافر الواضح والتناقض الشديد بين عظمة مبادىء الإسلام وسماحة تعاليمه وبين الأوضاع المتخلفة التي عاشها ويعيشها المسلمون في كل مكان. . .

إن الذي يتدبَّر القرآن الكريم يهتز كيانه بعظمة تعاليمه ولكن من يقرأ التاريخ الإسلامي أو يتأمل في واقع المسلمين اليوم يصاب بالألم والرعب والإحباط بسبب الطمس المتلاحق لبهاء هذه العظمة. . .

■ أين مكمن الخلل الرئيسي في الثقافة العربية؟

ـ إن اختلاف أوضاع الأمم ناتجٌ عن الاختلاف في منظومات القيم وأعني القيم المعاشة في واقع الحياة وليس المثاليات التي لا تُمارس واقعاً فحين ندرس التاريخ العربي نجد أن السلطة المعتمدة على القوة والوجاهة والنفوذ هي القيمة المركزية التي توجه حركة المجتمع العربي في كل المجالات وتتحكم في سلوك الناس فكل شيء يؤدي إلى السلطة أو يوفر النفوذ أو يضمن الوجاهة أو يحقق المال هو في نظر الإنسان العربي شيء يستحق أن يُضَحَّى من أجله بأي شيء وكل شيء يعوق هذه القيمة المحورية هو شيء يجب سحقه حتى ولو كان قتل أعظم الرجال وحرمان الأمة من أنضج وأصلح القدرات أو هدم الكعبة أو استباحة المدينة المنورة أو إبادة آل الرسول صلاة الله وسلامه عليه. . .

■ وهل يمكن أن تذكر لنا شواهد تدل على هذا التمحور حول السلطة؟

ـ معظم تقلبات التاريخ العربي شواهد على ذلك وعلى سبيل المثال فإن العرب تمنَّعوا عن قبول الإسلام تمنُّعا شديدا وبطيئا ولم يستجب له معظمهم حتى أصبح انتصاره حقيقة واقعة وبات وأده مستحيلا وهذا له دلالة كبيرة في نظرة العرب إلى الدين فأغلب الزعامات العشائرية رأوا في الإسلام تهديداً لزعاماتهم فلم يسلموا حتى رأوا أن المقاومة غير مجدية لذلك رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يتألفهم بالعطايا السخية

ليستميلهم إلى الحق وبذلك كسب الإسلام كل العشائر فالعرب يحبون المال حُباً جماً كما وصفهم الله سبحانه ومن هنا سهُل على قريش أن تصدَّ الناس عن الإسلام كما فعلت مع الشاعر الأعشى الذي أجّل إعلان إسلامه مقابل مال معلوم فآثر الدنيا الفانية على الآخرة الباقية فمات على الكفر . . .

ومما له دلالة كبيرة في هذا الصدد أنه ما كاد ينتشر خبر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ارتد معظم العرب فكما أسلمتْ القبائل جماعيا مع زعمائها فقد ارتدت أيضا بصورة جماعية مع أولئك الزعماء ومما يؤكد الشطط في التنازع على الدنيا أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة قُتلوا غدراً بالمؤامرات وعمر بن عبد العزيز مات مسموما وقبل أن يجف قبره عليه السلام قامت دولة الإسلام نفسه بغزو مدينته الطاهرة وإذلال أحفاد أنصاره كما قامت بهدم الكعبة وإعمال القتل بأهلها واغتيل الحسن بن علي بالسم الممزوج بالعسل وصُلب عبدالله بن الزبير وكأنه من قُطّاع الطرق وبعد سنوات قليلة من موت الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه قومه في أهله شرَّ خلفة فبعد أن فرغوا من صلاتهم التي فُرض عليهم فيها الصلاة على محمد وعلى آل محمد ولكنهم بعد صلاتهم المليئة بالتمجيد اللفظي لآل محمد قاموا بقتلهم جميعا سوى طفل واحد أنجاه الله من القتل فحفظ النسل النبوي لقد كانت مذبحة فظيعة لم يشهد التاريخ لها مثيلا من قبل ولا من بعد في أية أمة تحترم نفسها إن كل هذه التناقضات الشنيعة تحصل دون أن يحس بها الإنسان العربي لأن الأحداث المروعة تُقَدَّم له بصورة عابرة ومبَّررة وهذا يؤكد أن قيمة السلطة في الحس العربي تعلو على أية قيمة وكأن لسان الحال يقول ما دام أن الفعل الشنيع حصل من أجل السلطة

فإن هذه القيمة العليا في العرف العربي تُبَرِّر كل فعل مهما بلغت شناعته. . .

إن التاريخ العربي يمر بهذه الأحداث الشنيعة كأحداث عادية عابرة دون أن يرفقها بالوصم الشديد الذي تستحقه مما أوهم الأجيال بمشروعيتها وأفسد تقييمهم للأمور كما يمر هذا التاريخ بحدث مذبحة آل الرسول المروِّع كحدث عابر مُبَرَّر رغم أن القتلة لم يكتفوا بالذبح المهين وإنما داسوا الجثث الطاهرة بالخيل إمعانا في الإذلال والتنكيل والانتقام ونخزوا الجثث الكريمة بالخناجر والسيوف تعبيرا عن الكره والحقد وقطعوا رأس الحسين وطافوا به في الأمصار كما يطاف بأعتى المجرمين ولم يفعلوا ذلك جهلا بهويتهم وإنما يعرفون أنهم يفعلون كل هذه الشناعات بآل الرسول الذين كلفهم الله بأن يصلوا عليهم في كل صلاة فسنان بن أنس حين قطع رأس الحسين كما تُقطع رؤوس الخراف ووقف على فسطاط عمر بن سعد ومعه الرأس الكريم وأخذ يصيح:

إملأ ركابي فضة وذهبا ... أنا قتلت السيد المحجَّبا

قتلت خير الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

هكذا قبَّحه الله يعلن بكل دناءة ووقاحة بأنه من أجل المال قَتَلَ خير الناس أُمًّا وأبا فهو لا يجهل من هو القتيل ولا لمن هذا الرأس الجليل!! فلا يخفي عظمة المقتول ولا يتجاهل رفيع مكانته وإنما يجعل ذلك وسيلة لطلب أوفر العطايا فلا حُرمة لابن الرسول أمام شهوة المال فالمهم أن تُملأ ركابه فضة وذهبا. . . : : : :

إنها سلسلة لا تتوقف من المخالفات الكبرى حوَّلَتْ مسار التاريخ الإسلامي وأعطبتْ العقل العربي وأفسدت أخلاقه وحجبت عن أهله

وعن الإنسانية الكثير من بهاء الإسلام وعظمة تعاليمه إنها أحداثٌ مرعبة تزلزل الوجدان وتكشف بأن الشخصية العربية وقيمها الهزيلة تنطوي على خلل جذري جعل حب السلطة وحب المال وحب الجاه والنفوذ يهيمن على القيم الرفيعة أو يمسخ محتواها ويسوّغ الفصل التام بين القول والفعل لذلك خاطب الله تعالى العرب وهو العليم بما يفعلون بقوله «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» لذلك ينبغي أن نعيد قراءة تاريخنا قراءة فاحصة تعيد للإسلام بهاءه وتوضح الإساءات الكبرى التي نالت منه على أيدي المتنازعين على السلطة والملتفين حولهم من طالبي الجاه والمال والنفوذ. . .

■ **ولكنك هنا تنظر بعين واحدة فقط ألم تسمع عما حدث في الحضارات الأخرى؟**

- نحن نفطن للفظائع التي تحصل من الآخرين لكننا نتجاهل ما يحصل منا سواء في الماضي أو في الحاضر فجرائم صدام حسين التي ملأت البر والبحر وأورثت المنطقة كلها ركاماً هائلاً من المعضلات التي لا نهاية لها نحاول الآن أن نتجاهلها في خضم سخطنا على أمريكا إن رد الفعل ضد أمريكا لا يسوّغ التغاضي عن جرائم صدام حسين: ولكننا واقعون في أسر التفكير الثنائي الذي يؤدي إلى الخلط المهلك فأصبحنا نرى أن كرهنا لأمريكا يقتضي الكف عن فضح جرائم صدام حسين بل بدأنا نسمع من يترحَّم عليه وهذا خلل فظيع فالشر اللاحق لا يبرر الشر السابق وقد كان أسلافنا أكثر منا حكمة حيث يرون أن ظلم القريب أشنع من ظلم البعيد:

وظُلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنَّد

فالمظالم التي ارتكبها صدام حسين بحق شعبه وبحق الأمة كلها هي مظالم فظيعة ولكننا نتجاهلها فندافع عن ظلمه وفظائعه لأنه منّا وليس من خارجنا وهي نظرة بدائية مهلكة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا نستفظع الجرائم التي نقرأ عنها في تواريخ الأمم الأخرى لكننا نمر على الأحداث المروعة في التاريخ العربي فلا نشمئز منها لأننا اعتدنا على تمجيد الماضي كله بخيره وشره كما اعتدنا تسويغ المذابح التي تحصل في النزاعات على السلطة إن العباسيين حين استولوا على السلطة أبادوا بني أمية وبَسَطوا الفُرش فوق الجثث وجلسوا يأكلون والجثث تحتهم إمعاناً في الإذلال ويتكرر المشهد في التاريخ العربي طيلة العصور بما في ذلك بعض أحداث الانقلابات العسكرية في هذا العصر...

وإذا نحن وصلنا إلى ما يُعْتَبَر من أزهى عصور الإسلام من الناحية الحضارية نجد أن المأمون استخدم سلطته لمصادرة الفكر وقهر الرأي وإرغام العلماء على القول بخلق القرآن وهي حماقة شنيعة لا يحصل مثلها في أي مجتمع متحضر يحترم الإنسان...

وكان رد الفعل لهذه الحماقة سيئاً حيث أنه بسبب هذا التصرف الأحمق من المأمون انتشر التوجس من العقل حتى انطبع هذا التوجس في الثقافة العربية خلال القرون التالية مع أن العقل هو مناط التكليف وبه خاطب الله البشر وبدونه لا يستطيعون فهم وحيه ولا إقرار شريعته ولا إقامة عدله فبالعقل صار الإنسان أهلا للتكليف وصار أهلا للعلاقة المباشرة مع خالق الكون...

وآفة حب السلطة والاقتتال المرير من أجلها لازمت العرب أينما حلوا فقد حكموا الأندلس ثمانية قرون ولكن بسبب التنازع على السلطة

ضاعت منهم إلى الأبد مع أنهم لم يؤخذوا على غرة وإنما ظل الأسبان يطاردونهم أربعة قرون يزيحونهم من الشمال نحو الجنوب حتى لم يبق بأيديهم سوى غرناطة ورغم الهزائم المتلاحقة طيلة أربعة قرون فإن التنازع على السلطة سيطر على كل الأجيال مما أدى إلى محقهم جميعا واقتلاع الإسلام من قارة أوروبا. . .

وطيلة التاريخ العربي كانت التغيرات السياسية تأتي نزاعا على السلطة فالتاريخ العربي لا يعرف الثورات الاجتماعية وإنما كانت تحصل التقلبات من أجل إزاحة زعيم وإحلال زعيم آخر أو محق أسرة حاكمة وإحلال أسرة أخرى في الحكم فكأنه لا قيمة لكل الناس وإنما المهم من يحكم الناس لذلك لم يشهد التاريخ العربي أي تغيير يستهدف مصلحة المجتمع. . .

■ **تقول بأن اختلال منظومة القيم في الثقافة العربية هو مصدر البلاء فماذا تعني بذلك؟**

- الإزدهار يتطلب منظومة من القيم البانية مثل الإخلاص للحق وحب المعرفة والتسابق على المهارات وتأكيد النزعة الفردية وخلق روح المبادرة والتعامل مع الخطأ بواقعية إلى غير ذلك من القيم الحضارية أما في الثقافة العربية فلا مكان لقيم العلم والعمل ولا للفردية ولا للمبادرات وإنما يتركز الإهتمام حول الوجاهة والنفوذ ففي الأمم المزدهرة السلطة وسيلة وليست غاية فهي قيمة تابعة وليست مقصودة لذاتها أما في الثقافة العربية فإن السلطة هي القيمة المحورية وتتفرع منها بقية القيم ومع ذلك فإن مؤهلات الوصول إليها في العرف العربي ليست بالكفاءة والقدرة والإخلاص والصلاح وإنما بلوغ هذه السيادة لا يتطلب

سوى إشباع البطون أو قطع الرؤوس فأسباب السيادة عند العرب تنحصر فيما حدَّده شاعرهم:

لولا المشقه ساد الناس كلُّهموا الجود يُفقر والإقدام قَتَّال

هكذا بكل بساطة ليس بين الإنسان وبين السيادة سوى أن يُشبع البطون أو يقطع الرؤوس إنها قيم صحراء الجوع والنهب والمساغب وهي قيمٌ هزيلة لا تنشىء حضارة ولا تصنع إنسانا سويا عادلا حرا...

وفي القرن العشرين ما كادت الدول الاستعمارية تُطيح بدولة الخلافة حتى صار العرب أشد المجتمعات تشتتا وبات لهم اثنتان وعشرون دولة وكان عدد السكان ضئيلاً في بعض هذه الدويلات وقت استقلالها لدرجة أنهم لا يكادون يُغَطُّون حاجة سفاراتها من الموظفين لو وُزِّعوا عليها...

لذلك تخيَّل لو أن العرب هم الذين هاجروا إلى أمريكا وهم بهذه الروح الإنتهازية التنافرية وبهذا التهالك والتنازع على السلطة كيف سيكون حال تلك القارة المحظوظة وقارن هذه الصورة المتخيله بصورتها الحالية الباذخة فلو أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا وسكنوها لصارت مائة دولة بدلاً من كونها الآن دولة واحدة تهيمن على العالم كله...

إن قابلية التشرذم هي امتيازٌ عربي وذلك بسبب التنازع على السلطة والتزاحم على الوجاهة والتدافع على النفوذ فالصين تمثل أكثر من خُمس سكان العالم وهي متحدة من آلاف السنين مع أنها تضم مئات المذاهب والأديان والأعراق واللغات لقد استمرت متماسكة كل هذه القرون فتخيَّل كيف سيكون وضعها لو انتقل إليها وباء التشرذم العربي ماذا

ستكون حالها إن حالة العرب هي حالة إستثنائية في قابلية التقزم وفي حدة التناقض بين الأقوال والأفعال وبين المبدأ والواقع فالأمة التي أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس هي اليوم تقدم عن الإسلام وعن نفسها أسوأ صورة يمكن تخيلها. . .

■ ما هو الخلل الأكبر الذي تعاني منه المجتمعات العربية؟

ـ الخلل الأكبر في حياة وتاريخ العرب هو التمحور حول السلطة والتزاحم الشديد على الوجاهة والتدافع على النفوذ وكذلك حب المال حُباً جماً والأنانية المفرطة وقبول السلوك الانتهازي حيث كان من نتائجه تكالب الأهواء والأَثَرَة وغياب آلية تصحيح الأفكار والأوضاع وكذلك ضعف النزعة الفردية لأن هذا الغياب وهذا الضعف قد جعلا مصائر الناس واتجاهاتهم مرتهنة بولاءات ونزوات المتنفذين من زعماء القبائل أو غيرهم من أهل النفوذ والوجاهة والتأثير. . .

فحين نعود إلى بداية التاريخ الإسلامي نجد أن ارتباط العرب بزعاماتهم العشائرية قد أخّر قبول العرب للإسلام فقد ظلت القبائل العربية تحارب الإسلام وتصد الناس عنه حتى صار إنتصاره حتمياً فبادر زعماء القبائل بالإنضمام إليه ومعهم جميع قبائلهم وكان هذا العام يسمى عام الوفود. . .

إن وقائع عام الوفود تؤكد أن محاربة الإسلام حينما كان ناشئا ثم الإنضمام إليه حينما أصبح قويا كان قراراً فرديا من زعماء القبائل أما جموع الناس فكانوا يسيرون خلف هؤلاء الزعماء نحو الخير أو الشر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية ارشد

وهذه الحقيقة التاريخية تؤكد أن الإنسان العربي لا فردية له وإنما

هو جزء من القطيع العشائري كما أن هذه الحقيقة تؤكد أيضا أن قرارات الزعيم القبلي مرهونة بمصالحه فهو في الغالب لا يستجيب للحق أو يرفضه اقتناعا بعد التقصي عن الحقيقة وإنما يحارب أو يسالم رغبة أو رهبه...

يؤكد ذلك انه ما كاد ينتشر نبأ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ارتد أكثر هؤلاء الزعماء وارتدت معهم قبائلهم وكان شعارها: كذاب اليمامة خيرٌ من صادق مضر...

لذلك فإنه طيلة التاريخ العربي كان الأقدر على شراء هؤلاء الزعماء يستطيع أن يضم إلى صفه قبائل بأكملها حتى قيل عن الزعيم القبلي: انه الرجل الذي إذا غضب غضب له مائةُ ألف فارس لا يسألونه لماذا غضب وإنما يندفعون إلى الموت من أجل محاربة الذي أغضبه...

ومع أن الظاهرة العشائرية قد تلاشت نسبياً في الكثير من الأقطار العربية في هذا العصر فإن ولاءات التحزب أو التمذهب لا تختلف كثيراً عن الولاءات القبليه التي تلغي الأفراد وتجعل الأوضاع والمصائر مرتهنة باتجاهات أفراد معدودين يدفعون أمواج القطيع الأحمق إلى الهاوية...

■ وكيف يكون خلاص العرب مما هم فيه؟

- إن الإفلات من قبضة التخلف لا يتحقق بتعميم التعليم فقط ولا الإكثار من الجامعات فحسب وإنما الشرط الأول لهذا التحقق هو بزوغ نهضة فكرية وأخلاقية تملأ أذهان الناس بالوعي والإحساس بالمسؤولية وتعوِّدهم على الفحص والمراجعة والتحليل وتربطهم بالحق وتربيهم على الإيثار والإخلاص والصدق والوضوح والشفافية وتجعلهم يتبادلون الإحترام فيما بينهم كما تربيهم على حب العلم والعمل وتبرز لهم موانع

النهوض وتحلل بنية التخلف وتؤسس لنهضة العلم وتهيئ المجتمع لنهضة حضارية شاملة وتقييم منظومة القيم على أساس من إحترام الإنسان والاعتراف بحقه في التفكير الحر والتعبير الأمين والمشاركة الصريحة. . .

حوار منشور بجريدة الحياة

اجرى الحوار الأستاذ يحي سبعي

ونُشر الحوار يوم الجمعة

١٨ / نوفمبر / ٢٠٠٥ م الموافق ١٦/ ١٠ / ١٤٢٦هـ

عُرف المفكر إبراهيم البليهي باطروحاته الجادة والمغايرة وهو مهمومٌ بقضايا التخلف يشخِّص الأسباب ويعرِّف بمفاتيح الخروج من هذا المأزق الحضاري وهو يرى أن المجتمعات العربية لم تصل بعد إلى المرحلة التي تستحق أن توصف بأنها مجتمعات متخلفة أي أنها تعيش مرحلة ما قبل التخلف أي قبل نقطة البداية وقد اهتمَّ بهذا الحقل ووسع فيه كتابات ومنافحاته وهو يرى بأن الحضارة الإسلامية انقطعت للإنتاج في المجالات الدينية فقط وقد أثمر هذا الانقطاع تراثا صخماً لا نظير له. في مجاله فلم يكن من اهتماماتها الاشتغال على التنمية والتطوير والتقدم في المجالات الدنيوية وحيث أثار هذا الطرح حفيظة بعض المتابعين والمعنيين الذين رأوا فيه انبهارا بحضارة الآخر فقد كان للحياة هذا الحوار معه.

■ **قلتم في محاضرة لكم بأن الحضارة الإسلامية أنجزت أعمالاً عظيمة لا مثيل لها في المجالات الدينية لكنها لم تكن مهتمة بالإبداع الدنيوي وهذا القول أثار اعتراض بعض الذين كانوا حاضرين كما أثار ردود فعل بعد أن نُشر في بعض الصحف فهل توضح لنا وجهة نظرك بشكل أوسع؟**

ـ الدين هو أعظم وأهم شيء في حياة الإنسان ويؤكد القران الكريم أن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وإخلاص التوجُّه إليه إن الدين في نظر الإسلام هو محور الحياة الإنسانية وهو أهم قضية في حياة الفرد والمجتمع فالله سبحانه يقول: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» وقد التزمتْ دول الإسلام المتعاقبة خلال التاريخ بالتأكيد على هذه المهمة المحورية للإسلام ومن المعلوم أنه حين هبَّ المسلمون إلى خارج ديارهم يجاهدون ويفتحون البلدان كانوا يعملون على نشر الدين وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ولم تكن عملية التمدين همًّا من همومهم ولا كانت هدفاً من أهدافهم وحتى بعد أن صارت دولة المسلمين ذات امتداد عظيم بقيت ملتزمة بهذه المهمة الرئيسية فتركيز الحضارة الإسلامية على الإبداع في المجالات الدينية هو تركيزٌ سائغ ومفهوم ومنطقي ويأتي منسجماً مع الهدف الذي جاءت الرسالة من أجله كما يتفق مع الأهمية المركزية للدين في حياة الإنسان فليس غريبا أن نؤكد هذه الحقيقة وإنما الغريب أن يستنكر البعض التذكير بها ولكننا اعتدنا أن لا نرضى إلا بأن نقول عن أنفسنا بأننا فوق الجميع في قضايا الدين والدنيا حتى لو كنا واقعيا وعمليا متخلفين تخلُّفا شائنا في أمور الدنيا بل ومتخلفين أكثر في فهمنا للدين لأننا بقصور فهمنا له شوّهناه وأسأنا إليه إساءات شنيعة ليس هذا فقط وإنما نحن عالة على الأمم المنتجة في كل شيء: في الغذاء والكساء والدواء وفي العلم وفي التقنيات والمهارات وفي كل ما تعج به حياتنا من الوسائل والأدوات ومع ذلك نكابر وندعي الاكتفاء...

إن الذي قلته ليس استنتاجاً وإنما هي حقيقة يؤكدها التاريخ والتراث والواقع فكيف نستنكر شيئاً نحن مغمورون به ونردّده أقوالاً ونعيشه واقعاً؟!!...

إنه لشيء عظيم أن يبدع المسلمون وأن يُنجزوا في المجالات الدينية في عصور ازدهارهم إنجازات عظيمة لأن الدين قضية محورية في حياة الإنسان لكن التفاخر الذي لا يمكن قبوله هو الإدعاء بأن الحضارة الإسلامية قد أبدعت بنفس المستوى في مجالات الدنيا أو الإدعاء بأنها هي التي نفخت روح التقدم والنهوض في أوربا لأن التاريخ والتراث والواقع كلها تؤكد عكس ذلك ومن ناحية أخرى فإن الأفراد العرب الذين أبدعوا وأسهموا في إيقاظ أوربا من سباتها كانوا منبوذين عندنا فكيف نفخر بهم؟!!ولماذا لم يؤثّروا فينا فننهض كما نهض الأوربيون رغم أننا الأقرب إليهم؟! ومن ناحية ثالثة فإنه لا يمكن تعليل نهوض أوربا بهذا الاقتباس من أفراد أهملتهم أُمّتهم فلولا وجود قابلية النهوض في أوربا لما استفادت من المفكرين سواء كانوا من داخلها أم من خارجها ولكنها قابلية التغيُّر الجاهزة للبزوغ أما تعليل نهوضهم بما وصل إليهم من مبدعينا الذين أذقناهم المرارات فهذا قولٌ في منتهى السُّخف إنها لسذاجة مضحكة أن ندعي مثل هذا الإدعاء الأخرق لأنه لو كان تحقيق النهوض وبلوغ الإزدهار الحضاري يتم بمثل هذه السهولة ويحصل باستعارة بعض الأفكار من الأمم الأخرى لكان المسلمون الآن في الذروة فقد مضى أكثر من قرنين منذ التقائنا بمنجزات الغرب الفكرية والعلمية والتقنية والتنظيمية والسياسية والإجتماعية لقد جَلَبْنا منه العلوم والتقنيات ونقلنا نقلاً حَرْفيًا نُظُم التعليم والإدارة وأصبحت كل منجزاته أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا وعن يميننا وعن شمالنا فنحن مغمورون بمنجزاته في بيوتنا ومكاتبنا ومساجدنا وشوارعنا وأسواقنا ولكن الإطلاع على كل هذا الطوفان من المنجزات والانغماس في استخدامها لم يستطع أن يغيِّر طريقة تفكيرنا ولم يكشف لنا قصورنا ولم يحرك فاعليتنا

لتشييد الإزدهار فبقينا عاجزين حتى عن التفاهم فيما بيننا فنقتتل عند أي خلاف وليس ما جرى ويجري من اقتتال فظيع بين الاتجاهات الوطنية المختلفة في فلسطين والجزائر والصومال وأفغانستان والعراق والسودان ولبنان سوى بعض الشواهد الحية على العجز المخزي ليس فقط عن الإنجاز الحضاري وإنما العجز عن التوقف عن الاقتتال وسفك الدماء مما جعل القتل يستمر بهذا الشكل الجماعي الأهوج ففي الوقت الذي استطاعت أوربا أن تتجاوز ثارات التاريخ واختلاف اللغات والاختلافات الدينية والمذهبية وأن تنجز وحدتها المذهلة لم يستطع الفلسطينيون أو الأفغان أو الصوماليون أو العراقيون أو السوادنيون أو الجزائريون أن يوقفوا طوفان المذابح الجماعية فيما بينهم وقطْع الرؤوس والتمثيل بالجثث ومع ذلك ندعي أننا صنعنا حضارة العصر وأنه لولا العرب لما قامت حضارة الغرب إنها لأكبر خرافة عرفَتْها البشرية...!!!

ومن المضحكات المبكيات ما يتكرر قوله من أنه لولا (الصِّفْر) الذي ابتكره العرب لما قامت حضارة الغرب!! إن الذين يرددون مثل هذه الأقوال الساذجة لم يقرأوا التاريخ ولم يطلعوا على المعجزة اليونانية التي ازدهرتْ في القرن الخامس قبل الميلاد فأنجزت المدهشات في الفكر والعلم والرياضيات والسياسة والإجتماع ومن ناحية أخرى فإن (الصِّفر).. إبداعٌ فردي ومثل هذه الإبداعات الفردية تظهر في كل المجتمعات فالمعيار ليس بظهور الإبداع ولا بوجود مبدعين وإنما المعيار الحقيقي هو: في الاستجابة للإبداع وتكريم المبدعين والاستفادة منهم وتحويل افكارهم وابداعاتهم إلى برامج عمل تتحسَّن بها الأوضاع وتتطور بها الحياة فلماذا لم تزدهر حياة المسلمين حين ابتكر أحدهم الصِّفر مادام أن هذا الصِّفر حسب الزعم هو أحد أسباب تطور

أوربا؟؟!! ولماذا ما زال العرب عاجزين عن تحقيق الإزدهار رغم كل ما جلبوه من المزدهرين من علوم وتقنيات؟؟؟!!! فالإزدهار لا يقوم على الإبداع الفردي وحده وإنما ينهض على ركنين أساسيين هما: الإبداع والاستجابة له بل إن استجابة المجتمع للمبدعين أهم من الإبداع ذاته وحالة العرب في السابق واللاحق تؤكد ذلك فالمبدعون ظهروا في كل العصور العربية ولكن العرب لم يستفيدوا من مبدعيهم بل خنقوا إبداعاتهم وحاربوا أفكارهم وشوَّهوا إنجازاتهم فظهور المبدعين دون أن يستجاب لهم هو فضيحة حضارية ومدعاة للقدح وليس للمدح وفي العصر الحديث يوجد من الشواهد ما هو فوق الكفاية على أن المجتمع العربي لا يستفيد من مبدعيه ولا من مفكريه فيه فالإجداب في كافة المجالات ما زال شديد الوضوح رغم تكرار ظهور المبدعين فالمبدعون في العالم العربي يموتون كمداً ويتعرَّضون للإهمال أو القهر أو الإقصاء أو الإدانة أو التشنيع...

إنها لسذاجة مضحكة أن ننظر إلى أسباب النهضة بهذا المنظار الكليل فلو كان التقدم يتحقق لمجرد الإطلاع على المعلومات والتقنيات التي عند الآخرين لكانت كل مجتمعات العالم الثالث الآن مزدهرة ولتحقّق التماثل بين كل الأمم ولكن الواقع يؤكد عكس ذلك فقد مضى على اطلاع العرب على منجزات الغرب من العلوم والأفكار والتنظيمات والفنون والتقنيات أكثر من قرنين لقد إطَّلعنا على كل ما أنجزوه ولكن هذا الاطلاع لم يُغَيِّر شيئاً من واقعنا بل رغم أننا قلَّدناه في شكليات التعليم ومراكز البحث واستخدمنا كل منجزاته إلا أننا لم نزدد إلا تخلُّفا ولو كانت معضلة التخلف يمكن تجاوزها بتلك الفجاجة التي يتحدث بها هؤلاء المضلِّلون والمغفَّلون لكان الإزدهار متحققا لجميع الشعوب

فليس في العلم أسرارٌ محجوبة عن أحد ولكن الفاعلية الإنسانية مرتبطة بالحرية الفكرية وبطريقة التفكير وبمنظومة القيم وبالإهتمامات التي تشغل الناس وتوجههم في اتجاه الإنفتاح والتقدم والإزدهار أو في اتجاه الإنغلاق والتقهقر والإنحدار . . .

إننا ونحن نردِّد هذه الأقوال الساذجة التي تُسهم في امتداد التخلف ورسوخه يجب أن نتذكر أننا لم نستطع حتى أن نقلد الأمم المبدعة في انجازاتها التي نتداولها بشراهة منذ أكثر من قرنين فرغم انغماسنا فيها استخداماً واستهلاكا فإننا خلال أكثر من قرنين لم نتجاوز مرحلة الاستهلاك فنحن عالة في الدواء والغذاء والكساء وفي الوسائل والأدوات والأجهزة على ما ينجزه الشرق والغرب وليس تخلف المجتمعات الإسلامية بدولها التي قاربت الستين في هذا العصر سوى شاهد صارخ يؤكد هذه الحقيقة الصارخة وهذا لا يعني أننا زاهدون في الدنيا بل نحن كما قال ابن خلدون: «الناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها» فالقطيعة عندنا تحصل حتى بين الأشقاء بسبب خلافات دنيوية ولقد كان التاريخ ناطقا بما حَصَلَ من صراع على السلطة وعلى الجاه والنفوذ والمال فليس تخلُّفنا عن تطوير أمور الحياة ناشئاً عن زهد فيها وإنما هو المزاج الحضاري الذي لم يكن أبداً متطلعا إلى العلم بمعناه الحديث الذي يبحث عن الحقائق المجردة ويعمل على تسخير الأشياء بعد أن يفهم طبيعتها ويحلل عناصرها ويعرف مكوِّناتها فلم تكن ثقافتنا تحثُّ على الكشف والاختراع وابتكار الوسائل والمناهج والعلوم الدنيوية التي تنمي الحياة على هذه الأرض (الآن وهنا) فهذه الاهتمامات لم تكن تشغل علماءنا لا في الماضي ولا في الحاضر إلا الذين تتلمذوا في

الماضي على حضارة اليونان مثل ابن رشد وابن النفيس وابن الهيثم والرازي أو الذين تتلمذوا في الحاضر على حضارة الغرب مثل محمد أركون ومحمد عابد الجابري وعلي حرب ومطاع صفدي وحسن حنفي وأحمد زويل وبيتر مدوّر. . .

لقد تخصَّصَتْ حضارتنا في مجال هو أهم قضايا الوجود وهي قضية الدين فأنجزت الكثير فيما تخصّصت فيه ولا يضرها أن تبدع حضارات أخرى في المجالات التي تشغلها وتستحوذ على اهتمامها فيحصل التكامل بين الحضارات إنك كفرد حين تكون من علماء الدين لا يضرك أن لا تكون طبيبا أو مهندساً أو اقتصادياً أو غير ذلك مما هو من الاهتمامات الدنيوية فيكفيك أن تكون عالماً بأهم شأن من شؤون الحياة الإنسانية وهو الشأن الديني إنك بتخصُّصك في المسائل الدينية تحتفظ بمكانة عالية أما أن تدعي بأنك أيضا تجيد كل أمور الحياة الدنيوية التي لم تكن في بؤرة اهتمامك فهذا لا يمكن أن يقبله الآخرون منك ومثل ذلك يقال عن حضارة الإسلام التي هي في الأساس قامت لدعوة الناس إلى الإيمان بالله وحده وإخضاع الحياة لمقتضيات هذا الإيمان فاستغرق علماؤها في قضايا الإيمان والكفر وفي مسائل الحلال والحرام. . .

إن الحضارة الإسلامية حضارة دعوة دينية وقد تمركز اهتمامها العلمي حول هذا المحور فكل حضارة لها اهتمامٌ محوري وقد كانت المسائل الدينية هي الاهتمام المركزي الذي تمحورت حوله الحضارة الإسلامية فأنجزت فيه من الذخائر الدينية مالا مثيل له ومن الطبيعي أن يصرفها هذا التمحور عن الاهتمام بتنمية أمور الدنيا. . .

إن المجتمع الإسلامي خلال تاريخه الطويل يتكوّن من ثلاث

فئات: فئة أهل السلطة وهؤلاء كانوا مشغولين بالغزو وحفظ الأمن والدفاع عن سلطتهم وفئة العامة ومعهم القُصّاص والوعاظ وهؤلاء يميلون إلى الاندماج في الاتجاه الذي تروّج له السلطة أما فئة الفقهاء والعلماء وأئمة الدين فهم باستثناء الرسميين المنضوين في السلطة منقطعون للعلوم الدينية كعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلم أصول الدين وعلم الفقه وأصوله وغيرها من العلوم الإسلامية التي امتازت بها حضارتنا بل حتى الاشتغال بعلوم اللغة كان التأكيد يأتي دائماً بأن هذا الانشغال بها هو من أجل فهم الدين وخدمته وحتى الاهتمام بجمع الشعر وروايته وتدوينه كان يأتي مصحوباً بأنه من أجل خدمة القرآن وفهمه حتى الذين اشتغلوا بالفلسفة والعلوم العقلية كانوا في الغالب مدفوعين بخدمة الدين فإذا كان ابن رشد هو أشهرهم فإن كل كتبه باستثناء شرحه لأرسطو كانت تستهدف البرهنة على أن النقل لا يخالف العقل وأن تشريعات الدين عظيمة ليس فقط بمعيار النصوص وإنما أيضا بمعيار الفلسفة والعقل وفي العصر الحاضر ما زالت علوم العصر خارج بنيتنا الوجدانية فمزاجنا الحضاري مزاجٌ ديني لذلك قرأنا وسمعنا عن أسلمة العلوم كما نجد الكثير من الأطباء والمهندسين يتخلون عن مجالات تخصصاتهم ويتفرغون للدعوة وحين يؤلفون في الطب والهندسة يحاولون صبغ البحوث بصبغة دينية فالطابع الديني هو طابعٌ شديد الوضوح وهذا شيء عظيم إلا إذا أدى إلى إفقار المجالات الدنيوية فإنه يكون ضاراً لأنه لا عزة للإسلام إلا إذا ارتقت حياة المسلمين وتَعَزَّزَتْ دنياهم. . .

وما قلته ليس جديداً بل هو معروفٌ على مدى التاريخ فابن خلدون يجعل أحد فصول مقدمته الشهيرة هكذا: «الفصل السابع والعشرون في

أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية» بل أكثر من ذلك يعقد ابن خلدون فصلاً بعنوان: «الفصل السادس والعشرون في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» كما يؤكد بمنتهى الوضوح أن العرب غير مغامرين بل يبحثون عن السهل فيعقد فصلا بعنوان «الفصل الخامس والعشرون في أن العرب لا يتغلّبون إلا على البسائط» ويعقد فصلاً آخر عن أن العرب ليسوا أهل حضارة بعنوان «الفصل الثامن والعشرون في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك» أي أبعدهم عن الحضارة كما يعقد فصلا آخر بعنوان «الفصل الثامن في أن المباني والصنائع في الملة الإسلامية قليلة» وفصلاً آخر بعنوان «الفصل التاسع في أن المباني التي كانت تخططها العرب يُسرع إليها الخراب» وفصلاً آخر بعنوان «الفصل الحادي والعشرون في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع» ويقول: «الحضارة هي سرُّ الله في حصول العلم والصنائع» أي أنهم بافتقارهم إلى الحس الحضاري فإنهم أبعد الناس عن الصنائع التي هي نتاج الحضارة. . .

إن عظمة الإسلام هي التي رفعت شأن العرب لكنهم بقيم الصحراء والبداوة والعصبية لم يستطيعوا الارتقاء إلى مستواه ولولاه لبقوا شعباً بدائياً فالشعوب الأخرى منذ آلاف السنين شيَّدت حضارات وأقامت دولاً أما العرب فقد بقوا عند مستوى القبيلة والعشيرة ولم يصلوا إلى مرحلة الدولة حتى جاء الإسلام ونَقَلَهم إلى مستوى الأمة والدولة وحين انطلقوا داعين إلى الله وجدوا حضارات قائمة وحكموها وأفرغوا اهتمام وطاقة العلماء الذي دخلوا في دينهم في مسائل الدين وبذلك صار تراثهم الديني زاخراً لكنهم لم يهتموا بتطوير الدنيا بل على المستوى العملي اهتموا بالفتح والجباية أما العلماء فكان همهم المحوري بأن

تسترشد الدنيا بالدين وتلتزم به وتُساس بأحكامه لذلك لا يفوت ابن خلدون أن يؤكد بأن صلاح الآخرة هو الغاية من الحضارة الإسلامية فيقول: «ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فَوَجَبَ بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم» ويقول: «والخلافة هي حَمْلُ الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذْ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به» فالغاية إذن هي إصلاح الآخرة أما إصلاح أمور الدنيا فهو مطلوبٌ بمقدار ما تتطلبه المصالح الأخروية فالحياة الدنيا جدُّ قصيرة أما الحياة الآخرة فهي أبدية ومن هنا يكون الاهتمام بالآخرة منطقيا وعقلانيا فلا يباع الجليل بالقليل ولا العظيم بالزهيد وليس هذا هو موضوع الجدال إنما ينبغي أن نعرف بأن حضارتنا ركّزت على هذا الجانب فلم يهتم علماؤنا وأئمتنا بتنمية الحياة الدنيوية وإنما اهتموا بإصلاح الحياة الدينية وبضبط الدنيا بالدين من أجل الحياة الأبقى ومن هنا جاء القول بأن حضارتنا هي حضارة دينية إلى درجة أن الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) كان يزدري الفقهاء لأن الفقه ليس انشغالاً خالصاً بمسائل الدين وإنما يخالطه انشغالٌ بمسائل الدنيا حتى وإن كان هذا الإنشغال من أجل ضبطها بأحكام الدين. . .

■ **هل أنت تنفي أن الإسلام دينٌ ودنيا أم ماذا؟**

- يجب أن نفرق بين الإسلام كتعاليم وقيم ومبادئ وتشريعات وبين واقع المسلمين في الماضي والحاضر فالإسلام كعبادات وشعائر بقي

يمارَس بعناية أما أمور الدنيا فلم يُتَحْ لتعاليم الإسلام بشأنها أن تخالط النفوس وأكبر دليل على ذلك أنه رغم أن السياسة أو السلطة السياسية من أكبر وأعظم وأخطر المسائل فإنها لم تنل اهتمام علمائنا فنحن بقينا بدون فكر سياسي بينما أن الحضارة الإغريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد أنجزت في مجال الفكر السياسي وربطه بالأخلاق وبأمور الدنيا مالا يزال يثير الإعجاب والدهشة وما دام أن علماءنا لم ينجزوا شيئاً في أهم قضية دنيوية فإنه لا يمكن القول بأنهم انجزوا أشياء مهمة في مجال تنمية الفكر الدنيوي وكيفية تنمية الثروة العامة والخاصة ولا كيف يمكن تسخير الأشياء وتفجير طاقاتها الكامنة. . .

■ **لكن الفقهاء تناولوا أمور الدنيا ونظّموها بمنتهى الشمول والاحاطة والدقة والتفصيل فماذا يعني هذا؟**

ـ فقهاء الإسلام اعتنوا بأحكام المعاملات وبكل ما يتعلق بالدنيا من أجل ضبطها بأحكام الشريعة نعم لقد كانوا يؤكدون أنه يجب أن تدار الأمور الدنيوية بأمانة وإنصاف وعدل ولكن هذا الاهتمام هو جزء من اهتمامهم بالدين وليس من أجل الدنيا ولا بد أنك تدرك الفرق النوعي بين الاهتمام بضبط الدنيا بالشرع وبين العمل على تنمية الدنيا وتقديم الأفكار من أجل تطوير وسائل الحياة وفتْح العقول على الامكانات الهائلة المخبوءة في الأشياء فالفقهاء اهتموا بضبط الواقع بتعاليم الإسلام لكنهم لم يهتموا بتنمية الواقع وتطويره والفرق هنا فرقٌ نوعي. . .

إن تراثنا مليئ بالتنفير من الانشغال بعلوم الدنيا أو الاهتمام بها وعلى سبيل المثال فإن الإمام ابن حزم في رسالته عن (مراتب العلوم) يرى أن الذي ينشغل بغير علم الشريعة هو إنسانٌ مغفَّل وسيء النظر

وظالمٌ لنفسه فيقول: «فأولى الأشيا به معرفة ماله خَرَجَ إلى هذا العالم وما إليه يرجع إذا خَرَجَ من هذا العالم فإن اشتغل مغفَّل عن علم الشريعة بعلم غيره فقد أساء النظر وظَلَم نفسه» ومثل هذا القول ليس استثناء أو نادراً بل إن كتب التراث تزخر بالأقوال المماثلة حتى ابن خلدون وهو صاحب عقل خارق سفَّه الذين يهتمون بالفلسفة وبالعلوم التجريبية مثل الكيمياء واعتبرها نوعاً من السِّحر. . . !!!

■ وماذا تقول عن علمائنا وفلاسفتنا من أمثال ابن الهيثم والخازن وجابر بن حيان وابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد وغيرهم؟

ـ هؤلاء أفرادٌ نابهون عاشوا في البيئة العربية لكنهم كانوا معرفيا خارج النسق الثقافي العربي السائد فلقد تتلمذ هؤلاء على الفكر اليوناني وكانوا يسمَّون (النوابت) تحقيراً لهم ونفيا لمجالات اهتمامهم أي أن الثقافة السائدة كانت تعتبرهم مثل الأعشاب الضارة التي تنبت وسط الزرع النافع ولقد قرأت عشرات الكتب عن هؤلاء فوجدتهم جميعا تتلمذوا على الفكر اليوناني وكانوا أفراداً متناثرين ولم يكونوا يشكِّلون تياراً في المجتمع فكل فرد هو نتاج ذاته وليس نتاج مدرسة ممتدة في السابق ولا مستمرة في اللاحق وإنما هم نشازٌ على الثقافة السائدة وهذه حقيقة شديدة الوضوح وحتى الذين أشادوا بفضل العرب على الغرب كانوا يؤكدون هذه الحقيقة لذلك فإن الحقيقة الموضوعية تقتضي أن نؤكد أن بعض المبدعين العرب كان لهم فضلٌ في الإسهام في إيقاظ العقل الأوربي عند نهاية العصور الوسطى ويأتي في مقدمة هؤلاء الأفذاذ المبدعين: ابن رشد والكندي والرازي وابن الهيثم وابن النفيس والفارابي وابن سينا وجابر بن حيان وأمثالهم من النوابغ الذين غمطتهم

البيئة العربية واحتفت بهم البيئة الأوربية فأوربا في عصور انحطاطها أدركت قيمة الأفكار الإبداعية لأولئك الأفذاذ أما نحن فحتى في عصور إزدهارنا ضقنا بتلك الأفكار ولم نسمح لها بالتداول بل خنقنا الإبداع ولاحقْنا المبدعين وأحرقنا كتبهم!!!...

إننا حين نفاخر بفضلنا على الحضارة الغربية نتجاهل أن هذا الفضل كان محصوراً باستفادة أوربا من الرجال الأفذاذ الذين تتلمذوا على الفكر الإغريقي وليسوا نتاج الثقافة العربية من أمثال ابن رشد وابن الهيثم والرازي وفي الوقت ذاته نتجاهل أن أولئك الأفذاذ كانوا وما زالوا منبوذين بيننا وتُدينهم ثقافتنا إدانات مستمرة مُنَفِّرة ليس في الماضي فقط بل حتى اليوم ما زلنا نواصل إدانتهم ونحذِّر من أفكارهم فلقد أحرقنا كتبهم وما زلنا ننهى عن قراءتها فكيف نفاخر بمن كانوا وما زالوا منبوذين بيننا؟!!!

محاولات التنوير أدت إلى حشد الأمة ضد العقل:

من المفارقات الفظيعة التي تستحق المراجعة الموضوعية والدراسة العميقة والتحليل الدقيق أن كل المحاولات في الماضي والحاضر التي استهدفت تعزيز دور العقل والعلم في حياتنا الثقافية والإجتماعية والسياسية قد أدت إلى نتائج عكسية فتضخمت كراهية العقل وأصبحت هذه الكراهية تتفاقم مع تتابع الأجيال لأن الاتجاهات العقلية لم تجد قبولاً فتوقف نشاطها واختفى أتباعها واندثرت آثارها ولم تَعُدْ الأجيال تعرف عنها شيئا إلا بواسطة خصومها والمشنِّعين عليها فرغم اختفاء الحركة العقلية فإن خصوم العقل استمروا في التحذير من العقل والتشنيع على ذوي الاتجاهات العقلانية وبسبب اضطهاد الفكر العقلاني فإن

مؤلفات العقلانيين قد اختنقت واختفت من التداول وكادت تختفي إلى الأبد بسبب الحرب الشعواء التي لاحقتْها خلال القرون وحين تم العثور على بعضها انحصر الإهتمام بها على أفراد معدودين من الأكاديميين والباحثين أما المؤلفات المهاجمة للعقلانية والمخاصمة للعقل فإنها ظلت واسعة الانتشار يتداولها الجميع بل أصبحت من أهم مكوّناتنا الثقافية والتعليمية حيث جرى ويجري تدريسها في كل مراحل التعليم حتى تبرمجت الأجيال بكراهية العقل والخوف من الأفكار العقلانية...

إنني لا أُزَكي الفكر العقلاني تزكية مطلقة وإنما هو جهدٌ بشري يعتريه الخطأ والنقص والتحيز وغير ذلك من الآفات الملازمة للجهود البشرية غير أن هذه الجهود قد هوجمت بشراسة حتى بدت للأجيال وكأنها شرٌ محض لقد جرى التركيز التام على الجوانب السلبية وأُغفلت الجوانب الإيجابية إغفالاً تامًا وبذلك تشرَّبت الأمة ضرورة الإنغلاق وتوهمت الكمال وكرّست الإكتفاء...

إن أكبر كارثة حلّت بالإسلام وبالمسلمين هي كارثة حشد الأمة ضد العقل منذ وقت مبكر من تاريخنا إن الرفض القاطع للعقلانية ومحاربة التنوير على امتداد التاريخ العربي كله في القديم والحديث قد أوصد كل الأبواب والمنافذ أمام محاولات الاستنارة فالمعضلة لا تقتصر على محاربة ابن رشد وإحراق كتبه ولا على إقصاء غيره من ذوي الاتجاه العقلاني وإنما تكوّن على امتداد التاريخ العربي والإسلامي تراثٌ ضخم يخاصم العقل ويهاجم العقلانية حتى اصطبغت ثقافتنا بهذا الاحتشاد ضد العقل ولم يتوقف هذا الاحتشاد على ذوي الاختصاص وإنما جرى تلقين كل الدارسين والناشئين كُرْه العقلانية والخوف من الفكر والإيهام

بأن ذلك يفرضه الدين ويوجبه الإسلام وبهذا حصل احتشادٌ عاطفي شمل كلَّ الأمة ضد العقل لقد تواصلت التعبئة العاطفية ليس ضد الاعتزال وغيره من الفرق والاتجاهات التي أكَّدَت دور العقل في صلاح الدين والدنيا وإنما تركُزت التعبئة ضد التوجُّه العقلاني بأجمعه وبكافة تفاصيله فنشأت الأجيال وهي تخشى العقل وتتوجَّس من الأفكار وتخاف العقلانية وتكره العقلانيين وتُحذِّر منهم...

إن التعبئة ضد العقل والعقلانية قد وأدت كلَّ المحاولات التي استهدفت إخراج الأمة من بؤسها لتكون بمستوى عظمة تعاليم دينها وسمو مبادئه إن الإسلام عظيمٌ بمبادئه شامل بتعاليمه وهو يجعل العقل مناط التكليف ولكن الأهواء وقصور الفهم وتكالب المعوِّقات قد كبَّلت عقل الأمة ووجهت اهتماماتها وجهات ضارة فتضخمت الثقافة الخصامية وساد التوجُّس من أي فكر مغاير للسائد مهما كانت درجة المغايرة...

لذلك ينبغي أن لا نكتفي بالقول بأن الثقافة العربية قد نابذت مفكريها ولم تستجب لهم وإنما يجب أن نتذكَّر دائماً أن المحاولات العقلانية قد أثمرت نتائج عكسية لما كانت تهدف إليه فبدلاً من استنفار طاقات العقل لخدمة الدين وتطوير الدنيا احتشد خصوم العقل وواصلوا هجاءه والكتابة ضده حتى امتلأت المكتبات بالمؤلفات المكرَّسة لهجائه وصارت هذه المؤلفات هي المراجع التي تستقي منها الأجيال معارفها وموجِّهات فكرها وبهذا انغمسنا بمعاداة العقل مما يستوجب إجراء دراسات موضوعية وعميقة وشاملة لتحديد الآثار العكسية التي نجمت عن الحركات العقلانية...

حوار منشور
في كتاب جماعي

أجرى الحوار الأستاذ وحيد تاجا

■ **كيف تنظرون إلى أوضاع العالم الإسلامي اليوم؟**

ـ العالم الإسلامي الآن هو في أسوأ أوضاعه فهو منقسمٌ على نفسه ومتحارب مع ذاته ومتخاصم رغماً عنه مع كل العالم فالفئات المتشدِّدة تتصرف باسم كل المسلمين وتعلن الحرب على كل الجبهات بما فيها الجبهات الإسلامية التي لا تتفق مع التشدُّد المعلَن وقد أصبح رأي العوام غير الراشد بل صوت الغوغاء هو الصوت المسموع وبات العقلاء يخشون هؤلاء العوام ويتحاشون الصدام معهم إلتماساً للسلامة وصوناً لسمعتهم من التشويه وأسهمت بعض القنوات الفضائية في تأجيج الوجدان العام فألهبت المشاعر بالكراهية للآخر وعبَّأت النفوس بالتنافر فغاب التعقل واهتاجت العواطف وهيمنت الأحكام الارتجالية الفجة وأُجبر المسلمون على الدخول في صراع غير متكافئ مع القوى العظمى بل مع كل العالم ولولا حاجة الكل للبترول لكنا في وضع أسوأ. . .

■ **ما هي بتقديرك الأسباب التي جعلت العالم الإسلامي يصل إلى هذا الوضع؟**

ـ إن أسباباً كثيرة تاريخية وآنية قد انحدرت بالعالم الإسلامي إلى هذا المأزق الرهيب ولكن يأتي في مقدمة هذه الأسباب: الاستبداد السياسي والانغلاق الثقافي وغياب العقل النقدي وهيمنة العواطف

وسلطة العوام والإفتقار إلى العقل العلمي وغياب آلية المراجعة وعدم إدراك التغيرات النوعية التي طرأت علىالحضارة الإنسانية والتنشئة على أوهام الكمال والتأكيد المستمر على الاكتفاء وإيصاد الأبواب عن أفكار العصر وتوهُم الخيرية المطلقة غير المشروطة وتزكية الذات وتجريم الآخرين حتى وإن كانوا منا عند أي خلاف واعتقاد كل فئة بأن لها حق الوصاية على الفئات الأخرى بل الوصاية على العالم لقد حُرمنا من واقعية التعامل الموضوعي مع الذات ومع العالم ومع الآخر كما حُرمنا من آلية النقد والمراجعة والتصحيح فتراكمت الأوهام والأخطاء وغابت الحقائق فاختلط الحق بالباطل ومن المعلوم أنه متى غابت الحقائق فإنه لا بد أن يغيب معها أنبل ما في الحياة الإنسانية من العلم والصدق والعدل والحق وأن يتوارى كل ما هو عظيم ونبيل لقد حُرمنا من التواضع وامتلأنا بالغرور واعتدنا على الانتفاش الفارغ كنوع من التعويض عن الهزائم المتلاحقة والهوان المقيم والتخلف الثقيل والعجز المزمن وعدم القدرة على أي إسهام في حضارة العصر...

إننا نحن العرب والمسلمين لم ندرك التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية مما جعلنا نتعامل معها برؤية مغايرة تماماً لمتطلبات التعايش والتقدم والإزدهار...

إن الحضارة الإنسانية المعاصرة قد غيَّرت الرؤى عن الكون والحياة والإنسان والمجتمع والسلطة والثقافة والمعرفة والعقل وتوصلت إلى حقائق مغايرة لما كان سائداً في الحضارات القديمة لكننا نحن العرب والمسلمين لم نعترف بهذه التغيرات النوعية العظيمة فأصبحنا خارج النشاط الحضاري العالمي وبقينا نتعامل مع أنفسنا ومع العالم بمنطق

ومعارف ورؤى ومعايير وفلسفة ما قبل التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية وهذا يعني حتماً العجز عن التعامل الراشد مع متطلبات الحياة المعاصرة وفقدان القدرة على التلاؤم مع الواقع العالمي الزاخر بالحركة والإبداع. . والمفعم بالنمو والتغيُّر. . .

■ **في ظل هذه الأوضاع ما هي أولويات المفكر الإسلامي ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟**

- إن تجارب الأمم الأخرى تؤكد أنه لا يمكن إصلاح الأوضاع المأزومة إلا بآلية النقد الصريح والمراجعة الدائمة إننا بحاجة إلى وقفة صادقة وصريحة مع الذات لكشف القصور والعجز والعمل على إصلاح هذا القصور وتجاوز حالة العجز. . .

إننا حين نقوم بهذا النقد الجذري ونمارس المراجعة الفاحصة سوف ندرك أننا نعيش خارج السياق الحضاري الإنساني العالمي وأننا لكي ننتظم في المسيرة الحضارية الجياشة الظافرة لا بد أن نستفيد من معطيات العصر في الرؤى والأفكار والعلوم وفي إدارة المجتمع وشؤون الحياة وفي التقنيات والمهارات ونستخدم كل ذلك لما يخدم ديننا ويحقق ازدهار أمتنا. . .

■ **هل نستطيع القول أن هذه الظروف والتحديات أدت إلى وجود خطاب إسلامي معاصر؟ وما هي سمات هذا الخطاب إن وجد؟**

- إن التراجعات المتلاحقة والهزائم المتكررة خلال هذا العصر وما قبله تؤكد أننا نحن المسلمين لا نستفيد من التجارب ولا نتَّعظ من المحن فالعرب في أسبانيا ظلوا يتراجعون أكثر من أربعة قرون لقد كان الأسبان يَتَّحدُون ويتقدمون على كل الجبهات وكان العرب يتمزقون

ويتراجعون على كل الجبهات أيضا لكن هذه الحقيقة الصارخة التي كانت كافية لإيقاظ أشد العقول جموداً لم توقظ العرب للمصير الذي كان يتربّص بهم بل ظلوا يتقاتلون فيما بينهم ويستعينون بالأسبان لمواجهة بعضهم واستمر هذا الجنون أكثر من أربعة قرون دون أن يفطنوا للمصير الفظيع الذي ينتظرهم فكانت الفاجعة المروّعة بطرد كل العرب من الأندلس واستئصال الإسلام من أوربا وما زلنا نعيش نفس الأخلاق الانتهازية «إذا متُّ ظمآنا فلا نزل القطر» فنكبة عام ١٩٤٨ المروعة وهزيمة عام ١٩٦٧ المذلة وأحداث سبتمبر وما أعقبها من احتلال وهوان وغيرها من الفواجع كلها لا تزيدنا إلا إصراراً على العمى ورفضا للتبصُّر وما زلنا كما كنا مأخوذين بالأهواء وبالأحكام المسبقة مع جهل تام بالتغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية فالرأي الساذج ما زال هو المهيمن وللعوام سلطة تكتسح الرؤى الراشدة وتعطل محاولات التنوير فالخطاب الإسلامي السائد هو خطابٌ عاطفي غير علمي ولا يرتقي إلى مستوى معالجة الأوضاع الحرجة للمسلمين. . .

■ **هل ترون أن الخطاب الإسلامي اختلف بعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر ٢٠٠١؟ وكيف تنظرون إلى الخطاب الإسلامي أو المفاهيم الإسلامية التي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية طرحها (مسألة أن تؤم المرأة المسلمين في المسجد مثلا أو تعديل المناهج الإسلامية وحذف كل آيات الجهاد)؟**

ـ الخطاب الإسلامي في هذا العصر لم يسبق أن كان على مستوى الأحداث وما زالت التيارات السائدة في العالم الإسلامي ترفض المراجعة ولا تعترف بحق النقد ولا تقرُّ بأولوية الخطأ ولا تؤمن بوجوب

التدارك والتصحيح إن التيارات الإسلامية ليست فقط عاجزة عن استيعاب حضارة العصر وغير قادرة على إدراك المتغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية وإنما هي أيضا بعيدة كل البعد عن استيعاب أفكار رواد الحركات الإسلامية ذاتها من أمثال الكواكبي فما زالت المعالجات شديدة القصور قياساً بما كان يطرحه الكواكبي والأفغاني ومحمد عبده إننا نستسلم للأسلوب الوعظي وتستفزنا الشعارات الفارغة ويحركنا التحريض الأرعن ويستولي علينا الانفعال العاطفي ونبتعد عن التحليل العلمي ولا نريد استخدام منطق العقل لذلك نرفض أطروحات المفكرين ولا نستجيب لنداءات المخلصين الناضجين ولو راجعنا مثلا أفكار الكواكبي التي طرحها قبل أكثر من قرن لوجدناها شديدة التقدم قياساً بالمشاريع التي تقترحها أو تمارسها الحركات الإسلامية في الوقت الحاضر. . .

- **إذا اتفقنا أن لكل حركة إسلامية في العالم العربي خصائصها وسماتها الخاصة بها فهل يمكن أن نتحدث عن خصائص الحركة الإسلامية في السعودية؟**

- الحركات الإسلامية مهما تعدّدت تختلف فقط بالشعارات والأسماء لكنها تتفق بالمنطلقات والرؤى والممارسات فكلها تؤمن برؤية أحادية مغلقة وكلها ترفض آلية المراجعة والنقد وكلها تعتقد كمال رؤاها وكفاية معارفها وكلها لا تعترف بالشفافية وكلها لا تعترف إلا بمنطق القوة وكلها تحيط قادتها بالتفخيم والتبجيل والهالات التي تجعهلم فوق المراجعة وفوق النقد ومن هنا تستمر الأخطاء وتستفحل الانحرافات ولم يظهر حتى الآن أي اتجاه إسلامي يفرق بين عظمة التعاليم الإسلامية

وقصور فهوم البشر فكل فئة ترى أن فهمها هو الفهم الوحيد الصحيح وأن بقية الفهوم خاطئة خطأ كُلِّيا ومن هنا يتعذر التفاهم ويستحيل الالتقاء إن الحركات الإسلامية تختلف في التسميات والشعارات أما المضمون فهو مضمونٌ واحد وأما تقنيات العمل فهي تقنيات غير عصرية ومن هنا فشلتْ الحركات الإسلامية في تحقيق أي تقدم على كافة المسارات فليس لديها برامج ولا تتحرك وفق رؤى مدروسة وإنما هي تتحرك ارتجالاً وتكرر مقولات فضفاضة فارغة لا ترتبط بالواقع وأسوأ من ذلك أن هذه الحركات لا تؤمن بالتداول السلمي للسلطة ولا تعترف بعوامل التقدم التي طرأت على الحياة الإنسانية...

ولا بدَّ من التأكيد بأن السعودية لا يوجد فيها حركة إسلامية بالمعنى المفهوم للحركة فالمجتمع السعودي مجتمع متديِّن وقد عاش عقوداً طويلة على ما يشبه الإجماع فلم يكن هناك أي تداول لأفكار أو اتجاهات مغايرة وإنما عاش المجتمع رؤية أحادية مغلقة تؤمن بأنها على الحق المبين فليست بنظر نفسها بحاجة إلى أي فكر مغاير وإنما هي في نظر ذاتها مكتملة الفكر وحكيمة الممارسة وقد أثبتتْ الأيام بأن الاتجاه المذهبي في السعودية يؤثِّر ولا يتأثَّر فعلى امتداد العالم الإسلامي نجد تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب شديد الوضوح من طنجة غرباً إلى جاكرتا شرقاً بل حتى في المراكز الإسلامية بأوربا وأمريكا واليابان وفي كل الأقطار فكلها تقريبا ملتزمة بالسلفية السائدة في المملكة والمتابع يرى أن الحركات الإسلامية تأثَّرتْ بالدعوة الوهابية تأثراً شديداً خصوصاً في العقود الثلاثة الماضية الأخيرة لكن الدعوة لم تتأثَّر بأي منها وكل الأحداث والوقائع والممارسات تدل على أن أدبيات الدعوة

الآن هي المسيطرة على امتداد العالم الإسلامي سيطرة شبه تامة وليست المسميات الحركية الأخرى سوى أطر نظرية مفرغة من محتواها إن الباحث حين يقارن أفكار مؤسِّس حركة الأخوان المسلمين بما يمارسه منسوبو هذه الحركة الآن يجد أن مرجعيتهم الآن هي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكثر من تعاليم حسن البنا كما يجد أن أسلوبهم في التعاطي مع الذات ومع الآخر ومع الحياة ومع المتغيرات هو أسلوب الدعوة وليس الأسلوب الذي وضعه البنا فمنذ بداية الجهاد في أفغانستان حصل تحوُّل جذري في العالم الإسلامي نحو الدعوة السلفية الوهابية ولم يبق من الحركات الإسلامية الأخرى سوى الإسم. . .

■ **ما هو مفهومكم للإسلام السياسي؟ وهل لا بد له بالضرورة أن يختلف ويتعارض مع الإسلام التقليدي إن صحَّ التعبير؟**

- إن الانحراف الخطير الذي حَصَلَ بعد انتهاء الخلافة الراشدة أعني الانحراف الذي وصفه لنا الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال: الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا عضوضاً. .إن ذلك الانحراف الخطير قد نتجتْ عنه نتائج خطيرة كثيرة فقد أُقْحمتْ مسألة الحكم ضمن مسائل العقيدة مما جعلها محرَّمة على البحث وعن التناول العلمي ولهذا فإنه رغم أن العملية السياسية هي محور حياة المجتمع فإننا نجد أن الحضارة الإسلامية كانت محرومة من الفكر السياسي فما كتبه المسلمون عن مسألة الحيض يُعَدُّ أضعاف ما كتبوه عن قضايا السياسة والحكم وهذا الخلل البنيوي ما زال ملازماً لحياة المسلمين وربما سيظل إلى أن يشاء الله إعتاق الأمة من هذا المأزق الخطير. . .

■ وكيف ترون مسألة العنف في الإسلام وخاصة بعد ربطها بموضوع الإرهاب وهل ترون أنها زادت حدة بعد أحداث سبتمبر واحتلال العراق وقبلها أفغانستان وأين هي من دعوة الجهاد؟

- الناس في المجتمعات العربية والإسلامية مأخوذون بالتفكير الجماعي ولا يعرفون التفكير الفردي المستقل لذلك اندفعوا خلف الدعوات القومية والبعثية واليسارية والناصرية ثم بعد نكسة عام١٩٦٧ تخلُّوا جماعياً عن هذه الاتجاهات واندفعوا مع التيارات الحركية الإسلامية وأخشى الآن أن ينقلبوا وأن تحصل ردة فظيعة لأن هذا الاتجاه سوف يثبت فشله الذريع بعد الاندفاع نحو العنف والارهاب ونسأل الله أن يحسن العواقب. . .

■ موضوع الديمقراطية والتعددية الحزبية يُطرح بقوة على القوى والتنظيمات الإسلامية والسؤال هل يمكن للحركات الإسلامية أن تتمثل الديمقراطية فعلاً وأن تنتجها وهل يمكن أن يقبل الإسلام بوجود أحزاب ملحدة؟

- الديمقراطية آلية من انجع الآليات في إدارة المجتمع وتحقيق العدل للناس وهي ليست ديناً ولا بديلاً عن الدين وإنما هي آلية تضمن سلامة تطبيق الشريعة بكفاءة وعدالة لكن الحركات الإسلامية ما زالت تجهل الفرق بين الآليات والمبادئ وتخلط بين الوسائل والغايات لذلك فهي ترفض الديمقراطية أما الأحزاب الملحدة فلا خوف منها ففي الغرب رغم السماح لها بالعمل فإنها لم تستطع استقطاب الأتباع وإذا كانت تجربة الغرب قد أثبتت رفض الشعوب للاتجاهات الإلحادية فكيف نخشى الإلحاد ونحن أشد منهم تمسكا بديننا والمسلمون أبعد

عن الاستجابة لأي توجه إلحادي فهذا الخوف قائم على الأوهام وليس على الحقائق وتجارب الأمم تؤكد أنه خوفٌ مفتعل وليس خوفاً حقيقيا؟!!!

■ **هناك دعوات كثيرة للحوار بين التيار الإسلامي والتيار العلماني ما هي برأيك أسس هذا الحوار كي يكون فاعلاً؟**

ـ الإسلاميون والليبراليون والعلمانيون في العالم الإسلامي كلهم فوق سفينة واحدة ويجب أن يكون همهم أن لا تغرق هذه السفينة وأن لا يبلغ العطب حدَّ التوقف التام فهناك مصالح مشتركة وهناك هموم جامعة وهناك مصير واحد وهذا يستوجب أن يعملوا معاً لإنقاذ المركبة من الغرق ونحن نعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام تحالف مع اليهود وكذلك فَعَلَ المسلمون حيث تحالفوا مع غير المسلمين من أجل دفع أضرار أكبر ومن المعلوم أن الليبراليين المسلمين ليسوا ضد الدين وإنما هم ضد احتكار فئة من الناس للرأي وضد الوصاية على الناس باسم الدين فالمطلوب من المسلمين جميعا بكافة فئاتهم تبادل الاحترام وتحقيق التعاون لما يخدم مصالحهم المشتركة ويحفظ لدينهم المكانة اللائقة به...

■ **ما زال هناك حديث عن صراع الحضارات باعتباره ناظم العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي وما يجري في العالم من وجهة نظر البعض هو صراع حضارات فما رأيك بهذه المقولة وبالتالي كيف تنظرون إلى علاقتنا مع الغرب بعد كل ما حدث ويحدث؟**

ـ يعيش العالم في هذا العصر حضارة إنسانية عالمية استثنائية قوامها الاعتراف المتبادل بين الشعوب والتعايش بين الثقافات واحترام الإنسان

والإعتراف بفرديته وصون كرامته والدفاع عن حقوقه وعلينا أن نستفيد من هذا التوجه العالمي وأن نتخلّى عن أوهام التآمر وعن منطق القوة وعن مخاوف ما قبل التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية إننا الآن نعيش خارج السياق العالمي ونتعامل مع الآخر بمنطق المفاصلة والقطيعة أما حين تسعى الشعوب لمصالحها وتتدافع من أجل هذه المصالح فهذا هو الجو التنافسي النافع الذي تنهض به الحضارة وتتطور به الإنسانية في كل مجالات الثقافة والعلم والتعليم والفكر والفن والاقتصاد والخدمات والصناعة والسياسة والإجتماع وفي كل مناشط الحياة. . .

■ **كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن الحوار بين الأديان وعُقد أكثرُ من مؤتمر لهذه الغاية وكان منها مؤخراً مؤتمر بروكسل للحوار بين الإسلام واليهودية ما رأيكم بهذه المسألة وما هي أبعادها وأفاقها؟**

- إنني أتفق مع أي استخدام لمنطق العقل بدلاً من منطق العضل وأرحب بأي سلوك ينقلنا من ثقافة الإخضاع إلى ثقافة الإقناع. . .

■ **سؤال أخير ما هي رؤيتك لعملية السلام مع الكيان الصهيوني وما هو حكم التعامل مع الصهاينة وهل يمكن أن يختلف هذا الموقف مع تغير الظروف؟**

- نحن المسلمين في هذا العصر أقل الأمم امتلاكا للقوة لكننا أشد الأمم حديثاً عنها واستخداماً لمنطقها وهذا دليلٌ على غياب الرُشد إننا باستخدام العنف وبمواصلة الإصرار على منطق القوة نربك العالم ونعرقل مسيرة الحضارة لكننا لا نحقق لأنفسنا أي كسب ولا نحرز لأمتنا أي نصر ولا نبني لأجيالنا أي مستقبل مشرق فإذا كان نشر الرعب

والارباك هدفين مطلوبين لذاتهما فإننا بسلوكنا الحالي قد حققنا ما هو فوق الكفاية منهما وأكثر مما يستطيعه الخيال فلقد تمكَّنَتْ طائفة منا وباسمنا جميعا أن تُرعب الأبرياء في كل مكان وأن تُعرقل مسيرة الحضارة الإنسانية واستطاعت هذه الفئة أن تربك العالم بأكمله فأصبحت الحركة العالمية أبطأ وصارت الإجراءات أكثر تعقيداً ومالت الدول إلى التحفظ والتشدُّد مع القادمين والمغادرين والمقيمين والمهاجرين فهدف الإبطاء والإرباك قد تحقَّق فعلاً!!! أما إذا كنا نريد فائدة لديننا ونفعاً لأنفسنا ومستقبلاً وضيئاً لأجيالنا فيجب أن نتعلم استخدام منطق العقل بدلاً من منطق العضل الذي لم نمارس سواه وأن نتمرن على استعمال أسلوب الإقناع الذي لا نعرفه ولا نجيد ممارسته بدلاً من أسلوب الإخضاع الذي اعتدناه وأدمنّا عليه لقد امتدت أخطاؤنا وتلاحقت هزائمنا وتراكمت علينا الخسائر ومع ذلك ما زلنا نصر على منطق العضل والإخضاع ولم نحاول أن نجرب منطق العقل والإقناع فأفلسنا هذا الإفلاس المروِّع الشنيع وأصبحنا عبئاً على أنفسنا وعلى العالم...

- **منذ فجر الإسلام انقسم المسلمون إلى مذاهب وطوائف ما هو الأساس في هذا الإنقسام وكيف ننظر إلى مسألة المذهبية في الإسلام؟**

ـ حقُّ الإسلام علينا أن ندرس التاريخ العربي منذ البدايات دراسة موضوعية بوصفه تاريخ أُناس من البشر وليسوا من الملائكة فهو غير منزَّه عن الأخطاء ولا بريء من الأهواء وأن نعيد كتابته بما يتفق مع الحق وأن نصحح الأحكام المغرضة والمغلوطة وأن نمحو من الأذهان ما أُلحق بالإسلام من ضرر نتيجة الصراعات السياسية وأن نزيل ما تراكم

من تشويهات وأن نفصل نصاعة الإسلام عن أهواء البشر فلم تكتف الزعامات خلال التاريخ العربي بأن تتصارع على السلطة وإنما أحالت هذا النزاع إلى مسائل في العقيدة فأصبح التشنيع على المخالفين جزءاً أساسيا من دراسة العقائد الإسلامية وتحولت بذلك ثقافتنا إلى ثقافة خصامية تؤجج الكُره وتؤلِّب على العداوة وتستثير في الناس أسوأ عواطف البغضاء والتنافر...

إنه لعارٌ فظيع أن نستمر في الاقتتال بسبب خلافات مذهبية وإنه لضررٌ بالغ على ديننا وعلى أنفسنا أن نبقى هكذا غير راشدين لا نحسن التعامل فيما بيننا ولا مع الآخرين إلا بالعنف فلا بد من إنقاذ الإسلام والمسلمين من هذه الإنقسامات الشنيعة المزمنة فهذه الحروب المذهبية قد شوَّهتْ هذا الدين العظيم تشويها شنيعا وأَضَرَّتْ بالمسلمين ضرراً بالغاً إن عظمة الإسلام قد تشوَّهتْ تشوُّها فظيعاً بصراعات أهله لكن التشويه بلغ أقصى المدى في السنوات الأخيرة منذ مطلع القرن الحادي والعشرين بعكس ما كان يجب أن يكون...

إن هذا القتل الجماعي المجنون للأطفال والنساء والشيوخ والرجال وهذا التخريب الأعمى لكل شيء لم يسبق له مثيل في أية أمة إن الصراع لم يَعُدْ محصوراً بين القوى الممسكة بالسلطة والمناوئين لهم وإنما أصبح الأفراد المأدلجون المتهورون المخدوعون المتطرفون يعلنون الحرب على الجميع ولا أحد يعرف لهم مكاناً ولا شكلاً إنهم غير منحازين في جبهة مكشوفة يمكن مواجهتهم وجهاً لوجه وإنما يخرجون من حيث لا يتوقعهم أحد بل إن فرداً واحداً يُفَجِّر نفسه وسط الجموع في المساجد والأسواق والجامعات والمدارس والمقاهي والمطاعم وفي

غيرها من مواقع التجمعات الكبيرة فيُهلك في لحظة المئات من الأبرياء ويدمِّر المنشآت الثمينة وهو وضعٌ مأساوي لم تعرفه البشرية من قبل إنه اضطرابٌ مدمِّر لم تشهد الدنيا له مثيلاً خلال التاريخ البشري كله...

إن كل خصوم الإسلام لن يستطيعوا أن يُلحقوا به من الأذى والإساءة والتشويه معشار ما ألحقه به أهله فما يجري باسمه من إرهاب وقتل وتدمير وتخريب وترويع هو تشويهٌ يفوق كل خيال إنه تشنيعٌ صارخ لا مزيد عليه لقد اتَّسع نطاق التشويه وأصبح الأفراد المتهورون المخدوعون قادرين على نشر الرعب في مجتمع بأكمله بل في العالم كله بعد أن أصبح سهلاً تصنيع المتفجرات داخل البيوت وبجهد فردي فتوفرت إمكانات القتل الجماعي والتدمير الواسع ليس بواسطة الجيوش وإنما بتصرفات فردية طائشة فنحن نستخدم علوم ومخترعات المزدهرين للهدم وليس للبناء وللقتل وليس للإحياء ونجرُّ العالم إلى الوراء ونضطره أن يحدَّ من الحركة وأن يُقَيِّد الحريات فضاقت الدنيا بعد اتساع وتقيَّدَتْ بعد انطلاق وبهذا استثار الإرهابيون كلَّ الأمم ضد الإسلام...

وما أخشاه هو أن يحصل ردة مساوية في نكوصها لهذا الاندفاع الأعمى فكما أن الشعوب العربية قد اندفعت خلف الثوريين والبعثيين والماركسيين ثم انفضَّتْ عنهم بعد هزيمة عام١٩٦٧ م فإن هذه الشعوب ستبقى مندفعة خلف أحلام ووعود الحركات الإسلامية إلى أن تُثْبتْ التجربة عجزها عن تحقيق هذه الوعود ثم سوف تنفضُّ الشعوب عنها كما انفضَّتْ عن الحركات الثورية فإذا أريد حماية الشباب المسلم المشحون بهذا الحماس الأرعن من أن يتحول وأن ينقلب حماسه الفج إلى ردَّة فلا بد من القيام بتوعية شاملة ومواجهة الرعونة بالرشد والطيش بالعقل وحماية الشباب من ردة تنقلهم من شطط إلى شطط...

إن الإقتتال بسبب التمذهب ليس جديداً في ثقافتنا وإنما هو قد أخذ هذه الأيام طابعاً فظيعاً إن الصراعات السياسية قد ظهرت مبكرة جدا في التاريخ الإسلامي فصبغت تاريخنا كله فهي مصدر الإنقسامات المذهبية ولكن هذه الحقيقة الأساسية ما زالت غائبة عن أذهان معظم الناس ولو أدركوا أنهم ضحايا الصراع على السلطة لما بقوا بهذا العمى المزمن إن الناس يعتقدون أن الإختلاف على الحقائق هو الذي يثير الصراعات فينخدعون عن الدوافع الحقيقية ويعمون عن الأهواء التي تحرك الصراع فالكثيرون يتوهمون أن المذاهب تنشأ أولاً ثم يقتضي نشرها قيام سلطة تحمي المذهب وتنشره أما الواقع فهو العكس تماماً فالصراعات تقوم أولاً ثم يحتمي كلُّ طرف من أطراف الصراع بمذهب يبرر أفعاله ويوفر له المشروعية ويجمع حوله الأتباع وفي تاريخنا العربي انطلق ذلك الإنقسام المذهبي والطائفي من الصراعات السياسية فالاتجاه السياسي يأتي أولاً ثم يأتي المذهب ليعطيه المشروعية ويبرر له ما يمارسه من أفعال وممارسات إن السياسة هي محور الحياة العربية وهي القيمة المركزية في الثقافة العربية فلو صلحت لصلح كل شيء...

لقد أُزهقتْ حياة الإمام أبي حنيفة لاتهامه بالتعاطف مع الشيعة ولم يكن ذلك في العهد الأموي الذي تأسّس باستبعاد بني هاشم واستمر في الصراع معهم ومع المتعاطفين معهم وإنما حصل هذا الإزهاق في عهد بني العباس الذين استغلوا جاذبية التشيُّع لآل البيت حتى نالوا السلطة باسمه ثم حاربوه بضراوة لا تقلُّ عن ضرارة بني أمية وكاد الإمام الشافعي يفقد حياته لاتهامه بالتشيُّع ولم يكن العازم على قتله سوى هارون الرشيد الذي ينتسب للعباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم بينما الشافعي ينتسب للطالبيين فالصراع بعد قيام الدولة العباسية صار

بين أبناء العم من بني هاشم بعد أن كان مع بني أمية ولقد جيء بالإمام الشافعي من اليمن إلى العراق مكبّلا بالأغلال ولم يكن بينه وبين القتل سوى لحظات وقد أنقذته فصاحته فاقتنع هارون الرشيد أنه منصرفٌ للعلم وليس للسياسة فَعَدَل عن قتله!!!وهكذا نرى اثنين من الأئمة الأربعة كانوا من ضحايا الصراع السياسي وهذا يشير إلى فظاعة التمذهب السياسي الذي خَضَعَتْ له الأمة إن تاريخنا مليء بركام هائل من الأكاذيب والتلفيقات وحجب الحقائق وتزييف الوعي بسبب الصراع على السلطة. . .

■ **تتفاوت النظرات إلى موضوع الانقسام المذهبي والطائفي في العالم الإسلامي وفي حالات تاريخية كثيرة أدى الانقسام إلى صراعات وخلافات وحروب هل ما زال المسلمون بانقساماتهم أسرى الموروث في الانقسامات؟**

- إننا نحن المسلمين مازلنا أسرى التاريخ بكل ما فيه من صراعات سياسية وانقسامات طائفية فثقافتنا العربية لا تتطور مع الزمن ولا تتأثر بمعطيات العلم ولا تستفيد من تجارب الأمم المزدهرة فلا فرق بين أن تقرأ كتاباً لمؤلف عربي معاصر أو كتاباً مضى على تأليفه عشرة قرون فنحن نتراجع وننجرف ونتقهقر بينما الآخرون يتقدمون بسرعة الضوء فكل جيل من أجيالنا يضيف الكثير من القيود والعُقَد ويخلق أسباباً جديدة للصراع بدلاً من أن يستفيد من تراكم المعرفة ومن انتشار التسامح وتقلُّص التعصب ومن تطور الأفكار ونضوج التجارب الإنسانية إننا الآن نشازٌ على الثقافات العالمية إننا في هذا العصر الذي اتسمَّ أهله بالتسامح والإنفتاح والتعايش وبالإحترام المتبادل قد خالَفْنا الإجماع

العالمي فبقينا عاجزين عن التلاؤم مع أنفسنا وأشد عجزاً عن التعايش مع العالم بعكس ما كان مأمولاً فبدلاً من التكامل بين كل المسلمين تضاعفت الإنقسامات واشتّد العنف الطائفي ولم نستفد إيجابيا من كل معطيات العصر العلمية والفكرية والسياسية بل عادت علينا هذه المعطيات بالضرر الفظيع فتقنيات المعرفة المتطورة التي مكنتْ الأمم من تحقيق الإزدهار تحولت عندنا إلى وسائل للتجهيل وتزييف الوعي والتحريض على القتل والمفاصلة وتوسيع دوائر الكره وتعميق الحقد...

- **هل مشكلة المذهبية هي حكر على الصراع بين الشيعة والسنة؟أم أن الأمر مستفحل بين مذاهب الفرقة الواحدة (ومنه ما شهده القرن الرابع والخامس الهجريين من اقتتال دام بين أصحاب المذاهب الأربعة السنية أو الصراع بين الإخباريين والأصوليين داخل الذهب الشمعي) والسؤال لماذا انتهت الخلافات بين مذاهب أهل السنة وتم اعتبار الاختلافات غنى للإسلام ولكنه لم يتم مع المذهب الجعفري أيضا؟**

- خلال التاريخ العربي مثّل الشيعة دائما تيار المعارضة السياسية لذلك كانت الدول الإسلامية المتعاقبة - الأموية والعباسية والأيوبية والعثمانية وغيرها - توجّه الفكر نحو معاداة الشيعة وتشويه التشيُّع لأن الشيعة يرون عدم مشروعية هذه الدول فكان الرد هو اعتبار التشيُّع خارج دائرة الإسلام وكان الدافع سياسيا بالدرجة الأولى لكن لا يمكن تعبئة الأتباع بالكراهية وحشد عواطفهم بالضغينة إلا بالاستنفار العقائدي ولهذا تراكم الكره حتى بات الكثيرون يرون في الشيعة خطراً أشد من خطر اليهود!!!! وهكذا تفعل الأهواء السياسية في إفساد العقول وتزييف الوعي وشحن القلوب بأحط العواطف...

وهذا لا ينفي أن لدى الشيعة انحرافات شديدة ويمارسون الكثير من الخرافات والأخطاء لكن ليست هذه الانحرافات أو الأخطاء هي سبب هذه العداوة المستشرية وإنما الاستغلال السياسي والحشد العاطفي والتشويه المتعمّد هي التي نمّتْ هذه العداوة فالإنحرافات والأخطاء موجودة لدى كل الفرق ولكن باتجاهات مختلفة إن الطائفة اليزيدية هي أشد الفرق انحرافاً بل لقد انتهت إلى تحول خطير فخرجت عن الإسلام كليا وتحولت إلى عبادة الشيطان لكن لا نرى أن انحرافاتها الجذرية الخطيرة تواجَه بأي نقد مع أنها تعيش في قلب العالم الإسلامي وترفع لافتة بني أمية فحزبهم في العراق يحمل لا فتة (المكتب الأموي)!!!...

إن قادة الفكر والفعل عند السنة والشيعة هم الذين يؤججون الصراعات ويضخّمون الأخطاء عن جهل عند البعض وعن قصد عند البعض الآخر...

أما السبب في انتهاء الصراعات المذهبية داخل المذاهب السنية فيعود إلى أنه لا يوجد الآن دول سنية متصارعة تستمد مشروعيتها من مذاهب مختلفة أما الخلافات التي استعرت بين الأنظمة العربية في الربع الثالث من القرن العشرين فلم تكن ذات مرجعية دينية باستثناء السعودية بل كانت ذات اتجاهات قومية: بعثية أو ناصرية أو كانت ذات اتجاهات ماركسية أو اشتراكية فالدين كان مستبعداً كأساس للصراع ثم حصل التحول بعد هزيمة عام ١٩٦٧ حيث انسحبت الجماهير عن الاتجاهات القومية والماركسية وتحوّلَتْ نحو الاتجاهات الإسلامية وصادف ذلك نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية مما أثار مخاوف أهل السلطة في

المجتمعات السنية لذلك اشتدَّ الصراع بين السنة والشيعة وتوحَّدتْ كلمة المنتسبين لأهل السنة وحصروا صراعهم مع الشيعة منذ ثورة الخميني وتأجَّجت أثناء حرب الخليج الأولى حيث ضخَّم الإعلام الخطر الإيراني وقام بتعبئة الناس تعبئة غير مسبوقة...

■ **يقوم عدد من الأنظمة السياسية على أساس ديني / مذهبي هل يعزز ذلك حدة الصراعات الدينية والمذهبية في العالم الإسلامي؟ وكيف تنظرون على علاقة الشيعة العرب مع إيران؟**

ـ هذا شيء مؤكد فالمذهبية هي وقود الصراعات السياسية لأن أي دولة تستمد مشروعية وجودها من أي مذهب سوف تحاول نشره بكل ما تسطيع من إمكانات مادية وبشرية وسيكون همها الترويج له وتعظيم شأنه وقد أصبح لدى الدول إمكانات هائلة تمكنت بواسطتها من الانتشار في كل الاتجاهات خارج حدودها...

■ **أيضا لفت نظر الشارع السني وجود قبر أبو لؤلؤة قاتل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إيران ما هو شعوركم إزاء هذا الأمر؟**

ـ إن هذه التصرفات المثيرة يجب أن تنتهي من كل الأطراف ففي الغرب المسيحي كانت الحروب مستعرة بين الكاثوليك والبرتستانت والأرثوذكس ولكنهم ارتفعوا عن لوثات الأحقاد المذهبية فعادوا إخواناً متعاونين بل ويسعون الآن للإتحاد الكامل وباتت الخلافات المذهبية والطائفية مصدر شعور بالعار ودلالة على لوثة العقل في زمن غابر إن صراعات الماضي في أوربا هي الآن محل سخريتهم لقد انتهوا منها إلى الأبد ووجهوا كل طاقاتهم لبناء الإزدهار وتحقيق الرخاء...

■ **أيضا أخذ موضوع التشييع يبرز مؤخرا في سوريا أو في السودان أو غيرها كما برز موضع التسنن في عدد من الدول الأخرى كيف تنظرون إلى موضوع التبشير المتبادل بين السنة والشيعة؟**

ـ الدعوات المذهبية والطائفية لم تتوقف في أية فترة من فترات التاريخ الإسلامي ولأن السلطة دائماً في قبضة أهل السنة ولأن التيار الشيعي دائماً في جانب المعارضة وخارج السلطة لذلك يستعر الخلاف حين تستعيد الحركات الشيعية شيئاً من نشاطها كما حصل في الثورات خلال التاريخ الإسلامي أو حين ينجحون في إقامة كيان سياسي كما حصل حين تأسّست الدولة الفاطمية أو حين قامت الدولة الصفوية ونازعت الدولة العثمانية أو حين نجحت ثورة الخميني فارتاعت منها أنظمة الحكم في المجتمعات السُنية وتوحّدت مع أمريكا والغرب ضد الثورة الإسلامية في إيران وهذه الخلافات تتأجّج بأعمال التشويه التي يرتكبها كل طرف ضد الطرف الآخر فنحن غير موضوعيين في صراعتنا المذهبية مما يستثير الطرف الذي ووجه بالظلم والتشويه المتعمّد فيأتي رد الفعل مساوياً للفعل ولكن باتجاه مضاد ومن هنا تستعر الخلافات وتتشعّب الصراعات وهي في الغالب تتخذ طابعاً متجنيًا وظالماً يتعمّد الإفتراء ويقصد التشويه ويبتعد عن النزاهة العلمية والموضوعية. . .

■ **هل ترون أن ثمة اثر للسياسات المحلية في الدول العربية والإسلامية على الصراعات المذهبية؟**

ـ ما زال العقل العربي الآن منحازاً بامتياز كما كان منذ مئات السنين فهو لم يتاثر بالتغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية بل إن تعميم التعليم اهتم بترسيخ ثوابت العقل العربي وتحيزاته وأوهامه أكثر

مما اهتم بالعلم ذاته فهو ضد التغير الإيجابي إن اهتمامه المحوري قد انصبَّ على إبقاء الثبات ومنع التطور. . .

■ **ما هو تأثير التدخلات الخارجية في الصراعات المذهبية والطائفية في العالم الإسلامي؟**

ـ التدخلات الخارجية لا تؤثر إلا في المجتمعات التي لديها استعداد سابق للصراعات. .فبلاؤنا نابعٌ من أعماقنا ونحن المسؤولون عن خلافاتنا ونحن صانعوها فالفلسطينيون يتقاتلون هذه الأيام فيما بينهم بضراوة من أجل السلطة بين حماس وفتح مع أنهم يواجهون عدواً مشتركا وهذا أكبر شاهد على أننا عاجزون عجزاً مطلقا عن توحيد الكلمة من أجل المصلحة العليا وإنما تُسَيِّرنا النظرة الحزبية الخانقة فالسلطة هي القيمة المحورية في الثقافة العربية وكل ما عداها ما هو إلا وسائل للوصول إليها!!!. . .

■ **تتوالى منذ سنوات طويلة الأحاديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية ما المقصود بشعار التقريب هل هو دمج المذاهب أم توحيد بعض القضايا الفقهية والعقائدية وهل نريد تقريبا بين المذاهب أم بين أهل المذاهب؟**

ـ الجهود التي بُذلَتْ في التقريب بين السنة والشيعة كانت جهوداً فردية لذلك لم تُسفر عن نتائج لأنها تصطدم مع الإتجاهات الرسمية السائدة التي تستفيد من التنافر أما المقصود بالتقريب فهو العمل على إزالة سوء الفهم المفتعل أي محاولة التخفيف من آثار الشَّحن الطائفي الخاطئ من الطرفين وتعرية الوعي الزائف وإظهار نقاط الإتفاق الكثيرة وإبراز قابلية نقاط الإختلاف للتفاهم والتأويل. . .

■ **أين نقف في هذا من الحديث عن إسلام بلا مذاهب وفق شعار مصطفى الشكعة؟**

ـ إذا انكمشتْ الصراعات السياسية فسوف تنكمش أو تختفي الصراعات الطائفية والمذهبية فالتمذهب كان وما زال وسيلة للتعبئة الشعبية ضد الخصوم السياسيين وليس غاية في ذاته ولكن الدهماء المأخوذة بهذا التمذهب تبقى مأسورة بما يريده القائمون على برمجتها واستلاب عقلها وعواطفها وليس هؤلاء الذين يفجّرون أنفسهم فيزهقون أرواحهم عمداً وانتحاراً ويقتلون الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ سوى ضحايا التمذهب الغبي المغلق. . .

■ **رغم مرور حوالي ٦٠ عاما على محاولات التقريب أثر إنشاء دار التقريب في مصر وفتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد بالمذهب الخامس الجعفري لكن النتائج العملية كانت محدودة جدا؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج؟ وفي ضوء ما يحدث الآن في العراق وفي لبنان هل يمكن القول أن أطروحة التقريب بين المذاهب قد فشلت؟**

ـ ليست النتائج محدودة فقط بل إن حدَّة الصراع بلغت أقصاها في الوقت الحاضر ومنذ أشعل صدام حسين نار حرب الخليج الأولى بعد قيام ثورة الخميني تصاعد رد الفعل العربي مما ضاعف الأحقاد وأجّج الصراعات. . .

■ **بالتالي ما هي برأيكم الطريقة العلمية والعملية للتقريب بين المذاهب بحيث تصبح صحيحة وواقعية؟**

ـ لن يحصل ذلك حتى يكف المتصارعون على السلطة من استغلال الطائفية لحشد الدهماء ودفعها إلى التقاتل الجنوني. . .

■ كيف تقيمون جهود مؤسسات التقريب سواء القديمة في القاهرة أو الحديثة في إيران؟ ومن هم الذي يجب أن يقوموا بمهمة التقريب هل هم العلماء أم المؤسسات أم الأنظمة؟

- لا قيمة لأي جهد فردي ما لم يتوقف استغلال الطائفية سياسيا فمعضلتنا نحن المسلمين مع الصراع السياسي هي معضلة مزمنة فإذا انتهت هذه المعضلة فسوف تنتهي المعضلات المتفرعة عنها...

■ مسألة شتم الصحابة وبرغم وجود فتوى من الإمام الخميني والسيد خامنئي والسيد محمد حسين فضل الله بعدم جواز شتم الصحابة إلا أن الأمر لم يتوقف كيف تنظرون إلى هذا الأمر وما المطلوب برأيكم من أئمة وعلماء المذهب الشيعي لإيقاف هذه التصرفات؟

- أسلوب الشتم سفاهة لا تليق بمن ينتسب للدين والعلم فالشتم انحطاطٌ أخلاقي وهو عنوانٌ صارخ على الجهل وهو لا يليق بأي إنسان حتى لو لم يكن مسلماً فالشتم ذاته سفاهة وحماقة ورعونة وهو من نتاج التضليل المزمن إنه الإرث الأسوأ في تاريخنا...

■ عاد الحديث من جديد حول مصحف فاطمة إلا أن عدد من علماء وأئمة الشيعة نفوا تماما وجود أي مصحف آخر غير القرآن الكريم المتواجد بين أيدي الجميع ما ردكم على هذا؟

- المسألة بدءاً وانتهاء هي مسألة سياسية بالدرجة الأولى فتثار الأوهام كلما دعت الحاجة إليها لحشد العامة وتأليب الأتباع...

■ من الواضح أن المذهبية لدينا سياسية أي المحرك الرئيسي لها هو العامل السياسي كيف يمكن لعلماء وفقهاء المذاهب الحيلولة دون

استثمار الخلافات في تأجيج المذهبية المرتكزة على قضايا الصراع السياسي؟

ـ لقد عملت الصراعات السياسية منذ بدايات تاريخنا العربي على خلق التحزُّب السياسي والطائفي وهي الآن تواصل تعميق وتوسيع الشرخ الطائفي كما أن الكثيرين ممن يحملون العلم الشرعي قد تبرمجوا أيضا بالقطيعة فهم يمثلون جزءاً رئيسيًا من المشكلة لذلك لن يتحقق الخلاص من الاقتتال الطائفي إلا بالخلاص من الصراع السياسي الذي هو منبع المشكلة ثم تخليص العقل الإسلامي من لوثات الصراع الطائفي والسياسي والإخلاص للحقيقة الإسلامية الناصعة. . .

■ **يذهب بعض المثقفين إلى أن الحل هو إقامة النظام الديمقراطي القائم على المساواة في المواطنة والحقوق بعيدا عن التقسيم المذهبي والطائفي ما هو رأيكم؟**

ـ لا يمكن قيام النظام الديمقراطي ما دام الناس مأخوذين بالتفكير الطائفي والمذهبي فالديمقراطية تضمن حق الإختلاف وتتأسس على النزعة الفردية وعلى الاحترام المتبادل بين الجميع فزوال الطائفية شرطٌ لقيام الديمقراطية ولا يمكن أن تقوم دون أن يتحقق هذا الشرط أما إذا تحقق قيام النظام الديمقراطي في دول العالم الإسلامي فإن هذا يعني الإنتقال من مستوى ثقافي واجتماعي وسياسي متخلف إلى مستوى متقدم فهذه نتيجة كبرى لكن شرطها التخلص من الثقافة الطائفية فالديمقراطية نتيجة وليست مقدمة. . .

حوار منشور بمجلة المجلة

أجرى الحوار طلال الطريفي

وعبد الهادي السعدي

ونُشر بتاريخ ١١/ ٢ / ٢٠٠٧ م

■ **تغنى الفرنسيون كثيراً بانتقادات فولتير اللاذعة لمجتمعهم المتخلف قبل عام ١٧٨٩م كذلك تمايلوا طرباً على انتقادات مونتسكيو وروسو لأنها كانت تداعب أحلامهم في الخلاص من براثن القهر الإجتماعي ولعل التكوين الثقافي للمجتمع الفرنسي كان الداعم الأبرز وراء هذا التخلف كما هو الحال في القارة الأوربية كافة قبل عصر النهضة والانقلاب الصناعي. . .المعضلة كانت تكمن في احتكار المنبع الثقافي وثورة الفكر أتت كردة فعل لهذا الاحتكار. . .**

عضو مجلس الشورى السعودي إبراهيم البليهي أحد أولئك المفكرين الذين يوجهون انتقاداتهم باستمرار للموروثات المزيفة من العادات البالية التي فتت في عضد الأمة الإسلامية والعربية حتى أصبحت الأمة معطلة تقتات من فتات الآخرين ووصمها بالعجز الذريع عن التلاؤم العقلاني مع حركة الحضارة المعاصرة خصوصاً وهي في حال صراع داخلي بين أبنائها مستشهداً في ذلك على ما يحدث في أقطار العالم الإسلامي والعربي من تناحر سياسي وثقافي. . .

يرى البليهي بأن أسباب الانتشار لم تكن متاحة لابن رشد أما المثقفون في هذا العصر فقد أُتيحت لهم إمكانات للتواصل مع الآخرين

ونشر أفكارهم لم تكن متاحة لابن رشد ولا لغيره من فلاسفتنا القدماء فالبليهي يروّج لفكر طرحه في ثنايا هذه المقابلة التي أجرتها معه «المجلة». . .يوجه انتقاداته في كل اتجاه طرب لها من يهوون جلد الذات متناسين ايجابيات المجتمع الكثيرة مركزين الانظار نحو سلبيات اعترف بها كثيرون. . .

حدد البليهي الإبداع في الحرية الملتزمة مستنداً في ذلك إلى أن طاقات الإنسان تتجمّد في حال فقدانها وفي لقائه تحدث عن المرأة وما تمثله في حياة ابن الصحراء من ملجأ يحس من خلاله بمعنى الحياة وأخيراً أختتم ممتدحاً الاتحاد الأوربي ومصوراً إياه بأجمل الصور!!

■ **أحداث ١١ سبتمبر يصورها البعض بالكرة الثلجية المتدحرجة هي تتدحرج ونحن نهرب أمامها ترى مَنْ يسبق مَنْ وكيف سينتهي هذا الماراثون؟**

- إن هذه الأحداث ليست سبباً لما يعيشه العرب والمسلمون من اضطراب وتوتُّر وتدهور وإنما هي إحدى النتائج لهذا التدهور أو هي إحدى علامات العجز الذريع عن التلاؤم العقلاني مع حركة الحضارة المعاصرة ومع التغيرات النوعية الهائلة التي طرأت عليها لقد تغيَّر كل شيء في الدنيا فتغيرت مقومات الحياة وتغيَّرت مكوِّنات المعرفة ووسائلها وطُرق تحصيلها ومناهج التحقُّق منها وتغيَّرت العلاقات بين الدول والأمم والشعوب وحصلت تحولات جذرية في العلاقة بين الحاكمين والمحكومين لقد تغيَّر معنى السلطة وارتقت قيمة الإنسان الفرد وتضاءلت القيود المفروضة عليه لقد استعاد الأفراد قيمتهم وأصبحوا واعين لحقوقهم مدركين لأهمية الكرامة الفردية فأضحوا

مشاركين فاعلين ومواطنين لا تابعين وانتقل العالم من علاقات الإخضاع إلى علاقات الإقناع ولكننا نحن المسلمين ما زلنا غائبين عن هذه التغيرات بل رافضين لها وغير مدركين لأهميتها لقد استخدمنا نتائجها واستهلكنا إبداعاتها ولكننا في بنيتنا الثقافية بقينا كما كنا في طريقة تفكيرنا وفي أنواع معارفنا وفي سلوكنا وفي قيمنا وفي علاقاتنا فيما بيننا وفي علاقاتنا بالآخرين فأوضاع المسلمين مضطربة أشد الاضطراب ومتدهورة أشد التدهور قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وبعدها لأننا أغلقنا أبصارنا وبصائرنا عن التغيرات النوعية التي طرأت على الأوضاع البشرية فلم نستفد من كل الإضافات الإنسانية العظيمة ولا من الإبداعات الباهرة ولا من الإنجازات المتلاحقة ولم نتعلَّم من مناهج الفكر الجديدة وطُرُق العمل الناجعة التي انتقلتْ بها الإنسانية انتقالا هائلاً فما زلنا نُصم آذاننا ونُغمض عيوننا ونقفل عقولنا ونوصد عواطفنا عن كل الحقائق التي تفتحت في الدنيا فبقيت ذهنيتنا كما كانت منذ مئات السنين بل زادت سوءاً إننا ندير الأمور المعقدة والعلاقات المتطورة بارتجال وبعقلية ما قبل هذه التغيرات النوعية الهائلة فالشعوب شرقاً وغربا تواصل انعتاقها من قبضة التخلف وتزدهر بينما الشعوب الإسلامية توغل في الانحدار خلافاً لما تقتضيه تعاليم الإسلام العظيمة وتتفاقم فيها حالة العجز ليس هذا فحسب بل أصبحنا عاجزين عن التلاؤم مع بعضنا فمنذ خمسة عشر عاماً والجزائريون يذبح بعضهم بعضاً بشكل جماعي فظيع وشنيع وكذلك فَعَلَ ويفعل الصوماليون والسودانيون والعراقيون والأفغان وغيرهم وليس الذي يجري من اقتتال وتخوين وتراشق بالتُّهم بين فتح ذات الكفاح العريق وحركة حماس الطارئة على المشهد سوى نموذج على الانتهازية والإجحاف الشديد

بحق المخالف وإطلاق التُّهم جزافاً دون إحساس بمسؤولية الكلمة وغياب الإنصاف والجور في التعامل والعجز الذريع عن التفاهم والاستهانة بقيمة الإنسان فَقَتْل الناس يجري بمنتهى السهولة وكأن الإنسان دون قيمة إن هذا الاقتتال البشع بين الفرقاء داخل المجتمع الواحد البائس هو أكبر دليل على وجود خلل جذري في بنيتنا الثقافية ولن نخرج من هذه المأساة إلا بإعادة تأسيس ثقافتنا وتكوينها من جديد بمكوِّنات جديدة تتخلى عن الرؤية الأحادية المغلقة وترتفع عن المغالاة في تزكية النفس وتأنف من دمامة ذاتها وتكف عن عشق هذه الذات الدميمة وترتقي عن حماقة تجريم كل الآخرين وتتخلص من رواسب وتراكمات الخصومات الثقافية وتستبدل ذلك بتبادل الاحترام وتعتاد على تحمُّل الاختلاف وتتربى على التعامل مع الذات ومع العالم تعاملاً عقلانيا راشداً وتخرج من حالة الطفولة الحضارية التي تجعل الأمة تتوهَّم أن كل شيء مخلوقٌ من أجلها...

■ **منذ أن ارتطمت طائرة محمد عطا في برج التجارة العالمية ونحن بالعالم العربي في حالة ارتطام منظم ما هو السبب برأيك؟**

- إن ارتطامنا بالغرب وبالحضارة المعاصرة الباهرة ليس مرتبطا بطائرة محمد عطا وإنما هو ارتطامٌ مزمن عاشه ويعيشه المسلمون منذ حملة نابوليون على مصر عند نهاية القرن الثامن عشر قبل أكثر من مائتي عام فقد فوجئنا بالتقدم الهائل الذي حققه الغرب حيث وثبتْ أوربا بالحضارة إلى مستوى جديد مختلف كليا عن الحضارات القديمة ولكن بدلاً من أن نُفيق من سباتنا بفعل هذا الارتطام ونتدارك ما فاتنا: نَكَصْنا إلى الخلف فتضاعف ارتباكنا وتفاقم عجزنا لأننا لم نحاول التعرف على

أسباب هذا التحول النوعي في الحضارة الإنسانية وإنما بقينا نكابر وندعي أن الغرب نهض بما اقتبسه منا!!! فإذا كان اقتباس الإزدهار يتحقق بهذه السهولة فلماذا عجزنا عن تقليد الغرب رغم مضي أكثر من قرنين على استخدامنا لكل منجزاته واستعارتنا كل علومه وتقنياته؟!! والغريب أننا لم نسأل أنفسنا: إذا كان الغرب نهض بما اقتبسه منا فلماذا لم ننهض نحن بهذا الذي اقتبسوه منا؟! ولماذا لم نستطع حتى أن نقلِّد المزدهرين رغم تطاول أزمان الإزدهار عند الآخرين؟!!!...

■ **كمفكر سعودي أنت تقوم بدور تنويري يشبه ما قام به ابن رشد ألا تخشى من ردة فعل عنيفة كتلك التي تعرض لها ابن رشد؟**

- إن عصرنا يختلف نوعيا عن عصر ابن رشد فقد طرأتْ على الحضارة الإنسانية تغيرات نوعية كثيرة فابن رشد كان يروِّج للفكر اليوناني في عصر كانت الحضارة اليونانية قد اختنقت واختفت فلم يكن أمامه نموذجٌ قائم مزدهر جيَّاش بالحياة وزاخرٌ بالحركة يحيل إليه وإنما كان يقدِّم فكراً محضاً بعد أنْ غاب النموذج الذي يمثله ومن الصعب على الناس أن يدركوا الفكر المحض دون تجسيد يُحسُّونه بل يحتاجون إلى نموذج حي يقيسون به فاعلية الأفكار أما المفكرون في هذا العصر فهم لا يقدِّمون أفكاراً محضة مفصولة عن آثارها الباهرة وإنما يتحدثون عن واقع جياش بالحركة وبالإزدهار فالإقتناع بما يدعون إليه لا يتطلب سوى إنفكاك الناس من أسر المسلَّمات الخاطئة ليروا الحقائق بمنتهى الوضوح...

■ **أنت تهادن المتشددين بدليل أنك لم تشتبك معهم أنت في التَّماس فقط هل تخشاهم أم هو تكتيك؟ ألا تعتقد أن المعركة بينك وبين**

التيار المتشدد هي معركة مؤجلة أي أنهم ينتظرون خروجك من مجلس الشورى؟

ـ لستُ في حالة مخاصمة ولا مهادنة مع أحد وإنما أنا واحدٌ من الذين يهتمون بأمر المسلمين ويُؤَرِّقني هذا الهمُّ «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» لقد تخلّف المسلمون تخلُّفا شائناً في كل شؤون الدين والدنيا وهذا التخلف العام أساء إلى دينهم وتدهورث به أحوالهم لذلك انشغلتُ طول عمري بالمقارنة بين ما يجب أن نكون وما نحن عليه فعلاً قياساً بما يقتضيه ديننا العظيم وما نملكه من إمكانات هائلة مهدرة وطاقات عظيمة معطّلة وأوصلني الإهتمام القوي المستغرق والبحث الطويل المتصل والتأمل العميق الدائم إلى التعرف على أسباب ازدهار الآخرين وأسباب تفاقم عجزنا ثم شرعتُ في الكتابة عما انتهيت إليه فما أكتبه وأتحدث عنه هو ثمرة انشغال طويل وبحث ممض واستغراق ممتد وليس هو من بادي الرأي ولا هو من القول المرتجل فلقد درستُ تاريخنا وتاريخهم وقارنت فكرنا بفكرهم ورؤانا برؤاهم ومواقفنا بمواقفهم وعلومنا بعلومهم لقدأمعنت في القراءة والدراسة والمقارنة وانتهيت إلى النتائج التي أتحدث عنها وأكتب. . .

أما عضويتي لمجلس الشورى فلم يمض عليها سوى أقل من سنتين بينما أنا أكتب بشكل منتظم منذ سبعة عشر عاماً فلا أجد أي سبب لربط نشاطي الفكري بعضويتي بالمجلس. . وسواء كنت داخل المجلس أم خارجه فإن هدفي هو الإسهام في التوعية والتنوير فلست منحازاً لأحد ولا مخاصماً لأحد وأعتقد أن أي متابع لمسيرتي الفكرية والإدارية والشخصية يعرف حرصي على الحق والتزامي به بقدر ما أستطيع وهذا

لا يعني أنني مصيبٌ في كل ما أطرح وإنما يعني أني أتحرى الصواب وأعلنه بوضوح ودون تردد وأُبدي استعدادي للتراجع عن أي رأي أو موقف يتضح لي خطؤه سواء حصل اكتشاف الخطأ بجهد ذاتي نتيجة البحث والإستقصاء أم نبَّهني إليه آخرون ثم تحقَّقْتُ من حصول الخطأ فعلاً لذلك لست في معركة مع أي طرف ولا مع أي شخص...

■ **أنت خرجت من قلب البيئة النجدية ومع ذلك فأنت تخالفها في الكثير من أدبياتها ألا يدخل هذا في العقوق؟**

- إن الإخلاص والأمانة يقتضيان الصدق في النُّصح والمصارحة في تشخيص الآفات وعدم إخفاء العلل فليس من الوفاء لأهلك وقومك ووطنك وأمتك أن ترى الخطأ وتسكت عليه ولا أن تعرف الخلل ولا تبادر بتعريته فهذا هو الذي يضمن سلامة الوطن ويحقق مصلحة الأمة ويُسهم في اطراد نمو المجتمع أما استرضاء المجتمع بالسكوت عن علله فهو خيانةٌ له واستهانةٌ بالحقيقة ومشاركة في تعميق وتوسيع الخلل...

إن التقدم يتطلب تجاوز المنجز وتخطي المتحقق إن الإزدهار لا يحصل تلقائياً وإنما هو ثمرة الإضافات المتتالية فإذا كان المثقفون من أبناء المجتمع يتوددون إلى أهلهم ويُخفون عنهم حقيقة سوءات الواقع ويوهمونهم بالإكتفاء بما هم عليه فإن هذا يعني تجمُّد الأوضاع واستمرار التخلف ودوام العجز وبقاء الاعتماد الدائم على الآخرين في الغذاء والكساء والدواء والوسائل والعلوم والفنون والتقنيات فنبقى عالة على أرضنا بدلاً من أن نعتمد على إنتاجنا وإبداعنا فالطاقة البشرية المبدعة والمنتجة هي الثروة الحقيقية المتجددة...

■ **تركي الحمد وغازي القصيبي وعبد الله الغذامي وعبد الرحمن الراشد البعض يرى أنهم يدفعون ثمن فاتورة المعركة بالوكالة عن المجتمع مع المتشددين وأنت ماذا تقول؟**

- بالعكس إن المجتمعات المتخلفة لا تنتدب مفكريها لتنويرها وإنما هي تقاوم هذا التنوير وتتهم القائمين به بالفساد والإفساد إن كل الأنبياء وكل المصحلين والمفكرين واجهوا الرفض والنبذ والتخوين فالمجتمعات ذات الثقافات المغلقة لا تتحمل أي رأي مخالف ولا تتيح أي فرصة لتبادل الآراء ومناقشة الأفكار وإنما هي ترفض الرأي المغاير دون مناقشة ودون معرفة فالرفض يأتي تلقائياً لذلك وصَفَ الرسول عليه السلام الرافضين للحق الذين لا يستجيبون إلا بعد معاندة وإبطاء بأنهم يقادون إلى الجنة بالسلاسل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يتحمَّل أذاهم ويواصل دعوتهم حتى يتبين لهم أنه الحق وبذلك يكون الإلحاح في الدعوة والإصرار على تحمُّل الرفض سبيلاً إلى انقاذهم وكذلك شأن المصلحين والمفكرين المخلصين يتحملون الأذى ولكن العاقبة للمتقين وهنا يجب أن أقول بأن المفكرين لا يدفعون فاتورة المعركة بالوكالة عن المجتمع المتخلف فالمجتمع لم يُسند إليهم هذه المهمة لأن المجتمع ما دام متخلفا فإنه لا يدرك قيمة الأفكار التنويرية لذلك فهو يقاومها بشراسة فالتنويريون يواجهون رفض المجتمع وأذاه من أجل تنويره والارتقاء به وما لم نتعامل مع المعضلة بهذا المنظار فسوف يظل تقييمنا للعقبات غير واقعي ويبقى جهدنا غير ناجع...

■ **بلا شك أن أمريكا نجحت في الماضي إبان الحرب الباردة في ضرب القوميين بالإسلاميين وهي الآن تعيد نفس التجربة في ضرب السنة بالشيعة؟**

ـ نحن دائماً نلوم الآخرين فنحملهم انشقاقنا وننسب إليهم عجزنا ونُعفي أنفسنا من المساءلة فنبقى عاجزين لأننا ننسب المشكلات إلى غير أسبابها الحقيقية إن التاريخ العربي مشحونٌ بالصراع على السلطة منذ بدايته فالاقتتال بيننا هو إقتتالٌ مزمنٌ قبل أن توجد أمريكا وقبل أن يكتشفها كلومبس!! كما أن تاريخنا غارقٌ بالنبذ المذهبي المتبادل والإقصاء الطائفي فنحن لا نعترف بحق الاختلاف ولا نقبل تنوع الفهوم فالأقوى يفرض دائماً رأيه ومذهبه واتجاهه وكلَّ عُقَده وقيوده على الأضعف ولا خيار للمقهور سوى الإستسلام أو تعريض نفسه لمزيد من المطاردة والمضايقة والإلغاء...

■ **المرأة السعودية الكل يدعي نصرتها والوقوف معها لكن في المحصلة هناك من يرى أنها لا زالت تقبع في غرف خلفية معزولة أنت كيف ترى وضع المرأة السعودية؟**

ـ معضلة المرأة هي فرع من معضلة أكبر فالإنسان العربي (الرجل والمرأة) كان وما زال مسلوب الفردية ومعطَّل الإرادة ومحروماً من الحرية فهو كائن مبرمَج تسيِّره الأهواء وتتلاعب به الاتجاهات فإذا استعاد الإنسان العربي فرديته استعادت المرأة وضعها الطبيعي تلقائيا كمخلوق مسؤول له حق الكرامة والأهلية فيجب أن تُعالج المعضلة من جذورها ويتحقق ذلك بالاعتراف بالإنسان الفرد وبأهليته سواء كان رجلاً أم امرأة...

■ **ألا تعتقد أن وجود القطاع القبلي والقطاع الديني المتشدد بهذه الحيوية هو دليل صارخ على فشلنا في بناء نسيج اجتماعي واحد ينتمي للوطن فقط؟**

ـ المجتمع المتحضِّر هو المجتمع المفتوح القائم على احترام الفرد فهو يتكوَّن من أفراد وليس من قبائل فكلُ فرد هو كيانٌ قائم بذاته وليس مجرد خلية مبرمَجة في جسم القبيلة أو الطائفة أو الفئة أما المجتمع المغلق ثقافيا فإنه يبقى مجتمعاً بدائيا غير متحضِّر مهما تكاثرت لديه مظاهر الحضارة فالفرد ذائبٌ في القبيلة أو المذهب أو الطائفة إن المطلوب ليس دمج الكل وصهرهم كخلايا الجسم أو خيوط النسيج أو قطع الآلة وإنما المطلوب الارتقاء بوعيهم وبحسهم الأخلاقي والتزامهم الوطني ليصيروا أفراداً متميزين وملتزمين اختياراً لا ملزمين إرغاماً ومندفعين باقتناع ذاتي لا مدفوعين رغماً عنهم. . .

■ افتعال معركة قيادة المرأة ألا تعتقد أنها أصبحت معركة باهتة تجاوزها الزمن؟

ـ يجب أن تُعالج المعضلات بإزالة أسبابها أما التركيز على عَرَض من أعراضها فهو اتجاهٌ خاطئ يحجب أساس الإشكال ويصرف الانتباه عن مصدره ويستغرق الإهتمام ويستنزف الطاقة دون نتيجة لذلك فإن الإنشغال بمسألة قيادة المرأة للسيارة يُشبه أن يكون لديك سيارة دون محرِّك أو محركها في حالة عطالة فتنشغل بإصلاح الإطار وتنصرف عن الإهتمام بإصلاح المحرك فيجب إيجاد المحرك أولاً ثم استكمال التوابع إن الإنشغال بالمسائل الجزئية يفاقم المشكلة ولا يحلها أما إذا انحلت القضية الأساسية بإعادة الإحترام إلى الإنسان الفرد والاعتراف بأهليته وتحميله مسؤولية ذاته والتعامل معه على أساس هذه الأهلية فإن كل المسائل الجزئية تنحل تلقائيا فينبغي استئصال سبب المرض وليس التركيز على عرض من أعراضه. . .

■ **يرى البعض أن التشدد خلال العقود الماضية قد اربك حراكنا الثقافي وأصابه بالشلل والنكوص حتى إن البعض يرى أننا عشنا مرحلة عقيمة بدليل أنها لم تخلف أيّ إبداع لا في الفن ولا في السياسة ولا في الأدب؟**

ـ الشرط الأول للإبداع في أي مجال هو الحرية الملتزمة فطاقات الإنسان تتجمّد في حالة فقدان هذا الحق المبدئي ومن المعروف أن الإنسان العربي كان وما زال محروماً من هذا الشرط الأساسي فالتجربة الوحيدة التي أتيح فيها للإنسان العربي التدرُّب على ممارسة الحرية هي التجربة التي جرت في مصر في النصف الأول من القرن العشرين فقد كانت الحريات بمصر مكفولة وكانت الليبرالية تتوطَّد لكن استيلاء العسكر على السلطة قضى على هذه التجربة الوليدة وأخمد الحريات فعاد الاستبداد وانتشر الفساد وتعطَّل العقل وتراجع الفكر ثم جاءت كارثة عام ١٩٦٧ بفلسطين فأربكت العقل العربي ثم اندفعنا في الترويج للأفكار الجهادية أثناء احتلال الاتحاد السوفييتي لأفغانستان فأخذت الأفكار التكفيرية طابعاً عمليا ودخل العالم في دوامة العنف التي شوَّهت الإسلام وأربكت الحياة وأغلقت منافذ الرؤية وأدَّت إلى تقليص الحريات في كل العالم واضطرت الديمقراطيات إلى إعادة القيود والإبطاء في الحركة وإحلال الريبة محل الثقة فتَعَقَّدَتْ الأمور وطالت الإجراءات وارتبكت حياة الجميع في كل الأقطار . . .

■ **غياب منظمات المجتمع المدني ألا ترى أنها زادت أعباءنا أعباء فوق أعباء المرحلة الراهنة؟**

ـ المجتمعات العربية في كل تاريخها لم تعرف منظمات المجتمع

المدني بل هي مجتمعات عشائرية أو فئوية أو طائفية أو مذهبية لذلك يكون انتماء الفرد للقبيلة أو الفئة أو المذهب وليس للوطن ولا للمجتمع إن منظمات المجتمع المدني إبداعٌ غربي محض وهي من أهم عوامل التقدم الإجتماعي والإزدهار العلمي والتقني والإقتصادي إنها أحد نتائج النزعة الفردية في الثقافة الغربية فالفرد الغربي نَقَلَ انتماءه من الانتماء للقبيلة إلى الانتماء للوطن الواحد وانضوى في هذه المنظمات المدنية التي تحشد طاقة المجتمع لخير الجميع وليس لفئة دون أخرى...

■ **ثقافة المقهى في بعض الأقطار العربية كانت تمثِّل مركز تواصل جماهيري تولد منها ذاكرة المثقف وتتفتق بالعطاء؟**

- لم يعتد المثقفون في المملكة العربية السعودية على ارتياد المقاهي كما أن المجتمع لم يوجدها ولم يعتدْ عليها لكن المثقفين هنا استعاضوا عنها بالمنتديات المنزلية مثل ندوة المبارك وندوة المشوح وندوة القحطاني وغيرهم ولكن معضلتنا الثقافية أكبر من هذه المنتديات فنحن بحاجة إلى إعادة تكوين ثقافي شامل وهذا يتطلب وجود توجُّه عام تلتزم به كل مؤسسات التعليم والتربية والإعلام والمنابر...

■ **كونك شغلت عدة مراكز رسمية بالتأكيد تربى بداخلك رقيب هل تكتب بالتفاهم مع هذا الرقيب أم أنك تتمرد عليه؟**

- في العالم العربي وفي كل الثقافات المغلقة ذات المسلَّمات الراسخة لا يستطيع الإنسان أن يتخلَّص من الرقيب إن الفرد العربي يمتص تلقائيا من البيئة منذ ولادته منظومة لا تنتهي من الممنوعات بل إن كل ما حوله يوحي له بأن المنع هو الأصل وأن الإباحة هي الاستثناء...

ومَن يستمع إلى الأسئلة التي يوجهها الناس إلى المشائخ في البرامج الدينية في الإذاعة والتلفزيون أو يطلع على الفتاوى المعاصرة المطبوعة يلحظ بمنتهى الوضوح أن الناس أصبحوا يسألون عما هو معلوم الإباحة مما يدل على أنهم قد تشرّبوا فهماً خاطئاً بأن المنع هو الأصل وأن الإباحة هي الاستثناء. . .

■ **نحن في الأقطار الخليجية نعتمد على البترول وقد استنزفناه فماذا ماذا نقول لأجيالنا القادمة؟**

ـ هذه معضلة كبرى لكنها لم تنل اهتماماً كافياً فهذه البيئة القاحلة لم تَعُدْ أرضاً خالية كما كانت خلال القرون وإنما امتلأتْ بالمدن واكتظت بالبشر فأصبحت المسؤولية هائلة لتوفير مصادر رزق دائمة ومتجددة بعد نضوب البترول أو حين تنخفض أسعاره أو حين يوجد عنه بدائل رخيصة فهذا التغيُّر الكبير في النمو السكاني وفي الرخاء المؤقت لم يكن حاصل إنتاج الناس وإنما هو نتاج مخزون الأرض وهو مخزون ناضب فلا يمكن الاعتماد عليه فحين تراجعت أسعار البترول قبل سنوات انكشفت هشاشة البناء الإقتصادي للبلدان الخليجية ولكن هذه الصدمة القوية بل المروِّعة لم توقظنا لخطورة المستقبل فما زلنا نستنزف البترول بغزارة ولم نوجد البديل لمواجهة متطلبات النمو السكاني الكبير الذي لم تكن البيئة الصحراوية مهيأة له. . .

إن التنمية أحياناً تأخذ مسارات خاطئة فمن البداهات الصارخة أن التنمية الزراعية في بيئة صحراوية قاحلة محرومة من الأمطار والأنهار هي تنمية غير مجدية وغير اقتصادية بل إنها ضارة لأنها استنزفت مخزون الماء واستنزفت أيضا الكثير من الأموال التي أغدقتها موارد

البترول واستنزفت الجهد والإهتمام والطاقة والوقت وبهذا كانت الخسارة فادحة ولو أن هذه الأموال الضخمة والجهود والطاقات والإهتمامات استُثمرتْ في المجال الصناعي لكانت النتائج عظيمة ولبقينا نحتفظ بمخزون المياه الثمين الذي جرى إهداره في زارعة موسمية شديدة الشراهة استنزفت الماء واستهلكت الأموال واستغرقت الإهتمام دون أن يبقى لها أي أثر مستمر . . .

■ **جفاف الصحراء وصلادتها وقسوتها جعلت من المرأة ملاذا يحتمي به الرجل من عناء يومه الجاف والرتيب أمَن الأسباب هذه جاءت حساسيته المفرطة تجاه المرأة؟**

ـ إن هذه الصحراء القاحلة المحرومة من الأمطار والأنهار كان أهلها محرومين من لين العيش ومن طراوة المناخ ومن بهجة الخضرة ومن راحة البال وكان الإمساك برمق الحياة في حدِّ ذاته إنجازاً عظيما فلا يجد الرجل أمامه شيئاً جميلاً ورقيقاً وعذبا يريحه من هذا العناء ويحسُّ معه بلذة الوجود سوى المرأة إن كل حياته جفافٌ وجفاءٌ وخشونه وخوف إنها صراعٌ على لقمة العيش وتزاحمٌ على شربة الماء إنها تعبٌ ممضٌ وجوعٌ دائم وظمأٌ مقيم وتوجُّس مستمر ووسط هذه القسوة الشديدة في الطبيعة يجد الرجل في المرأة الجمال والأمان والنعومة والرقة والحنان والحب والراحة ودفء المشاعر وعن طريقها يدخل إلى عالم مختلف كليا عن كل ما يحيط به إن عذوبة المرأة نشازٌ على البيئة القاحلة فالرجل مع المرأة ينتقل إلى دنيا حانية زاخرة بالعذوبة والليونة تعوِّضه وتخفِّف عنه جدب الصحراء ووحشتها وخشونتها وصعوبة الحياة فيها لذلك اهتمَّ بها كل هذا الإهتمام وخاف عليها كل هذا الخوف وتعلَّق بها كل هذا

التعلُّق ويبالغ في الخوف عليها والخوف منها مبالغة مفرطة إلى درجة تكاد تُفسد عليها حياتها وتخنق أنفاسها إنه بعلاقته بالمرأة يعيش مفارقة هائلة فحين يقارن كل مفردات حياته يجدها شقاءاً فادحاً وحين يأوي إلى المرأة يجد نعيماً سابغاً فأصابته هذه المفارقة بالهوس واختلال التوازن فبقي نحوها متأجج العاطفة حريصاً بأن لا ترى أحداً ولا يراها أحدٌ ولو استطاع لَوَضَعَها في صندوق مُقْفل ولا يفتحه سواه فهي عنده كائنٌ زاخرٌ بالإغراء والإغواء وهي الشيء الوحيد الذي ذاق فيه طعم الحياة في هذه البيئة المريرة القاسية وإذا كان سكان الصحراء الآن يعيشون رخاء طارئاً جلبته لهم موارد البترول فإن مساغب الصحراء رغم كل مظاهر الحضارة والرفاه ما زالت تتفاعل في أعماقهم فهم نتاجها وهي صاغت أخلاقهم وحدَّدت اهتماماتهم إنها ما زالت سارية في عروقهم ونابضة في وجدانهم ومسيِّرة لتفكيرهم وطابعة لأخلاقهم. . .

■ **ما مدى إيمانك بالفنون الإنسانية مثل الرسم والمسرح وغيرهما من الفنون الحديثة؟**

- الرسم تجسيدٌ للجمال والمسرح تجسيدٌ للأفكار وهما معاً من أشد الوسائل فاعلية في التثقيف والتنوير إن ثقافة الغرب صارت غنية كل هذا الغنى ونامية كل هذا النماء بسبب تعدُّد الروافد وتنوع العناصر إن الرسم والمسرح يخاطبان الجميع ويفهمهما كل الناس لذلك كانا من أشد الفنون تأثيراً إن تأثير شكسبير في ثقافة الغرب لا يقلُّ عن تأثير فرانسيس بيكون كما أن تأثير دافنشي لا يقلُّ عن تأثير جاليلو. . .

■ **هل أنت لبرالي في حياتك ومع أسرتك؟**

- نعم إنني أتعامل مع أولادي كأصدقاء وشركاء إن أهم شيء تقدِّمه

لأولادك هو أن تربيهم على الشعور التام بذواتهم فتعترف لهم بفردياتهم وبحقهم في الاحترام والكرامة فالإنسان بفرديته وكرامته والشعور بأهمية وجوده فإذا حُرم من هذه الحقوق حُرم من ذاته وسُلب معنى وجوده فهو مكلف من الله بوصفه فرداً مسؤولا ومستقلاً وليس بوصفه تابعاً فيجب أن يتمتع الإنسان بفرديته وأن يتحمل مسؤولية ذاته وأن ينال الاعتبار الذي يستحقه بوصفه إنساناً كامل الأهلية. . .

ومثلما أُعامل أولادي بهذه الرؤية الليبرالية أتعامل أيضا مع الآخرين بما أحب أن يعاملوني به سواء كان الآخرون أصدقاء أو زملاء أو جيراناً أو جمعتني بهم الظروف لأي سبب وكذلك حين كنت مسؤولاً في القطاع الحكومي كنت أتعامل مع الجميع بهذا المعيار لكن يختلف الناس في فهم الموقف وفي تقدير الرؤية بحسب اختلاف الفهوم والتربية والأخلاق. . .

■ **في ظل هذه المناخات العالمية غير المستقرة إلى أين نحن سائرون؟**

- إن الإنسانية تتحرك نحو المزيد من الانفتاح والمزيد من العالمية والمزيد من التضامن والمزيد من التوحُّد والمزيد من تبادل الاحترام وإشاعة الثقة إنها تنشد المواطَنة للجميع وتدفع نحو التآخي الإنساني وتتشارك في المغانم والمغارم ولكن المجتمعات ذات الثقافات المغلقة هي التي تعوق هذه المسيرة الإنسانية العظيمة. . .

إن المجتمعات العربية بهذا التكوُّر حول الذات وبالإنفصال الذهني والعاطفي والأخلاقي عن ثقافة العصر تعيش خارج المسيرة الإنسانية إنها في رؤيتها ومواقفها وفهمها للحياة والأحياء وفي قيمها وفي عجزها عن فهم الآخرين وعدم قدرتها على استيعاب المتغيرات النوعية التي طرأت

على الحياة الإنسانية إنها بكل ذلك وغيره: تُمَثِّل نشازاً على ثقافة العصر إنها عاجزة عن إدراك اتجاه الركب الحضاري فضلاً عن عجزها المطلق عن فهم منطلقاته أو القدرة على مزاحمته إنها مأساة حقيقية لنا وللعالم الذي نعرقل مسيرته بممانعتنا العنيدة والغبية...

لقد تغيَّر العالم تغيرات نوعية هائلة ولكننا لم نفهم شيئاً من هذه التغيرات فضلاً عن أن نتمكن من الأخذ بها وأكبر مثال على هذه التغيرات النوعية في الحياة البشرية أن أوربا التي أمضت القرون وهي تتقاتل ودخلتْ في القرن العشرين في حربين عالميتين فظيعتين ورغم كل ذلك هي الآن تتحد...

إن الغربيين يعترفون بأخطائهم ويعلنون شناعة تلك الأخطاء فيعتذرون عنها ويلتزمون بأن لا يعودوا لارتكابها وهذا هو الفرق بين الثقافات التي تؤمن بأولوية الخطأ والاستعداد للتخلي عنه والثقافات التي تستنكف من الاعتراف بالخطأ فتصرُّ عليه فالغربيون يخطئون مثل كل البشر لكنهم يعترفون بالخطأ ويتحاشون تكراره أما نحن فنتعالى على الاعتراف بالخطأ فنزداد تشرذماً وننحدر إلى مستوى التقاتل الطائفي والتنابز العشائري والتناحر الحزبي ولا نعرف سوى لغة القوة ومنطق التخوين وأسلوب الإستبداد: إنما العاجز من لا يستبد.. فالمنطق السائد هو: لنا الصدر دون العالمين أو القبر.. وإذا متُّ ظمآنا فلا نزل القطر...

ومن السخف التهوين من اتجاه أوربا إلى الاتحاد بالتذكير بالحروب الأوربية المتكررة التي ختموها بحربين عالميتين فظيعتين لأن التغلُّب على تلك الشارات هو المعجزة بعينها فليس من المنطق ولا من

الموضوعية ولا من الانصاف نَبْز أوربا بماضيها التاريخي لأنها قد تغلَّبَتْ على ذلك التاريخ وأنجزت ما هو مخالفٌ له تمام المخالفة فليس عيباً أن نخطئ ولكن العيب كل العيب أن نصر على الخطأ وأن نغلق الأبواب عن الإمكانات والبدائل والخيارات فأوربا اعترفت بحماقة الاختلاف وأدانت الحروب وسفَّهَتْ الإقتتال وسعتْ بأن تضع نهاية للتاريخ القديم المظلم وأن تؤسِّسَ تاريخاً مجيداً مشرقاً تعيشه الأجيال بهناء وأمن ورفاه. . .

خمسٌ وعشرون دولة تتخلى عن عصبيات الأوطان وعن حواجز الحدود وعن أوهام السيادة والخصوصيات فتتخذ عملة واحدة وتتجه نحو المزيد من الاندماج ولم يمنعها من ذلك اختلافُ المذاهب ولا تعدُّد اللغات ولا ثارات التاريخ ولا الاختلافات الشديدة في المستويات الإقتصادية ولا كثرة العوائق لقد خلَّفوا وراءهم تلك التراكمات البدائية وتجاوزوا خلافات الماضي وأنشأوا لأنفسهم كياناً عملاقاً يطاولون به العالم ورغم التفاوت الشديد بين أعضاء الاتحاد الأوربي وما ينجم عن ذلك من خسائر لبعض المجتمعات فإن ذلك لم يقف عائقاً دون المضي في تكوين هذا الاتحاد الهائل فالأمم المتحضِّرة تتخذ القرارات بناء على مبدأ الترجيح بين المغانم والمغارم وتؤمن أنه لا يوجد خيرٌ محض ولا شرٌّ مطلق فالحياة الناضجة تقوم على الموازنة بين الخيارات ولا تخنق ذاتها بقيود خيار واحد مغلق. . .

إن الاتحاد الأوربي سيكون أعظم إنجاز بشري خلال التاريخ الإنساني كله لأنه ليس دمجاً بالقوة وإنما هو اندماجٌ طوعي إنه مفخرة

العصر وأعجوبة الدهر فالتغلب على تنافر الأهواء هو معجزة إنسانية هائلة. . .

إن هذا الإنجاز العظيم المدهش أعظم من غزو الفضاء ومن كل الكشوف والمخترعات ومن كل الفنون والإبداعات إنه الإعجاز الأكبر للثقافة الأوربية إن الشعوب المتخلفة لا تحلم بالمصالحة بين فئتين داخل المجتمع الواحد فكيف بشعوب مختلفة اللغات والمذاهب والتاريخ ومتباينة الأوضاع والإمكانات ولكنها مع كل ذلك تتحد إن هذا لمن أعجب العجب إنه الحدث الأعظم في التاريخ الإنساني كله. . .

حوار منشور
بجريدة القبس الكويتية
وجريدة الراية القطرية

أجرى الحوار

الأستاذ عبد الحي شاهين

■ **من يستعرض كتاباتك يجدها تتناول موضوعات شديدة التنوع فما هو الإطار الجامع أو الهدف المحوري لهذا التنوع؟**

- كل كتاباتي تستهدف الإقناع بضرورة إعادة بناء الثقافة العربية إن هذا هو الإطار الجامع لما أكتب إنني شديد الإقتناع بأن العرب لن يخرجوا من خندق التخلف ولن يُفلتوا من قبضته إلا إذا أعادوا بناء ثقافتهم بناء جديداً يستخدم مكوّنات حية ونامية تتناسب مع جيشان العصر وتحتفظ بالمقومات الأصيلة للأمة وتستفيد من التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية فما أكتبه هو دعوة لحوحة لإعادة التكوين الثقافي...

■ **إذن أنت تعتبر أن التكوين الثقافي الحالي هو العائق الأكبر للتنمية وأنه الحصن المنيع للتخلف.. فعلى أي أساس بنيت هذا الحكم الكبير القاطع؟!**

- إن الفشل العربي في هذا العصر على كل المستويات يؤكد ضرورة إعادة بناء الثقافة العربية فقد مضى على العرب أكثر من قرنين منذ اصطدامهم بالحضارة الحديثة ومنذ ذلك التاريخ وهم يحاولون التحديث

دون أن يحققوا أي قدر من النجاح بينما الشعوب في الشرق والغرب تتواثب نحو القمة إن العرب قد عمموا التعليم وأنشأوا الجامعات وأقاموا مدناً للعلوم والتقنيات وأوجدوا وزارات للبحث العلمي لكن كل هذه الجهود لم تؤد إلى تحديث العقل العربي ولا إلى تطوير المجتمعات العربية!!!بل إن ظواهر التخلف تتفاقم فلم نقف عند شناعات العجز التنموي بل انحدرنا نحو الأكثر سوءاً فاندلاع الإرهاب والإختناقات التي يعيشها العالم العربي والإسلامي في كل المجالات تقيم ألف شاهد على أننا نتراجع وننحدر باتجاه معاكس لحركة التحديث العالمية أليس مخجلاً أن لا تتمكن كل الشعوب العربية أن تحقق ما حققته سنغافورة؟!!! (وهنا أستدرك وأشيد بتجربة دبي)!!! وهذا يؤكد وجود حواجز قوية تحول بيننا وبين دخول العصر وتمنعنا من أن نستفيد من العلوم والأفكار ومن التطورات المذهلة في كافة المجالات؟!! وهذا الواقع يستوجب أن نتساءل بإلحاح: ما هو هذا العائق القوي الصامد بعناد الذي أوصد على عقولنا وحال بينها وبين الأضواء المعرفية الكاشفة...؟!!

■ **وأنا بدوري أعيد سؤالك: فما هو هذا السبب الذي جعلنا نحن العرب عاجزين عن تمثُّل مقومات الحضارة المعاصرة؟**

- إن حضارة العصر قد تأسست ونمت وتطورت على مقومات تختلف اختلافات نوعية عن الحضارات القديمة بما في ذلك الحضارة العربية لذلك فلن يستطيع استخدام هذه المقومات إلا الأمم التي تتعرف على التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية في هذا العصر وتتقبَّل هذه التغيرات وتتمثلها وتعيد صياغة ثقافتها وطريقة تفكيرها على ضوئها دون أن تتخلى عن مقوماتها الذاتية...

■ إنك حين تطالب بإعادة بناء الثقافة العربية فإنك تطلب عسيراً أو محالاً.. ألا يوجد حلول غير ذلك؟

ـ ليس من حل إلا إعادة تكوين ثقافتنا إن الإخفاقات العربية المتواصلة في هذا العصر تؤكد أنه لا يوجد سوى حل واحد هو إعادة بناء الثقافة العربية فهذه الإخفاقات العامة والمستمرة تؤكد أن العائق جوهري وأن الخلل بنيوي في طريقة التفكير ومنظومة القيم وأنماط السلوك إن المزدهرين قد أوجدوا مقومات الإزدهار من العلوم والأفكار والنظم والمناهج والتقنيات ونحن لم نستطع حتى أن نستخدم منجزاتهم استخداماً سليماً فنحن عاجزون حتى عن التقليد خارج نمطنا السائد؟!! فما الذي جعلنا بكل هذا الكلال والعطالة؟!! إن هذا السؤال المحوري هو الذي أوصلني إلى الإقتناع بأن البُعْد الثقافي هو الذي عَزَلنا وما زال يعزلنا عن جيشان الأفكار الحديثة وأضواء العلوم الكاشفة وأبقانا خارج مسيرة التاريخ المعاصر وجعلنا عالة على أرضنا نبيع مخزونها من البترول خاماً ونتباهى بعظمتنا ونتطفل على منجزات ومنتجات الآخرين فنحن نستهلك ولا ننتج ومع ذلك نتعامل بعقلية العائل المستكبر فنحن رغم كل هذا الجدب المعرفي والكلال العملي منتفشون ونتوهم الكمال لأنفسنا والكفاية لثقافتنا والإستغناء عن أفكار وعلوم الآخرين لذلك فنحن من الناحية الثقافية مازلنا مأخوذين بثقافة المشافهة أما الأشياء الجميلة في حياتنا مثل السيارات الفخمة والعمارات الشاهقة والمساكن الأنيقة والأجهزة المتطورة والرفاه الطارئ فهي من إنتاج اليابان وأوربا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندا وسنغافورة وكوريا فالفضل لله ثم للأرض التي احتفظت لنا بهذا المخزون المدهش (البترول) الذي جعلته

مخترعات الآخرين بهذه الأهمية ولولا ذلك لبقي في أرضه لا قيمة له. . . !!!

■ **أنت تكرر في كتاباتك وأحاديثك نقد التعليم في العالم العربي نقداً شديداً وتعتبره أشد المشروعات العربية فَشَلاً وتطالب بإحداث نقلة نوعية في محتوى التعليم وأسلوبه فهل أنت تعيد فشل التعليم إلى الحواجز الثقافية؟**

ـ نعم إن التعليم يكرس الثقافة السائدة ويبرمج الدارسين على ما يتنافى مع متطلبات التنمية إن كل جيل عربي يُمضي من حياته ربع قرن في التعليم هذا إذا اكتفى بالمرحلة الجامعية ومع هذا الإهدار الهائل في الأعمار والأموال والجهود فإن نتائج التعليم ما زالت هزيلة بل ربما أنها تسير في العرب في الاتجاه المعاكس للتنمية أي أنها تبرمج العقل العربي على الرفض العنيد الساذج لأفكار العصر وتدفعه إلى محاربة مقومات التنمية. إن العلم ليس معلومات وإنما هو رؤية واعية إنه أسلوب متحرك في التفكير والتحليل والتعليل فالمعلومات يمكن الحصول عليها بسهولة من آلاف المصادر وقد فشل التعليم في العالم العربي لأنه يتعامل مع العلم بوصفه معلومات ومسائل وحقائق ثابتة وهذه الرؤية تكرس الثبات وتغرس الاستسلام وتحجب إمكانات التغيير الهائلة. إن العلم تصحيحٌ لأخطاء النُظُم المعرفية السابقة له وهو تقويضٌ للأوهام وهو رؤية فاحصة وناقدة وانطلاقٌ في الكشف والإبداع والتحرر. إن مواصلة التعليم العربي لأسلوبه الحالي ستبقينا متخلفين كما نحن أما إذا أريد الإفلات من قبضة التخلف فلا بد أن نركِّز على تغيير طريقة تفكيرنا لتنفتح عقولنا فتتغذى من تدفقات العلوم وتستضيء بأضواء الأفكار. . .

■ صدر كتابك (بنية التخلف) منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً وقد صرّحت مراراً بأنك تعمل على إنجاز مشروع فكري شامل أعلنت عن عناوين أجزائه لكنك تأخّرت كثيراً في إصدارها ويسأل الكثيرون عن أسباب هذا التأخير ومتى يجدها القراء منشورة؟

ـ إن معضلات العرب والمسلمين هي معضلات كبرى ومزمنة فهذا العجز الشنيع الذي يعيشه العرب على كل المستويات يستوجب إمعان النظر في كل الإتجاهات والحفر العميق عن الجذور لهذه الأوضاع المتردية والبحث في أعماق وتفاصيل تاريخنا ومقارنته بتواريخ الأمم المزدهرة وتأمُّل ظواهر الواقع لتشخيص المرض واقتراح العلاج. . .

إن الرغبة في التحقُّق من صحة التشخيص قد استوجبت مني توسيع مجالات النظر والتعمق في الفحص وتقليب الرؤى فالخلل فظيع وعميق ومتعدد الروافد فلا بد من التعرف بوضوح على السبب الأساسي وكذلك على الأسباب الرافدة التي تغذي الخلل وتضمن له القوة والإستمرار والصمود. . .

إن إصدار الكتب ليس هدفاً في ذاته لأحرص على الإستعجال وإنما هو من أجل الإسهام في خلق رؤية للخروج من مأزق التخلف لذلك لم أهتم بسرعة الإصدار فالذي يهمني هو التحقق بالقدر المستطاع مما توصلت إليه لتكون الرؤية المقدمة إسهاماً أطمئن إليه. . .

■ لكنك أعلنت منذ سنوات عن عناوين الكتب التي ستصدرها وهذا يعني أن الرؤية قد تكوّنت لديك منذ مدة طويلة؟

ـ إن وضوح الرؤية للكاتب يختلف عن العمل على تقديمها للناس بصورة مفهومه ومقنعة ففكرة المشروع بأجزائه وتفاصيله كانت واضحة

في ذهني لكن تجسيد الأفكار على الورق يحتاج إلى وقت وجهد وليس المهم أن يُقدَّم بسرعة وإنما المهم أن يقدم ناضجاً أو على الأقل استفراغ أقصى الجهد لتلُمس الوضوح إنني حين انشغلتُ بالكتابة لم أحصر جهدي بكتاب واحد لأنجزه ثم أبدأ بالآخر وإنما انشغلت بأجزاء المشروع في وقت واحد وهذا سبب التأخير ففي الوقت الذي أعمل فيه لإنجاز كتاب (تأسيس علم الجهل) أعمل أيضا على إنجاز كتاب (عبقرية الإهتمام) لأنه مُكَمِّلٌ للكتاب الأول ومرتبطٌ به وكذلك أعمل في كتاب (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) لأنه يمثل الصورة المقابلة لبنية التخلف كما أنني أيضا أعمل على إنجاز كتاب (القيادة والاستجابة في الفكر والفعل) وبحوث أخرى كثيرة ومتنوعة كلها تحاول استكمال الرؤية حول أسباب الإعاقة الحضارية التي تكبلنا وعوامل الإزدهار الحضاري التي حلَّقت بالأمم المزدهرة لذلك قد تصدر كلها في وقت واحد أو في وقت متقارب. . .

■ **إذا أردنا تكثيف الرؤية المفصّلة وتقريبها للقارئ العربي هل يمكن أن تحدِّد لنا أقوى أسباب التخلف؟**

ـ ينهض التخلف على قاعدتين ويتحرك بقدمين: القدم الأولى هي الإنغلاق الثقافي والقدم الأخرى هي الاستبداد السياسي إنهما عاملان رئيسيان متداخلان يتبادلان التأثُّر والتأثير بشكل عضوي فالثقافة إذا هي لم تلتحم مع الاستبداد السياسي يمكن أن تنفتح وتتغذى من روافد الفكر والعلم فتزدهر لكن هيمنة السياسة على الثقافة هي التي تبقيها منغلقة فالسياسي هو الذي يدفع الثقافة للإنغلاق وإلى المزيد منه لتبقى عوناً له على البقاء والهيمنة فهو لا يستطيع الاستمرار على الاستبداد إذا انفتحت

الثقافة إنه يعتمد عليها في تبرير وجوده وفي مشروعية استمراره وفي أهلية قراراته وفي وجاهة ما يتخذه من أعمال وإجراءات وما يقرره من نُظُم وتعليمات. . .

■ **يتضح من هذا التحليل أن العامل السياسي هو العامل الأساسي الأول في استمرار التخلف لأنه هو الذي يستفيد من الإنغلاق الثقافي وهو الذي يدفع الثقافة إلى هذا الإنغلاق والإستمرار عليه والمزيد منه؟**

ـ إن الثقافة هي وسيلة الهيمنة وهي أداة الترويض إن الشعوب في الثقافات المغلقة يُشْبهون ركاب القطارات إن قائد القطار هو الذي يتحكم بالركاب فهوالذي يحدد زمان ومكان الإنطلاق والوقوف والسرعة والإبطاء والإتجاه لكن هذا القائد لا يتصرف من تلقاء نفسه وإنما يتصرف وفق تعليمات عليا لا يستطيع الخروج عليها ولا الإخلال بها ولا الحيدة عنها فالثقافات هي قطارات المجتمعات وقادة الثقافات هم قادة القطارات لكن القطارات وقادتها تتحكَّم بهم السياسة. . .

■ **ألا يؤكد هذا أن العامل السياسي وليس العامل الثقافي هو العقبة الكبرى التي تحول دون الانعتاق من أسر التخلف؟**

ـ إن تجارب الشعوب المزدهرة تؤكد أن الإزدهار مرهونٌ بالإنفتاح الثقافي فالإنسان لا يستكمل إنسانيته ويسيطر على ذاته ويمتلك قدراته وينمي مواهبه ويُطلق خياله وتنفتح أمامه الخيارات والبدائل إلا إذا كان غير مقيد أما التقييد الثقافي فإنه يديم العطالة التلقائية وتكون النتيجة الحتمية هي استمرار التخلف ولأن السياسة في ظل الثقافات المغلقة في كل زمان ومكان تريد الاستقرار وتحافظ على البقاء فإنها تحرص قدر الإمكان على أن تعرقل الانفتاح لتضمن استمرار الخضوع والطاعة

العمياء فتكون النتيجة دوام التخلف في كل المجالات حتى لو كانت السياسة حريصة على تحقيق الإزدهار الإقتصادي لأن الإنسان المقيَّد يبقى كليلاً في الفكر والفعل فالعقل لا يكون منتجاً إلا إذا كان غير مقَّيد لكن إذا تحقق الإنفتاح رغماً عن السياسة كما حصل في بلدان كثيرة فإن الإزدهار يتحقق مهما كان الموقف السياسي فيضطر السياسيون إلى التلاؤم مع التطور الثقافي وما يتمخض عنه لذلك يجب التركيز أولاً في التنمية على البُعْد الثقافي وتكثيف الجهود لإصلاح الثقافة فإذا صلحت ونمت فسوف تنمو كل القطاعات الفكرية والأخلاقية والعلمية والتعليمية والإدارية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والإعلامية وغيرها إن الثقافة هي عقل الأمة فإذا أشرق العقل أشرقت الحياة وازدهر المجتمع أما إذا بقي العقل أعمى فسوف تبقى الحياة عمياء ويظل المجتمع متخلفاً ومن أوضح الأمثلة على ذلك تخلف اسبانيا أيام استبداد فرانكو ثم قفزتها التنموية الهائلة بعد أن تخلصت من الاستبداد وكذلك تخلف أمريكا الجنوبية المكبلة بالنُظُم المستبدة ويقابله ازدهار أمريكا الشمالية بنظامها الحر ومجتمعها المفتوح وثقافتها النامية والشواهد الحية على ذلك كثيرة. . .

■ **كيف إذن نحدّد العلاقة بين الثقافة والسياسة؟**

ـ إن العلاقة بين الثقافة والسياسة هي علاقة ملتبسة فالثقافة هي التي تصوغ العقول وتحدّد القيم وتصنع الإهتمامات وتشكل العواطف إنها قوالب التفكير والوجدان والسلوك فالثقافة هي الكل أما السياسة فليست سوى قطاع واحد من هذا الكل لكنه قطاعٌ فاعل وقوي وشديد الفاعلية في الثقافات المغلقة إن الثقافات أقدم من كل الدول ولكن السياسيين

استخدموها منذ آلاف السنين فروّضت لهم الأمم فالسياسيون دون عون القيادات الثقافية لا يستطيعون السيطرة على الشعوب ولا ممارسة السلطة بفاعلية فالأنظمة السياسية في المجتمعات غير الديمقراطية هي التي تصوغ الثقافة وتستخدمها لتطويع المجتمعات والتحكم بالناس فإذا تحررت الثقافة من تدخل السياسة صارت قادرة على التفاعل مع معطيات العصر فتتغذى من الثقافات المزدهرة وتزدهر. . .

لكن هذا لايمنع من التأكيد على حقيقة أن الإنغلاق الثقافي هو الأسبق في الوجود فالعمى الثقافي والتعصب بأنواعه ومستوياته والإندفاع العاطفي وهيجان الجماهير العمياء وكل آفات الإنغلاق الثقافي موجودة قبل وجود الدول فالعرب مثلاً في الجاهلية كانوا يعيشون انغلاقاً ثقافياً شديداً رغم أنهم كانوا دون دولة فالقبيلة تستبد بأفرادها وتنغلق عن غيرها وتتمايز عن القبائل الأخرى وهذا يؤكد أن التخلف الثقافي هو الأصل وأن الاستبداد السياسي هو ناتجٌ من نواتج الإنغلاق الثقافي ولكن هذا لا ينفي أن السياسيين منذ عصور التاريخ السحيقة قد استخدموا الثقافة لإعطاء المشروعية لأي فعل يقترفونه والتبرير لأي قرار يتخذونه فخلال تاريخ حضارات الشرق ظلت الثقافة تابعة للسياسة ومنفعلة بها ومستجيبة لها ومتذبذبة معها أما في حضارة الغرب باستثناء فترة القرون الوسطى فإنه منذ الحضارة الإغريقية قد انقلبت العلاقة فصارت السياسة تابعة للثقافة ومن هنا نشأ هذا التباين النوعي بين الشرق والغرب. . .

إن السياسات الاستبدادية في كل زمان ومكان تدفع الثقافات إلى المزيد من الإنغلاق لأن الوعي الناضج لا يقبل الإستبداد لكن السياسي قد يجد نفسه ضحية الإيغال الشديد في الإنغلاق الثقافي فيحاول التدارك

لكن الثقافة حين توغل في الإنغلاق يصعب على السياسي إعادتها إلى الاعتدال فتتصدع العلاقة بين الثقافة والسياسة وقد تنفجر الأوضاع انفجارات مدمِّرة فعقل المجتمع حين يتبرمج على التعصب والإنغلاق والإندفاع تصعب إعادة برمجته نحو التسامح والإنفتاح والتعقل لكنها مهمة رغم صعوبتها البالغة ليست مستحيلة إذا ووجهت بوعي وتخطيط وجهد عام كثيف...

■ **هل ترى أن المثقفين العرب لم يقوموا بواجبهم تجاه مجتمعاتهم؟**

ـ إن المثقفين في المجتمعات المفتوحة هم قادة الفكر فالمجتمعات المزدهرة تعترف لهم بهذا الدور القيادي وتستجيب لأفكارهم وقد أتاح لهم هذا الاعتراف أن ينهضوا بدورهم القيادي بكل اقتدار فصار لهم تأثير كبير على مسيرة الحياة أما المجتمعات المغلقة فلا تعترف للمثقفين إلا بدور التابع بل بالمكان الهامشي أو المنبوذ أو الممدان فكيف يقود المجتمع من ينبذه المجتمع؟!! إن المثقفين لا يملكون سوى الأفكار والحقائق وهم يؤمنون بمبدأ الإقناع لكن المجتمعات العربية اعتادت أن تنقاد بالإخضاع وليس بالإقناع والأسوأ من ذلك أنها ترتاب بالمثقفين وتشكك في أهدافهم وتخاف من أفكارهم فهي تستجيب للواعظ أو المحرض العاطفي لكنها لا تستجيب للمفكرين لأنهم يخاطبون الناس بالعقل وبمنطق العلم ويعتمدون على حيثيات موضوعية لا يفهمها أغلب الناس وتتناقض مع الكثير من مفردات السائد فيرفضها الناس لأنهم مبرمَجون على المألوف لذلك فإن المثقفين لا يلامون حين يبقى تأثيرهم هامشيا فالعيب في الثقافة التي برمجت الناس على الرفض المطلق لأي فكر طارئ والمسؤولية على السياسات في العالم العربي التي كرست

هذه البرمجة وضيقت مساحات الحرية آماداً طويلة مما حصر جهد المثقفين بمخاطبة أنفسهم وقد ينتهون إلى نتائج أشد سوءاً حين يضطرون بأن يتخلوا عن قناعاتهم ويندمجون في الأوضاع القائمة طلبا للسلامة أو بحثا عن لقمة العيش فيشاركون في الترويج لمفاهيم الثقافة السائدة فالمثقف العربي لا حول له ولا قوة ولا يملك سوى فكره وقلمه إن بضاعته هي الأفكار لكنها بضاعة في العالم العربي كاسدة وخاسرة ومع هذا الكساد فهو كغيره من الناس له احتياجات وعليه في الحياة مسؤوليات ومرتبط بأسرة مثل غيره من البشر وبهذا يكون التحدي أكبر من طاقته فالمجتمع لا يقبل بضاعته وفُرَصُ الحياة مرهونةٌ بالتفاعل مع المجتمع ومع نُظُمه التي تُكبله فتنسد أمامه آفاق العيش وتزداد حالته سوءاً فيأخذه اليأس وتدفعه الحاجة إلى الاندماج في الوضع القائم ثم قد يستمرئ التكيف وقد لا يكتفي بذلك فيستطيب مكاسب الإندماج فيندفع للدفاع عن الثقافة السائدة شأن الشعراء العرب في كل العصور وفي الحالتين يعيش المثقف مأزوماً: فهو في الأولى منبوذٌ ومهمَّش وفي الثانية يعمل ضد قناعاته أما في المجتمعات المزدهرة فإن المثقف ينعم بمكانة عالية وبضاعته ذات رواج هائل فعوائد كتاب واحد تغنيه عن أي عمل آخر وتتيح له التخفف من أعباء العيش فيتفرغ لفكره ولا يتحكَّم به أحد!!! . . .

■ **كيف كانت مساهمة عملك الطويل في المجال الإداري في اكتشاف المزيد من حالات الاختلال الذي يعوق التقدم؟**

ـ أتاح لي العمل الإداري الطويل أن أعمل بمختلف مناطق المملكة وأن احتك بالعاملين من جنسيات مختلفة فوجدت أننا نحن العرب أقل

الناس انضباطا وأضألهم إنتاجاً وأبعدهم عن الإتقان فنحن أمة لا نُنتج وإذا انتجنا لا نُتقن ومع ذلك فنحن فخورون بأنفسنا وليس أكثر من مطالبنا ولا أشد من شكوانا فالأقل نفعاً هو الأكثر إلحاحاً وتذمُراً لذلك ينال المشاغبون في القطاع العام أكثر من حقوقهم ويعرقلون مسيرة الأداء ويستمع الناس إليهم بلهفة لأنهم يحبون التشنيع فثقافة الهجاء راسخة في الثقافة العربية وكلما كانت الوقيعة أبعد عن الحقيقة وتمس الأكثر نقاء كان التلهف إليها أشد لأن الناس يبتهجون بإسقاط القمم ويفرحون بأن لا يبقى أحدٌ في منأى عن تلويث السمعة. كما اكتشفت من خلال الإحتكاك المباشر مع الناس شدة الطمع وقلة الإنصاف وسهولة الاتهام للأبرياء وغلظة الطباع وهشاشة الأخلاق فالناس فيهم سعارٌ شنيع وأمام أطماعهم تتعرى النفوس على حقيقتها ويسقط الوقار المصطنع. أما على مستوى العاملين فبالإضافة إلى ضآلة الإنتاج وندرة الإتقان وضعف الإنضباط وغياب الإبداع والميل إلى الشكوى والتذمُر ومزاولة التثبيط فإن الكثيرين منهم لا يميزون بين المعلومات والمهارات فالجامعي يأتي في الغالب بمعلومات خرائطية غير واضحة حتى له نفسه لأنه حفظها من غير فهم فأغلب المعارف لا تتجسد في الذهن إلا بعد التطبيق فالفقيه إذا حج لأول مرة يحتاج إلى مرشد يعرف مكة والمشاعر حتى لو كان المرشد أميًا!! فالجامعي يأتي دون أي مهارات مهنية لكنه يستنكف أن يتعلم من الذين قبله فيبقى محروماً من المهارات العملية التي لا يمكن اكتسابها إلا بالممارسة لكن عدم التمييز بين المعلومات والمهارات جعلهم ينسون معلوماتهم ولا يكتسبون المهارات العملية التي يفتقرون إليها أصلاً...

■ **في إجابة سابقة أشدت بتجربة دبي فهل تتوقع أن تؤثر هذه التجربة على مسيرة التنمية في العالم العربي؟**

ـ نعم إن بوادر التأثير بدأت تظهر فعلاً فالعرب لا تؤثِّر فيهم نجاحات الشعوب والأمم الأخرى ولكنهم يتأثرون أشد التأثُّر ويغارون أشد الغيرة إذا سبقهم واحدٌ منهم لذلك فإن النجاحات الباهرة التي تحققت في دبي ستضطر الشعوب العربية إلى المحاكاة ومحاولة اللحاق يضاف إلى ذلك أن أمارة دبي خصَّصتْ مبلغ عشرة مليارات دولار للإبداع والمعرفة والتنمية البشرية وأنشأت مؤسسة لتوظيف هذا المبلغ الضخم لخير العرب وكل ما آمله أن تحصر نشاطها في اهتمامات فكرية تستهدف إعادة بناء الثقافة العربية أما إذا جرى إنفاق هذا المبلغ الضخم بنفس الإتجاهات والأساليب والرؤى التي ما تزال متبعة في التعليم في العالم العربي فسوف يضيع كما ضاعت أموال هائلة أُنفقت على التعليم خلال القرن العشرين ولم تثمر أي تحديث للعقل والفكر والأداء. . .

■ **وكيف تستطيع هذه المؤسسة الإسهام في إعادة تكوين الثقافة العربية؟**

ـ نحن نعيش عصر الإتصالات فقد أصبح بالإمكان التواصل مع كل الناس بسهولة وفاعلية أينما كانوا وفي أي وضع وُجدوا عن طريق الفضائيات والمواقع الإلكترونية والمدونات ورسائل الهاتف الجوال بالإضافة إلى المطبوعات والندوات والمؤتمرات واللقاءات المفتوحة والنقاشات الحرة فإذا استطاعت المؤسسة أن تحشد جهود المفكرين والباحثين وذوي الرؤى الحية بواسطة الفضائيات والوسائل الأخرى فسوف تتمكن من تقديم إسهام عظيم لإعادة بناء الثقافة العربية وإخراجها من حالة الإنغلاق القاتل وهذا هو النجاح الحقيقي والتنمية

الإستثنائية إن العرب بحاجة إلى أن يعرفوا تاريخهم معرفة موضوعية بخيره وشرّه وأن ينزعوا عنه الهالات التقديسية التي حجبت الحقائق وأثمرت الأوهام وأن يتعرفوا على واقعهم بمزاياه ونقائصه وأن يتخلصوا من هذه النقائص التي حسّنتها الألفة وأن يتفهوا التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية وأن يلتزموا بما تقتضيه وأن يدركوا أسباب استمرار تخلفهم فيقلعوا عنها وأن يعلموا عوامل إزدهار الآخرين فيأخذوا بها وهذا لن يتحقق إلا بجهد كثيف منظّم تتوفر له كل وسائل التواصل مع الناس وترعاه جهة قادرة على الإنفاق تستعين بأصحاب الفكر المستنير ورجال البحث العلمي الحقيقي المعروفين بالرؤية الموضوعية العادلة لكي ينشروا الحقائق كما هي دون إخفاء ولا تحيُّز ولا اندفاع وإنما يتواصلون مع الناس بصدق وإخلاص وحياد وموضوعية وهدوء سواء وهم يقدمون أسباب التخلف أو وهم يعرضون عوامل الإزدهار. . .

حوار منشور
بمجلة اليمامة

أجرى الحوار

الأستاذ شقران الرشيدي

■ **ما هو الشيء الخطأ.. في الزمن الخطأ.. في الوقت الخطأ.. في المجتمع العربي؟**

ـ ليس خطأً واحداً وإنما ركامٌ فظيع من الأخطاء فالإنغلاق الثقافي والاستبداد السياسي وتزكية الذات وتجريم المغايرين وأوهام الكمال وتقديس الماضي بكل سوءاته ورفض التعلُّم من تجارب الآخرين والاعتماد على التهييج العاطفي ومحاربة الفكر الناقد وعدم الاعتراف بالأخطاء والعمل على تبريرها وتحويلها مع الزمن إلى ممارسة عامة سائغة.. إن كل هذه المعوقات وغيرها كثير: قد أبقتنا نحن العرب مرتهنين لتراكم الأخطاء لأنه لا يجري تصحيح أي خطأ فلم يعذ ممكنا تمييز الخطأ الأفدح من الخطأ الأقل فداحة!!! إن الخطأ عنصر أصيل في التجربة الإنسانية ولايمكن الوصول إلى الصواب إلا بعد المرور بالخطأ فلابد من الاعتراف بأصالته ومحاولة تجنبه بقدر الإمكان فإنكار الخطأ ابتداء واستنكاف الاعتراف به هو جهلٌ فظيع ومعوّق كبير من معوقات التنمية ويؤدي إلى تراكم الأخطاء فالتعامل الواقعي مع الخطأ ضروري لنجاح المساعي التنموية...

■ **البعض يعتبرونك ظاهرة فكرية، وبعض (البعض) يرونك مجرد مثقف أصولي منبهر بالغرب.. ما تعليقك؟**

ـ إن هذا القول متناقض فكيف يكون الأصولي منبهراً بالغرب؟!!.. هذا أولاً.. أما ثانيا فإنه يجب التعامل مع الأفكار والرؤى وليس مع الأشخاص لتكون الأحكام أقرب إلى العدل لكننا مازلنا نحكم على أفكار الشخص من موقف مسبق عنه فلا نتجه مباشرة لنناقش الرؤى مناقشة موضوعية وإنما ننساق معه أو ضده بحكم مسبق فنهدر الحقيقة فكلُّ حُكم لا يقوم على دراسة موضوعية محايدة للموضوع محل التقييم هو حكمٌ جائر سواء كان مع المادحين والقادحين. وليس غريباً علينا نحن العرب أن نُصدر الأحكام جزافاً مدحاً أو قدحاً فنحن ورثة النقائض ومازلنا نوافق على أن أعذب الشعر أكذبه!!! إنني معجبٌ بإنجازات الغرب إعجاباً يتناسب مع عظمة هذه الإنجازات فلولاهم لكنا مازلنا أميين نعتصر الصخر الأصم ونستجدي الصحراء الجدباء ونركب الحمير ونستشفي بالكي...

■ **القفز خارج النسق الثقافي السائد.. هل يمنح الفرد هالة فكرية معينة؟**

ـ في المجتمعات المزدهرة يُكسب القفز خارج النسق هالة ومكانة لأن القفز ريادة ضرورية لابد منها للتطور الحضاري أما في المجتمعات المتخلفة فإن أي مخالفة للمألوف تُعرّض صاحبها للتجريح والتهميش والأحكام الجائرة لأن هذه المجتمعات لم تكتشف بعد أن التقدم الحضاري يتحرك على قدمين: قَدَم الإنتظام وقَدَم الإقتحام ونحن العرب محرومون من قَدَم الإقتحام فنحن منذ قرون ندور في نفس المكان على قَدَم واحدة مما أبقانا عاجزين عن فهم روح العصر وغير قادرين على

المشاركة في إنجازاته أما من يخرج منا عن النسق فإن نصيبه هو الرجم والرفض والتخوين والنبذ والإقصاء والأحكام المسبقة الجائرة ومن هنا استحكم التخلف فالقفز خارج النّسق والاستجابة له شرطان ضروريان لتحقيق التقدم. . .

■ **ألا يزال بعض مثقفينا يحملون شعورا (بالدونية) الثقافية من الآخر الغربي؟**

ـ الاعتراف بعظمة انجازات الآخرين الحقيقية ليس شعوراً بالدونية وإنما هو حُكْمٌ عادل ورؤية موضوعية فلا أحد يود أن يلغي السيارات والطائرات ليعود إلى الحمير أما الذين يروجون غير ذلك فيغشون الأمة ويطيلون أمد تخلفها. . .

■ **لماذا يعتقد البعض أنه يملك وحده الحقيقة. . ولا يريد أن يعترف بإمكانية وجودها أو جزء منها لدى الآخر؟**

ـ لأنه مسجونٌ بالبرمجة الثقافية ومصابٌ بعمى البصيرة ومكبّل بغرور الجهل المركّب فهو ساذجٌ ويجهل عُسْر التحقُّق ولا يعرف كيف يجري التثبت من الحقائق ولم يتمرس بالبحث الموضوعي الممحّص ولم ينشأ على ثقافة تتأسس على الشك والتمحيص وقد تشبّع بالجهل المركّب فهو لا يكتفي بأنه يجهل جهله وإنما هو مغتبطٌ بهذا الجهل ويتوهم أنه يختزن في رأسه أنصع الحقائق ويحترق تلهُّفاً إلى إرغام كل الناس ليعيشوا نفس الغبطة الواهمة ليس هذا فحسب بل إنه يرى أن المخالفين لا يستحقون الحياة وأنهم خطر على الوجود وقد يسعى لاستئصالهم وقد يضحي بنفسه لحماية الدنيا منهم وهذه أقصى درجات الجهل المركّب والسذاجة الممزوجة بالغرور الفج!!!

■ **الديمقراطية، والتوزيع العادل للثروة، وحرية التعبير، هل تعد هذه أبرز حقوق الإنسان في العالم؟**

ـ الديمقراطية هي أعظم ابتكارات الإنسان فبواسطتها تجاوزت المجتمعات الديمقراطية شرور الصراع العنيف على السلطة وتوصلت إلى التداول السلمي للحكم وحمت نفسها من احتمالات الحروب الأهلية ووقَتْ حياتها من ظهور الطغاة إن الديمقراطية ممارسة إنسانية راقية تتكفَّل بحماية حقوق الإنسان وتحفظ له كرامته إنها تتأسَّس على أولوية الإنسان الفرد والإعتراف بحق الاختلاف وتؤمن بالمساواة أمام القانون كما أنها تملك داخلها آلية رائعة لتصحيح الأفكار والممارسات والأوضاع فجدل الأفكار والوضوح والشفافية والنقد وصراع الاتجاهات يحقق العدالة ويعري الأخطاء ويكشف الزيف ويمنع التلاعب ويحول دون الفساد. . .

■ **ألا تزال ترى أن نقد المسلَّمات هو الشرط الأول والدائم للإزدهار؟**

ـ المسلَّمات تُلغي عقول كل الأجيال ولا يمكن استعادة هذه العقول المعطلة إلا بنقد المسلَّمات فالنقد هو مفتاح قدرات العقل وهو بوابة الإزدهار فإذا كان نقد المسلَّمات هو شرط التقدم فكيف نتخلَّى عنه؟!! إلا إذا كنا نريد استمرار التخلف ونهوى تحمُّل كل النتائج الفظيعة التي تترتب على ذلك. . .

■ **في حياة كل منا نقطة سوداء. . فهل تملك الشجاعة للحديث عن نقطتك؟**

ـ حين نحدِّد نقطة واحدة خاطئة فإننا بذلك نزكي أنفسنا فنزعم بأن حياتنا كلها سلسلة من الصواب وأن الخطأ حالة استثنائية وهذا منتهى

الغرور لأن الخطأ هو الأصل التلقائي في حياة البشر أما الصواب فيتطلب جهداً وهذه الحقيقة مصادمة لما اعتدنا عليه فنحن نتوهم أن الصواب في سلوكنا وتفكيرنا هو الأصل وأن الخطأ حالة استثنائية نادرة أو شاذة فيجب أن نصحح هذا الفهم الواهم وندرك أن الخطأ والنقص والجهل آفات ملازمة لكل البشر ولكن المهم هو المحاولة المستمرة لتجنُّب الخطأ وسد الفجوات وتقليل النقائص أما الكمال فهو محال على البشر. . .

■ **إلى أي مدى ساهمت الانقلابات العسكرية في منع الشعوب العربية من القيام بحركات تصحيحية حقيقية؟**

ـ الإنقلابات العسكرية ألغت نقطة البداية الصحيحة وحوّلت اتجاه السير الصحيح باتجاه معاكس تماما فبدلاً من البدايات الصائبة التي كانت تشير إلى مستقبل واعد للعرب جعلتْ تلك الانقلابات المجتمعات العربية تسير عكس حركة التقدم فأُصيبتْ بهذه النكوص الشنيع. . .

■ **الليبرالية في مفهومك. . هل هي عقيدة، أم بيئة، أم آلية لعرض الأفكار والمعتقدات؟**

ـ جوهر الليبرالية هو الحرية المنضبطة فلا وصاية على الناس إلا في حدود القوانين المنظمة للحياة فهي تقوم على مبدأ: دع الخلْق للخالق إنها ليست دينا ولا بديلاً عن الدين بل هي تجعل المتدينين متسامحين متحابين لا يمارس بعضهم الوصاية على البعض الآخر إنها بيئة منفتحة للتنشئة السليمة وهي فضاءات تفكير ومجال تداول ومنظومة قيم تحترم الإنسان وتلتزم بحقوقه وتوجب التسامح وتعترف بحق الاختلاف وهي البئية الأنسب لتطبيق تعاليم الإسلام العظيمة وإقامة العدل الذي أراده الله. . .

■ **كيف استطاعت ثقافة العنف (تحبيب) القلوب الغضة في الموت والدمار والتفجير؟**

ـ لأن العقل البشري قابلٌ لأي صياغة فهو يحتله الأسبق إليه ومنذ الطفولة ونحن نشحن أطفالنا بكره الآخرين والدعاء عليهم وتقبيحهم والتنفير منهم والتأكيد على خطرهم فهذا الاندفاع للموت هو نتيجة طبيعية لمثل هذه التنشئة القاطعة الكئيبة التي لا تتوقع من الآخرين إلا الشر والكيد والمؤامرات وتستخفُّ بحياة المخالفين وترى أن لا حقَّ لهم في الحياة!!!...

■ **لماذا تسرف في استخدام لفظ (التخلف والتقهقر)؟**

ـ العرب يتقهقرون وليسوا فقط متخلفين ولا يوجد في اللغة ما يكفي لوصف بؤس الأوضاع العربية في كل المجالات فلا إسراف في النقد الحالي وإنما المطلوب المواجهة الصادقة والحامية مع الذات بشكل أقوى وأكثر مباشرة وتحديداً وأشد إلحاحاً وتعرية...

■ **بصراحة ما هي فكرتك التي تنادي بها، وما هو مشروعك؟**

ـ أشتغل على موضوعات تأسيسية وأحاول الإسهام في الدعوة إلى إعادة تكوين الثقافة العربية وتشخيص أسباب التقهقر وتحديد عوامل الإزدهار ومن أجل ذلك أنجزتُ مجموعة من الكتب عن: تأسيس علم الجهل وعبقرية الإهتمام والقيادة الإنقياد والتغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية ولا يمكن في مساحة كهذه إيضاح المضمون المتشعّب لهذه الرؤية الشاملة...

■ **كيف يمكن بناء مؤسسات تعليمية تعزز الحوار والنقاش وتكون شرارة انطلاقة حضارية؟**

ـ التعليم تابعٌ للبيئة فهي تحدِّد اتجاهه ومحتواه فإذا توفرت الرغبة الصادقة في الإنفتاح والتسامح والاعتراف بحق الاختلاف يكون التعليم من أهم وسائل إنجاح هذا الاتجاه أما إذا حرص أي مجتمع على الإنغلاق فإن التعليم من أنجع وسائل برمجة المجتمع على التقليد الأعمى وإغلاق منافذ التفكير فالتعليم تابعٌ للثقافة السائدة ويتشكل بما تريده إنها تطوِّعه ولا يطوعها وتؤثِّر فيه ولا يؤثِّر فيها فهو سلاحٌ مطواع مع مَن يستخدمه وقد يكون ضاراً ضرراً بالغاً لأنه يُحكم برمجة العقول ويغلقها فلا تنفتح أبداً إذا كانت السياسة التعليمية تريد ذلك. . .

■ **ألا نزال كمجتمع نعيش (وهم) أن الإبداع لا يتحقق لنا إلا بالشهادات وبالمؤهلات الأكاديمية؟**

ـ رؤيتنا للعلم رؤية خاطئة فهو عندنا معلومات بينما هو عند المزدهرين طريقة تفكير فتحصيل المعلومات ليس أسهل منه لذلك ليس أسخف من المسابقات التلفزيونية مثل برنامج (لمن المليون؟) لأنها تكرس رؤيتنا الخاطئة عن العلم!!!. . .

■ **كيف يمكن بناء مجتمع قادر على الإسهام في تقدم الإنسانية؟**

ـ بالانفتاح الثقافي وبالتنشئة الأخلاقية على الصدق والأمانة والموضوعية والرؤية العلمية والإنصباط والإحساس بالمسؤولية وفتح مجال النقد بكل أبعاده لتصحيح الأفكار والآراء والأوضاع وتسديد خطوات الفكر والفعل بإبراز الحسنات وتعرية السيئات. . .

■ **بعض المفكرين العرب (يكتفون) بنقد التخلف العربي. . وفي ذات الوقت لا يقدموا نظريات جديدة ولا أفكاراً مبدعة. . ما رأيك؟**

ـ نحن لا نتفهم ما يقوله المفكرون بل لا نقرأ ما يكتبون قراءة تمعن ومع ذلك نحكم عليهم أحكاماً مبتسرة وجائرة فبعض المفكرين العرب شخَّصوا العلل وغاصوا إلى مصدر الخلل ووصفوا كيفية الخروج من متاريس التخلف غير أنهم لا يملكون إمكانات الفعل فهم يقدِّمون الأفكار أما التنفيذ فليس مطلوباً منهم فهو شيء خارج إمكاناتهم إن الازدهار لا يتحقق إلا بالتكامل بين قادة الفكر وقادة الفعل. . .

■ **أصبحت تكرر نفسك كثيراً في مقالاتك الأخيرة. . أيعني ذلك يأس أم أنه شعور أنك تنفخ في (قربة) مقطوعة؟**

ـ لا أكرر نفسي وإنما أشتغل على عدد من المحاور التأسيسية حول أسباب التقهقر وعوامل الازدهار وهي كثيرة فالمحاور تتكرر أما التناول فيختلف في كل مرة عن الأخرى فالذي يظن أني أُكرر ليس متابعاً وإنما يحكم دون تدقيق فأنا أحلل بنية التخلف فالتخلف محور عام أما العناصر فتختلف. . .

■ **في وقت الغنى والطفرة الحالي. . لا يزال بعضنا يقضي عمره وهو يسدد تكاليف السكن. . كيف نفهم هذا؟**

ـ نحن في بلد ليس أوسع من أراضيه ولا أكثر من قفاره ومع ذلك نجد أثمان الأراضي مرهقة للناس كما أنها تعوق تنفيذ المشاريع بسبب أن كل الآراضي مملوكة حتى البراري وهذه إحدى دلالات الخلل البنيوي!!! إن السيولة النقدية العظيمة التي توفرت عند فئة قليلة من المجتمع لم توجَّه للمجالات الإنتاجية كمجال الصناعة وإنما جرى توظيفها في مجال الأراضي لأنها مضمونة الأرباح وسريعة النتائج إن

هذا التوظيف الخاطئ للأموال الوطنية قد ألحق ضرراً بالغاً بذوي الدخول القليلة فنحن شعبٌ قليل العدد وسط قارة شاسعة فلا مبرر لارتفاع أثمان الأراضي لولا هذا الخلل في توظيف الأموال!!!

■ **فينا الخير والشر والجمال والقبح كبقية خلق الله.. فلماذا يصر بعضنا على الفضيلة المطلقة؟**

ـ ينشأ العرب على التمجيد المستمر للذات والرفض القاطع للنقد واستهجان كل المغايرين وبسبب هذه التنشئة الخاطئة امتلأت عقولنا بالأوهام في تعظيم النفس وتحقير الآخرين!!

■ **من أين تبدأ خطوات الإصلاح الإداري؟**

ـ يبدأ الإصلاح في كل المجالات من الإصلاح الأخلاقي واعتماد الصدق والموضوعية وفتح باب النقد وتوفير الشفافية والوضوح وإدانة السلوك الانتهازي اجتماعياً بنبذ الانتهازيين وتجريم الانتهاز فالحياة الراشدة تنهض على الأخلاق الإنسانية الرفيعة...

■ **موقف المجتمع السعودي من المثقفين.. ألا يزال سلبياً؟**

ـ الثقافة العربية لا تعترف بالمثقف ولا تقرُّ له بأي دور ومن هنا غاب التفاعل والتكامل بين الفكر والفعل وبين الإنتظام والاقتحام وبين الإبداع والإتباع فالمجتمع العربي يتحرك ارتجالاً دون مساهمة الفكر الناضج إنه تكرارٌ دون إبداع وانتظام دون اقتحام واجترار من غير تجديد...

■ **ما هو البرنامج الفضائي الذي لا تمل من متابعته؟**

ـ أنا منهمك في الكتب ومن النادر أن أتابع الفضائيات...

■ **إلى أي مدى ترى أن هناك فرقاً بين الإسلام والمسلمين؟**

- إن الفرق بين الإسلام والمسلمين هو فرقٌ هائل مثل الفرق بين العدل والظلم والجهل والعلم والوضوح والإخفاء والتسامح والتعصب والإنفتاح والإنغلاق والتواضع والتكبرُ والحلم والغطرسة إلخ...

■ **حرية الفكر في دول (العالم الثالث).. هل تضر المجتمع أم تجعله أقوى؟**

لا يصح هذا السؤال إلا إذا كان ممكناً أن يكون المرض العضال أفضل من العافية التامة والصحة الموفورة؟!!! فلا يمكن أن تكون حرية الفكر ضارة بالمجتمع!!!

■ **ما هو أفشل مشروع حكومي حتى الآن؟**

أشد المشروعات العامة فشلاً في العالم العربي هو التعليم فقد ركَّز على إعطاء المعلومات ولم يُعَلِّم الأجيال كيف يفكرون تفكيراً سليماً ليستخدموا هذه المعلومات ويواجهوا المتغيرات المتتالية التي تتدفق بغزارة من كل الإتجاهات...

■ **كيف نوجد مساحات رحبة للحوار وقبول الرأي الآخر؟**

- هذا الهدف العظيم يحتاج إلى حشد طاقة الأمة لإخراجها من المتاريس الضيقة المرتجفة إلى الفضاءات الواسعة الآمنة فالحق أحق أن يُتَّبع...

■ **هناك منطقة شاسعة في الوسط بين الغلو والتساهل، لكن لا أحد يفضلها، لماذا؟**

- معضلتنا المستعصية أن تنشئتنا قامت على الرؤية الأحادية المغلقة

وتجاهلتْ بأن الأحكام تُبنى على الغالب والراجح إن الغرب تقدم بسبب اهتدائه إلى هذا المبدأ العام العظيم وفتح باب النقد للوصول إلى الأقرب للصواب وليس الصواب التام المحال. . .

■ **كل جيل يظن أن الجيل التالي له ضائع. . هل يعود ذلك إلى حب الذات وكراهية التغيير؟**

ـ هذه طبيعة البشر قبل أن يتحضَّروا فالإنسان تتكوَّن بداهاته بما عايشه فكل شيء يخالف مألوفة يستنكره فالمجتمعات التي عرفت هذه الطبيعة تعايشت معها وتجاوزت عقباتها أما المجتمعات التي ظلت تستنكر الجديد فقد بقيت عاجزة عن ملاحقة التطورات الهائلة. . .

■ **لماذا تأخذ التقاليد والأعراف الاجتماعية في كثير من المجتمعات الإسلامية (قدسية) التعاليم الدينية؟**

ـ التبجيل أساساً هو تبجيلٌ للذات فيأخذ طابعاً دينياً ليكتسب القداسة ونحن على كل المستويات نستخدم الدين لتبرير ما نفعل وتمجيد ما نمارس. . .

■ **إلى أي مدى يحتاج نظامنا التعليمي إلى الإصلاح والتحديث؟**

ـ إلى المدى الذي يفتح العقول المغلقة ويطلق الطاقات المجمدة ويبني الأخلاق الفاضلة ويجعل المعرفة قيمة عليا وليس فقط من أجل المنفعة الوظيفية أو الوجاهة الإجتماعية أو التباهي بالألقاب. . .

■ **لماذا «يحب» الأغنياء التسلط على الفقراء؟**

ـ هذا حكمٌ غير صحيح فالأغنياء لا يحبون التسلط على الفقراء

وإنما يستجيبون لدوافعهم الغريزية في حب التملك والميل إلى الأثرة فالإنسان بطبعه أناني ومستأثر فإذا عاش في بيئة تستسيغ الأثرة كالثقافة العربية فإنه يصبح أنانياً بالطبع وبالتطبُّع فيستحكم الاستئثار...

■ ما هي أبرز تحولات المجتمع السعودي؟

- لم ألاحظ هذه التحولات التي تتحدث عنها فالتحولات ليست في فخامة المنشآت وعظمة الطرق واتساع المدن وجمال المباني وإنما التحول يكون في منظومة القيم وتنوع الإهتمامات وعلى هذا المستوى لم يحصل أي تحول ايجابي بل نحن أصبحنا أشد ضيقاً بالرأي الآخر وإنكاراً لحقه في الاختلاف...

■ هل تتاح أمام الإنسان أبواب وخيارات كثيرة عبر مشوار حياته؟

- الخيارات تتسع وتضيق بقدر انفتاح أو انغلاق المجتمع وبقدر انفتاح القيم وتنوع الإهتمامات فإذا كان المجتمع حراً ومنفتحاً تنوعت الخيارات أمام الناس أما إذا كان المجتمع منغلقاً فإن الخيارات تضيق على الأفراد والجماعات إلى درجة الإختناق...

■ ألا يزال العرب ضحايا لمؤامرات الآخرين؟

- هكذا هم يتوهمون وبسبب هذا الوهم الفظيع المزمن صار همهم التحسُّس عن المؤامرات والإنشغال بها والتوجُّس منها...

■ كيف نجعل بلدنا سياحياً؟

- بإدراك أننا نعيش في بيئة معادية للحياة وبأننا نعتمد على مصدر وحيد ناضب وبأنه لابد من التدارك السريع والجاد لإيجاد بدائل قبل فوات الأوان وبالاحساس بضرورة تنويع مصادر الدخل الوطني...

■ هل أسهمت منتديات الإنترنت في تقبل الرأي والرأي الآخر؟

- بالعكس أسهمت منتديات الانترنت بتكريس المتاريس الثقافية وتبرير التعصب ونشر الأفكار التكفيرية...

■ على غرار العملة الأوروبية (اليورو)؛ متى نرى عملة عربية موحدة؟

- لا يمكن أن يتحقق هذا الحلم إلا إذا حصلت تحولات ثقافية في العالم العربي تزيل المتاريس وتُخرج المجتمعات من القواقع المغلقة وتفتح لهم الحصون المحروسة وتنقلهم إلى فضاءات الحياة المتحركة الناشطة والرؤية العقلانية...

■ ألا تزال مقتنعاً بأن (التخلف مرحلة متقدمة قياسًا بما هم عليه العرب والمسلمون)؟

- لم يحدث في واقع العرب والمسلمين إلا ما يزيدني اقتناعاً بهذه الرؤية فما يحدث في فلسطين بين فتح وحماس وما يحدث في العراق ولبنان وباكستان وأفغانستان يؤكد أننا نتراجع تراجعاً مخيفاً...

■ هل أنت متفائل؟

- إنني واقعي فلا أتوهم القفز فوق معطيات الواقع إنني أتابع الأحداث وأراقب الأوضاع وأكوّن رؤيتي وفق إملاءات الوقائع وليس وفق أحلام الرغبة...

حوار
لبحث أكاديمي

الأستاذ عبد الرحمن رقية

■ سعادة الأستاذ الكريم: إن المتأمل للظاهرة الفكرية البليهية يقف مندهشاً ـ على أرضية من الإعجاب والتقدير ـ ما سر هذا النبوغ الفكري في وسط متشدد واثقاً وثوقاً عتيداً لا يقبل أي مراجعة أو نقداً!! والأسئلة التي تطرح نفسها بإلحاح: كيف تشكلتم وانسقتم لهذا المسار الفكري؟

ـ الرؤية لا تتشكَّل قصْداً بتخطيط مدبَّر وإنما تتكوَّن ببطء خلال مسيرة البحث الممض فالأسئلة الملحة التي يطرحها الوجود تدفع الإنسان للبحث عن الإجابات المقنعة فيستنطق كل ما يستطيع من المصادر ويتأمل في الآفاق والأنفس ويتفحص الأوضاع والأحوال ويعيد النظر في مختلف الرؤى ثم ينتهي إلى قناعات تريحه من إلحاح الأسئلة فيبدأ رحلة الإفضاء إلى الآخرين بالرؤية التي انتهى إليها وبداهة أن هذا الإفضاء لم يكن هدفاً في البدء ولكنه ثمرة تلقائية لرحلة البحث المرهقة. . .

■ ما هي أهم المحطات الفكرية الكبيرة في هذه المسيرة العامرة؟

ـ في البدء كانت الأسئلة الكبرى الملحَّة المقلقة هي الحافز القوي

إلى الاستقصاء والتأمل والمراجعة وإعادة النظر فقد دفعتني هذه الأسئلة إلى الإنشغال الجاد بحثاً عن الإجابات المقنعة في أي مصدر متاح من مختلف المرجعيات فقد كنت أبحث عن مرفأ آمن أو نهاية مريحة فلا توجد في حياتي تحولات أو انقطاعات أو تذبذب وإنما هي مسيرة بحث ممض واستقصاء ملح وتأمل عميق ومراجعة فاحصة وتقليب متكرر انتهت على النحو الذي تراه ففي وقت مبكر جدا من حياتي اقتنعت بوجود خلل جذري في الثقافات الإنسانية بوجه عام وفي الثقافة العربية بوجه خاص كنتُ أتساءل لماذا تختلف الأمم كل هذه الإختلافات؟! ولماذا يبلغ بهم التباين إلى درجة العداء المستحكم والحقد الأعمى والإقتتال المتكرر؟!فهل زاغت الحقيقة عن العقل البشري زوغانا مفرطا رغم حرصه عليها أم هو زاغ عنها قصداً؟!وهل العقل هو مصدر الخلل أم أن الحقيقة بطبيعتها خفيّة ومحتجبة؟! وهل الإنسان يريد الحقيقة لكنه ضلَّ عنها أم هو محكوم بأهوائه وغرائزه ولا تعنيه الحقيقة إلا بمقدار ما تخدم أهواءه وتحقق مصالحه؟! وما هي المعايير الموضوعية المحايدة التي نحكم بها على ضلال هذه الأمة أو تلك أو نحكم بهداها؟!فإذا كان كل طرف يكفّر كل الأطراف الأخرى ويحتقرها ويسفّه آراءها ويسخر من عقائدها فإن هذا يعني أن الكل يسفّه الكل فأين الرشد إذن؟!!! إننا أمام أحكام مسبقة لا تعتمد على أي حيثيات موضوعية...

ومن الظواهر البشرية المحيرة التي تلفت النظرة بقوة أن الثقل البشري لا يدين بأي دين سماوي فسكان شرق آسيا: الصين والهند واليابان ومن حولهم يمثلون أكبر كثافة سكانية في الأرض ومع ذلك ينشأ الناس هناك كلهم تقريبا على الهندوسية والبوذية والكنفوشية فكيف ينأى هذا الثقل الإنساني كله عن الرسالات السماوية؟!! إن الذين

ينشأون في بيئة هندوسية يصيرون هندوساً والذين ينشأون في بيئة بوذية أو كونفوشية يصيرون كما كان آباؤهم وأجدادهم وسلسلة الأسلاف الطويلة على امتداد القرون!! وهم يمثلون الثقل البشري من حيث العدد فالصين وحدها تمثل خُمس الإنسانية ومثلها الهند؟!!ومثل ذلك يقال عن كل الناس في مختلف البيئات فأين تأثير الأديان السماوية على هذه الكثرة الهائلة وأين تأثير علوم العصر على الثقافات المتعفنة والخرافات المزمنة؟!!فالناس في كل المجتمعات ما زالوا تحركهم وتتحكم بهم ثقافات ما قبل العلم؟!وأمام كل ذلك تساءلت بحيرة: ما مقدار نصيب الفرد في تحديد اتجاهه وكيف يقرر مصيره غيره؟! وكيف يبقى رغم ذلك واهماً أنه اختار هذا المصير بوعي وتخطيط؟!وإلى متى سيظل الناس في كل مكان رغم تعميم التعليم مأخوذين بأشكال الوعي الزائف؟! إن واقع الناس في كل مكان وزمان يشهد بوضوح صارخ ويؤكد تأكيداً لا مزيد عليه ولا لبس فيه بأن الأفراد الذين يتبرمجون بوعي زائف يبقون متمسكين بهذا الوعي الزائف ويستميتون في الدفاع عنه ويتوهمون أنه أكمل مستويات الوعي نقاء وإشراقاً؟!! وأفزعني هذا الخواء البشري!! وتساءلت بحرارة أين العقل وما هو نفعه إذا كان يظل مستسلماً لما تبرمج به رغم تباين البرمجة وتعارضها؟! وكان لابد من البحث الجاد عن الإجابة المقنعة...؟!وهنا بزغتْ عندي فكرة كتابي (تأسيس علم الجهل) فالجهالات المستحكمة المتوهَّمة علماً هي معضلة البشر الكبرى في كل الأزمنة وكافة الأمكنة...

أما بالنسبة للثقافة العربية فقد اقتنعتُ أنها تعرضت لخلل جذري في وقت مبكر جدا من تاريخنا منذ انتهاء الخلافة الراشدة وأن هذا الخلل قد صاحب تاريخنا عبر مراحله وأن التراكمات الفظيعة التي نشأت عن

ذلك الخلل الفظيع بكل أثقاله هي التي تكبِّل الحاضر وأنها هي التي أوصلت العرب إلى هذه الأوضاع البائسة وكان عليَّ أن أبحث عن نقطة البداية في حصول هذا الخلل وعن أسباب استمراره وأن أقارن بين تاريخنا وتاريخ المزدهرين لأعرف أسباب انحطاطنا وأسباب ازدهارهم فأنا أؤمن بأن الإسلام هو الحق في صيغته النهائية فهو ختام الرسالات ولكني أؤمن إيماناً شديداً بأن ما يعيشه المسلمون لا يمثل مبادئ الإسلام وتعاليمه في العدالة وإدارة الحياة وقد أقلقتني هذه المفارقة فقد عشت أحلم بأن ينهض المسلمون وأن يكونوا خير مثال لتجسيد تعاليم الإسلام في العدل والوعي والصدق والوضوح وإقامة القسط في الأرض وفي إدراك الواجب وأدائه بمنتهى الدقة والإهتمام وفي الحرص على الحق والإلتزام به وفي الحب والرحمة والتسامح والإحسان واتساع الأفق وقبول الاختلاف وعمارة الأرض وتحقيق الإزدهار ولكن الإحباطات والفواجع في واقع المسلمين هي فواجع صارخة حتى أصبحنا نجسّد أشنع صور التعصب ونعتمد العنف في التعامل فيما بيننا ومع الآخرين ونتباهى بنشر الرعب في كل بقاع الأرض ونعلن التهديد للحياة والأحياء ونبرهن بسلوكنا على العجز عن التفاهم وضيق الأفق وانغلاق العقل وامتهان الإنسان وتهميش الحقيقة وانتهاك الموضوعية واستساغة الزيف والاعتماد على الإثارة والإنفعال وتعطيل مراكز العقل العليا التي لا تنمو إلا بكثافة الإستخدام فنحن مازلنا نندفع ارتجالاً مع املاءات أدنى الملكات البشرية: الأهواء والعواطف والغرائز...

كان همي أن أعرف مصدر الخلل الفظيع الذي يعيشه المسلمون فعمدت إلى المقارنة بين أوضاع المسلمين وأوضاع المزدهرين وانتهيت بعد هذه الرحلة الطويلة الممضة إلى تدوين الرؤية التي انتهيت إليها في

منظومة من الكتب ولعلي أتمكن من نشرها سريعاً راجياً أن تُسهم مع غيرها من الرؤى في تشخيص الخلل وتحديد نقطة البداية وإبراز الآلية الضرورية لتحقيق ذلك. . .

■ ما هي أهم المشاريع الفكرية والدراسات والتجارب التي أسهمت في إثراء هذه المسيرة وهل يمكن اعتبار مشروعكم مشروعاً عصامياً ليس له امتدادات فكرية وثقافية مسبقة؟

ـ لستُ مديناً لأحد بتوجيه أو إرشاد بل كان كل المحيط الذي عشتُ فيه لا يُشَجِّع على البحث الحر بل يُدينه وينبذه لكني وقد أدركت الخلل صمَّمْتُ على أن أُبحر وحدي بحثاً عن الحقيقة المدفونة تحت ركام هائل من الدعاوى ونقائضها مما استوجب الكثير من المراجعة والتقليب ومعاودة النظر لقد عشتُ أنشد الحقيقة نشداناً شديد الإلحاح كمطلب شخصي في الدرجة الأولى وكحاجة عقلية محضة فاستغرقت في البحث وفي التأمل وفي التعرف على مختلف الرؤى ومختلف المواقف فقد كانت المفارقات البشرية تحيرني وكنت أبحث عن أسباب هذه المفارقات لماذا تختلف الأمم كل هذا الاختلاف؟!ألا توجد معايير عقلانية مشتركة؟! ولماذا يبلغ بهم التنافر في القيم إلى درجة الإقتتال؟!! لقد قرأت كثيراً وحرصت على أن أقارن بين الإتجاهات المتعارضة لألتقط الحقيقة وسط هذا التناقض إن الحياة الإنسانية جدٌّ لا هزل وإن مسؤولية الفرد عن نفسه هي مسؤولية ضخمة فلا يصح أن يترك المرء للآخرين أن يحددوا له مسيرة حياته ولا طريقة تفكيره ولا مواقفه ورؤاه ولا مصيره فهو المسؤول عن نفسه ولا يليق بالإنسان أن يتبرمج بأهواء الآخرين وجهالاتهم. . .

أما المشروع الفكري الذي اشتغل عليه فليس امتداداً لمشروع فكري معيَّن وإنما هو رؤية توصلت إليها بعد بحث ممض ولقد قرأت معظم المفكرين العرب إضافة إلى المتاح من المفكرين الغربيين وغيرهم واستفدت من كل التراث الإنساني الذي أتيح لي أن أطلع عليه لكنني لست مكملاً ولا امتداداً لأي مفكر بعينه لقد تتلمذت على الجميع من كل الاتجاهات فما توصلت إليه يستمد مكوِّناته من المنجز البشري الهائل في التاريخ والعلوم والفنون والآداب والتقطت الإضاءات من كل الإتجاهات فهي رؤية ذاتية تَشَبَّعَتْ بالفكر الفلسفي عامة وبالفكر النقدي خاصة وبتاريخ العلوم والفنون وبالإطلاع على حياة المبدعين من مختلف حقول العلم والفن والأداء وكان لي اهتمام مركَّز على العلوم الثقافية المعنيَّة بالاختلافات الثقافية في العالم. . .

لقد أوليتُ عناية كبيرة للانثروبولوجيا الثقافية وعلم الإجتماع وفلسفة التاريخ ونظرية المعرفة وعلم اجتماع المعرفة وعلم النفس عموماً وعلم النفس الإجتماعي وعلم النفس المعرفي وتعرَّفت على الأُطُر الثقافية للعقل البشري ولقد نوَّعتُ مصادر معرفتي تنويعاً مطلقا فقرأت لأشد الناس وثوقاً وتعصُّباً لأعرف مبررات تعصُّبه كما قرأت لأشد المفكرين تشككا وانفتاحاً لأعرف كيف يتعامل مع الحقيقة وكيف يعبِّر عنها وكيف يقدمها لنفسه وللآخرين وهذه الرحلة البحثية المفتوحة على الجميع جعلتني أكتشف حقائق كثيرة من أهمها أن ثقافات الأمم لم تتأثر كثيراً بالعلم وبعضها لم يتأثر بالعلم أبداً بل ازداد تحجراً فالعقل يحتله الأسبق إليه ومعلومٌ أن هذا الأسبق هو في الغالب ليس معرفة ممحَّصة وإنما هو خليط متراكم من الأوهام المستحْكِمة والتخمينات الساذجة والأهواء المسعورة والمصالح المغلَّفة وهذا الخليط المفسد

للقابليات يمتصه الأطفال بالتنشئة امتصاصاً تلقائيا بالتقليد والمحاكاة والتشرُّب العفوي دون تحليل أو فحص أو مراجعة ودون أي قدر من الشك وإنما يتلقاه الناشئون في مختلف الثقافات المتعارضة كحقائق نهائية ثابتة وغير قابلة للمساءلة حتى بعد أن يكبروا يبقون مأخوذين به ومستسلمين له ومغتبطين بما تبرمجوا به ويتوهم كل قوم وكل أمة أنهم الأفضل والأعقل والأصلح بين أمم الأرض وهذه هي المعضلة البشرية الكبرى التي تعرقل تأثير المعرفة الممحَّصة وتعوق التقارب الإنساني ويواجهها المصلحون في كل زمان ومكان في كل أمة وتعاني منها كل الشعوب والفئات والطوائف والإتجاهات المتنافرة بل هي معضلة الجنس البشري كله فحتى الثقافات السلميَّة مهما سالمتْ لا تتركها ثقافات العنف لأنها تتوهم لنفسها الصلاح المطلق والوصاية التامة على كل الدنيا وترفض الإصغاء لأي تحليل أو الالتفات لأية حقيقة لا تتفق مع مسلَّماتها المتحجرة بل إن ثقافات العنف ترغم ثقافات السِّلم على الدخول في معارك مدمِّرة فالتواصل بين الأمم صار حتميا فيعم الشر مثلما يعم الخير فمثلما أن المتخلفين يستفيدون من منجزات المزدهرين في العلوم والطب والتقنية وينعمون بخيراتها في كل قطاعات الحياة فإن المزدهرين بالمقابل يتضررون من تخلف المتخلفين وجهالاتهم وتعصبهم وعجزهم عن فهم معطيات العقل الحر المزدهر فالعزلة لم تعد ممكنة وإذا أمكنت أضرت فالعزلة تؤدي إلى الضعف والانكماش. . .

إن الثقافات المختلفة المتصادمة تصوغ العقول بالتنشئة صياغات متباينة تؤدي تلقائياً إلى التصادم في القيم وطرق التفكير والعادات والإهتمامات ويظل الناس في كل مجتمع مأخوذين بما تبرمجوا به ويندر في الأفراد من يكتشف أنه مبرمج في طفولته بأهواء البشر وجهالاتهم

وإنما يعتقد اعتقاداً جازماً أنه قد توصَّل إلى قناعاته وقيمه وطريقة تفكيره ومنظومة عاداته بمحض جهده!! فتغيب عنه حقيقة أنه مبرمَج وأنه مزيَّف الوعي ويندر في الناس من يكتشف ذلك وأندر منهم من يحاول إعادة تكوين ذاته تكويناً واعياً يتأسَّس على المعارف العلمية الممحصة إن أكثر الناس في تقبُّلهم لأشد الرؤى والتصورات تخريفا لا يعتريهم الشك فالتنشئة لا تقدِّم مسلَّماتها كموضوعات للبحث وإنما تقدمها كحقائق ثابتة ونهائية ومطلقة وكاملة ومبرأة من النقائص وهي بهذه الصفات الجازمة الواثقة المغتبطة تمتزج في عقل الطفل فتبرمجه وهو مبتهجٌ بتفتق وعيه حتى وإن كان وعيا زائفا فهو بهذا الوعي صار يتكلم ويفهم ويعطي ويأخذ ويخرج من مستوى الطبيعة المفتوحة إلى البرمجة التي تحدِّد عقله وتشكل عواطفه وقيمه واتجاهه وهكذا تخالط البرمجةُ عقله وتُشَكِّلُه وتندمج فيه كما يندمج الغذاء بالجسم لذلك فإن كل ثقافة تُنيم المبرمجَين بها وتعميهم عن أشد الحقائق إشراقاً ووضوحاً فيغفل الإنسان عن حقيقة تكوينه الثقافي غفلة تامة كما يغفل عن محدودية المعرفة الفردية فيحكم على أصعب القضايا بمنتهى الارتجال والتسرع والسذاجة والاستخفاف لأنه اعتاد أن يتلقى الأحكام ارتجالاً غير مصحوبة بأي تحقق فالبيئة تغمر أفرادها بما هو سائد غمراً تلقائيا وكلما قلَّتْ بضاعة الفرد من المعرفة الممحَّصة صار أكثر تسرُّعاً في تقييم الأمور فالأحكام عنده جاهزة مهما بلغ تعقيد القضايا أما المتمرسون بالبحث العلمي المدربون على التحقُّق فإنهم يدركون صعوبة التثبُّت فالوثوق في عماه وحُمْقه وسذاجته وصَلَفه هو دلالة الجهل أما التشكُّك فهو برهان على وجود شيء من الروح العلمية فمهما بلغت معرفة الفرد ومهما بلغت عبقريته فإنه معرَّض لشتى النقائص الملازمة للبشر وينبغي

أن لا ننخدع بالحذلقة اللغوية فهي في الكثير من الحالات قد لا تحمل أية دلالة علمية وإنما هي مهارة لسانية محضة توهم بالمعرفة وتحجب الجهل . . .

إن المعرفة الفردية ضئيلة ضآلة مفْرطة فلا ينبغي أن ننخدع بتعقيدات وضخامة وتنوع المنجزات الحضارية فهي مجموع لبنات أنجزها الملايين من الناس إنها مثل النهر الزاخر الذي يتكوَّن من مجموع القطرات وكذلك المعرفة الإنسانية إنها هائلة الاتساع وعظيمة التنوع فهي متشعبة وعميقة ومتنوعة وعظيمة ومثيرة ودقيقة وذات تعقيد مذهل ولكنها موزعة بين ملايين العقول وملايين المصادر وبسبب ذلك فإن المعرفة الفردية ليست شيئاً قياساً بعظمة مجموع المعرفة الإنسانية إنها أشبه ما تكون بقطرة الماء وسط المحيط الهائل أو النهر الزاخر إن المحيط العظيم يتألف من قطرات الماء غير أن كل قطرة بمفردها لا تمثل شيئاً قياساً بالمجموع الهائل. لذلك فإن هؤلاء الواثقين المنتفشين المتعصبين الذين يتوهمون امتلاك الحقيقة المطلقة بينما هم غارقون في الوهم والجهل والتعصب والسذاجة والكلال يستحقون الإشفاق والرثاء أكثر مما يستحقون اللوم فهم ضحايا البيئة التي برمجتهم على هذا النمط الساذج من التفكير . . .

■ **ما هو السر أن منطقة القصيم قد أنجبت أكثر الكتاب انفتاحاً وجدلاً وإشكالاً في المملكة وباتت منجماً ثراً يحوي كل ألوان الطيف الثقافي من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال؟**

ـ تكرر طرح مثل هذا السؤال من كثيرين لكني لم أُعره اهتماماً. فإذا كانت تمثِّل ظاهرة فإنها تستحق البحث أما أنا فلم تكن هذه المسألة ضمن دائرة اهتماماتي . . .

■ مشروعك أسميته بـ (تفكيك بنية التخلف وإعادة التأسيس الثقافي) كمدخل أساسي للحاق بالركب الحضاري في العالم وبذلت جهداً مضنياً للإسهام في إعادة تأسيس الثقافة الإسلامية على الأسس الصحيحة من تعاليم الإسلام وباستخدام أقصى طاقات العقل والاستفادة من أدق منجزات الحضارة الإنسانية في مجالات الفكر والعلم والممارسة الناضجة كما تقول والسؤال:

١ ـ إلى أي حد يمكن تحميل الثقافة الإسلامية المنتجة في عصور مختلفة من إيحاءات النص الإسلامي الخالد وإن كان لا يشترط أن تكون كلها موافقة لمراميه وأهدافه.

٢ ـ وهل يمكن اعتبار مشروعك محاولة لإعادة طرح الإسلام وفهمه من جديد... وإذا كان كذلك لم نجد فيه دراسات معمقة تتناول النصوص القرآنية والنبوية وإعادة فهمها.

ـ يعيش العرب والمسلمون خللاً ثقافيا فظيعاً وهو ناتج عن معضلة تاريخية مزمنة فقد أُخضعتْ الثقافة لتقلبات السياسة وأهوائها في تشابكها مع مصالح قيادات الفكر والفعل إن هذا الخلل الذي شطَّ بثقافتنا عن المسار الصحيح هو نتاج التلاحم المزمن بين الاستبداد السياسي والإنغلاق الثقافي فخلال التاريخ العربي على امتداده ماضيا وحاضراً كانت الثقافة خاضعة للسياسة وهو عكس ما هو حاصل في المجتمعات المزدهرة حيث السياسة تابعة للثقافة ومسترشدة بها وليس العكس. وهذا الخلل النوعي هو الذي جعل ثقافتنا العربية مليئة بالتناقضات لأنها خضعت للتقلبات والنزوات وتكفَّلَتْ بمهمة التبرير والتسويغ وإعطاء المشروعية لأي وضع فتأرجحت الثقافة مع هذه المهمة المتأرجحة

وضاعت الحقيقة بهذا التأرجح وضل الوعي الحقيقي طريقه وساد الوعي الزائف . . .

أما الرؤية التي أطرحها فهي لا تتعامل مع الوقائع والأحداث والأشخاص والمواقف المتغيرة لا في الماضي ولا في الحاضر وإنما تقدّم تشخيصاً عاماً لأسباب التدهور وعوامل الازدهار وهي تنطبق على المجتمعات العربية وغيرها من المجتمعات المتخلفة فأوضاع البشر محكومة بأسباب وعوامل هي التي تتحكم بها صعوداً أو هبوطاً . . .

إني أعترض على أن نصف ما تعيشه المجتمعات العربية بأنه (ثقافة إسلامية) لأننا بذلك نجني على الإسلام وننسب إليه أهواءنا وجهالاتنا وأخطاءنا وقصور أفهامنا لذلك أُفضّل أن نعتبرها (ثقافة عربية) بمظاهر إسلامية فنحن في الماضي والحاضر نبالغ في الإهتمام بالعبادات والواجبات الفردية ونهمل إهمالاً شديداً تعاليم الإسلام في الشأن العام في العدالة وإدارة الحياة وعمارة الأرض إننا بذلك قد أسأنا للإسلام إساءات مدمّرة وأضفنا إلى كل ذلك توظيفه لتبرير أهوائنا وتسويغ ما نكرره من أخطاء مهلكة . . .

إنني لا أنهض بمهمة عرض الإسلام عرضاً يليق به فهذه مهمة ينهض بها آخرون وإنما أركز على الإسهام بخلق الأجواء التي تهيء لمثل هذا العرض إنني أُقدم رؤية للعمل لإستئناف حياة راشدة إذا صدقتْ النوايا لكنني لا أعيد طرح الإسلام أو أقدمه بفهم جديد إنني أُقدم ما يمكن أن يعين على هذا الطرح الجديد وما يرشد لهذا الفهم الرشيد لكنني لا أدخل في العرض ذاته أو التجديد نفسه فالمهم أن يتوفر المناخ الملائم للرؤية الموضوعية الراشدة وهذا هو الموضوع التأسيسي الذي أعمل له . . .

■ **تقول في نص عن المثقف: (إن المثقف لا يمكن أن يخلق لنفسه دوراً لا يقرُّه له المجتمع فالدور يتحدَّد بواسطة المجتمع وفي إطار اهتماماته. . . . .لذلك ينبغي أن لا نطالب المثقف العربي بما يتجاوز إرادته وما هو فوق طاقته. .فلا يوصف المثقف بأنه متقاعس. .)**

١ ـ ألا ترى أن هذا النص يحمل إشكالاً عميقاً إذ نقف أمام مجتمع منغلق لا يسمح للمثقف أن يفتح أي نافذة يدخل منها هواء نظيف والمثقف لا يملك روح التحدي والتضحية بل يريد كل شيء وهو مرتاح ولا يريد أن يتعب نفسه بل يريد الطريق معبداً بأدوات السلطة والمجتمع؟

٢ ـ ألا ترى أننا بحاجة لإنتاج مثقف أكثر صلابةً وتضحية يقبل المعاناة،متحملاً صابراً،رافضاً للعيش الرغيد، معتدلاً بعلاقته مع السلطة، لا يمثل بوقاً لها وليس شريداً وطريداً؟

ـ مهما بلغت تضحيات المثقفين فلن يتاح لهم أن يصلوا إلى عقول الناس وقلوبهم ما لم يتوفر المناخ الثقافي الذي يسمح بتداول الأفكار وتزاوج الرؤى فصوت المثقف من السهل خنقه ومن اليسير تشويهه فينقلب الأمين خائناً ويظهر الخائن بصورة الحارس للأمانة.إن الثقافة السائدة في كل أقطار العالم الثالث تملك كل المنابر وكل وسائل الإعلام وتملك مؤسسات التعليم وقطاعات العمل ومصادر الرزق ومجالات التوظيف وهي تبرمج الناس في أي اتجاه بل وتعيد برمجتهم لصالحها كلما تغيرت الظروف أو تبدلت المواقف أما المثقف فلا يملك شيئاً وليس تحت تصرفه أي منبر ولا يملك أية وسيلة ولا يستطيع التواصل مع الناس إلا بالمقدار الذي تسمح به الثقافة السائدة ومن المعروف أن العرب ما زالوا يعيشون في مرحلة المشافهة فالوسيلة

الوحيدة المتاحة للمثقف هي الكتابة.. هذا إذا أُتيحت وهي لا تصل إلا لعدد محدود من الناس فلا رواج للكتاب في المجتمعات العربية فتأثير الثقافة المكتوبة محصور بفئة صغيرة من الناس فنحن أمة لا تقرأ فالأفراد لا يعرفون الكتاب إلا في حالة الاضطرار للدراسة النظامية وهذه قراءة اضطرارية خالية من الإهتمام التلقائي وعارية من التعاطف فثقافتنا تتأسس على المشافهة وتستمر مأخوذة بها فلا يؤثر بالناس إلا من يخاطب أسماعهم عبر المنابر أو المذياع أو الشاشة فثقافة الأذن هي السائدة في العالم العربي يؤكد ذلك ضآلة ما يُطبع من أي كتاب عربي مهما بلغت أهميته ومهما بلغت مكانة كاتبه ومن هنا صار للتخلف هذه القدرة على الصمود والإستمرار ولولا الانترنت والفضائيات والتواصل الإنساني القسري الذي يخترق الحدود لكان على المأخوذين بثقافات التخلف أن يبقوا عمياناً إلى الأبد فالمثقف محارَبٌ من المجتمع ومن عامة الناس مثلما أنه محارب من السلطة فينبغي أن لا نُحَمِّل المثقف دوراً يتجاوز طاقته فالتحدي الذي يواجهه المثقف في العالم العربي هو من المستوى الذي لا يمكن اختراقه ولا مواجهته فهو بكدحه المرهق وتعريض نفسه للنبذ والإقصاء كمن يحاول استزراع الصحراء الجدباء الحارقة دون أن يتوفر لديه أي شيء من وسائل الزراعة فهو لا يملك سوى الفكر والمعرفة والرغبة الصادقة فالسماء صحوٌ لا تُمطر والأرض جدباء لا تنبت والشمس لاهبة تُحرق النبات الغض فتحيله إلى رماد تذروه الرياح...

■ **تقول في هذا النص: (المجتمع المتخلف يبرمج أفراده على أوهام امتيازه عن المجتمعات الأخرى فهو في نظر نفسه أفضل المجتمعات وثقافته هي أكمل الثقافات وحضارته هي أعرق الحضارات ولغته هي**

أجمل اللغات وبلاده هي أحسن البلدان حتى لو كانت صحراء قاحلة بلا أمطار ولا أنهار ولا أشجار والناس في أي مجتمع يعتبرون أنفسهم وحدهم دون غيرهم أهل الشجاعة والنُبل والكرم والذكاء والحذق وهذه الأوهام الراسخة للمجتمعات المتخلّفة التي لم تخرج بعد من قوقعة الذات ولم تتثقف بالثقافات العالمية ولم تطّلع على التاريخ الإنساني ولم تتأمل أوضاع العالم تأملاً موضوعياً ولم تهتم بتوطين العلوم الإنسانية التي كشفت مراحل التطور الحضاري وتعرّفت على طبائع الثقافات واهتمت بالتعريف بالطبيعة البشرية فالأمم المتخلّفة تبقى غارقة في عشق دمامة ذاتها والتغني بأمجاد أسلافها وتعليق مآسيها على مؤامرات الآخرين فهي في نظر ذاتها محسودة على امتيازها وليس للعالم من المشاغل سوى الكيد لها والتآمر عليه والتربُص بها. . . وكلما اشتد الانغلاق الثقافي تعمّق الشعور بالاكتفاء والاستغناء واتسعت أوهام الامتياز ومهما انحدرت أخلاق المجتمع فإنه يتوهم أنه يتحلى بأنبل الأخلاق وأنه وريث أعظم الأعراق وأن تاريخه هو تاريخ العظمة والمجد وأنه من سلالة عظماء استثنائيين لم تعرف الأمم من يماثلهم أو يقترب منهم أو يشاركهم في الشجاعة والصيت والصدق والنقاء والكرم والنُبل وعظمة الأمجاد).

والسؤال هل هذا ينطبق على كل أحوال المجتمع العربي والإسلامي من مغربه إلى مشرقه دون فروقات واضحة وبالأخص أن هناك مجتمعات عربية إسلامية كما هو الحال في المغرب العربي يسود فيها روح النقد والنظرة الفلسفية ومجتمعات إسلامية أخرى أفلتت من قبضة التخلف كما تقول مثل ماليزيا وأجد نفسي هنا ملزماً أن

أصارحك أن هناك من يرى أن الأستاذ إبراهيم البليهي في كتاباته هذه يعيش ردة فعل وقصة معاناته مع البيئة الثقافية المغلقة في منطقة القصيم تحديداً الذي نشأ وترعرع فيها بصفته رمزاً مطلعاً على أدق منجزات الحضارة الإنسانية في مجالات الفكر والعلم ويستخدم أقصى طاقات العقل ولو هيئ العيش للأستاذ البليهي في أي عاصمة عربية أكثر انفتاحاً كدمشق وبيروت والرباط مثلاً لغيّر الكثير من قناعاته الفكرية واتجه منحىً آخر في تحليله ونظرته للمشكلة العربية والإسلامية. . . هل هذا صحيح؟ وما ردك على ذلك؟

- لا يوجد فرقٌ كبير بين الأقطار العربية والإسلامية في مستوى الإنفتاح ولا في مستوى الوعي إن الاستطلاعات ومظاهر كثيرة متنوعة تؤكد أن الأكثرية من الناس على امتداد العالم الإسلامي بل والأقليات المسلمة في كل مكان تؤيد نموذج طالبان وتتعاطف مع ابن لادن وتؤيد عمليات القتل الجماعي ولا تستنكر المقابر الجماعية وتترحَّم على الطاغية صدام حسين!!!!وتجمع المساعدات لفلول طالبان وتمول عمليات الإرهاب لترويع الأبرياء في كل مكان وهذه الجموع الجامحة عاطفيا ليست مستعدة لمراجعة رؤاها أو إعادة النظر في مواقفها فنحن دون استثناء نعيش انغلاقاً مدمَّراً أما وجود مفكرين في المغرب أو غيره من الأقطار الإسلامية فإنه لا يعني حصول الانفتاح في هذا القطر أو ذاك فالمفكرون في العالم الإسلامي لا يُصغي لهم أحد فالثقافة الشعبية على امتداد العالم الإسلامي من الرباط إلى جاكرتا صارت ثقافة واحدة هي الثقافة الطالبانية باستثناء التميُّز النسبي لماليزيا وتركيا حتى المجتمعات التي كانت تعيش مستوى واعداً من الوعي في السابق تدهور وعيها

وأصيب بنكوص شديد بعد كارثة عام ١٩٦٧م بل إن المسلمين في أوربا وأمريكا وفي كل مكان يفكرون بنفس الطريقة الطالبانية فالوصف ينطبق على الجميع فنحن نعيش حالة تراجع فظيع ففي السابق كان هناك أمل وكان هناك سعي نحو نقطة الانطلاقة الصحيحة أما الآن فنحن في حالة تقهقر مروِّع وليس فقط عدم تحقيق التقدم إننا نرفض نقطة البداية الصحيحة وسلوكنا يتعارض مع أبجديات التحضر ونسير عكس الإتجاه الإنساني العام الذي يحقق أو ينشد الإزدهار والرخاء والإخاء والتكامل إننا نعيش وضعاً مأساوياً وكارثيا على كل المستويات ولم نكتف بذلك بل دفَعْنا ومازلنا ندفع العالم كلَّه إلى التراجع عن كثير من المكتسبات الإنسانية واضطررناه إلى تقييد الحريات وتغيير القوانين ونتج عن ذلك إرباك تدفقات الرجال والأموال فتباطأت الحركة وانشل النشاط وطالت الإجراءات وتعقدت العلاقات وارتبكت الحركة الإنسانية بأجمعها. . .

■ **تقول في هذا النص أن «. . . الإسلام هو الحل ولكن ليس بالصورة التي يطرحها التحريريون أو الإخوان المسلمون أو المتشدِّدون المنغلقون أو السروريون أو الجاميون أو الصوفية أو غيرهم ممن يركِّزون على جانب واحد وينسون الجوانب الأخرى التي قد لا تقل أهمية أو يستغرقون في التفاصيل ويهملون المبادئ الأساسية مثل مبدأ العدل ومبدأ المساواة ومبدأ حق الاختيار ومبدأ الشفافية. . .».**

السؤال ألم ترَ أن هذا النص يحوي خللاً بنيوياً عميقاً وإقصاء للآخر وأصوليةً رافضة للجميع لا تتفق ما جميع طروحاتك المنفتحة؟

ـ بالعكس تماماً فأنا أدعو إلى إنهاء حالة تبادل القطيعة والإقصاء بين الاتجاهات وأنادي بأن نناقش بموضوعية نقاط الإختلاف وبأن يتفق

المختلفون على ما يمكن الإتفاق عليه إنها دعوة إلى التلاقي والوئام والتكامل وتبادل الاحترام وإزالة المتاريس وتبادل حُسْن الظن. . .

■ **لم تترك مناسبة إلا وتشن فيها حرباً ضروساً على البرمجة الاجتماعية والذهنية للإنسان العربي. . .وأن المجتمع يبرمج عقول أفراده ويحدد مساراتها ويطبع اتجاهاتها إلى حد التمكين والوثوقية التي لا تقبل أي مراجعة أو نقد أو أدنى شك بمصداقيتها قبل أن يتشكل وعيهم وأن قليلين من البشر يستطيعون الإفلات من قبضة هذه البرمجة؟**
١ ـ ألا ترى أن الهدم يجب أن يتبعه البناء وأن الموضوع بحاجة لإيجاد بدائل بالدرجة الأولى. .
٢ ـ كيف يتعامل الحراك الاجتماعي الغربي مع هذه البرمجة بصفتها قدراً لا فكاك منه؟

ـ البديل موجودٌ ومجسَّد في تجارب الأمم والشعوب المزدهرة وقد كتبتُ عن ذلك كثيراً ويتلخَّص البديل باكتساب التواضع والتخلي عن أوهام الكمال وإدراك استحالة الإكتفاء والإعتراف باحتياج الكل للتغذية من الكل والأهم من ذلك فتح أبواب النقد وإقامة الحياة على الوضوح والمراجعة فالتقدم يقوم على الانتظام والاقتحام فالانتظام حاضرٌ بشكل تلقائي وهو الوضع الذي تعيشه المجتمعات المتخلفة أما الإقتحام فينهض به المفكرون والرواد والمبدعون في كل المجالات فالمجتمعات التي تعتمد النقد محركا للأفكار والأفعال تستجيب لمفكريها وتتبع روادها وتستفيد من مبدعيها فالأصل أن الناس مبرمجون وإذا لم يكن النقد معتمداً كأسلوب حياة ونمط تفكير فإن البرمجة تستمر تُغلق العقول وتعطل النشاط وتوقف المسيرة أما إذا كان المجتمع قد تخطَّى مرحلة

الوصاية وأوهام الكمال فإن المفكرين والمبدعين يحركونه بانتظام ويحولون بينه وبين العودة إلى الركود والجمود الذي هو الأصل لذلك فإن الإزدهار يقوم على عاملين: العامل الأول هو الانتظام الذي هو السلوك التلقائي لعامة الناس وللمجتمع بشكل عام وهو حضورٌ إنسيابي وفق قانون القصور الذاتي (العطالة) أما العامل الثاني فهو الإقتحام الذي يقوم به المفكرون إن المفكرين يَظْهُرون في كل المجتمعات لكن المجتمعات ذات الثقافات المغلقة لا تستجيب لمفكريها ولا تكتفي بعدم الإستجابة لهم وإنما تنابذهم وتُحَذِّر منهم فتبقى في حالة العطالة فتستمر البرمجة ويستمر الدوران في نفس المكان أما المجتمعات المزدهرة فإن الحياة فيها تقوم على الجدل والتكامل بين الإنتظام والإقتحام وبسبب هذه الاستراتيجية الثقافية يتواصل التقدم ويتعاظم الازدهار فالمجتمع يكون دائماً في حالة صعود أما المجتمعات التي لا تستجيب لمفكريها فإنها تبقى في حركة دائرية لا تتجاوز مساراتها المعهودة وفق قانون القصور الذاتي (العطالة) ولن تخرج من خطوط الدوران العقيمة إلا إذا هي فتحت أبواب الإقتحام لتتكامل مع حالة الانتظام وبهذا التكامل والجدل تنتقل دائما من حسن إلى أحسن إلى مالا نهاية. . .

إن تجربة المجتمعات المزدهرة في الشرق والغرب تؤكد أنه لا بديل للحرية ولا بد من فتح الأبواب وإشراع النوافذ ضمن ضوابط الحياة الرشيدة فالمجتمع حسب ديانته يختار نظامه وقوانينه فالحرية مناخٌ يسمح بالتنظيم والحركة وليست نظاماً إنها تجعل المجتمع يتحرك ضمن إطار الدين ومعايير الأخلاق وكرامة الإنسان إنها لا تحدِّد الاختيار ولكنها تتيحه فالتخويف من ضياع الأخلاق أو الانفلات من الدين هو قول هراء تنفيه تجارب الشعوب المزدهرة. . .

إن البرمجة في الثقافات المغلقة تعطل العقل وتشل الإرادة وتئد المبادرات وتقفل أبواب الإبداع أما البرمجة في الثقافات المفتوحة فهي تتجدَّد باستمرار وتتغيَّر بانتظام نحو الأفضل بفعل الجدل المستمر بين الإبداع والإتباع بين الإقدام والانتظام بين قيادة الفكر وقيادة الفعل فالبرمجة تتكفل بالانتظام أما الإبداع والمبادرات والإقتحام فيتكفل بالتحريك والحث وتجديد الأفكار وتطوير الأساليب وفتح آفاق المستقبل . . .

- **تقول في حوار أجرته معكم جريدة الحياة: (واكتشفت بالعمل الميداني في البلديات مع مختلف الجنسيات الفرق الشاسع بين مهارة وإتقان والتزام وتواضع الإنسان الكوري مثلاً وكلال وإهمال وانتفاش الإنسان العربي وتبيّن لي من ذلك أن الاختلاف ناتجٌ عن تباين منظومة القيم واختلاف البرمجة الثقافية السابقة للتعليم وليس عن اختلاف المواد الدراسية، فأصبح واضحاً عندي بأن هذا العجز العام في العالم العربي ناتجٌ عن خلل ثقافي سابق للتعليم ومصاحب له، وهو خلل عام وعميق الجذور وبذلك توصَّلْتُ إلى أن التخلف ليس حالة أو عَرَضاً يمكن علاجه بإنشاء المدارس والجامعات، وإنما هو بنية ذهنية وعاطفية قوية وراسخة وشديدة التماسك ومتعددة المكوِّنات ومتداخلة العناصر، وأن هذه البنية ذات أبواب مغلقة وأسوار مخكمة لا تسمح بأي مساس بذاتها ولا التشكيك بتكوينها وأنها تحتمي بأوهام الكمال عن أية مراجعة أو تصحيح، وأنه كلما اشتد التخلف تضاعفت أوهام الامتياز واستحكم الانغلاق، وأنه لا يمكن الإفلات من هذه الأوضاع المزرية إلا بالانفتاح الحقيقي على المنجزات الإنسانية في مجالات الفكر والعلوم والممارسات).**

ـ صراحة شعرت وأنا أقرأ هذا المقطع وغيره ـ التي تذكر فيه التعليم وتعتبره طلاءً خارجياً وأنه لا يدخل في البنية الذهنية والعاطفية للطلاب ـ بالأخص أنني معلم ـ باليأس والخزي والإحباط. . . . . والأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المقام:

ـ هل يمكننا ببساطة ضرب كل هذه الجهود الجبارة التي يبذلها التربويون والأساتذة والمربون والمعلمون في الميدان والدولة من حيث الميزانيات الهائلة التي ترصدها وغيرها. . .؟

ـ ما هو البديل المتاح التي تطرحه عن التعليم؟

ـ ألا ترى أن التعليم يثقف الطالب ويدربه على مهارات كثيرة. .

ـ أليس الأفضل الدعوة إلى تغيير فلسفة التعليم وطرقه بدلاً من شن الحملة عليه جملة وتفصيلاً. . . .

■ **ما تفسيرك أن الغرب مستمر في سياسته التعليمية إلى الآن وينفق عليها المليارات الدولارات ما دام قد ثبت عدم جدواها؟**

ـ المعروف أن الأطفال في السنوات التي تسبق التعليم يمتصون اللغة بمنتهى التلقائية ودون أي جهد منهم ومن غير تعليم أو مساعدة من أحد وهذه التلقائية والسهولة واليُسْر في التعلُّم العفوي في الطفولة تنقلب إلى معاناة وصعوبة وعُسْر في الدراسة النظامية وهذه الحقيقة تؤكد أن الإنسان كائنٌ تلقائي وأنه ما لم يكن راغباً في التعلُّم ومحبًّا له فإنه لا يتعلم إلا بصعوبة والأهم م ذلك أن ما يتعلمه قسراً لا يدخل ضمن بنيته الذهنية فيجب أن يتوقف المربون طويلاً عند هذه الحقيقة الجذرية فهي تدل على أن الإنسان لا يتعلَّم إلا ما يندفع إليه باهتمام ذاتي تلقائي ينبع من داخله وليس مفروضاً عليه فالتعلُّم الذي يحققه الأطفال امتصاصاً

تلقائياً هو شيء عظيم ومدهش يعاني الكبار كثيراً لكي يحققوه قصداً فرغم الجهد الشاق الذي يبذله الكبار في التعلم فإن ما يتعلمونه بمشقة لا يكون له رسوخ وثبات وتأثير ما يمتصه الأطفال امتصاصاً تلقائياً دون جهد منهم ولا مساعدة من غيرهم فالأطفال الصغار لا يمتصون اللغة وحدها تلقائياً ودون عون من أحد وإنما يمتصون معها كل ما يطبع حياة المجتمع من العادات وطريقة التفكير ومنظومة القيم إنهم يتقولبون تقولبا كاملاً ويتشكلون تشكلا نهائيا إنهم بإختصار: يتبرمجون بثقافة المجتمع فيخرجون من حالة الطواعية والانفتاح والطلاقة إلى وضعية الصلابة والتحديد والانغلاق إنهم يتشرَّبون عفوياً من ثقافة المشافهة والارتجال ما تتشكل به عقولهم وعواطفهم وتفضيلاتهم ومصادر الإقبال والنفور في نفوسهم وهذا يؤكد أن الإنسان كائنٌ تلقائي وأنه يتعلم بسهولة ما يندفع إليه تلقائياً أما الذي يجري قسره عليه فإنه يأباه عقله ويستعصي عليه فهمه وإذا اضطر إلى حفظه فإنه يبقى خارج بنيته الذهنية الفاعلة فهو شيء ملصق من الخارج ويظل في الخارج ثم ينسلخ ويطويه النسيان بعد أن يؤدي دوره المدرسي المؤقت...

إن الإنسان يصاغ بالتنشئة وحين يأتي التعليم لا ينمي إلا ما تكوَّن في الطفولة إنه يرسِّخ في الطفل ما تبرمج به أما ما يخالف هذه البرمجة فإن عقل الدارس يثور عليه ويرفضه أو يهمله ولا يهتم به فلا يتسلل إلى داخل بنيته الذهنية ولا يستقر في لا وعيه إنه لا يكتسب من التعليم وعياً جديداً مغايراً للبرمجة إلا إذا تعرضت البرمجة للصدم المزلزل بطرح التساؤلات العسيرة الكبرى فالتعليم امتداد للبيئة وليس العكس والتعليم ليس أعلى من المجتمع وإنما هو نتاجه لذلك فإن ثمرته مرهونة بأوضاع المجتمع واهتماماته ومع ذلك فإنه لا بديل للتعليم لأنه السبيل الوحيد

لإخراج الناس من الأمية وتهيئتهم للعمل غير أننا يجب أن لا ننتظر منه أن يعلو على السائد في المجتمع من الإهتمامات والأفكار والتصورات والمقاصد والقيم والتقاليد بل إنه يرسخها ويمنحها قدرة المحاجَّة والمدافعة والإيهام بالمعقولية فكل نظام تعليمي يخضع للإهتمامات السائدة في البيئة وكل بيئة محكومة أصلاً بقانون القصور الذاتي (العطالة) وكل مجتمع يبقى محكوماً بعطالته مهما بلغت الإضافات الكمية علماً وتقنية بل إن العطالة تحيل الإضافات المكتسبة إلى عتاد جديد تدافع به عن عطالتها وترسّخ به ذاتها وتُضفي به المزيد من الهالات على تصوراتها فلا ينقل المجتمع من حالة العجز إلى حالة القدرة سوى التفكير النقدي والتكامل بين الإبداع والاتباع أما ضخامة الجهود في التعليم فليست دليلاً على جدواه فهو لا ينتج إلا ما يتفق مع اهتمامات البيئة. . .

إن العقل لا ينفتح إلا لما يتشوق إليه أما إرغامه على استقبال ما لا يستسيغه فهو استقبال سطحي مؤقت إن نظام التعليم في أي مجتمع هو نتاج هذا المجتمع وإذا كان المجتمع متخلفاً فإنه لا يُنتج سوى تعليم متخلف ومعلمين مبرمَجين على تمجيد السائد إن الإنسان كائنٌ تلقائي فلا يستقر في لاوعيه إلا ما يثير عواطفه ويحرك وجدانه فهو يتأثر أشد التأثر بالمواد والمقررات التي تزكي السائد لأنها امتداد لما جرى غرسه في الطفولة أما ما يتعارض مع ما نشأ عليه فهو مجرد معلومات سطحية يحفظها للامتحانات لكنها لا تؤثّر فيه عاطفيا فيبقى مأخوذاً بطريقة التفكير التي غُرستْ فيه في الطفولة ومغتبطا بمنظومة القيم التي نشأ عليها فالإنسان مدفوع بعواطفه وليس بمعلوماته التي تتعارض مع هذه العواطف. . .

إن الإنسان لا يتعلَّم إلا إذا أثير قلقه بالتساؤلات العسيرة فصار مضطراً بأن يبحث بنفسه عن الإجابات التي تريحه وتزيل قلقه أما حقن المعلومات دون سعي ذاتي من الدارسين فإنها لا تدخل في تكوينهم العاطفي ولا تصبح ضمن اهتماماتهم الذاتية. . .

إن المجتمعات المزدهرة تحارب أسلوب التلقين في المدارس والمعاهد والجامعات وتعتمد خلق عقول متسائلة وأذهان متشككة وتتخذ كافة الوسائل التي تستفز الدارسين وتخرجهم من حالة السلب والتلقي إلى حالة الإيجاب والتساؤل والاستقلال إن تلك المجتمعات تهتم بتأكيد التفكير النقدي وتحرص بأن يكون النقد محوراً للعملية التربوية برمتها وتقيم حياتها وتربيتها على احترام الفرد ومع كل ذلك لم يفلحوا في تجاوز أضرار التفكير المدرسي وإطفائه للهفة الرغبة في التعلُّم لأن تجربة التعليم النظامي أثبتت أن الدارسين يفتقدون تلقائيتهم فتغيب تلك القدرة الباهرة على التعلُّم كما أثبتت التجربة أنه لا يمكن استعادة تلك القدرة إلا إذا تكوَّنت رغبة داخلية عارمة تدفع الدارس إلى البحث بنفسه إما من أجل تهدئة قلقه المستثار أو لأنه يستمتع بالمعرفة ويجد فيها من اللذة ما يجعله يطلب المزيد دون كلل. . .

فإذا كان التعليم النظامي في الولايات الأمريكية المتحدة وأوربا وفي كل البلدان المزدهرة يتأسَّس على الإنفتاح المطلق ويعتمد التفكير النقدي لحفز العقل وتحرير تلقائية الإنسان ومع ذلك يؤدي التفكير المدرسي فيها إلى إنطفاء الرغبة في التعلُّم فإذا كان هذا شأن التعليم في المجتمعات الحرة فماذا يمكن أن يقال عن التعليم في العالم العربي الذي يقوم على التقييد والكبح والكبت وأوهام الكمال ودعاوى الإكتفاء

ويعتمد التلقين وتزكية الذات وإدانة الآخرين وتحقيرهم والاستخفاف بهم وغرس الكره ضدهم وتكرار التحذير المستمر من الغزو الفكري فتمتلئ رؤوس الدارسين بالممنوعات والتحذيرات والخوف من الآخرين وعشق الذات الدميمة عشقاً يبلغ حد الهوس...؟!!!إن تعليماً كهذا لا بد أن يغلق نوافذ العقل ويميت الرغبة في التعلُّم ومن هنا كان التعليم في العالم العربي هو أشد المشروعات فشلاً إن الدراسة النظامية تستغرق من حياة الدارسين ربع قرن فتضيع بها أعمارهم ومع ذلك تأتي النتائج هزيلة غاية الهزال إن هذا كان حريا بأن يدفعنا لإمعان النظر والبحث عن أسباب هذا العقم إن الثروة البشرية هي الثروة الحقيقية المتجددة فلا بد من إخراجها بسرعة من حالة العقم إلى حالة الفاعلية والإنتاج فليس مقبولاً أبداً أن نستمر مع حالة العقم التي طال أمدها بل لا يكفي أن توصف حالة التعليم عندنا بالعقم لأنها تأتي بنتائج معاكسة تماماً للنتائج المطلوبة فالتعليم بوضعه الحالي ينتج مَن يرفعون أصواتهم عالية وصارخة ضد أي تحديث فيعرقلون التنمية ويعطلون مسيرة التقدم ويقفون بصلف وشراسة وانتفاش معارضين لأي تحرُّك نحو الأفضل...

■ **تقول في هذا النص: «حركة المجتمعات والثقافات محكومة بقانون القصور الذاتي الذي يضمن استمرار الدوران في نفس المكان ومع نفس المسارات القديمة فإذا بقيت محرومة من التحريك والدفع الإضافي من خارجها فإنها تبقى على حالها دون أي تقدم. إن التاريخ والواقع كليهما يشهد بأن المجتمع لا يمكن أن يعلو فوق ذاته لذلك يبقى في حركة دائرية ضمن مسارات تاريخية ثابتة حتى تأتيه تغذية معرفية قوية من خارجه تنتزعه من خطوط الدوران التاريخي الثابت وتضعه في بداية طريق الصيرورة المتقدمة والصاعدة».**

كيف نوفق بين النص السابق وما يشهده تاريخ التغيير من أن كل المغيرين والمجددين جاؤوا من داخل مجتمعاتهم وأن كل التجارب العالمية والقفزات الحضارية الكبرى لا تخرج عن هذا الخط فمهاتير محمد طور ماليزيا ومارتر لوثر خَرَجَ من داخل المؤسسة الدينية ومن قلب الثقافة المسيحية وأحدث في أوربا زلزالاً ثقافيا هائلا كان له الفضل لما يشهده الغرب من ازدهار مذهل كما تقولون. . .؟

- كتبتُ مراراً بأن التغيير لا يأتي إلا من داخل المجتمع ولكن بأدوات ورؤى من خارجه فالكائن لا يتغذى من داخل نفسه وإنما لا بد أن تأتيه التغذية من خارجه فالمفكرون ذوو رؤية عالمية تتجاوز المألوف وتتفوق على المحلي لكنهم من أبنائه ويعملون من داخله ومخلصون له ويتلهفون على تنميته وحريصون على إزدهاره إنهم يقدِّمون رؤى فكرية مشرقة تضيء وسط العتمة السائدة إنهم لا يرددون ما هو سائدٌ في بيئتهم وإنما ينظرون إلى بعض هذا السائد بوصفه القيد الذي يكبِّل المجتمع فهم ينتقدون السيء مما هو سائد ويعرُّون القيود ويكشفون عورات الوعي الزائف ويرتادون لأهلهم طريق الخلاص إنهم أطباء الأمراض الثقافية وهم الأقدر على تشخيص هذه الأمراض فإذا استجاب المجتمع لمفكريه انفكَّ من قيوده وتعافى من أمراضه وسار في طريق الإزدهار أما إذا خَذَل مفكريه ولم يستجب لهم فإنه يبقى يدور في مسارات التخلف فلا خلاص لأي مجتمع إلا بالتكامل بين حركة الفكر والفعل بين الإبداع والإتباع بين الإقتحام والإنتظام. . .

■ **تقول في مقالة كتبتها بعنوان الفكر الفلسفي هو العامل الحاسم في ثقافة الغرب منتقداً بشدة ذاك الوهم بكمال الماضي والأسلاف «فالأمة**

التي تتوهم الكمال في أسلافها وتؤمن بأن المعرفة في حالة تراجع دائم وتعتقد أن أفراد الأجيال اللاحقة ليسوا سوى مسوخ من الأجيال السالفة إن أمة هذا شأنها لا يمكن أن تنمو معارفها ولا أن تتطور قدراتها لأنها لا تتوقع من نفسها إلا العكس فمحال أن تحاول التطور وهي واقعة بقبضة هذا الوهم فالأعمال مرهونة بالتوقعات والنتائج مرهونة بالأعمال فمن يتوهم الكمال في ماضيه لا يحاول أن يتجاوزه ولا يمكن أن يسعى إلى تغيير ما وجد نفسه عليه فهو لا يتوقع إلا التآكل والنقص في حاضره ومستقبله فضلاً عن أن يتوقع الإضافة والإبداع أو أن يعمل لهما لذلك فهو طبقاً لتوقعاته الرديئة عن نفسه وتصوراته التفخيمية عن ماضي أسلافه يكون في حالة تراجع دائم».

وتتساءل بعدها في نفس المقال: لماذا يبقى اللاحقون مأسورين لنمط تفكير السابقين ومقيدين بأسلوب حياتهم ويخضعون خضوعاً مطلقاً لأحكامهم وأقوالهم ويحتذون تجاربهم وممارساتهم مهما كانت خاطئة أو جائرة إن اللاحقين كانوا يرددون ولا يضيفون ويتعاملون مع الأسلاف بتبجيل زائد ورهبة قامعة مما عطل فاعلية العقل الإنساني واستبقاه أسيراً راضياً بأسره.

أريد أن أطرح بعض الأسئلة لتوضيح وبيان كيفية بناء العلاقة السليمة مع التراث والسبل الصحيحة للتعامل معه:

١ ـ هل يمكن أن يكون هناك نمو بدون جذور وبدون أساس؟

٢ ـ وهل يمكن أن تكون ولادة التي تدعوا إليها بدون رحم التراث والهوية؟

٣ ـ ألا يشكّل هذا التراث هويتنا الحضارية التي سطرها الآباء من جذور القرآن والسنة وكان الأروع والأرقى؟ وكيف نحن بدونه؟

٤ ـ أما كان هذا التراث القلعة الصامدة بوجه كل عصفات الغزو الفكري ودعاته؟

٥ ـ ما هي المناهج التي يمكننا اعتمادها في التعامل مع هذا الإرث الثقيل الذي ورثناه ومن سيقوم بهذه المهمة العصيبة والمعقدة.

ـ لقد علّمنا القرآن الكريم أن تعظيم الآباء والإفراط في هذا التعظيم في أي عصر ودون أي استثناء هو أقوى أسباب رفض الحق والاستمرار على الضلال والجمود والتحجر والظلم ودعانا الله فرادى أن نتعرّف على الحق بالنظر والتفكُّر في الآفاق والأنفس: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» ويقول تعالى: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» فهذا دليل على أن الفرد لا يفكر تفكيراً صحيحاً إلا إذا انفرد بنفسه وانفصل عن السائد ووضع بينه وبين المألوف مسافة كافية لينظر إليه نظرة موضوعية فلسنا مستعبدين بالآبائية ولا بخرافة الجذور ولا بمهزلة التراث وإنما المطلوب أن نتحمل مسؤولية الأمانة وأن نبذل أقصى الجهد للتعرف على الحق والإلتزام به سواء جاء من داخل المجتمع أم من خارجه ومن القديم أو الحديث فالحق أحقُّ أن يتبع وهو ضالّة المؤمن يأخذ به أنّى وَجَدَه سواء لقيه داخل ثقافته أم أنجبته علوم الغرب والشرق أو أكدته تجارب الناجحين...

وتجربة الشعوب شرقاً وغربا تدل على أنه كلما تحرر المجتمع ولو تحرُّراً نسبيا من التراث والآبائية والسوابق صار أقدر على الحركة والإبداع وأجرأ على التجديد والابتكار وأنه بقدر تخلُّصه من الآبائية يكون انطلاق طاقاته الذاتية ويصير أحرص على معرفة الحق وعلى

تحقيق الإزدهار فالوثبة اليونانية كانت خارج مناطق الحضارات القديمة (آسيا وأفريقيا) فهم قد حققوا معجزتهم الحضارية الخارقة لأنهم وجدوا أنفسهم أحراراً من قيود الماضي وطلقاء من أوهام الجذور فهم كانوا خارج سيطرة الثقافات القديمة المتلبكة فتخلصوا من أغلال الآبائية التي شجبها القرآن بمنتهى الشدة كما شجبها كل الأنبياء فاليونانيون لم تستعبدهم خرافة الجذور ولا مهزلة رحم التراث أما الأمثلة في هذا العصر فكثيرة وتأتي الولايات المتحدة الأمريكية دليلاً حيًّا على أهمية التخفُّف من قيود السوابق فمع أنها امتدادٌ لأوربا ثقافة وحضارة ومع أن أوربا ذاتها قد تحررت تحرراً رائعاً من أثقال الماضي وأنها هي منشأ أفكار التحرر إلا أن أمريكا صارت أكثر تحرراً لأنها خارج مناطق التراث لذلك تميزت تجربتها الثقافية بقوة الإنطلاق وشدة الدفع وقلة المعوِّقات. . .

فحكاية الجذور هذه أُكذوبة كبرى وخرافة سخيفة إنها تعطِّل مسيرة الحضارة وتكبل حركة الشعوب وتتنافي مع تجارب الإزدهار إنها تسلب الإنسان حريته وتعيده إلى مستوى النبات المغلول بجذوره إلى الأرض فلا مجال لتشبيه الإنسان بالنبات لأنه يموت إذا قُطع عن جذوره فالتشبيه هنا خاطئ لأنه لا حياة للنبات إلا ببقائه مغروساً في الأرض ويتطلب بقاؤه استمراره دون تغيُّر أما الإنسان فعكس ذلك تماماً إنه لا يتقدم ويزدهر ويحقق الرخاء ويكتسب المعارف ويبرع في المهارات إلا بمقدار حركته خارج منجزات الأسلاف إن الناس يتقبلون مثل هذه الشعارات العمياء دون تحليل أو مناقشة فيقعون في فخها ويغفلون عن أن هذه المقولة هي إحدى وسائل الهيمنة عليهم إن السيطرة على عقول الناس

والتحكم بعواطفهم تتطلب ترديد وإشاعة وترسيخ مثل هذه المفاهيم وتأكيد هذه الشعارات ولو تأملناها لاكتشفنا أنها تصادر إنسانية الإنسان وتلغي فرديته وتحيله إلى إمَّعة وتنسيه مسؤوليته عن التحقُّق وتوهمه بأن الحق يكون بالإستسلام لما هو سائد فتعطَّل فيه قدرة النظر والتفكُّر فيعتاد الإتكال على غيره حتى فيما يتعلق بمصيره وهذه أفدح الخسائر على الفرد والمجتمع إن ارتباط الفرد بالله ومسؤوليته الفردية أمام الخالق تتنافي مع فكرة الجذور فنحن مكلَّفون من الله تعالى كأفراد وليس كجماعات ولا تختلف مسؤولية الفرد سواء عاش في القرن الأول الهجري أم في القرن الخامس عشر فعلاقتنا بالله تعالى هي علاقة فردية مباشرة ومسؤوليتنا أمام الخالق هي مسؤولية شخصية وليست جماعية وهو سبحانه قد يسَّر لنا سبل الفهم وليس بيننا وبينه سبحانه واسطة ونصوص الإسلام ما زالت طرية إننا متعبَّدون بها وليس بأقوال وأراء البشر ونحن نستطيع أن نتعامل معها مباشرة بل أصبحنا نملك من مناهج البحث ووسائل المعرفة ومنجزات العلم ما لم يُتَحْ لأي جيل سابق وهذه من أوضح الحقائق لكننا ما زلنا مصروفين عن إدراكها وبهذا تعطَّلتْ قدرات الأمة . . .

■ **تقول في هذا النص: (وجدت أن للازدهار الثقافي والعلمي والفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي شرطاً واحداً محورياً هو الانفتاح والتعددية والنقد ونقد النقد في عملية تكاملية لا تتوقف فالتزاوج هو القانون العام الذي لا تتكاثر الأشياء ولا الأحياء ولا الأفكار إلا به «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»، فالوجود تزاوجٌ وتدافع وأخذٌ وعطاء وفعلٌ وردٌ فعل ومؤثِّر ومتأثِّر إن**

الديالكتيك هو القانون العام) وتمتدح الليبرالية وتطالب بتطبيق الجو الليبرالي المنفتح في العالم العربي وتصفه أنه مناخٌ وبيئة يتاح فيها أفضل تطبيق ممكن للتعاليم العظيمة.

١ ـ ما حدود هذا الانفتاح الذي تدعو إليه؟

٢ ـ وهل المجتمع العربي جاهز لهذا الانفتاح؟

٣ ـ ألا تخشى أن يقودنا هذا الانفتاح إلى فوضى اجتماعية وأخلاقية يوصلنا إلى واقع أسوأ مما نحن عليه؟

٤ ـ هل تتوقع نجاحاً لليبرالية في مجتمعاتنا وهو غريب عن تربتها؟

٥ ـ لماذا لم تنظر للفروقات الثقافية والتاريخية والأيدلوجية بين البيئة العربية والغربية؟

ـ إن المجتمعات كيانات محكومة ومنظَّمة فأي انفتاح سيكون محكوماً بدين المجتمع وأخلاقه وقيمه ونُظُمه وقوانينه ولسنا نبدأ من الصفر وإنما أمامنا تجارب حية ظافرة في الشرق والغرب ومنها ماليزيا وتركيا إن صراع الأفكار شرطٌ لمواصلة التقدم لذلك فإنه في مجال الفكر وتداول الرأي لا حدود للإنفتاح كما هو في كل المجتمعات المزدهرة أما العمل والفعل فيها فيكون محكوماً بالقوانين والدساتير والمؤسسات وبالمعايير الأخلاقية فالإنفتاح لا يعني الفوضى وإنما يعني إطلاق طاقات العقل وتنمية مهارات الفكر والفعل والإفساح للتكامل بين الإبداع والاتباع. .بين الانتظام والإقتحام وفتْح المجالات للمبادرات الفردية الملتزمة وللجهود الجماعية الخلاقة وللتطور المستمر. . .

إن الليبرالية جديدة على المجتمع العربي لذلك فإنه راهناً ليس جاهزاً ومن البداهة أنه لن يكون جاهزاً دون تجربة وممارسة ومعايشة

لكنه مثل غيره قادرٌ على أن ينفتح وأن يألف هذا الانفتاح بعد التجربة فكل المجتمعات البشرية كانت في الأصل منغلقة على ذاتها فالإنفتاح طارئٌ على الحياة البشرية وقد ثبتت جدواه وتأكدتْ عظمة نتائجه ولا بد من التعامل المباشر مع هذا الطارئ الحيوي وممارسته واكتساب المهارات اللازمة له فلا يمكن التعلُّم إلا بالممارسة والمعايشة...

إن العرب ليسوا بِدعاً من الناس وهم قادرون على تجاوز البدايات المتعثرة كما تجاوزتها الأمم الأخرى فلا شيء دون ثمن إن الإنغلاق هو التدمير الحقيقي أما الانفتاح فهو السبيل إلى التخلص من هذه الإعاقة الحضارية الفظيعة...

إن الأخلاق الحقيقية هي ثمرة الإلتزام في مناخ حر وبيئة مفتوحة أما الإضطرار الذي يقوم على الإرغام فليس أخلاقاً وإنما هو تطويع وقسْر إن الأخلاق هي الأخلاق القائمة هي التشبُّع التلقائي بالواجب والإلتزام بأداء هذا الواجب عن رغبة وطواعية وليس قسراً وإكراها فالحرية هي شرط أخلاق الالتزام أما إذا غابت الحرية فهي أخلاق الخوف والإضطرار...

أما الفروق الثقافية فهي المعضلة وهي مصدر الشكوى وهي سبب التخلف لكن لابد من العمل على تجاوز هذه الفروق وتربية الذات حتى تتقبل أسباب التقدم وتستجيب لعوامل الإزدهار فليس الإنسان إلا ما تعلَّم...

- **لا تعترف بمفهوم التخلف ولا تقره وتعتبره وصْفاً لا نستحقه وهذه يُغطِّي حقيقة عجزه مجتمعاتنا البنيوي وتدلل على ما تقول بأن هذا المفهوم يوهم بأن المتخلف يسعى للخروج من حالة الركود لكنه لم**

يلحق بعد فالتخلف مرحلة متقدمة قياساً بحالة الدوران الثابت الذي لا يتجاوز مكانه وكذلك وصفها بأنها نامية فهو أفدح تزييفا للحقائق ووصف أقطار أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بهذه الأوصاف يوهم بأن المزدهرين والمتخلفين ينطلقون من نفس المنطلقات وأنهم يسيرون مع نفس الطريق وأن لهم نفس الرؤى وأنهم يسعون لنفس الأهداف وأنهم جميعا تحركهم نفس القيم والقناعات ويوهم بأن المزدهرين سبقوا غيرهم في بداية الركض وأن هذه المزية هي التي مكّنتهم من السبق وأن الزمن سوف يطوي هذا الفارق، وتعتبر التخلف لا يعود إلى التأخر في بداية الانطلاق وإنما يرجع إلى الجهل بنقطة البداية أو الرفض الصريح أو الضمني لهذه البداية وقد طرحت في قناة العربية في برنامج إضاءات الذي يقدمه الإعلامي الإشكالي تركي الدخيل مصطلح التقهقر كبديل عن مصطلح التخلف...
السؤال البديهي الذي يطرح نفسه: ما هو تفسير أنك ترفض هذا المصطلح وتستخدمه في نفس الوقت ولا يخلو مقال من مقالاتك من ذكره مراراً وتكراراً حتى أن أحد عناوين كتبك هو بنية التخلف؟؟!!.

ـ العالم كله في سباق حثيث نحو آفاق الإزدهار في العلم والفكر والسياسة والإجتماع والإقتصاد وفي كل مجالات التنمية أما نحن فمازلنا خارج ساحة السباق لأننا ندعي الكمال ونتوهم الإكتفاء ونعلن القطيعة مع نقطة بداية السياق إننا نسير عكس اتجاه التنمية ومقتنعون حتى الهوس بهذا السير نحو الخلف فإذا انطلقت الأمم نحو الأمام عاكسنا الجميع وانطلقنا نحو الوراء فنحن مازلنا نرى أن العصر الذهبي في عصور مضت وأننا سوف نستعيد تلك العصور الذهبية فهي في الماضي وفي الخلف ومع الأموات وليست في الأمام ولا هي مع الأحياء إنها في

الماضي وليست في الحاضر ولا في المستقبل إننا نعيش ثقافة جنائزية بامتياز فنحن نفتخر بأننا نسعى حثيثاً نحو المزيد من التقهقر لذلك فإننا لا نستحق شرف وصف التخلف لأن هذا الشرف يوهم بأننا داخل ساحة السباق العالمي بينما نحن خارج الساحة تماماً بل لسنا خارجها فقط وإنما نسعى بالاتجاه المعاكس فالتقهقر هو الصفة التي تتطابق مع وضعنا. . .

- **تعيش في مجتمع يعتبر نفسه مجتمع نعيميًا وجنانيًا ويرى نفسه أنه الوحيد في العالم ولا يأبه في كل تجارب الوجود ويعتبرها تجارب ضالة وعليها الاستفادة من تجاربه وتنقده نقداً لاسعاً يقع في الصميم واسمح لي أن أرد هذا النص وإن كان طويلاً تقول فيه «إن بعض المجتمعات المتخلفة حين يتوفر لها الرخاء المؤقت الذي لم يكن من إنتاجها وإنما كان فيضاً من أرضها تتوهم أنها مزدهرة وتتجاهل أن مخزون أرضها هو الذي مكّنها مؤقتاً من أن تستورد منتجات المجتمعات المتقدمة وبهذا التجاهل غفلت عن كلالها وعميت عن عجزها وتوهمت أنها مزدهرة وأنها تشارك في المسيرة الحضارية مع أنها ليست سوى مستهلك خامل كسول يشتري إنتاج المزدهرين ما دام يملك مؤقتاً الثمن الذي أغدقته عليه أرضه فإذا نضبت الموارد الطبيعية في أرضه فسوف يعود إلى الفقر والجدب والضياع لقد استجلبت هذه المجتمعات التقنيات والمنتجات والعلوم من المجتمعات المزدهرة واقتبست شكليات التعليم وعمّمت المدارس وأنشأت الجامعات وأقامت مراكز البحث العلمي على النمط الغربي المزدهر ولكن التمركز الثقافي أبقى العلوم منفصلة عن حركة المجتمع وأبقى الثقافة الحديثة خارج البنية الذهنية العامة».**

والسؤال: ما هي ردود الفعل حول آرائك وانتقاداتك؟ وببساطة ألا تخاف من طيش هذا المجتمع وانتقاداته؟ وكيف تقيم علاقاتك بالسلطة الدينية التي ما زالت تملك الحظوة والوصاية على المناخ الثقافي عامةً في المملكة؟

- لست في خلاف شخصي مع أي طرف وما أقوله هو حقائق لا يمكن إنكارها أما نقدي فينطبق على أي مجتمع غير منتج ويعتمد اعتماداً كليا على إنتاج أرضه دون جهده فلست بالضرورة أعني مجتمعنا وإنما أعني أي مجتمع تتدفق الخيرات من باطن أرضه ويغدق الله عليه دون جهد فيتوهم في نفسه التميز...

- **من خلال قراءتي لفكرك السياسي تحديداً ظهر لي أن ثمة التباس في منهجية التعامل مع المعطى السياسي تقول في مقالة كتبتها بعنوان: «العلاقة الملتبسة بين الثقافة والسياسة نظرت للموضوع ـ من خلال وجهة نظري الشخصية ـ نظرة تشخيصية أكثر منها تحليلية تاريخية حيث ترى أن كل أوضاع البشر في هذه المعمورة ما هي إلا نتيجة وثمرة للتفاوت بالعلاقة النوعية بين الثقافة والسياسة وأيهما يقود الآخر» ففي المجتمعات الديمقراطية تكون السياسة نتاج الثقافة وثمرة الفكر ويؤدي التدافع والجدل الدائم بينهما إلى تطورهما معاً أما في المجتمعات غير الديمقراطية فإن الثقافة والفكر صياغة سياسية وبذلك يكون المجتمع محروماً من أسباب التجدد لأنه لا تقدم بدون التدافع ولا نمو من غير جدل الفكر والفعل وهذا كلام جميل وصحيح ولكن هناك أسئلة أعمق يمكن أن تطرح نفسها:**

١ ـ كيف أصبحت الثقافة تابعة للسياسة في مجتمع ما والعكس في المجتمع الذي بجواره؟

٢ ـ أين دور الناس عموماً والنخبة خصوصاً؟

٣ ـ هل يحصل كل هذا بمحض الصدفة وبالتالي يصبح التاريخ البشري كله صدفةً بعيداً عن السننية والقانون؟

٤ ـ ألم تكن السياسة انعكاساً صادقاً لثقافة المجتمع ووعيه (كما تكونوا يولى عليكم)؟

٥ ـ هل يستطيع ديكتاتوراً أن يحكم شعباً واعياً وراشداً وديمقراطياً لساعةٍ واحدة وبالعكس هل يستطيع أن يحكم ديمقراطي راشد أمةً همجية؟

٦ ـ ما المانع والضمان من خروج دكتاتورا فجأةً في العالم الأول؟

٧ ـ ألم تكن جوهر مشكلتنا في المسألة العقلية كما يقول مالك بن نبي؟

ـ الشرق هو مهد الحضارات القديمة وفي كل حضارات الشرق كانت الثقافة محكومة بالسياسة فالعلاقات في الشرق كانت وما زالت محكومة بعلاقات القوة والإخضاع وليست قائمة على التراضي والإقناع إن خضوع الثقافة للسياسة هو الوضع السائد في كل حضارات الشرق أما انعتاق الثقافة من هيمنة السياسة فكان حدثاً استثنائيا غير مسبوق وهو لم يحصل إلا في حضارة المدن في اليونان وبالذات في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد لقد أتيح لذلك الشعب العجيب أن يكون حرًا فتأسست الثقافة المستقلة عن السياسة فصارت السياسة لأول مرة في التاريخ تابعة للثقافة وخاضعة للفكر ومقيدة الصلاحيات وهذا أعظم تحول في حياة الإنسانية. . .

ولكن الإنسانية في ذلك الزمن لم تكن متهيئة لتلك القفزة الحضارية

الكبرى فاحتفت التجربة اليونانية ولكن الفكر اليوناني بقي حيًا فاستعادت أوربا ذلك الفكر العظيم وأعادت إحياءه فعادت الثقافة حاكمة للسياسة وساد في أوربا وامتداداتها في أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا مبدأ الإقناع واختفى منها قانون الإخضاع. . .

إن ثقافة المجتمعات تتكوّن بالمعايشة وقد عاشت شعوب الشرق محكومة بالسلطة المطلقة ولم يتعرف الناس فيها في القديم على أي نمط آخر من أنماط الحكم لذلك كانوا يعتبرون ما عايشوه شيئاً طبيعيا لا مجال للتفكير فيه ولا في البحث عن بديل. . .

أما أوربا فقد عرفت النظام الديمقراطي منذ ألفين وخمسمائة سنة في التجربة الإغريقية ولكنها حُرمتْ منه خلال القرون الوسطى ثم استعادته في هذا العصر ولم يعد ممكنا انتزاع هذا الحق منها فقد ذاقته وتربّت عليه ولم يعد ممكناً أن تفرط فيه وقد وضعتْ من الآليات والقوانين والاحتياطات ما يكفل استمراره أما التجربة النازية فقد حصلت في ظروف خاصة ولا يمكن أن تتكرر فالغرب أصبح في منأى عن عودة الاستبداد ومحميا من ظهور الدكتاتوريين إنه يعيش في أمان مطلق من هذه الآفة الشرقية. . .

إن معضلة الشرق عموماً والعرب خصوصاً هي معضلة ثقافية لكن الثقافة صناعة سياسية فتطاول الاستبداد هو الذي خلق هذه المعضلة ولو توفرت حرية كافية للشعوب العربية لكان ممكنا شفاؤها من مرضها الثقافي فالاستبداد السياسي والإنغلاق الثقافي هما مصدر البلاء لكن لو انتهى الاستبداد السياسي فإن بالإمكان التخلص من الإنغلاق الثقافي فجذور المعضلة سياسية أما مظاهرها فهي ثقافية. . .

■ ترفض بشدة محاولات إيجاد أصول شرقية للفكر اليوناني وتصفها أنها تقع في تناقضات واضحة تكشف العجز عن إثبات وجود الفكر النظري الخالص في الحضارات الشرقية القديمة وتقول أن هذا الزعم ينقصه البرهان فهو يقوم على التمحُّل والاعتساف ومحاولة إنكار الامتياز الثقافي الأوروبي وأن له دلالات نفسية خطيرة تجعلنا نطرب لمن يمدح الشرق بإطلاق حتى لو كان هذا المدح للهند البوذية ومصر الفرعونية والصين الكنفوشيوسية والمهم أن لا تكون أوروبا هي صاحبة السبق والسؤال:

١ ـ ألا تعتقد أن هذا الخلاف نظري ولا جدوى منه في مسيرة نهضتنا والمهم أن يهتم المسلمون والعرب بالفلسفة ويعتمدونها في مناهجهم والتعرف على كينونتها والثقة بقدرتها على انتشالهم من قبضة الاستبداد والتخلف وتدخل في بنيتهم الفكرية والنفسية والذهنية وتعليم أبنائهم التفلسف وعشق الحقيقة وحب التساؤل مهما كان منشئها شرقياً أو يونانياً فالمهم الاقتناع بالفكر الفلسفي وأهميته وليس مهماً للغاية تبديد كل هذا الجهد في البحث في هذه المسألة النظرية التي لا تنعكس بالإيجابية المتناسبة مع هذا الجهد المبذول.

٢ ـ برأيكم ما هي الأسباب الحقيقية أن الثقافة العربية لم تتقبل الفلسفة ولم تتآلف معها بل دخلت معها بحرب ضروس كانت الفلسفة هي الخاسرة فيها؟

٣ ـ ما هو سر حيوية الفلسفة اليونانية حتى يومنا هذا مما دعا المفكر الفرنسي دوبريه أن يقول «.. إن نصوص القرن الخامس قبل الميلاد لا تزال تساؤلنا ولا يمكن لأي فيلسوف في أيامنا أن يدعي بأنه يفكر أفضل من أفلاطون..».

ـ لا . . إن الخلاف بين الرؤيتين هو خلافٌ أساسي فمن جهة لابد من إعلان الحقيقة التاريخية كما هي لا كما نهوى فالحق أحق أن يُتَّبع أما من ناحية أخرى فإننا إذا قلنا بأن الفلسفة الإغريقية ذات جذور شرقية فإن هذا يستبقي كل شيء على ما هو عليه فنتوهم قدرة ثقافتنا على علاج ذاتها أما إذا اعترفنا بأن الفلسفة نتاجٌ إغريقي محض وبأن الفكر الفلسفي يمثل نقلة نوعية في التفكير البشري مختلف نوعيا عن ثقافات الشرق فإن هذا يستوجب إحداث تغيير نوعي في طريقة تفكيرنا وفي منظومة قيمنا وفي نمط علاقاتنا فننتقل من ثقافة الإخضاع إلى ثقافة الإقناع ونقتنع بأن التكامل بين الإبداع والاتباع هو شرط الإزدهار فالعطالة هي الأصل ولا يخرج المجتمع من عطالته إلا بالفكر الناقد. . .

■ **هناك من يرى أنك تطرح المشكلات في العالم العربي بشكل مساوي على ما هي عليه في الغرب ولم تأخذ بالحسبان التطور الحضاري والهوة الواسعة بين الاثنين وأضرب مثالاً على ذلك طرحك لمشكلة التخصص وأنه يحصر المتخصص في المجال الضيق الذي اختاره فيفقد بذلك رحابة المعرفة ويفقد مرونة التفكير ويصبح متحيزاً لهذا المجال ومتقوقعاً داخله فتضمر لديه أشواق المعرفة الواسعة وتتقلص عنده آفاق الرؤية البصيرة ويصير سجيناً للمجال الذي حبس نفسه فيه. . ويتوهم أنه حاز كل المعرفة وأن تخصصه هو التخصص الوحيد الذي تحتاج إليه البشرية شاعراً بالغرور وأوهام الاكتفاء وتؤكد أن هذه المشكلة تتضاعف في مجتمعاتنا في قولك «وإنما يغرس الغرور وأوهام الاكتفاء خاصة في المجتمعات المتخلفة التي أخذت الشكل من أنظمة التعلم وأهملت الجوهر».**

ويبدو لي أن هذه المشكلة باتت مشكلة عويصة في الغرب أكثر من

العالم العربي وذلك لاستغراقه في التخصصات الأكاديمية الدقيقة من خلال مؤسسات عريقة تنفق المليارات من الدولارات على البحث العلمي بكل أنشطة المعرفة والعلم، فنرى الباحث ينفق عشرين عاماً من حياته أو أكثر على دراسة نبتة أو حجرة أو حشرة والأمر يكون أعقد من ذلك عند دراسة سمة من سمات الطبيعة الإنسانية الذي حقق فيها الغرب انتصارات باهرة استطاع أن يتعامل مع الإنسان وعقله ويستفز طاقاته ويستخرج أثمن ما عنده ويحل مشاكله ومشاكل قيادته أما مشكلة التخصص في المجتمعات العربية فهي أقل حدةً لأنها لم تدخل عصر التخصصات العلمية والأكاديمية الدقيقة بعد.

ـ ما زالت الفلسفة هي التي تحرك حضارة الغرب وتحول بينه وبين معاودة الركود والجمود فالفكر النقدي هو حافز البحث أما البحوث التخصصية الضيقة فهي نتاج الحفز الفلسفي إن الأبستمولوجيا (الدراسة النقدية للعلم) تنهض بدور أساسي في التقدم العلمي وفي تحريك كل قطاعات النشاط في الغرب فهي تواصل نقد العلوم والأوضاع وتطرح التساؤلات وتثير المشكلات فيضطر العلم أن يبحث عن الحلول للمشكلات والإجابة عن التساؤلات وقد أوضحت ذلك في العديد من المقالات فلا داعي للتكرار. . .

- **تقول في هذا النص واصفاً اهتمام الإنسان العربي: «وبالمقابل نجد أن الفرد العربي شديد الاهتمام بالمظاهر الجوفاء. . كما أنه مهتم إلى درجة الهوس: بما يقوله الناس عنه. . وما هو رأيهم فيه. . ومهتم بالوجاهة إلى درجة تثير الإشفاق والسخرية. . ومهتم بالنفوذ. . ومهتم بمصالحه الخاصة. .».**

والسؤال الذي يطرح نفسه:

١ ـ ألم تر أن هذا تجني على الإنسان العربي فالناس في باقي بقاع الأرض صالحون لا يهتمون بهذه الأشياء والناس عندنا فقط من طينة مختلفة...

٢ ـ ما تفسيرك لما نشاهده يومياً عبر المحطات الفضائية من سلوكيات هابطة في الغرب لا يمكن قبولها في عالمنا العربي بالرغم من صلابة القانون عندهم فمدينة مثل نيبورك مثلاً لا يمكن أن يأمن الإنسان على نفسه أو ماله بعد منتصف الليل وحدث ولا حرج في هذا المضمار...

٣ ـ ولماذا لا ننظر إلى نقاط الخير في مجتمعاتنا ولماذا لا ننظر إلى الإحسان والخير الذي يحصل في ليلة رمضانية واحدة في عاصمة إسلامية فقط والذي لا يجوز قياسه بكل الإحسان والخير الذي يبذل في الغرب على مدار عام كامل.

٤ ـ هناك من يقول أن في كتاباتك جلداً غير مبرر للذات ما ردكم على ذلك؟

ـ الأحكام تُبنى على الغالب.. والفرد عندنا مطموس الفردية ومشغولٌ بالمظاهر وغير مهتم بالعلم ولا بالعمل أما الفرد عندهم فلا يهتم كثيراً بما يقوله الناس عنه لانتشار النزعة الفردية فقيمة الفرد ليست بنسبه ولا بمظهره وإنما بعلمه ومهاراته وقدراته وسلوكه وانضباطه ومن المعلوم أنه لولا التزام الفرد الغربي بواجباته لما استطاع الغرب أن يحقق هذا الإزدهار العظيم ولا أن يطرد التقدم عنده كل هذا الاطراد...

إن الجوانب الخيِّرة عندنا ليست بحاجة إلى تنويه فهذا التنويه لا

يفيد أحداً فنحن نشكو من التخلف ومن غياب الانضباط ومن ضعف الاحساس بالمسؤولية فعلينا أن نركز على علاج أمراضنا أما تمجيد ذاتنا فلا يفيد شيئاً إننا مجتمعات مريضة وعلينا علاج أمراضنا الإجتماعية بأقصى ما نستطيع من النجاعة والجرءة والوضوح والمصارحة والفاعلية...

إن المريض حين يذهب إلى طبيب فإنه سوف يركّز على البحث عن مصدر العلة التي يشكو منها ولن يفيده أن ينشغل الطبيب بالحديث عن أعضائه السليمة فإذا كان القلب سليماً فإن عافيته لا تعني الاستغناء عن الكبد أو البنكرياس أو غيرهما من الأعضاء والأجهزة الضرورية إن مهمة المثقف مع مجتمعه تشبه مهمة الطبيب مع مريضه إنه يشخّص العلة أو العلل وليس من شأنه أن يتحدث عن ما هو متحقق فالمطلوب معرفة ما يحتاج إلى علاج وليس الانشغال بالحديث عن الأمجاد والمزايا فهذا تحصيل حاصل ولا يحتاج إلى أن ننشغل به...

حـوارات
منتدى دار الندوة المفتوح

(منشور بالإنترنت)

تقديم

أحمد المطرودي

كان منتدى دار الندوة أحد المنابر المهمة في الشبكة العنكبوتية (الانترنت) وقد استضاف المنتدى إبراهيم البليهي شهراً كاملاً. كان رواد المنتدى يُوَجِّهون إليه أسئلة مكتوبة فيجيبهم بإجابات مكتوبة فجاءت هذه الحصيلة التي نُقَدِّمها للقراء كجزء من حواراته.

ضيفنا هو إبراهيم البليهي الكاتب والمفكر المعروف.

ويسعدنا كثيراً استجابته الكريمة في قبوله دعوتنا التي وجهناها إليه ليحل ضيفاً على دار الندوة حَمَلَ آخرُ مقال كتبه ضيفنا عنواناً (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) واحتوى ذاك المقال مزية للحضارة الغربية المعاصرة ووصفاً لها أنها حضارة استثنائية تختلف كلياً في قيمها واهتماماتها وفي غاياتها ووسائلها وفي مناهجها وأساليبها وفي تصوراتها ومفاهيمها وفي رؤيتها للإنسان والكون والحياة عن الحضارات القديمة وهي وحدها بتلك المكونات التي استطاعت الإفلات من قبضة الدوران التاريخي وغياب الإحساس بهذا التفرد قاد إلى استعارة الشكليات والماديات فاقتصر على استهلاك الثمار اليانعة التي أفرزتها هذه الحضارة دون إحساس بتلك الأشجار التي أنتجتْ هذه الثمار إن هذا محور رئيسي يحرك فكر ضيفنا ينضم لمحاور أخرى كبرى دعته لتأسيس علم

الجهل الذي يقول عنه «إن الجهل المتوهَّم علما من أقوى عوائق الحضارة وأشد موانع النهوض» وهذا يقود المجتمعات والأفراد حتما ودون شعور إلى الارتماء في أحضان «بنية التخلف» التي يصفها أنها شديدة التعقيد فهي بوصفها «لا تتكون من عناصر بسيطة وإنما تضم داخلها مجموعة من البنى المعقدة فالبرمجة الثقافية والاجتماعية مثلا من أعقد وأضخم وأعمق وأوسع مكونات بنية التخلف» ومن نافلة القول أنه وفقا لذلك يفرق بين النمو والتخلف فإطلاق مفردة النمو فيه تضليل هائل لتلك الشعوب التي ترتكس في دائرة التخلف دون أن تعرف للنمو طريقا وحقائق العلم بوصفه كذلك ليست سوى إضاءات متقطعة وسط ظلمة الجهل المركَّب ونحن نركز اهتمامنا لتلك الإضاءات ونغفل أو نتغافل عن ذلك الركام السائد المهيمن الذي شكَّله أو تمثَّل به الجهل وهو ينطلق من فرضية فحواها أن «العقل يحتله الأسبق إليه» معللا ذلك بالاستناد إلى «إن إصلاح العقل البشري وإبراءه من الجهالات التي احتلته بطريقة التشرب التلقائي والتنشئة العفوية من المهمات الصعبة الكبرى» وعلى هذا فَقَصْرُ التعلُّم على الدراسة النظامية من أسباب الخواء المعرفي والعجز المهني إن هذه ربما مثَّلت إعضالا عصيا في ثقافتنا يتمثل في عدم قدرة المفكر على الالتقاء بدائرة المتلقي فضلاً عن الدوران فيها ومعها فهل يكمن الخلل في المرسل ورؤيته وأسلوب طرحه؟ أم في المتلقي وانغلاق دائرته وعدم مقدرته على الارتقاء؟ أم يشتركان في تكوين تلك العثرة؟ هذه إضاءة نراها ضرورة لجزء من اهتمامات ضيفنا الكريم. . ولمزيد من الاطلاع على ما دشَّنه يراع أبي عبد الرحمن يمكن الرجوع إليه لما كتبه في جريدة الرياض من مقالات بلغت المئات. .

له تجارب رائدة تُحتذى في العمل الإداري عامة.. وفي إدارة البلديات خاصة.. جعلت المنظمة العربية للعلوم الإدارية وفق ما أورده الأستاذ الدكتور عبد الله بن ناصر الوليعي في كتابه عن الشماسية تعده نموذجا متميزا في الإبداع الإداري...

إذ قدم الدكتور إبراهيم العواجي بحثا في تجربته الإدارية بعنوان «الإبداع الإداري» قدمه للمؤتمر العشرين للعلوم الإدارية عام ١٩٨٦ م تلمّس فيه انزياح تلك التجربة الإدارية عند ضيفنا الكريم الذي يملك في رصيده عددا من الكتب والأبحاث يعمل حاليا لإنجاز مشروع فكري واسع...

■ **سائل يقول: كتاباتك صعبة وغزيرة ومركزة جدا كم تتوقع نسبة قرائك إلى الكُتاب الآخرين؟ هل لكتاباتك مفتاح معين؟**

ـ إن صعوبة فهم ما أكتب تعود إلى تعقيدات القضايا التي أكتب عنها إنني أبذل جهداً مضنيا لتوضيح الأفكار فأُقلّبها على كل الوجوه لتكون مفهومة لأكثر عدد ممكن من القراء لكنني في الغالب أعالج قضايا ذات تركيب شديد وتعتمد على مفاهيم حديثة وبعضها موغلٌ في التجريد وذو مضمون معقَّد مثل مفهوم (الثقافة) بمعناه العلمي والفلسفي الذي يستحيل فهمه إذا ورد ضمن المقال إلا لمن يعرف معناه المركَّب.. لذلك فإن فهم المقال يتطلب وجود ذخيرة معرفية مسبقة لدى القارئ حتى يتمكن من التفاعل مع الأفكار المطروحة فلستُ صعب اللغة ولا معقَّد الأسلوب وإنما الصعوبة تأتي من الموضوعات ذاتها وفي أحيان كثيرة يكون الموضوع يستحق كتاباً كاملاً فأُقدِّمه للقارئ بمقال واحد غالباً أو بعدد محدود من المقالات أحياناً مثل (مفهوم

الحقيقة) أو (مفهوم الثقافة) أو (مفهوم الفردية) أو (مفهوم العقل) أو (مفهوم الليبرالية) أو غير ذلك من المفاهيم ذات المحتويات المركَّبة وبذلك فإن المقال مهما بلغ طوله يبقى شديد التركيز والإختصار قياساً بما يتطلبه الموضوع من استفاضة وشرح وتوضيح وفي هذه الحالة فإن المنتظَر من القارئ أن يعطيه الوقت الكافي والعناية اللازمة التي تتناسب مع تعقيدات الموضوع فإذا كان المقال يدور حول مفهوم لا يعرفه القارئ فلْيبحث عنه في المعاجم والقواميس الحديثة المتخصّصة ولا يكتفي بالمعاني اللغوية لأن تحول اللفظ إلى مفهوم يوسّع مضمونه توسيعاً شاسعاً لا يتضمنه المعنى اللغوي المألوف فإذا استوعب المفهوم سَهُلَ عليه استيعاب الأفكار المرتبطة به فمن يريد الفهم يُنتظر منه أن لا يبخل بالوقت وأن لا يستكثر الجهد فما يُقَدَّم له مني ومن غيري من الباحثين هو ثمرة سنوات طويلة من التأمل العميق والبحث الدقيق والإستقصاء المضني فخذوا الثمار التي تعب مقدّموها في استنبات أشجارها وفي مواصلة إروائها وتغذيتها والكد في تهذيبها وإنمائها كما تعبوا قبل ذلك في الحصول على المصادر والبحث عنها في كل مكان وبكافة السبل التي أحيانا تكون شديدة العسر فخذو الثمار الناضجة هنيئة مريئة ولا تستكثروا عليها جُهد القطاف فهو جهدٌ يسير قياساً بجهد التكوين . . .

■ **سائلٌ يعتقد بأن صراع الأفكار والاتجاهات في الحضارة الغربية مدعاة للسقوط كما يسأل عن مقولات اضمحلال الغرب وعن معنى الليبرالية؟**

ـ إن الصراع السلمي بين الأفكار والاتجاهات والتيارات والأحزاب

والمدارس الفكرية في الثقافات الغربية ليس مدعاة لسقوطها وإنما بالعكس هو مصدر قوتها وهو حافز نموها وهو سبب استمرار تطورها لأنه يضطر كل الأطراف بأن تُطوِّر مناهجها وتمحِّص أفكارها وتنمي معارفها وتنوِّع مهاراتها وتُوسِّع وسائل عملها حتى على المستوى الصناعي والتجاري والإعلامي ومستوى الخدمات وغير ذلك من وجوه النشاط لولا احتدام التنافس لما حصلت فيها هذه التطورات المدهشة فالتنافس بين الأفكار والصناعات والخدمات وبين الأشخاص وبين الشعوب والثقافات هو الذي يدفعها إلى التحسُّن المستمر لأنه في المناخ التنافسي يسقط من لا يتطوَّر وهذا هو السبب الذي جعل المجتمعات ذات الثقافات المغلقة تبقى في قبضة التخلف لأنها محرومة من هذا المحرِّك الرئيسي للحضارات فالثقافة السائدة في المجتمعات المتخلفة تكون مهيمنة على كل شيء فلا تسمح بالنقد ولا بالمراجعة ولا بالاستدراك ولا بالتحليل ولا بالتبصُّر الحر مما يجعلها مطمئنة وغير نامية فغياب التنافس المتكافئ وعدم شعور الأوضاع السائدة بالتحدي يُبقيها مستقرة وراكدة ولا تتحرك إلا ضمن مسارات ثابتة وداخل إطار مغلق فهي تكرار وإجترار...

أما عما تراه انهياراً أخلاقياً في المجتمعات الغربية فإن هذا يعود إلى اعتيادنا على الرؤية الجزئية فإذا استنكرنا جانباً سلبيا من جوانب الحياة عند الآخرين أعمانا ذلك عن كل الجوانب الإيجابية لديهم فتأتي أحكامنا على الأوضاع والأفكار والأشخاص والأشياء والمجتمعات خادعة وزائفة ومضلِّلة وغير منصفة ولا موضوعية...

ومن ناحية أخرى فإننا في المجتمعات العربية نحصر الأخلاق

بالعلاقات الجنسية وهذا تقزيمٌ مفْرط لمفهوم الأخلاق فإذا تجاوزنا هذه الجزئية فإننا نجد المجتمعات الغربية ذات أخلاق عالية تستحق أن تُحتذى فالحياة هناك تنهض على الوضوحٌ والشفافيةٌ ومحاربة الإخفاء واحتقار النفاق والخداع والمخاتلة ويسود فيها الصدق والأمانة والإنضباط الطوعي وقد تربى الناس على الإحساس الشديد بالظلم وعندهم تعظيمٌ شديد للعدل والتزامٌ متين بالمسؤولية سواء كانت مسؤولية مهنية أو مسؤولية وطنية أو مسؤولية اجتماعية أو مسؤولية إنسانية أو مسؤولية تعاقدية فالغربي لا يفرِّط بحقوقه لكنه بالمقابل ملتزمٌ بواجباته إنه على المستوى المهني يبذل أقصى ما يستطيع لتحصيل المعرفة النظرية أوّلا وتكوين المهارة المهنية ثانيا وهو يحرص على أن يؤدي واجباته المهنية وغيرها بمنتهى الاتقان والدقة التي يستطيعها وبأقصى درجات الإلتزام والصدق والإخلاص كما أنه يلتزم بالمواعيد بدقة ولا يهدر الوقت ويسعى جاهداً لتحسين الأداء وقد تربَّى على أن يكون مُنصفاً وموضوعيا في أحكامه ويحترم الآخرين بقدر ما يحترمونه فهو منضبطٌ في تعامله وملتزمٌ بالقوانين وينساب منه السلوك المتحضر انسياباً تلقائيا لا تكلُّف فيه وهذه هي الجوانب الأخلاقية الأساسية التي تُشيَّد بها الحضارة فالأخلاق أهم من العلوم في بناء الإزدهار ولا يمكن أن يتحقق أي ازدهار مع خلل الأخلاق ومعلوم أن الأحكام تُبنى على الغالب فوجود الإنحرافات الفردية في الغرب لا يعني أن تلك المجتمعات كلها ساقطة ولو كانت كذلك لما تقدَّمتْ فالتقدم شاهدٌ صادق على الإلتزام الأخلاقي فانحرافات الأفراد لا تؤثر كثيراً ما دام أن الأكثرية تلتزم بالقيم الحضارية . . .

إننا حين نركِّز على الجانب الجنسي فقط في تقييم أخلاق الأمم

فإننا كمن يدخل صرحاً عظيماً بالغ الروعة ثم يرى في أحد أركانه وعاءً مليئاً بالقمامة فيحصر تفكيره في هذا الوعاء ويلغي كل الروائع التي شاهدها في الصرح العظيم إن الكمال محالٌ في هذه الحياة الدنيا لذلك فإن الأحكام على الثقافات والأمم والأشخاص والأشياء والأفكار والأحداث والمواقف تُبنى على الغالب وتقام على مبدأ الترجيح بين المزايا والنقائص والخطأ والصواب مثل ما يحصل في تصحيح أوراق التلاميذ في الامتحانات حيث ينجح من يجيب على نصف الأسئلة وكذلك المجتمعات فهناك من ينال ٥٠٪ من الدرجات فتكون عيوبه ومزاياه متعادلة وهناك من ينال ٧٠٪ فتكون مزاياه أكثر من نقائصه وهناك من لا ينال سوى ٤٩٪ فتكون نقائصه أكثر من مزاياه فيجب أن يكون تقييمنا مبنياً دائماً على مبدأ التغليب والترجيح فهكذا هي أمور هذه الدنيا تُبنى على الغالب وليس على إدعاء الصواب المطلق ولا الخطأ المطلق وليس على الخير المحض ولا الشر المحض ولا على توقُّع الكمال المطلق أو نفي المزايا نفياً مطلقاً. . .

أما عن التنبؤات التي تظهر في الغرب بين فترة وأخرى عن قرب انهياره فهي أحد صمّامات الأمان التي تديم استمرار تقدمه وازدهاره إن النقد المستمر للذات والمراجعة الدائمة للأفكار والأوضاع تُعَدُّ من أهم عوامل تطور المجتمعات الغربية وقد أثبتت الأحداث والواقع بأن الغرب يزداد تقدُّماً وتتضاعف قدراته كلما اشتدتْ انتقاداته لنفسه وكَثُر المتنبئون بسقوطه إنه بسبب آلية المراجعة والنقد بات الغرب عَصَياً على الإنهيار وليست التنبؤات بانهياره سوى أحد مظاهر هذه الآلية المدهشة التي تجدِّد الحيوية في هذه الحضارة الإستثنائية ففي الربع الأول من القرن العشرين تَنَبَّأ المفكر الألماني اشبنجلر بأن الحضارة الغربية سوف تنهار

ولكن الأيام أثبتت عكس ما تنبّأ به تماماً وكذلك فَعَلَ آخرون ولكن كلَّ تنبؤات السقوط ما هي إلا تحذيرات وحوافز للمزيد من التقدم وقد ألَّف البروفيسور آرثر هيرمان كتاباً ضخماً يقع في نحو (٦٠٠) صفحة بعنوان: (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) ناقش فيه تنبؤات السقوط التي تأتي بمقابل فكرة التقدم التي كانت وما زالت من أقوى حوافز الإزدهار...

أما عن الليبرالية التي تسأل عنها فإنها تتأسّس على حماية وتوفير واحترام الحريات الجماعية والفردية في التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة في الرأي والقرار وتنهض على التعددية السياسية والثقافية وتدفع إلى الإنطلاق الحر في كل قطاعات الحياة إنها تعني الحرية المنضبطة التي تحترم حريات الآخرين إنها تقوم على أولوية الفرد ويترتب على ذلك نتائج هائلة في الفكر والفعل وفي النُّظم والأوضاع فالفرد هو الذي يمثل وجوداً فعليا أما الشعب فهو مجموع الأفراد فإذا تحقَّق الإلتزام بأولوية الفرد فإن ذلك يعني الإلتزام بحقه في المشاركة وفي الإختيار الحر والتفكير المستقل وحقه في التعبير عن نفسه وعن أفكاره وآرائه ومواقفه دون خوف ولا تقييد وبالنتيجة فإن هذا يعني توفُّر الحريات للجميع ويؤدي إلى فتْح كل الخيارات أمام المجتمع وتوفير تكافؤ الفرص فالفردية هي أساس الليبرالية أما الحرية فهي جوهرها وهما مفهومان متلازمان فالإعتراف بالفردية يؤدي تلقائياً إلى الإلتزام للأفراد بالحريات الفكرية والثقافية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية ولا بد أن أنبِّه هنا إلى أن بعض الباحثين العرب خصوصاً من يستغرقهم الإهتمام الإقتصادي أو الإداري يتوهمون بأن الليبرالية مفهومٌ اقتصادي فقط وهذا من الأوهام المضللة لأن الليبرالية مفهوم شامل وهو في الأصل مفهومٌ

سياسي فالليبرالية الإقتصادية فرعٌ عن الليبرالية السياسية لذلك قد تتوفر في الكثير من المجتمعات الحريات الإقتصادية مع أنها أبعد ما تكون عن الليبرالية السياسية أو التعددية الثقافية وفي هذه الحالة لا يمكن أن يوصف المجتمع المنغلق ثقافيا وسياسيا بأنه مجتمعٌ ليبرالي حتى وإن توفرت فيه كل الحريات الإقتصادية ومن يريد أن يتعمق في فهم الأبعاد السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية لمفهوم الليبرالية فإنه يستطيع ذلك بقراءة تاريخ الفكر السياسي الغربي ابتداء من التراث الإغريقي وحتى اليوم وخصوصاً فلسفة لوك مؤسس الليبرالية السياسية الحديثة وأدم سميث مؤسس الليبرالية الإقتصادية وصاحب مبدأ: دعه يمر دعه يعمل...

ومن المؤلفات الجيدة في هذا المجال كتاب (الليبرالية: إشكالية المفهوم) للدكتور ياسر قنصوه وكذلك كتابه الآخر: (مفهوم الحرية في الليبرالية المعاصرة) وكتاب (الليبرالية المعاصرة) لموريس فلامان وترجمه تمام الساحلي وغيرها كثير...

وعموماً فإن الذي يحب أن يفهم الثقافات الغربية وأن يتعرَّف على مفاهيمها الأساسية مثل مفاهيم: الفردية والليبرالية والديمقراطية والحرية والتعدُّدية والعقل النقدي وتوزيع السلطات وغيرها من المفاهيم التي أبدعتها والتزمتْ بها الحضارة الغربية: ينبغي له أن يقرأ الفكر الفلسفي الغربي بشتى اتجاهاته وأبعاده لتكوين رؤية عامة عن حوافز الدفع في هذه الحضارة الإستثنائية المدهشة أو على الأقل يقرأ في الفكر السياسي مثل كتاب (تاريخ الفكر السياسي) لجورج سباين في أجزائه الخمسة أو غيره من مراجع الفكر السياسي الغربي الكثيرة أو يقرأ الأجزاء

المخصصة لأوربا والغرب من الكتاب الضخم (قصة الحضارة) لديورانت أو غيره من المراجع التي تفوق الحصر فمن يعيش في هذا العصر عليه أن يفهمه ولا يمكن أن يتحقق له هذا الفهم إلا بفهم منابعه الفكرية والثقافية. . .

أما عن إمكانية خدمة الإسلام والمسلمين باستخدام الآليات الليبرالية التي نجحت في تطوير المجتمعات الغربية وغيرها من المجتمعات المنفتحة فإن علينا دائماً أن نفرق بين المبادئ والأدوات. . بين الوسائل والغايات وقد أثبتت تجارب الشعوب والأمم في أقطار الغرب والشرق أن الإلتزام بالليبرالية هو الطريق الأمثل لتحقيق العدل والمساواة والإخاء وتوطيد الرؤية الإنسانية وحماية الفرد وصون كرامته والاعتراف بكيانه وحقوقه ورفع شأنه وتحقيق الإزدهار له إن الليبرالية ليست عقيدة وإنما هي آلية رائعة لجعل العقيدة تعمل في الضياء وتتنفَّس الهواء الطلق فتملأ النفوس بالطمأنينة والقلوب بالفرح والعقول بالإيمان وبالثقة والتمسك بالحياة والإطمئنان إلى وعد الله ويمكن أن نوضح باختصار الفرق بين الوسائل والغايات بهذا المثال: كان المسلمون يحجُون راجلين أو على الإبل والبغال والحمير ولكنهم الآن يحجون على الطائرات والسيارات والبواخر فقد تغيَّرت الوسائل وبقيتْ الغايات كما هي ومثل ذلك يقال عن العلاقة بين العدالة كغاية والديمقراطية كوسيلة لتحقيق هذه الغاية فالديمقراطية مجرد آلية أو وسيلة تضمن أن يدار المجتمع بأمانة وكفاءة وشفافية وبمساواة وعدالة بالقدر الذي تسمح به الطبيعة البشرية التي هي بطبيعتها مستأثرة فالمسلمون ملزمون من الله بإقامة العدل وقد أثبتت تجارب الشعوب بأن الديمقراطية هي أفضل الآليات وأنجع الوسائل

لتحقيق هذه الغاية الأساسية وهكذا يمكن أن يقال عن بقية ما يثار من اعتراضات حول علاقة الإسلام بآليات الليبرالية...

أما عما تراه من صمود التنظيمات المقاتلة أمام قوة الدول فيجب أن نتذكَّر بأن جيوش الدول وقواتها الأمنية ملتزمة بمواثيق وقواعد قانونية وأعراف أخلاقية وتتجنب الإضرار بغير المطلوبين لذلك تُخفق جهودها أمام التنظيمات التي لا تتحرَّج من القتل الجماعي للأبرياء ومن البداهة أن القدرة على إرباك العالم ليست دلالة قوة ففي هذا العصر توفرت للأفراد وللتنظيمات غير الحكومية إمكانات هائلة للتدمير والقتل وخلق الإضطرابات فالمواجهة لا تحصل بين قوتين مكشوفتين وإنما الذي يحصل أن بعض الأفراد الانتحاريين يندسون بين الناس في الأسواق والمساجد وأماكن التجمُّع ويُفَجِّرون أنفسهم أو يُفَجِّرون السيارات وهم بداخلها فينشرون الموت الجماعي والرعب الشامل كما حصل ويحصل الآن في العراق وغيره حيث يقتلون الناس نساء وأطفالاً وشيوخاً وشبابا بشكل عشوائي فلا يدري المقتول لماذا قُتل!!! وبذلك تُزهَق أرواح الأبرياء من الأطفال والرجال والنساء وتمتلئ المستشفيات بالجرحى كما تمتلئ البيوت بالمعاقين والمشوهين دون ذنب جنوه وهذا ليس دلالة القوة وإنما هو دليل على الإختلال الثقافي الفظيع كما أنه برهانٌ صارخ على الإفلاس الأخلاقي الشنيع وإلا فكيف يستسيغ إنسانٌ سويٌّ أن يقتل الناس بهذا الشكل الجماعي وبصورة عشوائية تتسم بأقصى درجات التوحُّش والهمجية...

■ **يسأل هل الإنسان يولد وهو مبرمج دينيا أو يبرمج بعد ولادته إذا كانت برمجته تتم بعد ولادته أين اختياره؟ وكيف نحكم على هذا**

المولود أنه مسلم ونحن لا نعلم ماذا سيفعل إذا بلغ مرحلة المعرفة والاختيار؟ وهل إسلام والديه وتعليمهم له تكفي أن يطلق عليه أنه مسلم حتى لو كانت أفعاله تناقض تعاليم الإسلام؟

ـ إن الفرد يتبرمَج بعد ولادته وليس قبلها فهو يولد بقابليات مطواعة جاهزة للتشكيل والقولبة فيحتلها الأسبق إليها وليس ببرمجة ناجزة إن الفرد قبل رُشده لا خيار له فهو لم يقم باختيار الوجود أصلاً كما أنه لم يختر أمه ولا أباه ولا شكله الجسدي ولا تكوينه ولا لونه ولا المكان الذي وُلد فيه ولا الزمان الذي بدأ فيه رحلة الحياة كما أن غيره قد اختار له اسمه واختار طريقة تربيته وغَرَسَ فيه القيم التي ورثها هو أيضا عن أبويه وورثها أبواه عن أبويهما في تناسل ثقافي لا محيص عنه وهكذا يستمر التناسل الثقافي في كل المجتمعات وهو يُشْبه أو يقترب في ثباته من التناسل البيولوجي إن الإنسان في طفولته لا خيار له في أي شيء فهو ينشأ على ثقافة لم يُستَشَرْ في اختيارها ويتشرَّب دين أبويه سواء كانا من الهندوس أو اليهود أو من الوثنيين أو غيرهم ويتكلم لغتهما ويخضع لبيئة طبيعية وثقافية وسياسية واجتماعية وأُسريَّة لا خيار له فيها هي التي تصوغ عقله وتوجِّه عواطفه وتحدِّد اتجاهاته وتضع له منظومة قيمه إن الناس هم نتاج سلسلة من الحتميات الصارمة التي لا خيار لهم فيها فهم غارقون بها ولا يريدون مبارحتها مثل السمك الذي يحافظ على بقائه باستمراره غارقاً في الماء ونحن البشر غارقون بحتميات متتالية ولكن هذه الحتميات تبرمج الفرد دون أن يحسَّ بها فهي تأخذه قبل بزوغ وعيه ومع ذلك فإن أكثر الناس يبقون متمسكين بهذه البرمجة ومغتبطين بها ومتوهمين بأنهم اختاروها بأنفسهم لأنفسهم ويستمرون مأخوذين بهذا الوهم إلى أن يموتوا حتى الذين يولدون بمجتمع يُعْبَدْ فيه الشيطان

ينشأون وهم على هذه العقيدة الغريبة المفجعة ولكنهم لا يرون شذوذها ولا يفطنون لغرابتها ولا يتوقعون فجيعة عاقبتها إن عدداً محدوداً جدا من الناس هم الذين يستطيعون الإفلات من قبضة الثقافات السائدة وهؤلاء هم قادة التطور في كل العصور وفي كافة المجتمعات أما المجتمعات التي لا تستجيب لقادة الفكر فإنها تبقى عاجزة عن مبارحة التخلف...

إن الحياة الإنسانية في سوائها أو انحرافها وفي تخلفها أو ازدهارها تقوم على ركني القيادة والإنقياد إن الناس يقادون نحو الخير أو نحو الشر أو نحو خليط منهما وهم يقادون بالتقاليد والإجترار والبقاء في مسارات الدوران التاريخية فيبقون متخلفين أو يقادون بأفكار النقد والمراجعة والتجديد فيخرجون من خطوط الدوران وينطلقون في آفاق الإزدهار فالمفكرون الذين يستطيعون اختراق حُجُب المألوف يراجعون هذا المألوف وينتقدونه ويقدِّمون لمجتمعاتهم البديل المتاح وفق التجارب الإنسانية الناجحة فإذا استجابتْ لهم مجتمعاتهم تقدَّمَتْ وازدهرتْ أما إذا كانت الثقافة تتوهم الكمال وتُصرُّ على الإكتفاء فإن المجتمعات المأخوذة بها لا تستجيب لمفكريها ولا تقدِّر المبدعين من أبنائها فتبقى متخلفة...

إن التخلف هو الأصل وهذه الأسبقية للتخلف تُحكم قبضتها على الشعوب فلا تُفلت منها إلا بأفكار طارئة وبجهود استثنائية إن المجتمعات والثقافات محكومة بقانون القصور الذاتي فلا شيء يعلو على ذاته وإنما لا بد أن يأتيه دفعٌ من خارجه فالمفكرون والمبدعون في أي مجتمع هم من داخله لكنهم يفحصون أوضاعه وكأنهم من خارجه

إنهم يتمكّنون من رؤية نقائص السائد وهم بداخله وبذلك فإنهم قادة الإزدهار إذا استجاب لهم الناس أما إذا رفضهم المجتمع ولم يستجب لهم كما هو واقع الثقافات المغلقة فإن التخلف بشتّى أبعاده يبقى مهيمنا فتستمر الثقافات تعيد إنتاج ذاتها وتجترُّ مكوّناتها دون تطوُّر ثقافي ولا حراك اجتماعي فشرط الإفلات من قبضة التخلف أن تستجيب المجتمعات المتخلفة لمفكريها وتراجع مألوفاتها وتأخذ بالنافع مما هو وافدٌ أو طارئ وهكذا فإن التقدم لا يأتي إلا من الإضافات المتتالية مما هو مغاير للمألوف فالتخلف ذو أسبقية ولا بد أن ندرك أصالته الراسخة وكذلك ينبغي أن ندرك أصالة الظلم واستثنائية العدل وأصالة الجهل واستثنائية العلم وأصالة الأثَرَة واستثنائية الإيثار وأصالة سلوك القطيع واستثنائية شعور الفرد بفرديته فكل المزايا الإنسانية والأخلاقية والمعرفية والذوقية والحضارية هي مزايا طارئة لا بد أن يتربى عليها الناس لكي توجّه سلوكهم وتقود تفكيرهم وترفعهم نحو الكرامة والحرية والإنسانية والإزدهار. . .

إن الفرد لو أُبعد منذ ولادته عن المؤثرات الثقافية فإنه سوف ينشأ لا يعرف لغة ولا يملك ثقافة فيبقى في عداد البهائم فالثقافة مهما كانت بدائية تُخرج الفرد من مستوى القابلية المطواعة إلى مستوى التشكُّل الثقافي الفعلي فإنسانية الفرد مشروطة بنشأته في مجتمع لكن هذه النشأة قد تبرمجه على الخرافات والأوهام وعلى ما يعطِّل العقل ويفسد العواطف ويدمِّر الأخلاق وهذه هي الإشكالية البشرية الكبرى وبهذا يتضح أن الإنعتاق من قيود الثقافة المغلقة والإنطلاق في آفاق الفكر والعلم والإبتكار والقدرة على الإبداع هي مزايا استثنائية غير عادية. . .

■ سؤالي: إن فكرك يتصادم مع الثقافة السائدة فكيف تمكنت من تجاوز هذا؟

ـ إن الثقافات السائدة عموماً في كل مكان هي خليطٌ متراكم من الحقائق والعادات والأوهام والتحيزات ومن واجب الإنسان أن يتحقق بنفسه فالحياة جدٌّ لا هزل وليس من العقل أن يترك الفردُ الآخرين يبرمجونه بالأوهام والأباطيل بل من حق نفسك عليك أن تُراجع وتفحص وتتأكد بنفسك وأن تحمد الله إذا وجدتَ أنك في المسار الصحيح وأن تصحِّح هذا المسار إذا تبين لك أنه مناف للحق ومجانبٌ للصواب وبالنسبة لي فإنني قد نشأتُ متسائلاً عن كل شيء وحرصتُ منذ وقت مبكر جدا من حياتي أن أبحث بنفسي عن الحق وأن لا أُنيب أحداً ليتولى عني هذا القرار المصيري الخطير...

■ يسأل عن الوهابية وهل هي قادرة على التحول بعد هذا الانشقاق الكبير الذي خَلَقه أهل الحداثة؟

ـ من أشد الأوهام ضرراً مقولة (إن التطور سنة الحياة) بمعنى أن التحولات تحصل تلقائياً وهذا وهْمٌ ينفيه التاريخ ويرفضه الواقع فالتحول لا يأتي طوعاً فضلاً عن أن يكون تلقائيا وعلى سبيل المثال فإننا إذا عدنا لتاريخ التطور في المملكة العربية السعودية فسوف نجد المعارضات تتكرر في مواجهة أية خطوة تطويرية فتضطر الحكومة في كل مرة أن تفرض التطوير الضروري فرضاً وهذا يدل على أن الحل دائماً في الثقافات المغلقة يكون بالقرار السياسي إلى أن يتحقق الإزدهار وتنفتح الثقافة ويصبح المزيد من التقدم مطلباً اجتماعيًا تلقائيا إن الناس في نجد قد عارضوا تعليم البنين ثم استساغوه بعد أن جرى فرضه من الحكومة

فألفوه واندفعوا إليه ثم عارضوا تعليم البنات ثم أقبلوا عليه وتزاحموا حول تعليم وتوظيف بناتهم كما عارضوا الإذاعة ثم صارت وسيلة محبَّبة لهم واستبشعوا التلفزيون ثم تهافتوا عليه وعارضوا استخدام المخترعات واحداً بعد آخر ثم استمتعوا باستعمالها بعد أن جرى فرض استخدامها وأنكروا أيضا لبس (العقال) كلباس للرجال لمجرد أنه لباسٌ لم يكن مألوفاً في السابق وما زال المشائخ والمتمشيخون لا يلبسونه بل واستنكروا لبس (الغترة) البيضاء واستفظعوا أزارير أطراف الأكمام (الكبك) وفي البدء حَرَّموا القهوة وما من شيء جاء وافداً إلا وقوبل في البداية بالإستنكار الشديد والرفض العنيد ثم يُقبلون عليه في النهاية بشدة لا تقل عن شدة رفضه ولكن لا يأتي القبول في كل مرة إلا بعد أن يجرى فرضه بقوة السلطة وهذا يؤكد أن القرار السياسي هو مفتاح الحل دائماً في المجتمعات المنغلقة. . .

إن العطالة هي الأصل في الأوضاع الثقافية والإجتماعية لذلك تبقى الثقافات راكدة لا تنمو وتظل المجتمعات جامدة لا تتطور حتى يأتيها ضياءٌ من خارجها برسالة سماوية دافعة تملك قوة التوطيد كما كان يحصل قبل ختام الرسالات السماوية أو يأتيها الدفع أو الضغط من ثقافات ومجتمعات أخرى كما يحصل الآن بفعل التَّماس الدائم والإحتكاك القوي مع حركة الحضارة الإنسانية الناشطة لذلك فإن انطلاق المجتمعات المتخلفة في هذا العصر المكتظ بالأفكار والأفعال والتغيرات والمستجدَّات يتوقف على الجهد الذي تنهض به الدول والحكومات فهي بحكم علاقاتها مع العالم تلمس جوانب النقص في حياة مجتمعاتها فتضطر هذه الحكومات للعمل لاستكمال النواقص في الحدود التي تخدم استمرارها أو تتعرض لضغوط خارجية تفرض عليها

شيئاً من التغيُّر كما هو حاصل الآن في الكثير من المجتمعات التي كانت راكدة ومغلقة ولكنها اضطرت لشيء من الانفتاح الذي لم يعد ممكناً دفعه وهكذا فإنه لا يمكن أن تتحرك المجتمعات الراكدة إلا بدفع قوي جارف من داخلها وبأفكار وأدوات من خارجها ولقد توفر الآن من وسائل التواصل ومصادر المعرفة ما يتيح للحكومات التسريع بعمليات التغيير إذا هي أرادت ذلك. . .

لكنني لا أوافق على وصف الوضع حالياً في المملكة بأنه انشقاقٌ كبير فحتى الآن ما زالت الرؤية الأحادية المغلقة هي المهيمنة وإذا كانت هذه الرؤية قد اضطرت إلى إجراء شيء من المراجعة بفعل الضغوط الدولية والظروف المحلية فإنها ليست أكثر من مراجعة آنيَّة تكتيكية ليست عن اقتناع بضرورة المراجعة وإنما جاءت اضطراراً لمواجهة الضغوط والظروف الطارئة الملحة وهذه المراجعة لم تحصل بسبب من تسميهم أهل الحداثة وحقوق الإنسان وإنما حين تجسَّدَتْ الرؤية الأحادية المغلقة بالإرهاب التدميري المحلي والعالمي وظهرتْ بوضوح بوحشية الزرقاوي واحراجات القاعدة وتفجيرات السيارات المفخَّخة وانتشار القتل الجماعي العشوائي حصل شيءٌ من التراجع التكتيكي داخل الثقافة السائدة وليس من خارجها وهذه المراجعة الطارئة والإستثنائية أتاحت فرصة لذوي الإعتدال أن يجهروا بآرائهم التي لم يكونوا قادرين على الجهر بها في السابق وهذا هو كل الذي حصل ومع هذا البصيص من الانفراج فإن الناس بقوا لا يُصغون لصوت الإعتدال لأن الإعتدال طارئ وهامشي ،وهو نتاج المعرفة العميقة الواسعة والتفكير العقلاني الفاحص الذي يصعب على الناس سبر مغزاه أو التأكد منه أما الميل إلى التشدُّد فهو نتاج التلقائية الفجّة التي تَبرمجوا بها خلال

عقود متتالية ومن العسير استبدال برمجة غائرة وراسخة في أعماق الذات بأفكار طارئة مهما كانت مؤسّسة على العلم والحق والعدل. . .

■ **أطرح السؤالين التاليين: يمثل العقل الإنساني المحور الرئيسي لكثير من كتاباتكم سؤالي: ألا ترى أن العقل بوصفه قوة إبداعية وتغييرية هائلة يحتاج أحيانا إلى من يكبح جماحه ويوجهه دائما إلى الإيمان والحق والعدل والخير. . وأيضا ما رأيكم في إمكانية أن يكون النص الأدبي نصا عقلانيا؟**

ـ إن من مفارقات الثقافات المغلقة أن المحكومين بها يواصلون هجاء العقل وتحقيره لكنهم أكثر الناس ثقة بعقولهم فلولا هذه الثقة العمياء لما كانوا بهذا الوثوق الأعمى بما هو مستقرٌ في رؤوسهم إنهم حين يذمُون العقل ويُحَقِّرونه فإنهم يقصدون عقول الآخرين لكنهم في الوقت ذاته يكونون متأكدين من صواب فُهومهم ودقة معلوماتهم وصحة استنتاجاتهم وهذه إحدى النقائص الكبرى للعقل البشري إن الغرب لم يتقدم حتى عرف أن عقل الفرد ليس نتاج ذاته وإنما هو نتاج البرمجة الإجتماعية كما عَرَفَ أن العقل مقودٌ بالأهواء ومأسور بالتحيزات فأصبح يستوثق من كل شيء ولا يتقبّل الأحكام والآراء إلا بعد المراجعة والتمحيص إن العقل ليس جامحاً كما تظن وإنما العواطف والأهواء هي الجامحة وهي في الغالب تسيطر على العقول وتخدع الناس إن العقل أداةٌ تتلاعب بها العواطف وهذا يستوجب من الإنسان أن يكون دائم المراقبة لعواطفه وأن يتفحّص أهواءه ويعيد الفاعلية لعقله ولا بد أن تبقى الرقابة الذاتية شديدة الدقة والانتباه وأن يظل التفحُص مستمراً حتى يعتاد الإنسان على الرؤية الموضوعية ويتخفّف من الذاتية المفرطة وما لم

يصل الفرد إلى هذا المستوى من التعوُّد على الموضوعية النسبية فسوف تبقى للعواطف سيطرتها الكاملة وللأهواء سلطانها المطلق حتى لو حصل المتعلم على تدريب علمي طويل وممارسة أكاديمية منتظمة. . .

أما سؤالك عن إمكانية أن يكون النص الأدبي عقلانيا فأقول إن العقلانية هي السمة الغالبة في أداب الحضارة الإنسانية المعاصرة فالكثير من الإبداعات الأدبية في الغرب ليست للإمتاع والمؤانسة فقط وإنما هي لنشر الأفكار الإنسانية إنها نصوصٌ أدبية لكنها في الغالب تحمل مضموناً فلسفيا أو رسالة اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو تحملها كلها وبالنسبة للثقافات الأوربية لم تكن عقلانية النص الأدبي طارئة أو جديدة بل إن الأدب الاغريقي منذ القرن الخامس قبل الميلاد كان زاخراً بالعقلانية ثم عاد المضمون العقلاني إلى الأدب منذ عصر النهضة ولقد كان شكسبير في مسرحياته صاحب رسالة تنويرية وظل المسرح في الغرب من أهم أدوات التنوير ابتداء من شكسبير ومروراً بهنريك ابسن إلى بريخت ومئات المسرحيين الغربيين وكذلك كان الفن الروائي في غالبه عقلانياً حتى النخاع ويكفي أن نقرأ روايات جورج أرويل كنموذج لنرى إشعاعات العقلانية في كل سطر من هذه الروايات بل حتى على المستوى العربي نجد نجيب محفوظ وعبد الله العروي وتوفيق الحكيم والطاهر بن جلون وغيرهم يتخذون من الفن الروائي وسيلة للتنوير وتوطين العقلانية بل من يقرأ رواية (نهاية سري الخطير) لخيرهم زكيَّة على سبيل المثال وهي روائية غير مشهورة لكنها مدهشة فالقارئ لروايتها يجد معالجات عقلانية باهرة لقضايا ثقافية واجتماعية شديدة التعقيد وحين نلتفت إلى تجليات الفن الروائي على المستوى المحلي السعودي نجد معظم الروائيين يستخدمون هذا الفن الرائع لتوطين الفكر

العقلاني التنويري أما الأدب العربي القديم فهو نثارٌ للإمتاع والمؤانسة ولكن هذا النوع الترويحي من الأدب لم يَعُدْ له مكان في حضارة العصر العقلانية الجادة. . .

■ **يسأل: ١ ـ هل سيشهد المجتمع صراعا أكثر حدة بين المتدينين ومخالفيهم؟**

٢ ـ هل تتعزز المشاركة الشعبية وتسير الأمور إلى مزيد من الاصلاح؟

٣ ـ كيف ترى أهمية الدين في سياسة الدولة والحياة العامة؟

٤ ـ ترسم في كتاباتك رؤية قاتمة لحال العرب وتكاد تقول بعدم «قابليتهم» للنهضة رغم تأكيدك مرارا وتكرارا على أن الإنسان هو الإنسان بصرف النظر عن عرقه ولونه ولغته!! «ألا ترى في ذلك تناقض»؟!

ـ لا يوجد في المجتمع السعودي صراع فكري فالصراع يعني المواجهة المتكافئة بين الأفكار المختلفة وهذا غير حاصل فالمجتمع ما زال يقوم على رؤية أحادية مغلقة مهيمنة وقد كانت تبرر هذا الإحتكار المطلق بأنه للمحافظة على الدين بينما أن الحقيقة المشهودة في كل مكان تؤكد أن الدين لا يزدهر إلا في الثقافات المفتوحة فالإنغلاق يعطل العقل ويحول دون أي تقدم ثقافي إن تكاليف الإسلام قائمة على الإختيار الحر والمسؤولية الفردية ولا خيار لعقل مقموع ولا مسؤولية على فرد مسلوب الإختيار ففي السابق لم يكن في البيئة المحلية متاحاً المجال حتى لمذاهب الإسلام الكبرى كالمذهب الحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الظاهري بل ولا اختيار أحد قولي الإمام أحمد إذا كان هذا

القول غير معمول به هنا وقد أدى هذا الإحتكار المطلق إلى حالة الإحتقان التي نعيشها الآن فلا يوجد صراع وإنما يوجد شيء من المراجعة الإضطرارية فالصراع يعني توفُّر فرص متكافئة أو قريبة من التكافؤ بين المختلفين داخل الساحة الثقافية وهذا ما زال غير متوفر أما الإحتقان فهو أن الثقافة بقيَتْ مغلقة عقوداً متتالية طبعتْ بطابعها جيلاً بأكمله ثم فوجئتْ بتغيرات عالمية لم تكن مستعدة لمواجهتها فحصل الإحتقان وإذا كانت قد بدأت تظهر أصواتٌ معتدلة تنقد الإنغلاق فإنها من داخل الثقافة نفسها ومع ذلك ما زالت أصواتاً غير مسموعة فالناس مبرمجون على رؤية أحادية مغلقة مشحونة بغبطة أوهام الكمال والإكتفاء ومن الصعب عليهم أن ينتقلوا من هذا الوثوق المطلق إلى الإنفتاح على الآفاق الثقافية العالمية. . .

إن الخلاف ليس بين المتدينين وغيرهم فكلنا مؤمنون متدينون والحمد لله فالحياة بدون العلاقة الصادقة والجياشة مع الله ومن غير الأمل بالآخرة تصبح عديمة المعنى ولا تستحق أن تعاش إنما الإختلاف بين رحابة الإسلام وضيق العقول التي اعتادت على الإنغلاق ولم تتمرس بالتحاور مع ذاتها فضلاً عن التحاور مع غيرها إنه خلافٌ داخل نطاق التديُّن بين الفهوم والإجتهادات المختلفة. . .

أما هل تتعزز المشاركة الشعبية في العالم الإسلامي وتسير الأمور إلى مزيد من الإصلاح فإن هذا يتوقف على التفاعلات الداخلية مع التغيرات العالمية ومن واقع التجارب في العالم الثالث وخصوصاً في العالم الإسلامي فإن التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور في المستقبل يظل مستحيلاً فالإنتكاسات في العالم العربي هي الطابع المميز للأوضاع

العربية وأية مراجعة للتاريخ العربي المعاصر تكشف أن العرب كلما تقدّموا خطوة واحدة نحو الأمام أتبعوها بتراجعات قاصمة ومن أكبر هذه التراجعات القاصمة أن مصر في النصف الأول من القرن العشرين كانت تتدرّب على التعددية السياسية والثقافية والتنافس الحزبي والحرية الإعلامية ثم جرى خنق وحرق كل هذه البدايات وعادت مصر إلى الطغيان السياسي والإنغلاق الثقافي والإحتكار الإعلامي وكذلك باكستان بدأت بدايات ديمقراطية ثم توالت عليها النكسات والإنقلابات العسكرية وهكذا كل بلدان العالم الإسلامي يصعب تخمين ما ستؤول إليه الأمور لأنها محكومة بالنزوات الفردية التي لا يمكن التنبؤ بها...

أما عن العلاقة بين الدين والسياسة فإن التاريخ العربي يشهد بأن هذه العلاقة لم تكن لصالح الدين وإنما كانت دائماً لصالح السياسة باستثناء فترة الخلافة الراشدة فمبادئ الدين العظيمة جرى تطويعها لتقلبات ونزوات السياسين وأهوائهم...

وعن سؤالك الثالث أقول: لا يوجد تناقضٌ بين ما أصف به سوء الأوضاع العربية والنفي المتكرر لأي امتياز عرقي فتخلُّف العرب لا يعود إلى أسباب عرقية وراثية بيولوجية وإنما يعود إلى الإنغلاق الثقافي وإلى الاستبداد السياسي فالعرب يتوارثون التخلف لكن لو حصل انفراجٌ سياسي وتعدُّدية ثقافية وانفتاح إعلامي فسوف يزدهرون كما ازدهر غيرهم فالخلل ثقافي سياسي اجتماعي وليس بيولوجيا عرقيا...

■ **ما هو تفسيرك للعطالة الفكرية التي يعيشها الكثير من الشباب مما جعلهم جاهزين للأنخراط في العنف؟**

ـ إن الخلل عند العرب عموماً هو خللٌ ثقافي عميق لذلك فإنه ليس

محصوراً باتجاه دون آخر وإنما كل الإتجاهات إذا سادتْ قمعتْ غيرها وانفردتْ بالرأي والتدبير فالإنفراد يعني الإنغلاق والإستبداد والحجْر على العقول وهيمنة الفكر الأوحد وهذا يؤدي إلى الخواء الفكري والإملاق المعرفي والبؤس الأخلاقي وفقدان الفاعلية الإجتماعية وهذه هي عوامل التخلُّف في كافة جوانب الحياة إن من يرغم الناس على الرأي الأوحد يجد تبريراً لفعله فحتى فرعون قال عن موسى عليه السلام: «إني أخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد» قال ذلك ليبرر أحادية الرؤية: «لا أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» بل ليعلن: «ما علمتُ لكم من إله غيري» وكل طاغية يجد حوله من يسوِّغ له أفعاله: «وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض» فما من اتجاه يملك السلطة المطلقة إلا ويقمع الآراء ويمسخ العقول ويفسد الأخلاق ويجد من التبريرات ما يُرضي بها نفسه. . .

إن الثقافة المغلقة لا تنتج من العقول سوى نسخ شائهة مكررة وفي هذه الحالة تسود تزكية الذات ويشيع الوثوق الأعمى ويتفاقم توهُّم الكمال ويشتد التفاخر بالإكتفاء إن الثقافة كائنٌ حي فإذا حُرِمَتْ من التغذية توقَّف نموها وكلما اشتدَّ الفقر الثقافي ظهرت أخلاقيات الإنتفاش والتباهي وبالمقابل كلما كانت الثقافة مفتوحة ونامية شاع التواضع وشعُر الناس بالحاجة الملحة إلى المزيد من التعلُّم والبحث والإستقصاء وكلما نالوا مزيداً من العلم أدركوا اتساع محيطات الجهل. . .

■ ١ ـ هل ترى العلمانية هي الحل للمشكلات التي تكاد تعصف في بلادنا؟

٢ ـ ألا ترى أنه حان الوقت لبدء محاضرات وتوعية في المساجد من قبلكم؟

٣ ـ ألاحظ وأنا المتابع لكتاباتك وقد أستفدت كثيرا أنك تتحفظ بشدة وهكذا أظن وأنه بعد تقاعدك بفترة وجيزة كتبت عن التاريخ العربي المسكوت عنه ونالك هجوم من بعض جهلة الوعاظ ولكنك للأسف رجعت بعده لخطك القديم والكتابة ما بين السطور؟

ـ كل الانقلابات العسكرية في العالم العربي وفي العالم الثالث كانت تعلن العلمانية لكنها كانت حكومات استبدادية فظيعة وأغرقت شعوبها في الطغيان والفقر والجهل والتخلف. . .

إن صدّام حسين كان يعلن العلمانية لكنه كان أشد الطغاة قمعاً وأكثرهم إفساداً بل إن جنرلات تركيا خلال العقود الماضية قد عطّلوا الديمقراطية باسم حماية العلمانية فالحل يكون بالجمع بين الإلتزام بتعاليم الإسلام والإعتراف بالإنسان الفرد بوصفه قيمة في ذاته وليس مجرد وسيلة لغيره وهذا الاعتراف يقتضي الإلتزام للأفراد بكل ما يترتب لهم من حريات وخيارات وحقوق فالمجتمع يتكوّن من مجموع الأفراد فإذا حصل الإعتراف بالحقوق الفردية فإن هذا يعني الإعتراف بحقوق الجميع ولكن تحويل ذلك إلى واقع معاش يتطلب اعتماد الآليات الديمقراطية التي أثبتت أنها أنجع وسيلة لتنظيم السلطة لتكون في خدمة المجتمع وليس العكس. . .

أما عن سؤالك الثاني فإن المجتمع حتى الآن لا يعترف بالمثقف ولا يقرُّ له بأي دور لذلك لا يمكن أن يسمح له بإعتلاء المنابر لأنه بُرمج على أن يحذَر منه ويشك فيه بل ويدينه إدانة مسبقة قبل أن يسمعه

ودون أن يناقشه وإذا سمعه أو قرأ له أوَّل كلامه بما يتناسب مع الصورة الشائهة التي بُرمج عليها إننا لم نتعوَّد الحياد الموضوعي ولا القراءة المنصفة وإنما نحن مع هذا الاتجاه بدون أي تحفظ وضد ذاك بدون أي تثبُّت إنها الرؤية الحدِّية المغلقة التي لا بد أن تكون جائرة في أحكامها وجزئية في تقييماتها مما يُلحق تشويهاً شنيعا بالحقائق ويصيب الحياة بالفقر والعطالة كما يصيب الناس الأبرياء بظلم فادح وغبن فظيع...

أما عن سؤالك الثالث فأقول بأنني لا أتحفَّظ فيما أكتب بل أنشر قناعتي بكل وضوح لكنني مقتنعٌ بأن الثقافة العربية بحاجة إلى إعادة تكوين وكل ما أكتبه يستهدف الإسهام في هذا التكوين الملح ومقالاتي ومحاضراتي مكرَّسة لهذا الهدف التأسيسي أما في الحوارات الصحفية فإني أجيب على الأسئلة التي أتلقاها فتكون الإجابات صريحة ومباشرة وهي تتناول موضوعات ما زلت أؤجلها حتى أفرغ مما أنا مشغول به وما يجعلك تظن أنني أعود إلى التحفظ ناشئ عن هذا الفرق ففي الكتابات أحاول تحديد عناصر بنية التخلف وتوصيف حصون هذه البنية وهذه تبدو وكأنها بعيدة عن الواقع لأنها تنطبق على أي مجتمع متخلف ولكن الحقيقة أنها تتناول صميم الواقع العربي ولكن حين أفرغ من الكتابة بعون الله عما أعتبره إسهاماً في إعادة التكوين الثقافي فسوف انتقل إلى المراجعة لثقافتنا وتاريخنا من أجل الإسهام أيضا في تحديد منابع الخلل في التراث لأننا في رؤيتنا للتراث نخلط خلطاً شديداً شوَّه مبادئ الإسلام الأساسية العظيمة فأصبح الكثير من الناس لا يفرقون بين المبادئ الكبرى في الإسلام وبين الممارسات التي أنتجتها أهواء البشر...

■ **سؤالي حول رأيه بعلاقة اليهود بما يسمى بالفكر العلمي الحديث الذي يشمل الأدب والثقافة كذلك من نظريات الاختلاف والتقويض وغيرها؟ ما رأيك بأطروحة الدكتور سعد البازعي حول تبعية النقاد العرب لنظريات الغرب المؤدلجة دون وعي منهم بأنهم ضمن لعبة كبيرة يديرها يهود مثل دريدا ونيتشه وربما تشومسكي كذلك؟**

- إننا حين ننسب الفكر العلمي إلى اليهود فنحن بذلك نمجدهم إن الفكر العلمي هو نتاج الفكر الفلسفي الذي أسّسه الإغريق في القرن السادس والخامس قبل الميلاد ثم أحياه الأوربيون في العصر الحديث فبنى لهم هذا الإزدهار الهائل وإذا كان في السؤال خطأ مطبعي كما أتوقع وأن المقصود الفكر العالمي (وليس العلمي) فإن وجود مفكرين يهود لا يعني أن الثقافات الغربية المزدهرة هي نتاج اليهود وإنما العكس هو الصحيح فالمفكرون من اليهود وغيرهم هم نتاج الثقافات الغربية ذات التحولات السريعة والواعية وما حققته من تغيرات نوعية في الحضارة الإنسانية إن التفكيكية التي قال بها دريدا وغيره هي امتدادٌ لفلسفة المعلمين المتجولين الذين أُطلق عليهم اسم السفسطائيين فهم الذين بتطرفهم في الشك والقول بأن الحقيقة تتعدّد بتعدُّد الأفراد قد أحدثوا بهذا القول وبالجدل حوله زلزالاً في العقل الإغريقي فأنتج تلك الإنجازات الفكرية والعلمية والأدبية الباهرة ثم توالت سلسلة الفلاسفة الذين أشعلوا آلية الشك وأعملوا آلية الديالكتيك مثل ديكارت وكانط وهيجل وهيوم وغيرهم وأسفرتْ هذه الآلية العجيبة عن هذا الإزدهار الثقافي الشامل الذي تجلّتْ نتائجه في العلم والفلسفة والأدب والسياسة والإجتماع وفي كافة جوانب الحياة الإنسانية. . .

إن الثقافات تستعصي على التقويض وأقصى ما تفعله آليات النقد حتى لو كان نقداً جذريا مثل فلسفة نيتشه ودريدا: هو تحريك الثقافات وتسريع نموها لذلك فإنه رغم المضمون التقويضي للتفكيكية فإنها لم تؤثر على الثقافات الغربية إلا بمزيد من الحركة والنماء فالتفكيك والتقويض أعجز من أن يزلزل الكيانات الثقافية الهائلة وإنما هو باستفزازها يسرِّع حركتها ويضاعف أسباب نموها ويجعلها أقدر على مواجهة كل التغيرات. . .

أما عن السؤال الثاني فإنه لا يمكن التعميم على كل النقاد العرب فلا يجوز القول بأنهم جميعا دخلوا دون وعي منهم في لعبة أيديولوجية لقد أنهكتْنا وأربكتْنا أوهامُ المؤامرات فيجب أن نكفَّ عن هذا الخوف المَرَضي كما يجب أن نتوقف عن تحقير الجهود فبفضل المترجمين الذين نقلوا لنا ذخائر الفكر العالمي من كل اللغات وبفضل الدارسين والنقاد الذين اجتهدوا في استيعاب منجزات الغرب إطَّلَعْنا على تلك الانجازات في العلوم والنقد والفلسفة والفنون والأدب ونحن لا ننتظر منهم الكمال وإنما يكفي أنهم اجتهدوا وأنهم تعبوا من أجل إشراكنا بما قرؤوه ومن البديهي ما دمنا نتعلَّم على الغرب وننقل عنه مفردات حضارته أن يتفاوت نجاحنا في هذا النقل فالنقاد والمترجمون العرب مثل غيرهم منهم المتمكن ومنهم الذي دون ذلك لكن النقل عن الغرب ليس خاصاً بالنقاد فكل شعوب الشرق عالة على الغرب في الحضارة المعاصرة فنظُم التعليم في كل الدنيا منقولة نقلاً حرفياً من الغرب وكذلك تكوين الجامعات وأنظمتها وتراتباتها ومعظم المواد الدراسية فيها منقولة نقلاً حرفياً من الغرب ومثل ذلك يقال عن المشافي والإتصالات والطرق ومعاهد البحث العلمي والمختبرات ومراكز الخدمة وكل جوانب الحياة العصرية. . .

أما تشومسكي فإنه أسهم عن قصد أو عن غير قصد في إبعاد العرب والمسلمين عن الغرب عموماً وعن أمريكا خصوصا وزاد فجوة الجفاء والكُرْه والتباعد وهذا يصبُّ في مصلحة إسرائيل فكلما أظهر المسلمون مزيداً من العداوة للولايات المتحدة الأمريكية إزدادت قناعة الساسة الأمريكيين بضرورة المزيد من الدعم لإسرائيل وهذا هو الذي يريده اليهود فيدفعونا إلى الإمعان في إعلان العداوة لأمريكا وملء الدنيا بهذا الصخب اللفظي الذي يجلب الدمار ويفسد العقول ويستبقينا في الدائرة الغوغائية العاجزة عن فهم العصر ويمنعنا من الإنتقال من ثقافة العضل إلى ثقافة العقل ومن ثقافة القوة والإخضاع إلى ثقافة التواصل والإقناع . . .

■ **١ ـ لماذا يكتب أصحاب مثل هذه الكتابات بأسماء مستعارة؟**

٢ ـ هل يمكن أن تقود هذه المتغيرات الحالية إلى تطورات نوعية؟

٣ ـ هل هناك همومٌ بدأت تتزحزح أم هي لغة أدبية سيابية لا غير؟

٤ ـ رؤيتكم لأحداث ١١ سبتمبر بأنها إيذان بنهاية تجربة فريدة لا تحسب لأمريكا وحدها بل للبشرية كافة هل ترونه منسجما مع طرح فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ؟

٥ ـ ماذا لو وُجِه الاهتمام بالشعر قديما وحديثا لجوانب أخرى نحن في حاجة ماسة إليها؟

ـ ١ ـ في المجتمعات المتخلفة ذات الثقافات المغلقة تقوم الحياة على الخوف والإخفاء والتكتُّم لذلك فإن هؤلاء يكتبون بأسماء مستعارة لأنهم يعيشون في مجتمع يتصيَّد عليهم الزلات بل ويختلق لهم الأخطاء إن حياة الناس في المجتمعات العربية مشحونة بالخوف من المهد إلى

اللحد لذلك يلجأون إلى الإخفاء فالظهور الصريح محفوف بالمخاطر وأقلها الهجران والقطيعة والإدانة وتشويه السمعة فليس في المجتمع العربي أي تعدُّدية فكرية وإنما هناك تيار سائد وحيد وقوي وهو يترصَّد كل ما يقال ويتعقَّب كل ما يُنشر فإخفاء الأسماء هو أحد وسائل النجاة من هذا الترصُّد المخيف. . .

٢ ـ ما يحصل الآن في العالم العربي مجرد تغييرات شكلية ولا يمكن أن تتحقَّق بها تطورات نوعية إن التطورات النوعية تتطلب تغيُّرات نوعية في البنية الثقافية وفي منظومة القيم وفي تركيبة المجتمع ومؤسساته وعلاقة الحاكم بالمحكومين أما الذي يجري في العالم العربي فهو مجرد تلميع للواقع وإضفاء ديكورات شكلية لا تمس البنية ولا تغيِّر المسار فالناس في المجتمع العربي يماثلون ركاب الطائرة أو القطار أو الباخرة إنهم قد يتحركون داخل القطار بعكس اتجاهه لكنه يتجه بهم إلى حيث يريد قائده لا حيث يريدون هم وحتى الذين يتبنون موقفاً نقديا من الممارسات المتخلفة في المجتمعات العربية ليسوا خارج القطار وإنما حركتهم محكومة بحركتة. . .

٣ ـ أسباب الهموم باقية لكن هامش حرية التعبير قد توفَّر نسبيا وهذا يجعل الهموم أقلَّ إيلاماً. . .

٤ ـ أحداث الحادي عشر من سبتمبر مثَّلَتْ صدمة مروِّعة لأمريكا وللعالم أجمع وأحدثت صدعاً فظيعا في علاقة المسلمين بالغرب بل وبالعالم كله وأعطتْ الأغرار والسطحيين من العرب والمسلمين وعوداً واهمة أبعدتْهم أكثر عن التبصُّر والتَّعقُّل ولكن الطوفان المزلزل قد ينجلي عن نتائج نافعة غير محسوبة أساساً أو عكس ما خطَّط له من

أحدثوا هذا الزلزال الذي كانت أضراره بالعرب وبالمسلمين أضراراً فادحة لكن أملنا بالله أن يجعل النتائج في المستقبل عكس ما حصل حتى الآن. . .

أما فوكوياما فهو لم يزد عن إعادة التذكير بما رآه الفيلسوف الألماني هيجل والتعبير عن حقيقة صارخة وهي أن تجارب الشعوب سوف تنتهي بها إلى أنه لا بديل عن الليبرالية المتجسدة سياسيا بالنظام الديمقراطي الذي يعترف للإنسان بفرديته ويوفر له الحرية والكرامة ويلتزم بالقانون وتكافؤ الفرص ومع أنه ليس نظاماً كاملاً بل فيه كغيره من أعمال البشر عيوبٌ كثيرة إلا أنه النظام الوحيد الأقل سوءاً بين أنظمة الحكم التي مارستْها الإنسانية منذ بداية تاريخها وجرَّبتها واقعاً معاشاً في أقطار كثيرة أما المثاليات التي لا توجد إلا في الكتب فليست محلاً للمقارنة لأن الكلام لا يفيد الناس إذا لم يعيشوا المضمون واقعا حياً في حياتهم اليومية لكن هذا النجاح الباهر المشهود للنظام الديمقراطي لا يعني أن الثقافات المعادية للإنسان وللحرية يمكن أن تَقْبَل هذه النتيجة التي تقوم كل الدلائل على صحتها فكل واقع مهما تفاقمتْ سوءاته يدافع عن نفسه ويدعي التميز ويواصل نفي الآخرين وتحقيرهم إلى أن يضطر إلى الإعتراف ومسايرة الواقع الجديد. . .

أما عن تفعيل الشعر لمصلحة الإنسان فينبغي أن ندرك بأن الشعر هو الفن الوحيد الذي يجيده الأميون وتجيده الشعوب المتخلفة إنه الفن الفطري الذي وُجد قبل أن توجد المدن وقبل التطور الحضاري إنه فن البداوة لا فن الحضارة وهو فن العاطفة لا فن العقل وفن الإرتجال لا فن التحقُّق ثم إنه عند العرب فن التفاخر الزائف والهجاء الكاذب فقد

كان منذ نشأته لا يهتم بالحقيقة ولا يلتزم بالموضوعية إلى درجة أن العرب يقولون: «أعذب الشعر أكذبه» إنه فن التضليل الماسخ والإنتفاش الفارغ أما كيف نوجّه الشعر وغيره من فاعليات الناس إلى جوانب نافعة فهذا يتطلب تغيير منظومة القيم وعند ذلك تتبدّل الإهتمامات عند الأفراد والمجتمعات. . .

■ **سؤالي استشف في مقالاتك بعض الحنق أو الغيظ فهل شعوري صحيح؟**

ـ إن النقد الشديد لسوءات المجتمع هو علامة الحب الشديد له وليست دلالة الكُره فالذي لا يهتم بالناس لا يهمه أن يقعوا في الأخطاء ولا أن يبقوا في أقفاص التخلف أما الذي يحبهم فإنه يصاب بالغم إذا رآهم في أوضاع سيئة إن الأُم تغضب على فلذة كبدها فتوبخه وقد تَضربه أو تحرمه من شيء يحبه أو يحتاجه ليس كُرْها له وإنما من أجل مصلحته وحمله على السلوك القويم وكلما كان الحب عميقاً وصادقاً صار الألم غائراً ومؤذيا إنني أهتم بأمور المجتمع لأني أحبه كما أنني أنقده لأني أغار عليه ويؤذيني استمرار انغلاقه ويؤلمني تواتُر أسباب تخلُّفه إن الرسول عليه السلام علّمنا أن من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم وليس هذا النقد الذي أوجّهه إلى المجتمع سوى أحد مظاهر هذا الإهتمام العميق والحب الشديد. . .

■ **حقبة الفكر الديني التي نعيشها حالياً كيف ومتى ترى أننا سنخرج منها لمرحلة العقل؟ هل لك أن تعلن لنا موقفك من قضايا مثل: قيادة المرأة للسيارة الإنتخابات البلدية؟ هل أنت مؤمن أن للفكر السروري دور في الإرهاب الدائر في بلادنا؟ هل لك أن توضح لنا فكرتك عن برمجة الذهن وأن العقل تستولي عليه الفكرة الأولى؟**

ـ إن ما جرى من حجر على العقول ووصاية على الناس واحتكار مطلق للرأي ليس من الإسلام في شيء وإنما هو شيء تبرمج الناس عليه وألفوه واستساغوه واعتبروه التجسيد الصحيح للدين ولكن الحقيقة غير ذلك أما الإرتقاء الثقافي إلى مرحلة العقل فهو مرهونٌ بالإنفتاح فإذا توفرت الحرية وأتيح للأفكار والآراء المتعارضة أن تتنافس بسلام فإن الناس يعتادون على التعامل بالعقل ويتربَّون على استخدام وسائل الإقناع بدلاً من التبرمج على عُنف الإخضاع أما إذا استمر الإنغلاق فإن الناس يبقون يتعاملون بالعضل وليس بالعقل فالناس أبناء بيئتهم وهم يتبرمجون بما ينشأون عليه فالعقل يحتله الأسبق إليه. . .

أما سؤالك الثاني فإن من المهم جدا أن لا نخلط بين الأسباب والنتائج ولا بين الأصول والفروع فمعضلة العرب والمسلمين في كافة الجوانب هي معضلة ثقافية وسياسية إنها ناشئة عن الإنغلاق الثقافي والاستبداد السياسي وقمع التعددية الفكرية فلقد تمَّتْ برمجة الناس على تزكية الذات تزكية مطلقة وتجريم الآخرين تجريماً مطلقا فإذا تحقق الإنفتاح الثقافي وتوفرت التعددية الفكرية وتوقفتْ الثقافة المحلية عن الإحتكار المطلق للرأي ولم يَعُدْ بإمكانها عمليا تكفير وقمع واستئصال الآخرين فسوف يعيش الجميع بسلام وسوف تتلاشى بالتدريج مضايقة ووصاية بعضنا على بعض لذلك ينبغي التركيز على الإصلاح الثقافي وفق تعاليم الإسلام السمحة فإذا تحقق هذا الإصلاح فسوف تزول المشكلات الفرعية التي هي نتائج للخلل الثقافي وليست أسباباً له. . .

أما عن سؤالك الثالث فأقول: إن الإرهاب نتيجةٌ وليس سبباً إنه ناتجٌ عن كُرْه المخالف والإستخفاف بالإنسان كقيمة في ذاته مجرداً عن

انتمائه فالثقافة السائدة لا تعتبر للفرد قيمة في ذاته وإنما قيمته وأهميته واحترام وجوده هي نتاج انتمائه أما المخالف فإنها قد اعتادت على قمعه والإحساس القوي بضرورة استئصاله والتوهُّم بالوصاية على الناس والرغبة الجامحة في إرغامهم على قبول هذه الوصاية بل وعدم الإكتفاء منهم بقبولها وإنما لا بد أن يُظهروا أنهم مبتهجون بها. . .

أما عن تحوُّل أفكار المفاصلة والتكفير والتبديع إلى أعمال إرهابية فيعود إلى أسباب كثيرة منها ما يلي:

١ ـ أن الناس قد تربوا من المهد إلى اللحد في كل المستويات على أن الخلافات تُحسم بالإخضاع وليس بالإقناع. . .

٢ ـ أنهم قد نشأوا على الإستخفاف بالإنسان استخفافاً مطلقاً يجعله أدنى من البهائم إذا لم يكن ضمن دائرة الوصاية لذلك نراهم في العراق وغيره يقتلون الناس بشكل جماعي عشوائي تشمل الأطفال والنساء والكبار والصغار فلا يعرف المقتول لماذا قتلوه!! وهم قد قتلوه وهم لا يعرفونه ولم يوجِّه لهم أي أذى وإنما جُرمه الوحيد أنه ينتمي إلى غير طائفتهم أو مذهبهم إن القاتلين يطلقون الصواريخ والقذائف عشوائياً ولا يعرفون من ستصيب هذه القذائف والصواريخ كما أنهم يفجِّرُن السيارات وسط الجموع الذين لم يسبق أن قامت معهم علاقة لا سيئة ولا جيدة فالقتل سببه الوحيد هو أنهم خارج دائرة الوصاية الطائفية والمذهبية!!! إنها مأساة حقيقية ربما لم تمر بها أمة من قبل فالناس الذين يفكرون بهذه الطريقة المغلقة ويتعاملون مع حياة الناس بكل هذا الإستخفاف ويتصرفون بهذا الوثوق الأعمى يستحيل الوصول معهم إلى حل يحفظ للناس حياتهم وأمنهم وكرامتهم واستقلالهم في القرار والإختيار. . .

٣ ـ إن هذه الأعمال الفظيعة المروّعة والبشعة لم تأت اليوم طفرة بل إن وباء الكراهية كان عميقاً وعريقاً في الثقافة المحلية والعربية ولكنه كان مُسْتَكناً إلى أن خرج الشباب للمشاركة في الجهاد الأفغاني وهناك تحوّلت الأفكار إلى أفعال. . .

٤ ـ وتتعدد أسباب ظهور العنف في هذا الوقت فالحديث الدائم بوسائل الإعلام والمساجد والمدارس عن بطولات المجاهدين في أفغانستان وفلسطين والشيشان والبوسنة والفلبين وكشمير وغيرها قد ضاعف الإحساس بالظلم وأجّج الكراهية وأحيا الرغبة في الإستشهاد وخَلَق مناخاً مشحوناً برائحة الموت كما خلق كُرْهاً للحياة وعجزاً عن مواجهة مشاكلها واشتياقاً إلى الحياة الآخرة للفرار من هذه الحياة البائسة. . .

٥ ـ كما أن العرض المتكرر لأحداث القتْل بوسائل الإعلام قد خفّف من الشعور برهبة الموت فإذا جاء العرض مصحوباً بتعداد أصناف الأعداء والتأكيد على كثرتهم وأنهم محيطون بنا من كل ناحية مع التحريض الشديد على هؤلاء الأعداء والدعوة إلى استئصالهم والحث على الإستشهاد من أجل قتلهم والإغراء بالنعيم المقيم الذي لا يفصل الفرد عنه سوى أن يفجّر نفسه فيقتل ذاته ويقتل الأبرياء الذين لا يعرفهم ولم يؤذوه ولم يتسببوا له بأي شر لقد تضافرت كلُّ هذه المؤثرات فتوافرتْ بذلك أسباب الإقدام على الإرهاب وممارسته بهذه الصورة البشعة وغير المسبوقة. . .

٦. ثم إن الدعم المستمر لإسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية واستمرار الغطرسة الإسرائيلية وتبادل القتل والهدم بين الطرفين منذ

الإنتفاضة وصراخ الفضائيات الذي يعطِّل العقل ويستثير العاطفة قد ملأ النفوس بمشاعر الظلم والغبن وأجَّج الكراهية ضد أمريكا وضد الواقع بأكمله فلجأ بعضنا إلى وسيلة العنف العشوائي لأنه الأسلوب البدائي الذي نجيده ولا نجيد غيره ثم إننا اعتدنا تبسيط القضايا المعقدة فتوهَّمنا بأننا بهذه الأعمال العنيفة العشوائية نؤكد وجوداً ونبني مجداً ونستردُّ حقاً ولم ندرك أنه حصلت تغيرات جذرية في الحضارة الإنسانية ليس فقط في الوسائل والأدوات وإنما بشكل أعمق وأهم في الثقافة وفي قيمة الإنسان ودوره في الحياة وفي العلاقات بين الثقافات والشعوب والدول ولكن لأننا لم نلتفت لهذه التغيرات النوعية الطارئة على الحياة الإنسانية فقد بقينا عاجزين عن التعامل الناضج مع العالم وظللنا نتخاطب مع أنفسنا ومع العالم بمنطق القوة مع أننا أقل الأمم امتلاكاً لها ولكننا الأكثر استخداماً لها وتهديداً بها!!!...

٧ ـ أما السبب السابع لظاهرة العنف فيعود إلى أن تواطؤ الدول الغربية مع جنرالات الجزائر والتأييد الضمني لإلغاء فوز الإسلاميين في الإنتخابات قد أقنع الشباب الإسلامي بأن الغرب لا يقبل أن يسود الإسلام في الأقطار الإسلامية وأنه لن يسمح له أن يمتلك قوة حقيقية وأنه بذلك قد أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين وأنه لا سبيل لاستعادة المجد ونصرة الدين سلمياً وأنه لا بديل إلا العنف إن هؤلاء البسطاء الساذجين قد اختاروا طريق العنف لأن هذا الطريق هو الأسلوب الذي يعرفونه فقد تربوا عليه ثقافيا كما تربوا عليه في الحياة اليومية فهم لا يعرفون أي أسلوب سواه فالثقافة العربية وكل العلاقات فيها ما زالت تقوم على الإخضاع وليس على الإقناع وبسبب هذا الخلل الثقافي وبسبب التبسيط الساذج للأمور المعقدة توهموا أن العنف هو الحل

الوحيد ولأن هذه الرؤية الفجة تتفق مع التفكير الثنائي ومع المنهج الإنتقائي السائدين ثقافيا فإنهم لم يفطنوا إلى أن الغرب لم يعارض وصول الإسلاميين في تركيا إلى الحُكْم بواسطة الإنتخابات لأنه يراهم معتدلين ولا يتبنون العنف ويؤمنون بالتداول السلمي للسلطة بل أكثر من ذلك رضي الأوربيون مبدئياً بانضمام تركيا في عهد الإسلاميين إلى الاتحاد الأوربي المهيب وهذا يؤكد أن الخروج من المأزق في العلاقة مع الغرب لن يكون بالقوة والإخضاع وإنما يكون بالتواصل والإقناع ولكننا ما زلنا خارج حضارة العقل وما زلنا مأسورين بثقافة العضل ولم نتعرَّف بعد على التغيرات النوعية التي طرأت على الثقافة الإنسانية والتي جعلت شعوب ودول أوربا الأعداء تاريخيا يتجهون إلى الوحدة ويتناسون عداواتهم التاريخية بل ويتخطون التباينات اللغوية ويتغاضون عن الاختلافات الثقافية فلقد اشتدَّت عندهم فاعلية العقل وتلاشت معوقات هذه الفاعلية فهيمن العقلُ على العواطف وتخلَّص من عبودية التراب والحدود والعرق والطائفة والطبقة وصارت القيم الإنسانية الرفيعة والحريات والعلم ومنجزات العقل هي القواسم المشتركة التي يسعى إليها الجميع لقد تخطوا مراحل الطفولة والمراهقة الحضارية وبلغوا مرحلة النضج الحضاري والرشد العقلي. . .

أما سؤالك عن دور الفكر السروري في الإرهاب فأجيب أولاً بأنني لا أعرف حجم انتشار هذا الفكر فلقاءاتي بالناس محدودة جدا ففي السابق كنت مشغولاً بالعمل الإداري أما الآن فأعيش بين الكتب وأرى الإختلاط مَضْيعة للوقت ومضاعفة للكَمَد أما ثانياً فإنني مقتنعٌ تماماً بأن ثقافة العنف عميقة الجذور في الثقافة المحلية والعربية ولا يوجد أي غموض يستوجب البحث عن أسباب أخرى لظاهرة العنف أما الفكر

السروري فهو فيما أعتقد ليس فكراً جديداً وإنما هو أحد التجليات العصرية لثقافة: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر» فنحن العرب قد ورثنا ثقافة الإخضاع ونشأنا عليها وتبرمجنا بها وما زلنا لا نعترف بثقافة الإقناع ولا نجيدها ولا نحاول التعرف عليها فضلاً عن إتقانها وهذا التخلف الثقافي الفظيع هو أغزر منابع البلاء على كل المستويات وليس الإرهاب المسلَّح سوى أحد التجليات لثقافة الإخضاع...

إن ربط الإرهاب بسبب وحيد أو ربطه بشخص أو أشخاص فهو أحد الأخطاء الكبيرة فهذه الظاهرة الشنيعة عميقة الجذور ومتعدِّدة الأسباب ولكن من أهم أسباب ظهورها الآن في المجتمعات الخليجية هو المشاركة في الجهاد الأفغاني والتمرس ميدانياً على القتال والتعايش فترة طويلة مع رائحة الموت والتآلف مع هذه الرائحة والإرتباط بها لتصبح هي الأسلوب الحياتي المألوف...

أما عن سؤالك الرابع فأقول: إن الإنسان لا يولد بعقل ناجز وإنما يولد بقابليات فقط وهذه القابليات لديها قدرة عجيبة على الإمتصاص التلقائي فتتشكَّل بالمؤثرات الأولى فالعقل يحتله الأسبق إليه فإذا تشكَّل بثقافة مغلقة فإنه ينغلق ويتوهم الكمال ويميل إلى كره الآخر والتعصُّب ضده والرغبة في استئصاله ولا يفيد التعليم النظامي في تغيير هذه البرمجة الأولى أما إذا تشكَّل العقل بثقافة منفتحة فإنه يعتاد على الانفتاح والتروي في إصدار الأحكام والتشكك المنهجي وعدم الوثوق الأعمى كما يعتاد على الإفساح للرأي الآخر حتى لو لم يوافق عليه وكذلك تبادل الإحترام مع الآخرين والإستعداد للمراجعة والتصحيح وقبول النقد والإستفادة من تجارب الأبعدين والأقربين واستخدام الإقناع بدل

الإخضاع إن عقل الفرد يتبرمج بالمؤثرات الأولى التي يمتصها من البيئة تلقائيا فإذا تبرمج بثقافة مغلقة ثم تعلّم في المدارس والجامعات فإن المعلومات الطارئة مهما بلغت دقتها واتساعها تبقى خارج بنيته الذهنية فلا تؤثر على تفكيره ولا على عواطفه ولا على أخلاقه ولا على سلوكه ولا على اهتماماته وقيمه وبسب هيمنة الأسبق فإن الناس يجدون صعوبة في التخلص من عاداتهم أو تعديلها ولنفس السبب نجد التعليم في العالم العربي محدود التأثير ففائدته تبقى محصورة في المجال المهني ونجد أن المتعلم في العالم المتخلف يعيش بشخصيتين متنافرتين إحداهما في حقل اختصاصه إذا كان ماهراً فيه والثانية في كل ما عداه أما إذا لم يكتسب المهارة المهنية فإنه يبقى كليلا في كل أحواله. . .

■ **جاء في تقديم المنتدى لهذا اللقاء أن عبقرية الاهتمام عبء يُثقل كاهلكم فهل هي نظرية خاصة بكم؟**

ـ نعم هي نظرية أحاول فيها أن أُشخِّص أحد الأسباب الأساسية للتخلف كذلك أحد العوامل الرئيسية للتقدم فالأمم لا تنجز إلا في المجالات التي تهتم بها وكذلك الأفراد لا يُبدعون إلا في الحقول التي تستغرق اهتمامهم لكن الإهتمامات هي ثمرة منظومة القيم فأنواع الإهتمامات هي التي تحدِّد أوضاع المجتمعات والأفراد لقد ظهر لي من دراسة تجارب الأمم وملاحظة تفاوت الشعوب والتأمل الطويل في اختلاف الأفراد أن كل التباينات الصارخة في أوضاع الأمم وأحوال الأفراد ناتجة عن الاختلاف في الإهتمامات ودرجات تركيزها. . .

إن الإهتمامات التي تحرك الشعب الياباني مثلاً تختلف عن الاهتمامات التي تحرك الشعب العربي ومن هنا جاء تباين الأوضاع

وبمقدار اختلاف اهتمامات الشعب العربي عن الشعب الياباني فإنها تختلف أيضا عن اهتمامات الشعب الأمريكي أو البريطاني أو الألماني أو الفرنسي أو غيرها من الشعوب المزدهرة فاهتمامات الشعوب هي التي توجِّه سلوكها وهي التي تستنفد طاقتها وهي التي تحدِّد أوضاعها ومن هنا نجد التفاوت الشاسع بين نتائج التعليم في المجتمعات المتخلفة ونتائجه في المجتمعات المزدهرة مع أن الدارسين يتلقون نفس المعلومات تقريبا لذلك يبقى التعليم عقيماً أو محدود الجدوى إذا لم يتحقق تغيير الاهتمامات...

إننا في المجتمعات العربية نحتفي احتفاء مفْرطاً وساذجاً بالشهادات الدراسية وتهزنا الألقاب الأكاديمية كجزء من الإهتمام بالمظاهر والشكليات ولم ندرك أن تخصُّص الفرد هو ما يستغرق اهتمامه ويشغل فكره وليس المجال الذي يحمل فيه شهادة دراسية فالإنسان لا يبدع إلا بالإهتمام القوي المستغرق سواء وافق تخصصه الدراسي أم خالفه فما تهتم به هو اختصاصك أما دون اهتمام قوي مستغرق فلا إبداع ولا مهارة ولا إنجاز ولا إتقان ولا تفوق...

إنني أحاول حشد الشواهد التي تثبت صحته نظرية (عبقرية الإهتمام التلقائي) وبأن على العرب والمسلمين إذا كانوا جادين في محاولة الإفلات من قبضة التخلف أن يعيدوا النظر في منظومة القيم التي تتشكَّل بها اهتمامات الأفراد والمجتمعات وبدون ذلك لن يكون التعليم مجدياً: «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فلا بدَّ من تغيير منظومة القيم لتتغيَّر الاهتمامات وليتغيَّر ما بالنفوس فتتغيَّر الممارسات وتتبدل الرؤى وتزدهر الأوضاع...

ومن أجل أن ندرك هذه الحقيقة لا بد أن نهتم بالتعرف على التغيرات النوعية التي طرأت على الاهتمامات الإنسانية في الحضارة المعاصرة وبالمقابل لا بد أن نتعرّف على موانع النهوض ونحلل عناصر بنية التخلف وهذا يستوجب إنشاء علم جديد نسميه (علم الجهل) أو (علم التخلف) وهذا ما أحاول أن أساهم بتأسيسه ليكون الجهل المركَّب أو الجهل الموروث موضوعاً للدراسة والبحث والتحليل فالجهل بوصفه موروثاً هو جهلٌ شديد التعقيد وقوي التماسك إن الجهل المركَّب ليس عدماً ولا فراغاً وإنما هو كيانٌ موغلٌ في التعقيد إنه يغلق الأذهان عن قبول الحقائق فتبقى في عماها وتواصل الغبطة بجهلها المركَّب لأنها تجهله وقد تربَّت على تعظيمه والإغتباط به والاستماتة في الدفاع عنه فهي تتوهم أنه يمثل العلم والحق والصواب وهذا الوهم المزمن من أفظع وأعصى المعضلات البشرية. . .

■ **هل ترى أن المرأة ماثلت أو قاربت الرجل في اهتماماته ومفردات ثقافته؟**

ـ إن الواقع يؤكد بأن البنات أسرع نضجاً من البنين كما أنهن أقدر على الالتزام بالمسؤولية فالبنت تصبح زوجة وتصير أماً في وقت مبكر جدا من حياتها بينما أن الابن المماثل لها عمراً لا يستطيع أن يتحمل أية مسؤولية والبنت منضبطة سلوكيا وأخلاقيا أكثر من الإبن ومن النادر أن تقع البنات في الهفوات التي يقع فيها الأبناء وقليلٌ من البنات اللاتي يرتكبن الحماقات التي يقع فيها المراهقون من الأبناء كما أنهُنَّ أكثر معرفة بمصالحهن ويسعين لهذه المصالح بذكاء ومرونة وبرغبة ذاتية وإقبال تلقائي وعلى سبيل المثال فإن البنات يُنْهين الدراسة من البداية

حتى نهاية المرحلة الجامعية معتمدات على أنفسهن ودون أي مشاكل ولا متابعة بينما أن الأُسر تعاني كثيراً من تعثُّر البنين إن البنت بحكم أنوثتها تكون طرية الذهن ومتدفقة العاطفة ومتوقدة الاهتمام وغير مشتتة الجهد فإذا وجَّهَتْ عنايتها لشيء فإنها تنجزه بدقة وربما بإبداع فإذا اهتمت بالمعرفة واعتنت بالعلم أو الفن فإنها لا تقلُّ قدرة عن الرجل بل إنها تتفوق عليه أحياناً إن المعرفة نتاجُ الرغبة والمثابرة والعشق والاهتمام والمرأة مهيئة لذلك أكثر من الرجل الذي يتشتت جهده في الغالب وتتسم أخلاقه بالخشونة والغلظة والإعتماد على قوة العضلات فهو لم يتعلَّم أساليب الإقناع وإنما تربى على ممارسة إخضاع من هو أدنى منه والخضوع لمن هو أرفع منه إن الرجل يتربى على أن رجولته مرتبطة بغلظته وأنه كلما كان أصعب مراساً وأشد خشونة صار أقرب إلى تجسيد معنى الرجولة بل لقد أَعَدَّتْه الثقافة ليكون مقاتلا عنيفا فالمطلوب منه أن يزهق الحياة لا أن ينميها بينما أن المرأة هي منبت الحياة وهي محضنها وهي التي تغذيها وترعاها ولهذه الخصال التي تمتاز بها المرأة فإن المجتمعات المحرومة من مشاركتها الحقيقية في إدارة الحياة تبقى متخلفة فالمرأة هي الأرحم والألطف والأقدر على تنمية الحياة وهي لا تكون في أسوأ حالاتها إلا حين تسترجل فتتصنَّع القوة والغلظة إما تقليداً للرجل أو بسبب اختلال هرموني يزيد فيها هرمون الذكورة ويقلِّل هرمون الأنوثة. . .

■ **من قراءة قديمة لأدونيس يسأل ما مدى انفراج دائرة البليهي لزحزحة بنية التخلف وفق هذه المنهجية؟**

- إن معضلة الثقافات المغلقة أنها محكومة بقانون القصور الذاتي

أي بالعطالة التلقائية وأنها مع ذلك تملك قوة طرد هائلة فهي لا تتقبَّل أيَّ محرِّك من خارجها إن هذه إشكالية معقَّدة ومزدوجة لذلك لا يأتي التغيُّر دائماً إلا من داخل الثقافة ولكن بتغذية وبأدوات من خارجها فالأنبياء والرسل عليهم السلام كانوا يعملون من داخل المجتمعات على تغيير ما كان سائداً ويقودونها نحو الخير فهم مغايرون لمجتمعاتهم لكنهم منها ويعملون من داخلها وكذلك يفعل المجددون والمفكرون والمصلحون بعدهم على مر العصور وتعطينا التجربة الأوربية أقرب التجارب الإنسانية الناجحة في مجال التغيير نحو الأفضل فلوثر خَرَجَ من داخل المؤسسة الدينية وفي قلب الثقافة المسيحية وأحدث في أوربا زلزالاً ثقافيا هائلا كان تمهيداً لما شهده ويشهده الغرب من إزدهار مذهل. . .

■ **إلى متى وأنت تجامل وتصانع على حساب قناعاتك وعلى حساب أمتك ووطنك؟وهل تعتقد أنك بهذا الأسلوب المهادن ستنال شيئا من كعكة السلفيين أو حتى ستسلم من سياطهم؟**

ـ إنني أقدِّم رؤيتي بمنتهى الوضوح فلا أُضمر غير ما أُظهر فأنا بحمد الله قوي الإيمان بالله وأعتبر أن العلاقة القوية بالخالق هي جوهر الحياة وأنه من غير هذا الإرتباط القوي بالله تصبح الحياة عديمة المعنى وكلُّ أملي أن يعود للإسلام صفاؤه وأن يتحقَّق تخليصه من أهواء البشر التي حجبتْ بهاءه وأضاعت مبادئه وشوَّهت تعاليمه وقَلَبَتْ مقاصده وحرَمَتْ أهله من عطاءات الفكر والعلم والحرية. . .

إن قروناً من النزاع على السلطة في التاريخ العربي قد ألحقتْ بالإسلام وبالمسلمين أذى شديداً وأظهرت الإسلام لأهله وللعالم بصورة

شائهة لم تكن هي التي أرادها الله فقد أرسل الله رسوله رحمة للعالمين ولكن حين نقارن بين هذا المعنى العظيم وبين ما يجري الآن في كل مكان باسم الإسلام وما جرى باسمه خلال القرون فسوف تروِّعنا المأساة الفظيعة . . .

لذلك فإن الجهد الذي أبذله ما هو إلا محاولة فردية متواضعة للإسهام في إعادة تكوين الثقافة الإسلامية على الأسس الصحيحة من تعاليم الإسلام وباستخدام أقصى طاقات العقل والإستفادة من أدق منجزات الحضارة الإنسانية في مجالات الفكر والعلم والممارسة الناضجة . . .

ولكن علينا أن ندرك أن تغيير القناعات الراسخة لا يتحقق بالمنافرة وإنما بتأسيس ثقافة الإقناع وبالصبر الطويل فنحن أمام معضلة ثقافية مزمنة ومعقدة لا تجدي فيها المعالجات المتسرعة ولا الحلول الآنية المبتسرة فإعادة التكوين الثقافي مهمة عسيرة وباهظة ولا بد أن تتضافر من أجلها كل الجهود وأن لا نستبطئ النتائج وأن نثق بأن العاقبة للمتقين . . .

- **لماذا لا تعمد إلى تبسيط مقالاتك لتكون في متناول أكبر عدد ممكن من القراء؟ لماذا لا تُخرج كتاباتك مطبوعة في كتب تقدم من خلالها فكرك العميق بطريقة منهجية تتجاوز هذه المقالات المركزة التي يمكن إذا توسعت في أي منها أن تحولها كتابا مستقلا؟ أنت الآن ضيف في دار الندوة ألا تعتقد أنك يمكن أن تواجه حرجا أمام مجتمعك القصيمي المتشدد؟**

ـ لعلك قرأت الإجابات السابقة فهي تشير إلى أن اهتمامي مُتَرَكِّزٌ

على محاولة الإسهام في إعادة التكوين الثقافي لذلك لا أكتب في المشكلات الآنية فهذه لها كُتّاب آخرون يهتمون بها وهم أقدر مني على تناولها فهي مجال اهتمامهم وليست مجال اهتمامي أما الصعوبة التي تجدها في المقالات فهي ناتجة عن تعقيدات القضايا وليس بالإمكان تبسيطها أكثر مما أفعل. . .

أما عن سؤالك الثاني فأقول إنني بصدد إصدار مجموعة من الكتب قريباً إن شاء الله وهي تتضمن رؤيتي حول القضايا التي أنشغلتُ بها طويلا. . .

أما عن سؤالك الثالث فأقول بأنه ليس لديَّ ما أخفيه فأنا أقدِّم رؤيتي واجتهاداتي بوضوح شديد إنني أجتهد وأجهر بما أقتنع به ومن البديهي أن كل ما أقدمه ليس أكثر من اجتهاد فردي بشري وهو بهذه الصفة لا بد أن يكون مغموساً بالنقائص البشرية ومعرَّضاً لكل احتمالات الخطأ ولكن حسبي أنني حريصٌ على الصدق والإخلاص والتجرد وأعترف بقصوري الشديد وأحتسب على الله ثواب الإجتهاد وليس اهتمامي بالحرية والليبرالية والإنفتاح الثقافي والتعددية الفكرية إلا نتيجة القناعة التامة بأن المناخ الليبرالي المفتوح هو الذي يخدم الحق ويتيح أوسع المشاركات لخدمة الدين والدنيا ويفتح أبواب الإزدهار في كافة المجالات. . .

■ **ـ ما هي الأسباب التي جعلتنا نقصي الفلسفة وكيف نستطيع التعاطي مع الفلسفة في مناهجنا وثقافتنا؟**

ـ إن ثقافة العرب هي ثقافة لغوية شعرية فنحن كما قيل ظاهرة صوتية فالشعر هو ديوان العرب ومن المعروف أن الإبداع الشعري

مصدره العاطفة وعماده الخيال ومادته اللغة وهو الفن الرفيع الوحيد الذي أجاده العرب في الجاهلية والإسلام إنه فن البداوة فالإبداع فيه لا يتطلب شيئا من العلم وإنما هو فيضانٌ لفظي يندلق بارتفاع درجة حرارة العاطفة. . .

إن الثقافة العربية لم تعرف الفلسفة أصلاً لا في الجاهلية ولا في الإسلام أما الذين اهتموا بالفلسفة من المسلمين فإنهم أفرادٌ قلائل كانوا خارج النسق الثقافي العربي فابن رشد وابن سينا والفارابي والكندي وابن طفيل والرازي وأمثالهم لم يكونوا يُشَكِّلون تياراً داخل الثقافة العربية وإنما كانوا أفراداً ناشزين في المجتمع بل كان المجتمع يحاربهم ويُحرق كتبهم وما زالت أفكارهم موصومة بالإنحراف والضلال والخطورة ويجري التحذير منها والتخويف من ضلالاتها لذلك لا يمكن أن يقال بأن الثقافة العربية قامت بإقصاء الفلسفة لأنها لم تتقبلها أصلاً ولم تسمح لها أبداً بالرواج فالتفكير العقلاني كلُّه غريبٌ على العقل العربي فالثقافة العربية ثقافة لغوية وليست ثقافة فلسفية إنها ثقافة البداهة السطحية والإرتجال العفوي أما الفلسفة فهي نتاج التأمل العميق والبحث الجاد والعقل الحر وهذه شروط أو صفات لم تعرفها الثقافة العربية وما زالت بعيدة عنها بُعداً شاسعاً. . .

أما عن سؤالك الثاني فإن التعاطي مع الفكر الفلسفي يتطلب إحداث تغيير بنيوي في الثقافة العربية وهو المطلب الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بالإنفتاح الثقافي على الثقافات البشرية والتعاطي المباشر مع الفكر الإنساني بشتى تجلياته فلا بد أن نخرج من ثقافة العاطفة إلى ثقافة العقل ومن ثقافة الوهم إلى ثقافة الحقيقة ومن ثقافة الإرتجال إلى ثقافة التحقُّق

ومن ثقافة المشافهة إلى ثقافة الكتاب ومن ثقافة الرؤية الأحادية إلى ثقافة التعددية الفكرية ومن ثقافة الوثوق الأعمى إلى ثقافة الشك والإحتمال ومن ثقافة القطْع إلى ثقافة الترجيح. . .

■ **ما هو الدور الذي ينبغي على المثقف المخلص القيام به اليوم؟**

- إن المثقف لا يمكن أن يخلق لنفسه دوراً لا يقرُّه له المجتمع فالدور يتحدَّد بواسطة المجتمع وفي إطار اهتماماته ومعلومٌ أن إعطاء المثقف دوراً تنويريا هو أحد المستجدات التي أضافتها الحضارة الغربية إلى الحضارة الإنسانية فمفهوم المثقف هو مفهومٌ غريبٌ على الثقافة العربية إن المثقف كمفهوم وتاريخ وإنتاج وممارسة هو نتاجٌ غربي محض لذلك فإن المثقفين العرب لم يكتسبوا صفة المثقف من ثقافتهم العربية وإنما اكتسبوها باستيعاب ثقافة الغرب والإنتقال من ثقافة النقل إلى ثقافة العقل ومن ثقافة الإنصياع إلى ثقافة الإقناع ومن ثقافة التسليم المطلق إلى ثقافة المراجعة والتمحيص وهنا ينبغي أن لا نخلط بين المتعلِّم والمثقف فالمتعلم حتى لو نال الدكتوراه من أرقى الجامعات في الغرب أو الشرق قد يبقى مبرمَجاً ومنصاعاً للمألوف أما المثقف فحتى لو كان لا يحمل سوى شهادة المرحلة الإبتدائية (كالعقاد) فهو يخترق حواجز المألوف ويكتشف نقائص الذات ويعترف بمزايا الآخرين ويحترم قيم الحق والعدل والخير والجمال ويطالب بالحرية والمساواة والوضوح والشفافية ويؤمن بحق الناس في الإختلاف ويصدع بالحق ولو على نفسه وله رؤية إنسانية تتجاوز الأُطُر المحلية والقومية فهو يتحرى الحق ويلتزم به حتى لو كانت لا تُرضي مجتمعه فَشَرْطُ المثقف التنويري أن يفكِّر خارج النسق وأن يكون مُنصفاً وذا رؤية إنسانية وأن يتمكن من

الرؤية الموضوعية بالقدر الممكن بشريا داخل وخارج الثقافة السائدة. . .

ولكن من المعضلات التي تواجه المثقف أنه كلما اشتدت حاجة الثقافة السائدة إلى المراجعة كانت أشد رفضا لهذه المراجعة وكلما كان المجتمع أكثر تخلفًا وأشد احتياجاً للتنوير صار أشد تزكية لذاته وأعنف رفضاً لأي نقد أو تحليل يستهدف كشف موانع النهوض كما أنه يكون أشد تشكُّكاً بمن يريدون له الخير. . .

إن المجتمع العربي تاريخيا لا يعرف المثقف وهو حالياً لا يعترف به ولا يسمح له بأي دور فالحرية والتعددية وحق التواصل الآمن وحق الاختلاف هي الشروط الأساسية لاضطلاع المثقف بدوره أما دون تحقيق هذه الشروط فلا يمكن للمثقف أن يضطلع بأي دور فتأثير المثقفين في الغرب يعود إلى أن المجتمع يعترف لهم بالدور ويحترمهم ويصغي لهم ويتقبل جدل الأفكار لذلك ينبغي أن لا نطالب المثقف العربي بما يتجاوز إرادته وما هو فوق طاقته فلا يوصف المثقف بأنه متقاعس إلا إذا تخلى عن المحاولة وهادن الخطأ واستساغ السلوك الانتهازي أما إذا بذل جهده ولم يتمكن من التأثير فهذا لا يعود إلى تقصيره وإنما يعود إلى عدم قابلية المجتمع فالمثقف ما زال خارج النسق الثقافي لذلك يستحيل أن يكون له أي دور ضمن هذا الوضع الاقصائي. . .

- **لك كتابٌ عن سيد قطب رحمه الله ما رأيك فيه؟ ألا ترى أن قراءة كتب الفلسفة قد تجعل المسلم يفقد ثقته وإيمانه بدينه وربما قد يفقد إيمانه بالخالق سبحانه؟**

ـ إن ما كتبتُه عن سيد قطب رحمه الله كان بحثاً جامعياً أي أنني كتبتُه في مرحلة الشباب المبكر حينما كنت بنهاية المرحلة الجامعية عام ١٣٨٩ هـ ولا بدّ من التنبيه إلى أن فكر سيد قطب رحمه الله قد مرَّ بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي المرحلة الأدبية حيث عُرف كاتبا وشاعراً وناقداً ومنظِّراً والمرحلة الثانية هي مرحلة الفكر الإسلامي المعتدل التي يمثلها كتاب (العدالة الإجتماعية في الإسلام) وكتاب (الإسلام والسلام العالمي) والصيغة الأولى من كتاب (في ظلال القرآن) وكتبٌ أخرى أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة إعلان القطيعة والمفاصَلة مع المجتمع الذي صار يراه جاهليا وهذا التحول الفكري دفعه إلى إعادة صياغة(في ظلال القرآن) وقد أفرغ فيه كل أفكاره الأخيرة حتى كتابه (معالم في الطريق) قد استلَّه من (الظلال) لذلك فإن على من يحاول تقييم فكر سيد قطب رحمه الله أن يتعرَّف على أسباب هذا التحول الخطير فمن المعلوم أنه إذا استحكم الطغيان سلَبَ الناس موهبة التروي وحَرَمَهم من صواب الرأي وأبعدهم عن موضوعية التقييم وعدالة الأحكام وأفسد فيهم كلَّ شيء فهو يفسد الثقافة ويفسد الأخلاق ويفسد العقول ويفسد الذِّمم ويفسد العواطف ويفسد السلوك ويفسد القيم ويفسد الإقتصاد ويملأ حياة الناس بالبؤس والخوف والنفاق أو يملؤها بالتمرد والقطيعة والإنشقاق فبيئة الإنغلاق والإستبداد لا تعرف الإعتدال فهي: إما مع هذا الإتجاه بتطرُّف أو ضده بتطرُّف أيضا.. إن الناس في البيئة المغلقة إما أن يندفعوا في الموالاة بشكل مطلق ودون أي تحفُّظ ومن غير شروط ودون إحساس بالأخطاء والنقائص مهما كانت فظيعة أو أن يندفعوا في المنابذة والمناوأة والمفاصلة بصورة مطلقة أيضا ومن غير اعتدال ولا إنصاف ولا اعتراف بأية مزية إن الطغيان يؤزِّم الأوضاع

ويستفزُّ النفوس ويدفع أكثر العقول استنارة وإشعاعاً وانفتاحاً إلى الإنغلاق والتطرف كردٍّ فعل تلقائي على عمليات الإلغاء والقهر والظلم والإفساد فكل فعل له رد فعل مساو له في القوة ومضادٌّ له في الإتجاه وسيد قطب قبل احتكاكه بطغيان السلطة كان مثقفا واسع الآفاق وشاعراً رقيق المشاعر وصاحب حس مرهف نادر المثال فهو كاتب موهوب لكن الطغيان الناصري واستبداد الحزب الأوحد وهيمنة الرأي المستبد وتسلُّط الإتجاه المنفرد أحدث في سيد قطب رفضاً عنيفا جارفاً لهذا الطغيان وملأه بالثورة على الطغاة والنقمة على المجتمعات التي تستكين لهم إن كتاباته الثائرة تُلهب مشاعر الذين لديهم استعداد للهيجان وتستفزُّ الجاهزين للإندفاع الأعمى لذلك ينبغي أن لا يتداولها العوام وأشباههم من بادئ الرأي فهذه الكتابات لم تكن نتاج فترة التروي والهدوء والمراجعة والرؤية الموضوعية وإنما هي نتاج فورة الغضب والثورة الجارفة فقد جاءت رداً على الإعتقالات والمطاردات للشرفاء والصادقين والمصلحين أو من يعتقد هو أنهم كذلك لقد كانت كتاباته استجابة ثائرة على التعذيب والوحشية ومصادرة الحريات وقمع الفكر والحجْر على العقول وتحريم النقد والإنفراد المطلق بالسلطة واحتكار الرأي: «ما أريكم إلا ما أرى» فمن البديهي أن تأتي هذه الكتابات ملتهبة وثائرة ومتطرفة لأنها جاءت رداً على تطرف أكثر إيغالاً فسيد قطب رغم مواهبه ما هو إلا واحدٌ من البشر يتأثَّر بحالته الإنفعالية وبوضعه النفسي وبمعاناته الجسدية وبالإنكسارات الفظيعة التي تعيشها الأمة وبالإحباطات العامة التي ملأته كمداً وثورة ولكن المهم أن ينتبه الناس لكل ذلك وأن يقرؤوها بتحفُّظ غير أنه بدلاً من أن يحصل تداول أفكاره بهذا التحوُّط الضروري وبمراعاة هذه الإعتبارات الإستثنائية فإنها وجَدَتْ قبولاً لدى

أصحاب الميول التكفيرية لأنهم في الأساس مستعدون للقطيعة فوجدوا فيها تعزيزاً لما هو شائع بينهم ثم جاءت تجربة الجهاد الأفغاني فأخرجت التنظيرات التكفيرية من نطاق الفكر إلى نطاق الفعل ثم تبعتْها الانتفاضة الفلسطينية والإنتفاضة الشيشانية ومشكلة البوسنة والهرسك لتجعل الإستنفار عاماً فيتسع نطاق العمل الميداني الجهادي وبذلك انتقلَتْ أفكار المفاصلة ومقولات الولاء والبراء من حيِّز التنظير الواسع والمتداول والمستقر في ثقافتنا منذ مئات السنين إلى حيِّز التطبيق والتنفيذ والممارسة فيجب أن لا يغيب عنا أن الأفكار التكفيرية لها في تاريخ العرب وفي واقعهم وجودٌ عريقٌ وواسع فهي نتاج الإنغلاق الثقافي وثمرة إيصاد منافذ الفكر الحر ويكفي أن نعلم أن أحد المعاصرين السعوديين أَلَّف كتاباً عن: الضَّلال في الظِّلال وهو لا يطالب سيد قطب بالتسامح وإنما يطالبه بالمزيد من التشدُّد والإقصاء ويُبَدِّعة ويُلحقه بالجهمية ومَن يعتبرهم أهل الضلال وربما يكفِّره وهذا هو الأكثر مدعاة للتساؤل وبهذا يتضح أن سيد قطب رغم كل أفكاره التحريضية الثائرة كان عنده قدْرٌ من التسامح قياساً بمن لا زالوا يهيِّجون العوام ويُشعلون الحرائق ويلهبون عواطف الناس ويُكَفِّرون المسلمين على مسائل فرعية وأمور خلافية!!!...

أما الذي جعل سيد قطب يتحوَّل من مثقف منفتح إلى إنسان تكفيري؟ فيعود إلى أن هوان المسلمين وضياع حقوقهم واستمرار فقرهم ودوام تخلفهم وتكرار الوقائع التي تؤكد عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وانسداد الآفاق أمام إمكانات تغيير أوضاعهم ووقوف الطغيان والإستبداد أمام أيِّ تنوير أو تغيير نحو الأفضل وسطوة الرقابة الخانقة للفكر وكون البيئة محكومة برؤية أحادية مغلقة وقامعة لا مجال فيها لتداول الآراء ولا

لطرح الأفكار إن هذه كانت من أبرز الأسباب القوية التي تضافرت وحوّلت سيد قطب من مفكر حر ومثقف منفتح وناقد بصير إلى مفكر إسلامي ثائر وتكفيري فهو قد نشأ متدينا في أسرة متدينة وحين اغتيل حسن البنا رحمه الله كان يدرس الماجستير بأمريكا وقد لاحظ ترحيب الإعلام الغربي بهذا الإغتيال فأفزعه هذا الترحيب واستفزّه فعاد من أمريكا مُعْرضاً عن إكمال الدكتوراه وكان الصراع بين جماعة الأخوان المسلمين والعسكريين الانقلابيين قد بلغ ذروته فانضم إلى الإخوان وانصرف عن اهتماماته الفكرية والإبداعية والنقدية إلى الإهتمامات التنظيرية الدينية بقالبها الحركي السياسي وأظهر نَدَماً على انشغالاته السابقة وعزوفاً شديدا عن كل ما هو دنيوي أو هازل أو لا يخدم الإسلام واستغرق استغراقاً تاماً في الاتجاه الجديد وكان من نتائج ذلك ما هو معروف عنه ثم ما صارت إليه نهايته حيث أعدمه منطق القوة لكن يجب أن لا يغيب عن البال بأنه لولا أن البيئة العربية والإسلامية من الأصل مشبعة بعقيدة الولاء والبراء وبأفكار المفاصَلة وبالأفكار التكفيرية وأن لديها قابلية مفرطة للإنفعال بأي تعزيز لتلك الأفكار لما كان لمثل هذه الكتابات أثرٌ يذكر فالطوفان التكفيري الشائع الآن لا يعود إلى تلك الكتابات بقدر ما يعود إلى الثقافة المتخمة بهذه الأفكار على مر القرون فالذهنية العربية تختزن قابلية شديدة للمفاصَلة والمنابذة فتنظيرات التكفير والتبديع والتفسيق والمفاصلة والهجران والقطيعة كانت شائعة وممارسة بمنتهى الوضوح والقوة قبل سيد قطب فكتاباته في المفاصلة وفي الولاء والبراء ليست جديدة على العقل العربي والإسلامي وإنما هي امتدادٌ لثقافة الإستئصال العريقة الشائعة في البيئة وإنما الذي أعطاها هذا الحضور في الكتابات المعاصرة الناقدة هو أن المثقفين لا يقرأون كتُب

التكفيريين التقليديين بينما يقرأون لسيد قطب ويعود ذلك إلى أنه قبل أن يكون كاتبا إسلامياً كان أديبا وشاعراً وناقداً له شهرة واسعة بالإضافة إلى الجاذبية القوية التي تمتاز بها كتاباته فلغته جميلة وأسلوبه آسر ومعارفه عصرية ومعلوماته غزيرة وكتاباته زاخرة بالحيوية والتدفق إن هذه المزايا هي التي أعطته هذا البُعْد العصري فتوهَّم الناسُ أنه جاء بأفكار جديدة في المفاصلة والقطيعة والتكفير وفي الولاء والبراء ولكن يجب أن لا ننسى أن سيد قطب قد أُعدم منذ أربعين عاماً بينما أن الممارسات الإرهابية لم تظهر إلا بعد الإنخراط ميدانياً في الجهاد الأفغاني فالأفكار التكفيرية موجودة ثقافياً منذ عهد بعيد قبل سيد قطب أما الذي حوَّل تلك الأفكار إلى أفعال فهو التمرُّس بالقتال أثناء الجهاد الأفغاني والدخول ميدانياً في بيئة مشحونة بالقتل وملطَّخة بالدَّم ومفعمة بالحقد على الآخر والكراهية له والرغبة العارمة في استئصاله. . .

أما كيف راج عن سيد قطب بأنه هو صاحب الأفكار التكفيرية في هذا العصر؟ فيعود إلى أننا في البيئة العربية والإسلامية دائماً يكون الرواج للطرح الأول فإذا طرح أحدهم فكرة تناقلها الآخرون عنه دون تمحيص ومن ناحية أخرى فإن القلة من المثقفين الذين قرأوا سيد قطب لا يقرأون لغيره من التقليديين الذين يتوارثون أفكار التكفير منذ العصور الأولى مما جعلهم يتوهمون أنه هو مُنتج هذه الأفكار فأشاعوا عنه هذا الوهم وهم يجهلون التنظيرات القديمة في التكفير والتبديع والتفسيق والهجْر والقطيعة والمفاصَلة وهذا ابتسارٌ شديد للحقائق واختزالٌ مفرط لقضايا شديدة الخطورة كقضايا التكفير التي يجب أن نعرف منابعها بوضوح ودون اختزال إن من البديهي أن سيد قطب رحمه الله لم ينشئ

ثقافة جديدة ولم يخترع أفكاراً غير مألوفة فكتاباته ليست نشازاً على الثقافة العربية بل هو مثل غيره من العرب نتاج الثقافة المغلقة والرؤية الأحادية كما أنه نتاج ثقافة الإستبداد والتعذيب والمعتقلات إن التاريخ العربي سلسلة من الصراعات على السلطة والإستئثار وقمع الأفكار ومحاربة التعدُّدية وقد تعرَّض هو للسجن والقهر والتعذيب ثم انتهى إلى الإعدام فالبيئة التي عاش فيها محكومة بمنطق القوة ولا تعرف منطق العقل ولا منطق العدل ولا منطق الإعتدال إنها ثقافة لا تعرف التسامح ولم تتمرس باستيعاب الآخر وإنما هي ثقافة استئصالية قامعة لا تعرف الحوار ولا منطق الإقناع ولا العصيان المدني السلمي ولأن سيد قطب وُوْجِهَ بالقمع الفظيع ولأنه نشأ على الثقافة العربية الخصامية فإنه واجه ذلك القمع بأفكار المفاصَلة والعنف ذات العراقة التاريخية والواقعية في الثقافة العربية ولو تربى سيد قطب ضمن ثقافة منفتحة ومتسامحة وتقوم على منطق العقل ويتوفر فيها العدل وتتاح فيها التَّعدُّدية السياسية والفكرية ويمكن التعبير فيها عن الأراء دون خوف لبقي مفكراً حُراً ومثقفاً منفتحاً على الآخر ولكنه ووجه بالطغيان فثار عليه فهو نتاج بيئتة فالعوشز لا ينتج رُطَباً والطلح لا يثمر تفاحاً وإنما كل شيء نتاجه من جنسه وما يجب أن نكرر التأكيد عليه هو أن الأفكار التكفيرية واسعة الإنتشار قبل سيد قطب ولم تكن كتاباته هي سبب اندلاع الأعمال الإرهابية وإنما السبب الحقيقي هو أن الأفكار التكفيرية المنتشرة قديما وحديثا قد انتقلت من حيِّز الكلام والتحريض والمفاصلة في التعامل إلى حيز الفعل والتنفيذ والممارسة وسبب هذا الإنتقال من الأفكار إلى الأفعال هو الإستنفار الجهادي أثناء الإحتلال السوفييتي لأفغانستان ثم

معايشة القتال عملياً في الميدان فهذه المعايشة قد أزالت رهبة الموت وأعادت وهج البطولة وأحيت الروح القتالية التي تمجدها الثقافة العربية حتى في الجاهلية...

أما عن سؤالك الثاني الذي تقول فيه «ألا ترى أن قراءة كتب الفلسفة قد تجعل المسلم يفقد ثقته وإيمانه بدينه وربما يفقد إيمانه بالخالق سبحانه؟» فأجيب بأن الفلسفة تعمِّق الإيمان الذي عماده الفكر والفطنة فأكثر الناس يكون إيمانهم بالوراثة فإذا وُلد في أسرة مسيحية صار مسيحيا وإذا عاش في أسرة هندوسية نشأ هندوسياً وإذا وُلد في أسرة مسلمة صار مسلماً ليس هذا فحسب بل إن الفرد لا يرث الدين فقط وإنما يرث المذهب أو الطائفة أو الفرقة وبهذا يتضح أنه ليس له أي دور في الإختيار لذلك يخاف من الإطلاع على الأفكار المغايرة سواء كانت أفكاراً فلسفية أو غيرها لأنه لم يُقم إيمانه بنفسه وإنما برمجه به غيره وهذا الغير برمجه أبواه في سلسلة من التناسل الثقافي الذي يمتد في أعماق التاريخ أما الذي يكون مؤمناً بالله ومؤمناً بالإسلام بناء على التأمل العميق والبحث الجاد والإستقصاء الصادق فهذا تُعمِّق الفلسفة إيمانه وتمنحه الطمأنينة فهو يعرف ما لدى الآخرين فلا يخيفه أنْ يتعرَّض لأي فكر لأن إيمانه قد بناه على بصيرة ولم يتبرمج به دون اهتمام منه ولا مشاركة كما هي حال الكثيرين الذين يبرمجهم الآخرون فيخافون من الإطلاع على الفلسفة أو غيرها من المناهج والاتجاهات...

إن مسألة الإيمان بالله وبالدين وباليوم الآخر هي أهم قرار في حياة الإنسان فلا يجوز أن يتخذه لك الآخرون وإنما يجب أن تتخذه بنفسك وأن تجتهد إلى أقصى حدود الاجتهاد لمعرفة الحق والالتزام به إنه

القرار المصيري الأهم في حياتك فأقمْه على البحث والاستقصاء والإخلاص والجرءة ولا تَخَفْ على إيمانك إذا أقمته على بصيرة أما إذا كنت تخاف عليه فإنك غير واثق منه. . .

■ **يريد أن تعطيه توقيعا سريعا لكل من:**

١ ـ جامعة الدول العربية.

٢ ـ محمد عمارة.

٣ ـ الدكتور خالص جلبي.

٤ ـ د. غازي القصيبي.

٥ ـ حركة المقاومة الإسلامية حماس.

٦ ـ د. سلمان العودة.

٧ ـ د. حسن الهويمل.

٨ ـ فهمي هويدي.

٩ ـ منسوبوا الجامعات في المملكة؟

ـ ١ ـ جامعة الدول العربية: محكومة وليست حُرَّة أو حاكمة لنفسها فضلاً عن أن تكون حاكمة لغيرها بل تحكمها مواقف سياسية متنافرة لذلك لا يُنتظر منها سوى هذه الحالة البائسة ولو كانت منذ البدء مؤسسة ثقافية بدلاً من أن تكون مؤسسة سياسية لكانت أجدى فما زال العرب بحاجة إلى عمل مؤسّسي ضخم يتولى الترجمة من كل اللغات ويهيئ الأمة للتواصل مع العالم ويعمل على إعادة التكوين الثقافي ويقوم بنقل التجارب الناجحة في العالم في مجالات التنمية الثقافية والتعليمية والمهنية والإعلامية وكافة وسائل بناء الإنسان أما المؤسسة السياسية فستبقى مرتهنة بتناقضات السياسات القطرية. . .

٢ ـ د محمد عمارة: كان كاتبا ومفكراً تنويريًا ولكن استهوتْه النجومية والرواج فمال إلى استرضاء الدهماء وأصبح يروِّج لأوهام الكمال والاكتفاء والتميُز المطْلق ويشارك في تنمية عُقْدة المؤامرة وفي توسيع الفجوة بيننا وحضارة العصر وبذلك فهو يساهم في ترسيخ أسباب التخلف بعد أن كان من أنشط التنويريين!!!...

٣ ـ د خالص جلبي: مفكّرٌ مهمومٌ بقضايا الأمة لا هَمَّ له سوى البحث والقراءة والتأمل إنه يمقت العنف ويدعو للسّلم ويعشق العلم ويكره الجهل تخطف بصره عناوين الكتب الجديدة ويستمتع بالأفكار وهو شديد الشفافية والوضوح والصراحة والتلقائيه إلى درجة أنه لا يملك أي حس رقابي ذاتي لذلك قد يُطلق تصريحات مختصرة حادة قابلة لتفسيرات مزلزلة رغم صدق مسعاه وصفاء نيته فيسيء البعض فهمه ويُحْرَمون من فيض أفكاره لم أر في حياتي مثله في حب المعرفة وعشق الحقيقة واستثمار الوقت وتنظيم الأفكار والنفور من الهذر الفارغ...

٤ ـ د غازي القصيبي: هو نموذجٌ رائع على تعدُّد الإهتمامات وتنوع الإبداع وغزارة الإنتاج وخصوبة المواهب وسخاء العطاء وهو ليس فقط من المبدعين في الفكر والأدب ولكنه قائدٌ إداري من طراز فريد ويملك قدرات فذّة في التخطيط والعمل والإنجاز وهو ذو نزعة إنسانية فيّاضة إنه الإنسان الأروع إنه تشكيلة مدهشة من القدرات الزاخرة التي تفيض دون عناء في أي مجال يتجه إليه وهذا الفيضان التلقائي قد مكّنه من الإبداع بتنوع وغزارة ويُسْر ولكن سهولة الأداء الإبداعي عنده قد لا تستبقي منه شيئاً خالداً لأنه يفيض بغزارة وبسرعة في مجال الشعر أو المجال الروائي أو المجال الإداري أو في المقالات الخفيفة وربما أن

الوظيفة جَنَتْ عليه فبدَّدتْ طاقاته الإبداعية لقد تَرَكَ انجازات رائعة في كل المجالات التي منحها شيئاً من اهتمامه لكن لو حاول كبح هذا الانهمار التلقائي واعتمد التركيز لأنجز أعمالاً خالدة. . .

٥ ـ أما عن حركة حماس فإنها قد أعلَنَتْ أخيراً بأنها سوف تشارك في الانتخابات التشريعية الفلسطينية كما شاركت بالانتخابات البلدية وهذا تحوُّل مهم يدل على بدء مرحلة النُّضج السياسي والتعامل بواقعية والتخلي عن الخيالات التي لا تنفع في المجال الدنيوي وخصوصاً المجال السياسي وإذا لم تتراجع عن هذا القرار البراقماتي وواصلتْ المشاركة فإن هذا مؤذنٌ بالميلاد الحقيقي للدولة الفلسطينية وبدء مرحلة جديدة من الاستقرار والنمو والإسهام الحقيقي في تأسيس المجتمع المدني الفلسطيني والرضا بالتداول السلمي للسلطة وهذا كسبٌ عظيم للفلسطينيين وللأمة كلها ويقدِّم تجربة حضارية ناجحة يمكن أن تحتذيها الحركات الإسلامية في كل الأقطار ولكني أشك كثيراً في استمرار الإلتزام بهذا المسلك البراقماتي العقلاني لأن التكوين الفكري لحماس يتعارض مع هذا الاتجاه الجديد فإذا صمدت على الرؤية العقلانية فإن ذلك أشبه بالمعجزة. . .

إستدراك:

حصل هذا اللقاء قبل الانتخابات الفلسطينية وقبل فوز حماس ولكن عند إعداد هذا الكتاب للنشر كانت الأوضاع في فلسطين في أقصى درجات التأزُّم بين فتح وحماس إنها المعضلة المزمنة في الصراع على السلطة والاقتتال من أجلها والعجز عند التفاهم بين الأشقاء حين يختلفون على أبسط الأمور والاستهانة بالإنسان وتعريض حياته للخطر

وللتعاسة من أجل الإنفراد بالسلطة واحتكار القول والفعل!!!!إن دول أوربا تتحد رغم اختلاف اللغات والمذاهب والتاريخ والإمكانات والمستوى الحضاري إنها تتجاوز خلافاتها وتؤثر مصالح شعوبها أما الشعب الفلسطيني المشرّد فيقع ضحية الخصومة على السلطة بين قياداته. . .؟!!!!

٦ ـ د سلمان العودة: لو عاش في العصر الإسلامي الأول لكان إماماً إنه الأشد نضجا ووعياً ونشاطاً وإخلاصاً وقبولاً بين من يتحدثون عن الإسلام إنه يقوم بنشاط كثيف لخدمة الإسلام والأمة والوطن برؤية تغلب عليها الوسطية والاعتدال والأهم في مسيرته أن أفكاره تتطور بسرعة وأن مواقفه تقترب إلى النضج بوعي إنه الداعية المثالي والناشط النموذجي وهو ينشر رؤيته عن طريق اللقاءات التلفزيونية والكتابة الصحفية والمحاضرات وبواسطة موقعه على الانترنت (الإسلام اليوم) ويُصدر مجلة تحمل نفس العنوان والذي يتابع نشاطه سيلاحظ أنه انتقل من مرحلة الحماسة الفائرة إلى مرحلة الرؤية الأكثر نضجاً وأرى أنه الأكثر نفعاً للإسلام والمسلمين. . .

٧ـ د حسن الهويمل: لقد بنى نفسه بنفسه ورغم أنه يحمل الدكتوراه في الأدب إلا أنه علَّم ذاته واعتمد على جهده فهو لم ينتظم في الدراسة النظامية ولكنه أنجز هذا المشوار الطويل بمحض اهتمامه وحين أدرك مرادَه بالحصول على الدكتوراه انتقل إلى الاهتمام بالفكر العالمي فأصبح له قُراء كثيرون ومتابعون كثيرون ليس على المستوى المحلي وإنما على المستوى العربي. . .

٨ ـ فهمي هويدي: ينطبق عليه ما قلته عن د محمد عمارة فقد كان

كاتباً تنويريًا لكنه الآن يساير العامة فيُسهم في ترسيخ الفكر السطحي التلقائي وفي تضخيم عقدة المؤامرة وفي تعميق الفجوة مع الغرب عموماً ومع أمريكا خصوصاً وهذه بعض معضلاتنا الثقافية المستعصية. . .

٩ ـ أما عن منسوبي الجامعات في المملكة فلا يمكن إصدار حُكْم عام عليهم لكن القاعدة المهمة التي يجب أن لا تغيب عن بالنا أن الدراسة في التعليم العام أو التعليم العالي في أي مجتمع تكون محكومة بالثقافة السائدة فالتعليم محكومٌ وليس حاكما ومن المعلوم أنه بقدر ما يكون التعليم قائماً على المشاركة المفتوحة والتساؤلات الحرة يكون ناجحاً وبقدر ما يكون قائما على التلقين والإجابات الجاهزة يكون عقيماً ومُميتا للعقل فالأصل في الجامعات في العالم المزدهر أنها ملتقى لجدل الأفكار وخصوبة الأذهان وليست مدارس لإعطاء المعلومات. . .

■ أريد أن أعرف رأيك في تصنيف كل ذي رأي وفكر تحت مسميات مختلفة: ليبرالي علماني إسلامي وهابي؟

ـ ليس المهم التصنيف فحتى في أمريكا يوجد ليبراليون ومحافظون وأصنافٌ شتَّى من الاتجاهات وهم لا يستنكرون هذه التصنيفات ولكن المهم هو أن لا تحتكر الرأي فئةٌ واحدة وتمنع الآخرين من أن يعبِّروا عن آرائهم فإذا تكافأت فرص التعبير وتوفرتْ منابر التواصل بين كل الاتجاهات فلا ضرر من التصنيف إلا إذا كان التصنيف للتنقص والإحتقار والتهميش ومحاولة الاستئصال فالاختلاف سُنَّة كونية: «ولا يزالون مختلفين. . ولذلك خلقهم» فلولا الاختلاف لما تطورتْ الحضارة لكن الذي يجري في الثقافات المغلقة هو أن الاتجاه السائد

يحتكر الرأي ويسيطر على منابر التعبير ويهيمن على وسائل التواصل ويمنع غيره منها فإذا توفَّرتْ التعددية الفكرية وتحقَّق الانفتاح الثقافي فسوف ينقلب مضمون التصنيف من تبادل التحقير والتنابز بالألقاب إلى تبادل الإحترام وتلاقح الأفكار فالمعضلة ليست في التصنيف وإنما في احتكار أحد الاتجاهات لكل شيء وإقصاء كل المخالفين ومنع كل المغايرين أقل المغايرة من أن يُعَبِّروا عن آرائهم أو ينشروا قناعاتهم أو يعلنوا مواقفهم. . .

■ **يسأل كيف ينهض العرب وما هي الأولويات التي على العرب أن يبدأوا بها وأسئلة أخرى تتضح من الإجابة؟**

ـ نحن نتوهَّم أن تعميم التعليم يعطينا مقومات النهوض ويختصر أسباب الإزدهار ونتجاهل أن التعليم محكوم بالبيئة وليس حاكماً لها أما مفتاح الخروج من نفق التخلف فهو آلية النقد والمراجعة فالتعدُّدية الفكرية والانفتاح الثقافي وإنهاء احتكار الرأي هي مفاتيح الخروج من نفق التخلف فالحقيقة التي ما زالت غائبة عنا هو أننا ما زلنا نتوهم أن الحضارة المعاصرة امتدادٌ للحضارات القديمة ونريد أن نتعامل مع قيمها وإنجازاتها بنفس العقلية التي كانت سائدة في الحضارات القديمة ولم ندرك بأن الحضارة الحالية حضارة استثنائية قامت على الفكر الفلسفي وتميزت بتغيُّرات نوعية كثيرة سوف أفردها بكتاب كامل إن شاء الله وليس تعميم التعليم سوى واحد من هذه التغيرات النوعية بينما أننا في العالم العربي ما زلنا نتوهم أن تعميم التعليم يعطينا كل مزايا الحضارة المعاصرة وغَفَلْنا عن أن التعليم محكومٌ بالثقافة السائدة وليس حاكما لها فهي تستخدمه لتكريس رؤاها ومفاهيمها. . .

إن أهم ما يميز الحضارة المعاصرة أنها تقوم على آلية النقد والمراجعة والتصحيح والانفتاح الدائم على المستقبل كما أن من أهم مزاياها أنها حضارة إنسانية تحترم فردية الإنسان وتُنَميّ هذه الفردية وتعترف له بالحقوق وترفعه إلى مستوى المسؤولية وتلتزم له بحق المشاركة وفق قوانين منضبطة وليس بناء على نزوات متقلّبة. . .

إن الشرط المحوري للإفلات من قبضة التخلف هو التعدُّدية الفكرية والانفتاح الثقافي وإنهاء احتكار الرأي وتوفير تكافؤ الفرص في التفكير الحر والتعبير المستقل عن الرأي وفي استخدام منابر التواصل والوسائل الإعلامية. . .

أما المشكلات الأخرى الأُسرية والإجتماعية والاقتصادية والإدارية والتكنولوجية التي تسأل عنها فهي مشكلات فرعية فإذا انتهى الاحتكار وتكافأَتْ الفرص فإن هذه المشكلات الفرعية تتساقط تباعاً فالاحتكار الثقافي هو الحصن الجامع لمقوِّمات التخلف فإذا انفتح هذا الحصن تحرر العقل وتساقطتْ الحصون الفرعية للتخلف. . .

وينبغي أن نفرِّق تفريقاً نوعياً بين الإسلام والممارسات الاحتكارية التي تمارَس باسمه فالإسلام يقوم على أن المسؤولية الفردية قائمة على الاختيار الحر أما المُكْره فلا مسؤولية عليه ولا اختيار له. . .

أما سؤالك عن الفرق بين الحضارة الغربية بشقيها الفلسفي والتطبيقي وبين الحضارات القديمة فقد أفردتُ له بحثاً خاصاً بعنوان (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) ولستُ مع من يفرِّق بين الحضارة اليونانية والحضارة الغربية فهما حضارة واحدة فحضارة العصر هي امتدادٌ للحضارة اليونانية التي أنجبت الفكر الفلسفي الذي هو

المحرِّك الأساسي للتفكير والتطبيق في الحضارة المعاصرة وأفضَّل أن نسميها بشقيها (الحضارة الإنسانية) لأنها بجذرها اليوناني وتفريعاتها الغربية هي الحضارة الوحيدة التي اعترفتْ بالإنسان وطبَّقَتْ مبادئها واقعاً حيًا في حياته اليومية ولم تُرَدَّد حوله أقوالاً ومبادئ لا يجد لها صدى في واقعه اليومي. . .

إن الفكر الفلسفي اليوناني قد أطلق اشعاعاته في كل اتجاه فاستضاء الأوربيون بهذه الإشعاعات وظلوا ينمونها ويطورونها ويوسعون مجالات تأثيرها حتى أثمرت هذه الحضارة الإنسانية المدهشة. . .

إن الفكر الفلسفي هو مصدر كل الإنجازات الغربية القديمة والحديثة والمعاصرة فهو المحرِّك الأساسي لكل مجالات الفكر والعلم والنقد والأدب والتقنية والإقتصاد فالعقل البشري لا ينمو إلا بالنقد والتحدي والحراك والتنوع والممارسة وهذه لم يطلقها سوى الفكر الفلسفي فالنقد والجدل بين الأفكار والاتجاهات هو جوهر الفلسفة. . .

■ **هل الملابس تحولت إلى وسيلة للضبط؟ وهل التغيير السياسي يبدأ من الملابس؟**

ـ إن التمسك بالملابس مسألة شكلية ليس لها تأثير في مسار الحياة ولو غيَّرنا هذه الملابس فسوف نبقى كما كنا إن المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى قد غيَّرت ملابسها واستخدمتْ اللباس الغربي لكنها بقيتْ متخلفة بل أشد تخلُّفا مما كانت فهي في حالة تراجع دائم وليست فقط في حالة توقُّف فينبغي أن نفرق بين الجذور والقشور. . .

إن المجتمعات المزدهرة في الغرب واليابان تلتزم بطقوس غريبة في الملابس (والاتكيت) فانظر لباس القُضاه في الغرب وتمسكهم الشديد

بهذه الشكليات أو الالتزام في الغرب بألوان محدَّدة في الملابس حسب المواقف والمناسبات ومع ذلك فإن هذا الإلتزام الغريب لم يمنعهم من التقدم والإزدهار في كل المجالات فينبغي أن نركِّز على ضرورة التعدُّدية الفكرية والانفتاح الثقافي وإنهاء احتكار الفكر والرأي ونكف عن الاهتمام بالتفاصيل والشكليات. . .

■ ١ ـ لماذا لا يكون لك إجتماع أسبوعي على غرار الأحدية والخميسية؟

٢ ـ ما رأيك في الأندية الأدبية؟

٣ ـ ما رأيك في الوصاية الفكرية التي يتم فرضها؟

ـ إن اللقاءات في مجتمعنا حتى الآن ليست مجدية لأن الناس لم يعتادوا على الاستفادة من بعضهم فهم لايدركون قيمة المعرفة ولا قيمة الخبرة وإنما كل فرد يحاول أن يكون هو المتحدث فالكل مكتفٍ بما لدية ومعجب بنفسه حتى الذي لم يشغل نفسه لحظة واحدة بالبحث والتأمل لا يشعر بحاجته إلى أن يستفيد ممن قضوا أعمارهم في الإستقصاء بل إن الفارغين هم الأشد حرصاً على الاستئثار بالكلام. . .

لذلك فإن معظم الذين يحضرون مثل هذه اللقاءات الثقافية والفكرية لا يأتون إليها مستشكلين وبرغبة النقاش حول إشكالات تقلقهم وإنما تأتي أسئلتهم من مواقف مسبقة أو من وحي اللحظة وكيفما اتَّفَق لذلك لا تصلح مثل هذه الأسئلة التلقائية لإدارة حوارات منتجة. . .

أما عن الأندية الأدبية فهي كغيرها من المؤسسات المرتبطة بالسائد الثقافي فهي تقوم بالدور الذي أنشئت من أجله ومعلوم أن التنوير وجدل الأفكار لم يكن من أهداف إنشاء هذه النوادي. . .

أما سؤالك عن (الوصاية) الفكرية والثقافية ومَنْع الكتب واحتكار الرأي فإن هذه الوصاية هي التي أنجبتْ الأفكار التكفيرية والقطيعة وفرَّخَتْ شباب التفجير والهدم والقتْل الجماعي...

■ **ما هي علاقة الإستبداد السياسي على مدى التاريخ الإسلامي بالتخلف المتراكم؟**

- في العالم الإسلامي نحو ستين دولة أي أن دولهم تمثّل ثلث أعضاء الأمم المتحدة ومع ذلك فإن كل هذه الدول مجتمعة لا تعادل وزن دولة أوربية واحدة كألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا ولم تستطع أية دولة باستثناء ماليزيا ونسبيا تركيا أن ترتقي خطوة واحدة وتتزحزح من قعر التخلف الذي تستقر فيه وإذا بحثنا في سر انفراد ماليزيا بالازدهار فسوف نجد أنها البلد الإسلامي الوحيد الذي توفرت فيه التعددية الفكرية والسياسية والانفتاح الثقافي وتجاوزت مرحلة احتكار الرأي...

■ **ما هي أسباب الإنغلاق الثقافي؟**

- إن أية ثقافة مغلقة إذا كانت تملك القدرة على مداومة الإنغلاق وتستطيع قمع الرأي الآخر فإنها لن تتنازل عن احتكار الرأي ولكن إذا واجهت ضغوطاً تضطرها إلى شيء من التسامح فإنه لا خيار لها في قبول شيء من المهادنة على سبيل التكتيك وليس بوصفه موقفاً استراتيجيا طوعيًا فالانغلاق الثقافي واحتكار الرأي وإقصاء الآخرين هو الاستراتيجية الأساسية أما المهادنة وإرخاء القبضة فهو تكتيك اضطراري تتخذه بمنتهى الوعي لكنها مضطرة إليه وليست راغبة فيه وهو موقفٌ يتعارض تعارضاً مطلقا مع تكوينها الذهني والنفسي والأخلاقي والعاطفي غير أنها تلجأ إليه اضطراراً وبالقدر الذي لا يتجاوز حد الضرورة

القصوى في مداه الزمني والسلوكي فتعود بوعي وتصميم إلى إحكام القبضة في أقرب فرصة تتاح لها فليس من طبيعة الثقافة المغلقة أن تَغفل أو تلين بل هي دائماً شديدة الحراسة وقوية التحصين وبالغة التحفُّز ولا تسمح بفتح أية نافذة للضوء إلا عند الاضطرار الشديد وتبقى متأهبة لإعادة إغلاقها لأول بادرة تسمح لها بذلك...

ولكن هذا التأهب الدائم للإغلاق والتحفُّز المستمر للإقصاء ليس في صالح الإسلام ولا السياسة ولا الثقافة ولا المجتمع ولا الأفراد وإنما هو ميراثٌ قديم أبقاه التناسل الثقافي المغلق...

■ **هل تعتقد أن مشكلة المرأة تنحصر بقيادة السيارة ولا يوجد عندها مشاكل أخرى؟**

- إذا حُرم الإنسان من حق الاختيار فقد حُرم من إنسانيته وسُلب معنى وجوده سواء كان رجلاً أم امرأة والإنسان العربي عموماً ما زال مسلوب الفردية مع أنه مكلَّف من الله بوصفه فرداً: «وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً» و«كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» فالمسؤولية مبنية على حق الاختيار أما المُكْرَه فلا مسؤولية عليه والحساب يكون للناس فرداً فرداً وليس بشكل جماعي أما الواقع في المجتمعات العربية فهو أن المعاناة ليست مقصورة على المرأة وإنما الرجل مطموس الفردية فوضعه لا يختلف كثيراً عن وضع المرأة إلا أنه من غير حجاب...

صحيحٌ أن مشكلة المرأة مضاعفة فالرجل المقموع يقمعها لكن قضيتها ليست هي أن يتاح لها أن تقود السيارة أو يستمر منعها من القيادة فالمشكلة أعَمُّ من ذلك بكثير سواء بالنسبة للرجل أو المرأة إنها مشكلة ثقافية فإذا توفَّرتْ التعددية الفكرية والانفتاح الثقافي وانتهت الوصاية

وتوقّف قمع الرأي الآخر فسوف تنحل المشكلات الناجمة عن هذا الاحتكار المطلق. . .

■ **كيف تجاهلك الإعلام وما هو السبب؟**

ـ إن الإعلام لم يتجاهلني وإنما أنا الذي كنت في السابق عازفاً عنه لكنني الآن أصبحت أرى أنه لا بد من المشاركة الإعلامية فوسائل الإعلام هي منابر الرأي وما دام أنها قد بدأت تتيح فرصة للرأي الآخر فإنني قد بدأت استجيب لهذا التوجُّه الجديد للإسهام بجدل الأفكار من أجل أن يتاح للناس المقارنة واستخلاص الحقيقة. . .

■ **سائلٌ يذكُرُ أنه تنقّل كثيراً وجرّب التيارات الإسلامية وأنه ما زال يبحث عن الطريق الصحيح؟**

ـ أهنئك على امتلاك قدرة المراجعة والفحص فهذه الرحلة الطويلة في البحث عن الحق وهذا التنقُّل من اتجاه إلى آخر ضمن دائرة الإسلام يشهد بأنك تملك وعياً ناميا وإدراكا محلِّلا. . .

ورحلتك تتناسب مع نموك العمري والمعرفي فالتشدد عند الإنسان يكون في فترة الشباب المبكر ثم يكتشف إذا كان ذكيا أن التشدُّد يتناقض مع مبدأ الرحمة ومبادئ أخرى عظيمة يحث عليها الإسلام فَتَحْدُثُ عنده أزمة فإذا كان عميق التدين فإنه بعد أن يكتشف خطأ التشدُّد يميل إلى الصفاء الروحي والتهذيب الذاتي فيجد شيئياً من ذلك في التصوف ولكنه بعد أن يُمضي فيه شوطاً طويلاً يكتشف أنه لا يتفق مع الفاعلية الإنسانية التي يحضُّ عليها الإسلام فيبحث عن مخرج يحفظ له دينه وصفاء إيمانه فيجد عند التبليغيين ما يجمع بين جوهر التصوف وهو الصفاء الروحي والمتعة الإيمانية وبين التجوال والحركة والنشاط التبليغي الذي يتصف به

نشاط جماعة التبليغ لكن الإنسان الذكي يكتشف أن هذه الجماعة تهتم بالفرد وبخلاصه الأخروي فقط وأنه ليس لها رؤية حول الأوضاع الإجتماعية والإسلامية والإنسانية فهي لا تهتم بالمجتمع ككل وإنما تحصر همها بالصلاح الشخصي للفرد وتُركِّز على الجانب الأخروي فهي مهتمة بما بعد الموت وليست معنية بإصلاح الحياة الدنيوية إلا بمقدار ما يكون العمل من العبادات والقُرُبات الدينية كما أن سلوك هذه الجماعة تتخلله بعض المظاهر الخرافية لذلك يبحث الإنسان الواعي عن منهج أفضل يجمع مزايا التمسك بالدين وصفاء الإيمان وطمأنينة النفس دون أن يخلطه بالخرافة بالإضافة إلى مزايا النشاط والحركة والإهتمام بالشأن العام فيتوهَّم أنه يجد ذلك عند اتجاهات أخرى ولكنه في كل مرة يكتشف نقائص من نوع آخر وهكذا يستمر في التنقل لأنه لن يجد اتجاهاً سالماً من النقائص وقد يدفعه اليأس إلى الانخراط في اتجاهات العنف التي تُدين كل الاتجاهات الأخرى وتدعو إلى القطيعة والتكفير والهجْر والمناجزة أو قد يدفعه اليأس إلى التوقف عن البحث واللجوء إلى السلبية واللامبالاة ويعلن عمليًا أنه لا جدوى من أي تفكير أو عمل وسواء دَفَعَه اليأس إلى الحالة الأولى أو الثانية فإن النتيجة إذا اتسع نطاقها تُمَثِّل كارثة على الفرد والمجتمع والدين والأمة وسؤالك يدل على أنك لم تيأس ولم تقع في أحد الخطئين الكبيرين وإنما مازلت تبحث وتستشير وتطلب الهداية من الله...

لذلك نقول إن الإسلام هو الحل ولكن ليس بالصورة التي يراها التحريريون أو الأخوان المسلمون أو الطالبانيون أو المتشدِّدون المنغلقون أو السروريون أو الجاميون أو الصوفيون أو غيرهم ممن يركِّزون على جانب واحد وينسون الجوانب الأخرى التي قد لا تقل

أهمية أو يستغرقون في التفاصيل ويهملون المبادئ الأساسية مثل مبدأ العدل ومبدأ المساواة ومبدأ حق الاختيار ومبدأ الشفافية. . .

إن في الإسلام كفاية من حيث المبادئ والتعاليم لكن الممارسات التي قامت وعاشتْ باسمه جَنَتْ عليه وعلى المسلمين لذلك لن يكون للإسلام انتشار وازدهار وفاعلية إلا إذا وعينا مبادئه العامة وتعاليمه الأساسية ومقاصده الجوهرية ثم استخدَمْنا من الآليات أنضج ما توصَّل إليه البشر لتجسيد هذه المبادئ والتعاليم لتكون واقعاً حياً يعيشه الناس وينعمون بمباهجه وليس أفضل من البيئة الليبرالية لإشاعة مبادئ الإسلام العظيمة وتجسيد تعاليمه الرائعة. . .

إن الليبرالية ليست ديناً وليست بديلاً عن الدين وإنما هي مناخٌ وبيئة وآليات وتقنيات يتاح فيها أفضل تطبيق ممكن للتعاليم العظيمة أيًا كان مصدر هذه التعاليم ولو أخذ المسلمون بالليبرالية واستخدموا الآليات التي ابتكرتها مثل الديموقراطية وتوزيع السلطات وحرية الإعلام والشفافية وبناء التفاضل على الكفاءة وليس على الوراثة وغير ذلك من الآليات التي تخدم المبادئ وتضمن لها التطبيق السليم وتمنع الحيف والتحيز وتُنهي الإحتكار لخدموا الإسلام ونمَّوا حياتهم في كل الإتجاهات. . .

إن الليبرالية آلية للتعامل العادل وهي تقوم على احترام الإنسان وتعتمد الحرية وتقدِّر النزعة الفردية وتتسع لكل الاتجاهات ولجميع الرؤى ولا تقبل الانغلاق ولا احتكار الرأي ولا تُقرُّ تهميش أي طرف وإنما تتيح فُرَصاً متكافئة لكل الفئات وتسمح بالتنافس بين كل الأفكار والاتجاهات. . .

إن المناخ الثقافي المفتوح يُنهي الحاجة إلى الاخفاء ويستبعد النفاق فالناس يعلنون عن آرائهم ويحدِّدون مواقفهم دون خوف من أي ضرر مادي أو معنوي وبذلك يكون الإسلام هو الحل كمبادئ وتعاليم وتكون الليبرالية هي الحل كوسيلة وأداة. . .

أما عن كتبي المطبوعة فإن المنتدى أشار إليها في بداية اللقاء كجزء من التعريف بالضيف ولكنها قد نَفَدَتْ من المكتبات ولن تجدها معروضة ولست راغباً في إعادة طباعتها لأني أريد أن أُفرغ كل أفكاري وكل ما توصّلت إليه بشأن بنية التخلف وموانع النهوض وبنية الجهل المركَّب وبشأن العلم والتعليم والأداء العلمي والعملي والعقل: إمكاناته ونقائصة وعبقرية الاهتمام وكل ما يشغلني في مشروع واحد مكوَّن من عدد من الكتب أو عدد من الأجزاء يمكن قراءة كل واحد منها بشكل منفصل لمن لا يريد الإلمام بكل المشروع أو يقرؤها مجتمعة لمن يرغب في مشاركتي في كل ما توصَّلْتُ إليه. . .

■ **يسأل عن دور المثقفين ولماذا ما زال أثرهم ضعيفاً. .؟**

- إن المجتمعات العربية مجتمعات تُسَيِّرها العاطفة وتستهويها الشعارات ففي الحقبة التي سبقتْ كارثة حزيران عام ١٩٦٧ استولتْ الشعارات القومية والناصرية والبعثية والماركسية على عقول الناس وحين وقَعَتْ الكارثةُ اكتشفوا فراغ تلك الشعارات فعادوا إلى أحضان الإسلام لكنهم لم يعودوا بعقلية ناضجة وقادرة على القراءة الموضوعية للأحداث والأوضاع والأشخاص وإنما عادوا بالعقلية المأسورة بالشعارات وأخذوا يسمعون من المتسرعين تحليلات سطحية عن أسباب تخلف المسلمين وتجري تعبئتهم بكره كل ما هو غربي مع أننا نعيش في ظل حضارة

الغرب ولا بديل عنها فنحن حتى حين نريد شَتْم الغرب أو محاربته لا نستطيع ذلك إلا بالطائرات التي اخترعها وبالأسلحة التي أنجزها وبمكبرات الصوت التي ابتكرها وبالاذاعات والفضائيات التي أوجدها وباستخدام كل أنواع مخترعاته وعلومه وتقنياته ولكن هيمنة الرأي الأوحد أبقتْ الناس لا يسمعون سوى هذا الرأي المهيمن الذي تؤيد كل الوقائع خطأه مما رسَّخ الخلل الثقافي وجعل الناس ينفرون من المثقفين الليبراليين ولا يتيحون لأنفسهم سماع ما تقوله هذه الفئة المهمَّشة بل ولا سماع أي رأي يخالف السائد حتى لو كان يتناول مسألة فرعية من داخل السائد نفسه. . .

إن عقول الناس تتشكَّل بالثقافة السائدة لذلك لا يكونون محايدين في تقييم هذه الثقافة بل يرون أن مَن ينتقدها ينتقد عقولهم وأنه يعتدي عليهم ويستهين بهم ويُسَفِّه أحلامهم وهذه معضلة إنسانية كبرى أما حل هذه المعضلة فليس بالسهولة التي يتصورها البعض بل هي من اعقد المعضلات الإنسانية لأن الإنسان لا يولد بعقل ناجز وإنما يولد بقابلية لأي تشكيل فالثقافات هي قوالب العقول أما محاولة تغيير البرمجة أو القولبة فهي إعادة تشكيل بقالب جديد مغاير لما هو سائد ومن هنا تأتي الصعوبة البالغة فمن طبيعة العقل الإنساني أنه يتشكل بالأسبق إليه وبهذا الأسبق تتقولب الذات فإعادة البرمجة هي إعادة لتكوين الذات!!. . .

أما عن السؤال الثاني فإن المفكرين والمثقفين لم يعزلوا أنفسهم في أبراج عاجية وإنما عزلهم المجتمع الذي يتشكَّك في نواياهم ويخاف من أفكارهم ويتواصى بالبُعْد عنهم ويحذِّر منهم ويدعو إلى عدم الاستماع إليهم ويمنع تداول كتبهم ويحرص على حرمانهم من المنابر المتاحة

لغيرهم وهذا الموقف من المثقفين والمجدِّدين والمصلحين ليس جديداً على الثقافات السائدة فما من نبي إلا حورب وأوذي وحوصر لحجب رسالته فالقوى السائدة في كل زمان ومكان ترى في التجديد والإصلاح تهديداً للمكانة المكتسبة والنفوذ المستقر لذلك تحرص هذه القوى على أن يبقى كل شيء على ما هو عليه...

أما عن السؤال الثالث فإن عقول الناس تبقى مبرمجة بالسائد ومغتبطة بهذه البرمجة ومستميتة في الدفاع عنها حتى يتاح لها أن تسمع الحقائق المغايرة وتطلع على الأفكار المختلفة وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توفَّرتْ التعدُّدية الفكرية والانفتاح الثقافي وانتهى الاحتكار المذهبي...

إن من حق الثقافة السائدة أن تُعَبِّر عن نفسها وتعلن مواقفها وتدعو إلى رؤيتها وتروِّج أفكارها لكن بالمقابل يجب أن يتاح هذا الحق لكل الفئات فإذا تنافست الأفكار انكشف الزيف وتعرَّى المطمور وتمكن الناس من الاختيار الحر...

■ **ألا ترى معي أن التغيير الثقافي يتحكم به السياسي الذي يمسك بكل الخيوط ويديرها؟**

- ما من طرف مهيمن سواء كان طرفاً ثقافياً أم سياسيا أم اقتصاديا أم غيره إلا ويريد أن تقوى هيمنته وطبقاً لذلك فإنه يستخدم كل الوسائل المتاحة لتوطيد هذه الهيمنة ومحاربة كل ما يتوهَّم أنه يتعارض معها...

وفي المجتمعات المتخلفة عموماً والعربية خصوصاً تسيطر أيديولوجيا السلطة ولا تتاح فرصة للرأي الآخر.. نجد ذلك في عراق صدام وسوريا الأسد ومصر عبد الناصر وليبيا القذافي وتونس زين

العابدين وجزائر بومدين فالسلطة السياسية في المجتمعات العربية تهيمن على كل شيء وتملك كل شيء فبيدها الإعلام ووسائله ومنابره ومؤسساته وبيدها التعليم ومناهجه ومحتوياته وتحت تصرفها الثقافة ومؤسساتها وتحديد مساراتها كما أنها تملك مصادر الرزق فأغلب المتعلمين في البلدان العربية موظفون في الأجهزة الرسمية بسبب محدودية مجالات التوظيف خارجها وحتى المفتي وشيخ الأزهر وأعضاء هيئات الافتاء ورؤساء الجامعات ورؤساء تحرير الصحف والمسؤولين عن المنابر والمنتديات ورجال القضاء وغيرهم من ذوي التأثير يجري تعيينهم بمرسوم جمهوري وبسبب هذه السيطرة المطلقة تتحكَّم السلطة السياسية بكل شيء في العالم العربي كله...

لكن الوضع الآن قد تغيَّر نسبيا فالثقافة العالمية أخذت تدخل على الناس في بيوتهم عبر الفضائيات والانترنت فلم يَعُدْ بإمكان السلطة الثقافية أو السياسية أن تتحكَّم بمصادر المعرفة لكن الشعوب المبرمجة تحتاج إلى بعض الوقت لأن هذه البرمجة قد خَطَفَتْ العقول واحتلتْ العواطف وحدَّدت القيم وليس من السهل استرداد العقل بعد خطفه ولا تحرير العواطف بعد احتلالها ولا تغيير القيم بعد رسوخها فالمهمة ليست سهلة والمعضلة كبيرة ولكن الأمل بالله أكبر...

■ **لماذا المفكر والمثقف السعودي لم يثبت وجوده على الساحة السعودية وتركوها إلى فئة لا تملك من الثقافة غير اسمها؟**

- إن المثقف العربي لم يترك الساحة اختياراً وإنما الساحة مغلقة أمامه فلا تتاح له المنابر ووسائل الإعلام وليس أمام المثقف سوى أن يكتب لكن المجتمع العربي لا يقرأ فالناس في المجتمعات العربية

يعتمدون في تكوين ثقافتهم على ثقافة المشافهة والسماع فهم يسمعون الإذاعات ويشاهدون التلفزيونات وينصتون للخُطب ويستغرقون في أحاديث المجالس وهذه هي مصادر ثقافة أكثر الناس في المجتمعات العربية أما القراءة الجادة فلم يعتادوا عليها وليست من مقومات تكوينهم الثقافي لذلك يبقى المثقف العربي غريباً وغير مُؤَثِّر لأن الثقافة الجادة المقروءة هي وسيلته الوحيدة المتاحة وهي بضاعة كاسدة في المجتمعات العربية. . .

■ **من تقرأ له من السعوديين من الرجال والنساء وأرجو أن لا تتحرج من ذكر الأسماء بأي حجة؟**

ـ لا أواضب على قراءة كاتب بعينه من السعوديين ولا غيرهم وإنما استعرض الجرائد فإذا رأيت عنواناً لافتاً قرأته دون التركيز على أسماء بعينها لكنني أجد شيئاً يستحق القراءة عند تركي السديري ومحمد العلي وعبد الله بخيت ويوسف الكويليت وعبد الواحد الحميد وزياد الدريس ومعجب الزهراني وفهد الأحمدي وعبد الله الغذامي ومحمد المحمود وجاسر الحربش ويحي الأمير وعبد الله باجبير وحسناء القنيعير وعبد الله الفوزان وقينان الغامدي ومشاري الذايدي وهاشم الجحدلي وتركي الحمد وغازي القصيبي وعلي الموسى وعبد الله القفاري وأحمد عائل فقيهي وعلي العميم وعابد خزندار وأميمة الخميس ولطيفة الشعلان وناهد باشطح وندى الطاسان وشريفة الشملان وثريا الشهري وعبد العزيز الخضر وإبراهيم التركي وحمزة المزيني وجمال خاشقجي وعبد الله مناع وحسن بافقيه ومحمد العوين وعبد الله الجعيثن وصالح الشيحي ومحمد محفوظ وحسن الصفار وزكي الميلاد وأحمد العرفج

وعبد الوهاب الفايز وغيرهم كثيرون فلستُ بصدد الحصر وإنما أوردتُ ما جرى به القلم دون قصد الترتيب ولا محاولة التذكُّر والاستقصاء وقد أكون قد أغفلتُ أحبَّ الكُتَّاب إليَّ فهذه الأسماء نماذج ممن أقرأ لهم حين أجد لديهم ما يستحق أن يُقرأ مع ملاحظة أن الكاتب المقروء لا يكون متألقاً دائماً في كل ما يكتب وإنما يتألق أحياناً ويخبو أحياناً أخرى وحتى الكُتَّاب المنطفئين قد تجد أحياناً لدى أحدهم إشراقات استثنائية إما لأن الموضوع طريف أو على درجة كبيرة من الأهمية أو لأنه أعطاه من الإهتمام والعناية ما ارتقى به إلى مستوى التألُّق. . .

كما أقرأ للروائيين السعوديين مثل عبده خال وإبراهيم الحميدان ويوسف المحيميد وغازي القصيبي وتركي الحمد ومحمد علوان وأحمد أبو دهمان ورجاء عالم وزينب الحفني وغيرهم ومن أقْدم ما قرأته من روايات لكاتب سعودي: (يوميات مجنون) و(أبو زامل) لأحمد السباعي رحمه الله. . .

■ **أراد أحد الأشخاص افتتاح معهد لتعليم الفلسفة وطلب منك الآتي اقترح منهجا لتدريس الفلسفة من حيث الكتب وعلى مراحل طريقة القراءة في الكتب؟**

ـ إن هذا المعهد المتخيَّل للفلسفة بل إن تدريس الفلسفة في كل الجامعات وفي المرحلة الثانوية مطلبٌ شديد الإلحاح لكن بقدر إلحاح الحاجة إليه يكون بُعْد احتمال وجوده وهو بُعْدٌ يقترب من درجة الإستحالة فالعقل العربي عقلٌ أيديولوجي عاطفي وغارقٌ في عشق اللغة ومأخوذٌ برنين الألفاظ وسحر البلاغة فهو ينتشي بالهندسة اللغوية ويطرب للشعر العاطفي ويستهويه الإيقاع وتثيره الخطب الرنانة ويسلب ذاته التحريض الأيديولوجي. . .

أما لذَّة المعرفة ومغامرات العقل ومباهج الاكتشاف وعشق الحقيقة والاستمتاع بالعلم والعناية بالمفاهيم وترويض العاطفة ومراجعة الأفكار والتشكُّك بالشعارات ونقد الأوضاع غير السوية ووضع القيم المألوفة موضع التحليل والمساءلة فهي كلها أمورٌ لم يُجَرَّبها العقل العربي خلال تاريخه كله وليس من المحتمل أن يدرك قيمتها ما دام أنه أمضى كل هذه الأزمان وهو يرفضها ويوصد الأبواب دونها ويغلق النوافذ عن نسماتها ويُغَطِّي بصره حتى لا يرى إشعاعاتها إنه عقلٌ يصرُّ على الثبات ويرفض التقدُّم ويتمسك بالقديم لمجرد قدمه ويأبى التغيُّر مهما كانت الأحداث والبراهين تؤكد ضرورته. . .

وما دام أنه يستحيل افتتاح المعهد الذي تتخيَّله كما يستحيل تدريس الفلسفة فإنني أنصح الراغبين في فهم الفكر الفلسفي أن يقرأوا أوَّلا تاريخ الفلسفة من خلال قراءة أفكار أعلامها ابتداء بطاليس ومروراً بالمعلمين المتجولين وسقراط وافلاطون وأرسطو وبيكون وديكارت واسبينوزا وديفدهيوم واستيورات ميل ولوك وبيرك وكانْت وهيجل وبرتراند راسل وكارل بوبر وميشيل فوكو وباشلار وجون ديوي ووليم جيمس وغيرهم من كبار الفلاسفة وكذلك كبار المفكرين من أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم وبذلك يستطيع القارئ أن يعرف كيف بدأت الأفكار الفلسفية وكيف نمت وكيف تطورت وما هي التحولات الكبرى التي طرأتْ عليها وكيف بلغت ما بلغتْه من تشعُّب وكيف صارت الأفكار الفلسفية واقعًا حيًا يوميًا يعيشه الناس في مجتمعات الغرب في كل جوانب الحياة. . .

إن الفكر النقدي واكتشاف (الديالكتيك) واستخدامه بوعي وفاعلية

على أوسع نطاق في كل مجالات الفكر والفعل هو أهم الانجازات الفلسفية فهذا الفكر هو الذي فَتَح آفاق العقل الغربي وهو الذي منحه هذه الآلية المدهشة في المراجعة الدائمة والتدارك المستمر والتصحيح المتلاحق والنمو الباهر الذي لا يعرف التراجع ولا التوقف ولا الإبطاء...

■ **لماذا لا يقوم السيد إبراهيم البليهي بالحديث إلى المجتمع المغيَّب تحت إسم مستعار يستطيع من خلاله أن يشفي غليل المجتمع المتعطش للمعرفة بعد حرمانه منها دهوراً؟**

- ليس لديَّ ما أخفيه فلست بحاجة إلى إخفاء اسمي والكتابة باسم مستعار فمنذ أن توفَّر هذا الهامش النسبي من حرية التعبير وأنا أكتب بوضوح وصراحة فالمعضلة الآن ليست فقط في أنك لا تستطيع أن تكتب ما لديك وإنما الإعضال الحقيقي أن العرب لا يقرأون فهم يعتمدون على ثقافة المشافهة والسماع وإذا قرأوا فإنهم لا يهتمون إلا بما يزكي ثقافتهم ويشيد بعاداتهم ويُمَجِّد قيمهم ويكرر التبجيل والتفخيم لتاريخهم والتعظيم الشديد لأسلافهم أما أن يقرأوا النقد الذي يحلِّل هذه الأوهام ويحاول أن يضع الأمور كما هي دون تزويق فإنه يقابَل بالرفض والتشكيك والتخوين والمقاطعة إن أكثر الكُتَّاب العرب جرأة قد لا يُطبع من كتابه أكثر من ثلاثة آلاف نسخة تظل حبيسة أرفف المكتبات أو مخازن الكتب بينما مثله في الغرب يَطْبَعون من كتبهم ملايين النسخ فالكُتُب الفكرية عند العرب لو وُضعتْ على الأرصفة لما وجدتْ من يقرؤها فالأفكار هي أرخص الأشياء عند العرب وهم أزهد الخلق بها...

ولأهمية المعرفة في الغرب فإنهم يعتبرون اختراع المطبعة من المنعطفات الحاسمة في حياتهم وفي تاريخهم فالقراءة من أهم مشاغلهم اليومية ومن أكبر وسائل التسلية وأوسع أدوات المتعة كما أن للمعرفة عندهم قيمة ذاتية لا تقلُّ عن قيمة ما تجلبه من منافع مادية. . .

ولو كان اختراع المطبعة حصل في المجتمع العربي لمرَّ الاختراع دون أن يفطن أحدٌ لأهميته لأن العرب حتى بعد التطورات الهائلة التي طرأتْ على وسائل الطباعة والنشر ما زالوا يجهلون مباهج العقل ولم يكتشفوا متعة القراءة ولم يتعلقوا بالمعرفة لذاتها فهم لا يقرؤون إلا إذا اضطروا إلى ذلك اضطراراً من أجل الحصول على شهادة دراسية تكون مدخلاً وظيفيا للحصول على مصدر ثابت للرزق وتُحقق لهم ألقاباً زاهية تبرر لهم الانتفاش الفارغ وتوفر لهم وجاهة اجتماعية يتقدمون بها الصفوف وينالون بها المراكز العليا فالعرب تهمهم المظاهر ولا يعنيهم المضمون ولا فرق عندهم بين أن تكون الدكْترة عن مراجعة كتاب قديم والمطابقة فقط بين نسختين أو أكثر من نُسَخِه المخطوطة أو المطبوعة والحصول على الدكتوراه بهذا العمل البسيط باسم (تحقيق ودراسة!!) أو باسم (تحقيق) فقط وبهذا يحصل على اللقب البرَّاق إنه بهذا الجهد الذي لا يدل على أية مقدرة علمية يقارَن مع من كانت رسالته للدكتوراه في الفيزياء النووية في أعرق جامعات الغرب فكلها دكْترة فالمهم هو اللقب أما المضمون فلا أهمية له. . .

وحتى دارس الفيزياء لا تنتزعه معارفه الفيزيائية من البرمجة الثقافية الراسخة إننا مازلنا نجهل بان الإنسان العربي لا يدخل المدرسة إلا بعد أن تكتمل برمجة عقله ووجدانه وبعد أن تتحدَّدَ قيمه ومجالات اهتمامه

ونغفل عن أن التعليم في المجتمعات العربية ليس منتدى للنقاش والحوار والأخذ والعطاء وإنما هو مكانٌ للتلقين وترسيخ البرمجة وتأكيد سلطة المعلِّم وسلطة المجتمع وتأكيد هوان الفرد واعتباره وسيلة لا غاية...

وبعد استحكام هذه البرمجة يصبح الفرد مأخوذاً عن ذاته فحتى لو ذهب إلى الغرب وحصل على أعلى الشهادات في أدق العلوم ومن أرقى الجامعات الغربية فسوف يعود كما ذهب في طريقة تفكيره وفي عاداته الذهنية وفي منظومة قيمه فالعقل يحتله الأسبق إليه أما المعلومات التي تطرأ عليه بعد ذلك فتبقى في ملفات الذاكرة معزولة عن البنية الذهنية والأخلاقية والعاطفية...

لقاء منتدى الشبكة الليبرالية ـ الإنترنت

لقد استعرضت الأسئلة والمقترحات التي قدَّمها الأخوة في المنتدى ووجدتها كلها تستحق المناقشة:

أجيب بأن التعليم تابعٌ للثقافة السائدة وناتجٌ من نواتجها وليس صانعاً لها فمهما جرى من إصلاحات للتعليم فلن تكون هذه الاصلاحات فاعلة إلا إذا جاءت ضمن توجُّه عام يستهدف إحداث تغيير بنيوي في الثقافة السائدة وهذا يعني إعادة تكوين الثقافة التي تشكَّلَت بها العقول وتحدَّدت بها القيم وانطبع بها السلوك وقامت على أساسها مؤسسات المجتمع وحركته الدائرية...

إن مفتاح الإنطلاق هو اعتماد آليات النقد والمراجعة لكل شيء والتخلص من الإنغلاق الثقافي والإنتقال من أوهام الكمال إلى الإعتراف بنقائص الذات والسعي الحثيث لبنائها بالعلم والعمل والإيمان والنقد ونقد النقد واستثمار كل العقول وتنمية مهارات الفكر والفعل والإهتمام بالحقيقة الموضوعية وبهذا ينهض الإنسان ويتجدَّد الفكر وتزدهر الحياة...

إن كل خلل في التعليم أو الإعلام أو المؤسسات ناتجٌ عن الخلل الثقافي البنيوي الذي يعيشه كل العرب منذ أزمان سحيقة فطريقة التفكير ومنظومة القيم وأسلوب الحياة هي التي تحدِّد مسيرة المجتمعات وتصنع أوضاعها ومهما جرى من إصلاحات فإنها لن تكون مجدية إلا إذا صاحبها انفتاحٌ حقيقي على كل الآفاق فتوفرت الشفافية والوضوح والمصارحة والمواجهة المتكافئة بين كل الأفكار والآراء ومختلف الاتجاهات فالحقائق لا تنجلي إلا بالتمحيص والمراجعة والنقد والإرتقاء إلى مستوى الموضوعية وأن يدرك كل فرد مهما عَلَتْ مكانته العلمية أو السياسية أو الإجتماعية بأن للآخرين عقولاً يفكرون بها ومواقف يرونها جديرة بالإحترام والتمسُّك. . .

أما البيروقراطية الثقيلة والفساد الإداري والمحسوبية وغيرها من الظواهر الطافية على سطح المجتمعات العربية فما هي إلا أعراض لمرض عضال مزمن وهو الإنغلاق الثقافي والاستبداد السياسي والخواء الأخلاقي ولا يمكن التخلص من أعراض هذا المرض إلا بالشفاء من المرض ذاته باعتماد آليات النقد الصريح الذي تتكافأ فيه الفرص والوسائل والمواجهة السلمية لكل الاتجاهات. . .

أما عن أثر الصحراء في صياغة ثقافتنا وتشكيل عقولنا وتكوين أخلاقنا فهو أَثَرٌ قوي بل حاسم فَجَدْبُ البيئة يؤدي إلى جدب الثقافة فكل ثقافة تستمد عناصرها ومكوِّناتها من الواقع. . .

أما عن الحراك الإجتماعي والثقافي في المملكة فإنني لم ألحظ ما يمكن أن يوصف بأنه حراك باستثناء الحراك الإقتصادي النسبي أما الجوانب الأخرى فما زالت كما كانت. . .

كما أنه لا يوجد تيارٌ ليبرالي ولا حركة ليبرالية وإنما يوجد أفراد ينادون بالممارسة الليبرالية وهم في الغالب ملتزمون بالقيم الدينية والوطنية وينادون بالتعدُّدية الثقافية ويؤكدون على أهمية الحرية الفكرية ويطالبون بتوفير فرص متكافئة لكل شرائح المجتمع لتعبِّر عن نفسها بحرية وأمان ضمن ثوابت الدين وإطار الوطن. . .

ولا بد من إزالة اللبس الذي أصاب مفهوم الليبرالية في الثقافة العربية فالليبرالية جرى تشويهها باسم الدين مع أنها هي أفضل المناخات لخدمة الإسلام وتوطيد مبادئه في العدالة والمساواة والصدق والوضوح وتحقيق الإزدهار للإسلام والمسلمين فالليبرالية ليست دينا ولا بديلاً عن الدين ولا هي ضد الدين بل هي موقفٌ إيجابي من الإنسان إن الأخذ بها يوفر فرصاً متكافئة للتفكير الحر والتعبير الآمن وازدهار الفكر والفعل والحياة فمحورها هو الإنسان الفرد وجوهرها حماية الحريات الأساسية لكل الأفراد وسيادة القانون وضمان الحقوق للجميع وتحديد المسؤوليات وتوزيع السلطات وتوفير الضمانات للأقليات ولكل الفئات إن الليبرالية تخدم الدين فالدين لا يعمل حقاً إلا في الضياء وليس في الخفاء وهو أقوى من أي اتجاه يعاديه إذا كانت فرص ووسائل التعبير متكافئة ومتى أُتيح هذا التكافؤ فإن الغَلَبَة بالإقناع ستكون دائماً للدين الحق. . .

أما العنف المتفجر حالياً فهو نتاجٌ طبيعي للتعصب الثقافي والتطرف المذهبي الذي يقوم على إدعاء كمال الذات وتجريم الآخرين وتحقيرهم وإقصائهم وتجهيلهم ومنعهم من التعبير عن أنفسهم وقد كان هذا التطرف المذهبي يمارَس نظرياً منذ أزمان طويلة ويسيطر على كل

مفاصل الحياة ولكن لم يفطن له الناس لأنه لم يتجسّد عملياً ولكنه بعد أنْ تحوَّل إلى ممارسة عملية في الجهاد الأفغاني أصبح واقعاً يعيشه الناس فقد عاش العالم الإسلامي مع الأجواء الجهادية بانفعال شديد وصنع الإعلام بطولات أسطورية وخوارق عجائبية صنعتْ في مخيال المجتمعات الإسلامية صورة زاهية للمستقبل عن طريق العنف ولأن الناس في العالم الإسلامي يشعرون بالهوان والعجز عن مواجهة دويلة إسرائيل الصغيرة التي زُرعتْ في قلب بلادهم فقد وجدوا في انتصارات المجاهدين على قوة الاتحاد السوفييتي الهائلة تعويضاً نفسياً عن التشتت والهوان والهزيمة المخزية وأوهمتهم هذه الانتصارات أن العنف هو سبيل وحدة المسلمين وإقامة دولتهم العملاقة المتخيَّلة وفي غمرة هذه النشوة باندحار الاتحاد السوفييتي غفلوا عن النتائج المأساوية التي أعقبتْ انسحاب الجيش السوفييتي وسقوط الدولة الماركسية الأفغانية المصطنعة فل يجلب النصر الخير الذي انتظره الشعب الأفغاني وانتظره معهم المسلمون في كل العالم وإنما أستَعَر القَتْلُ والتدمير بين المجاهدين أنفسهم بشكل أعنف صراعاً على السلطة على النحو الذي يعرفه الجميع ثم آلت الأوضاع في أفغانستان إلى ما هو أسوأ حين زحفتْ طالبان من خارج إطار المجاهدين لتستولي على السلطة ثم تحكم البلاد بعقلية ممعنة في التخلف ضاعفتْ مأساة أفغانستان بل وكشَفَتْ عن تصورنا المتخلِّف لما ينبغي أن تكون عليه دولة الإسلام فقد تلاحقت الفتاوى تبشِّر بنموذج طالبان وهي حالة مأساوية لما آل إليه التفكير في العالم الإسلامي خلافاً لمبادئ وتعاليم الإسلام العظيمة. . .

فمع أن نموذج طالبان لا يمكن أن يكون شاهداً نافعاً للإسلام والمسلمين فإن هذا النموذج وجد ترحيباً شديداً وتعاطفاً عارماً ممن

يدعون أنهم يمثلون الإسلام الحق وتجاوب معهم العامة فاندفعوا يمجدون هذا النموذج البدائي ويتمنون شيوعه في العالم!!وهذه مأساة فظيعة تدل على سوء فهمنا للإسلام وأننا نعيش غفلة مطْبقة عن التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية وأننا لا نقيِّم الأوضاع موضوعياً وإنما نحن مأخوذون بفورات انفعالية بعيدة عن الرشد والتعقل إننا لم نفطن للتغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية فلم ندرك بأن العنف يربك العالم ويقلق الدول ويفسد الحياة لكنه لا يقيم البديل الجيد الذي يستحقه الإسلام والمسلمون فدولة العصر تقوم داخليا على الإقناع واحترام الإنسان وتطوير إمكاناته واستثمار قدراته كما تقوم خارجيا على التلاؤم مع العالم وتلتزم بالشفافية والتعددية واستثمار الإمكانات والظروف لتحقيق الإزدهار الشامل أما العنف فلا يجلب إلا الخراب للدنيا والتعاسة للإنسانية وهو أبعد ما يكون عن أن يوجد البديل الأفضل فتجربة طالبان أبرز نموذج على هذا النوع من التفكير الساذج...

■ **سائل: كيف يتحقق السلام الإجتماعي؟**

- إن تجربة الأمم قد أكّدت بما لايدع مجالاً للشك بأن السلام الاجتماعي يتوقف على الاعتراف والاحترام المتبادل بين كل التيارات والاتجاهات وهذا يقتضي الاعتراف بقيمة الفرد لذاته والتعامل معه من منطلق قيمته الإنسانية وليس مما يضيفه إليه أو يسلبه منه انتماؤه المذهبي أو العشائري أو الإقليمي أو غير ذلك من أصناف الانتماء وهذا هو معنى المواطَنة إن هذه المواطَنة صارت بفضل انتشار القيم الإنسانية مواطنة عالمية وكان بالإمكان أن تتطور إجراءات المواطنة العالمية لتصبح حقيقة

معاشة في كل العالم على المدى الطويل لولا عجز المتخلفين عن إدراك هذا المضمون الإنساني الرفيع وسعيهم الأرعن لعرقلة هذه المسيرة الإنسانية نحو العالمية المفتوحة. . .

■ **آخر يقترح أن أكتب عن تجربتي الإدارية. . .**

ـ سوف أكتب عن هذه التجربة إن شاء الله بعد الإنتهاء من المشروع الفكري الذي شغلني طويلاً وما زال يشغلني. . .

■ **آخر يقول: هل تعتقد أن الغرب سينجح في أن يستمر في تقدمه النوعي أم أن التطرف سينجح في إعادة العالم كله إلى الوراء؟**

ـ رغم فظاعة المفاجآة الإرهابية فإن الغرب يحمي نفسه من الانتكاسات الحضارية بآلية النقد التي تعمل لديه بمنتهى الفاعلية والإنتظام إنها الجهاز المناعي اليقظ الذي يتحسّس كل شيء ويستجيب بفاعلية إيجابية على كل طارئ إن المجتمع الغربي عموماً والمجتمع الأمريكي خصوصاً قد فاجأته الأحداث الإرهابية وهزّته في اعماقه فهي تمثل تدهوراً نوعيا على مستوى العالم كله فالدول والشعوب كانت تعرف أعداءها من الدول الأخرى وكانت تستعد لهؤلاء الأعداء ولم تكن في الغالب تخشى هجوماً مفاجئاً دون سبب من الدول المعادية بعد أن أصبح العالم محكوماً بالقانون الدولي ثم فوجئ العالم وفوجئت أمريكا المزهوة بقوتها وبانفرادها بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بأنها تُضرب بواسطة أفراد يعيشون في ديارها ويستخدمون لإرهابها طائراتها وقطاراتها ووسائلها المدنية التي كانت مصدر أمنها ومن هنا كان الفزع فظيعا لأنه إرهابٌ نوعي غير مألوف ولامحسوبٌ له حاسب ومن

الصعب تحاشيه إلا باحداث تغيرات نوعية تربك الحياة وتعطل الحريات وتعيد القيود وتوقف الإنسياب المرن. . .

ولولا عمق الثقافة الإنسانية في الغرب وقوة الجهاز المناعي الثقافي الذي اكتسبه الغرب خلال مسيرته الحضارية القائمة على النقد والمراجعة والشفافية والوضوح. . . لولا ذلك لكانت ردود الفعل على المسلمين فظيعة وبالغة البشاعة لكن الجهاز المناعي في الغرب بقي قويا صامداً مما سوف يحميه من المزيد من التدهور وسوف تعيده آلية النقد والمراجعة والشفافية والتصحيح إلى الهدوء والتماسك وتستبقيه على الخط الصاعد فتجربة الحرية التي تمتع بها الغرب لاتسمح بالنكوص عنها مهما كانت الأسباب فقيمة الحربة عند الإنسان الغربي لاتقل عن قيمة الحياة ذاتها بل إنه بات يعتبر أن قيمة الحياة مشروطة بتوفر الحرية لذلك لن يعود أبداً إلى القيود ولن يتراجع عن مكاسبه العظيمة مهما بلغت فظاعة الإرهاب. . .

إن المفاجآة الإرهابية كانت صاعقة للعالم عموماً ولأمريكا خصوصاً وإن تلاحق العنف الأعمى في مدريد ولندن وفي كل مكان كان مخيفاً ومربكاً مما اضطر المجتمعات الحرة إلى شيء من تقييد الحريات وتطويل الإجراءات وزيادة الإحتياط والاضطرار للتحفظ ولكن الفوز سيكون للجهاز المناعي على هذه الأمراض الطارئة المفاجئة إن ثقافة الغرب تصاب بالمرض أحيانا كما حصل أيام المكارثية وقد يضعف جهازها المناعي لكن التجارب الحادة أثبتت أنه جهازٌ قوي وقادر على الصمود وتجاوز الأزمات لذلك فرغم فظاعة النكسة الحضارية التي تعيشها المجتمعات الغربية فإن الغرب سيواصل المسيرة نحو الأمام

وسيبقى صاعداً وصامداً مهما اشتدت الأزمات لأن جهازه المناعي الثقافي غير قابل للتوقف فهو يعمل بمنتهى الفاعلية حتى في أحلك الظروف وأفظع الأزمات...

■ **سائل يقول: إن الحضارة الإنسانية مدينة لأشخاص معدودين وسؤالي: هل بيئتنا مؤهلة أن يخرج فيها مثل هؤلاء الأفراد!؟**

- نعم فالمبدعون يظهرون في كل البيئات لكن الفرق في الإستجابة لهم فابن رشد وابن الهيثم والكندي والرازي والفارابي وابن سينا وابن طفيل وابن النفيس وغيرهم من النجوم المضيئة خرجوا في البيئة العربية لكن هذه البيئة لم تستجب لهم بل نفتْهم ولم تعترف بهم فأحرقت كتب بعضهم وأهملت البعض الآخر وحذَّرَتْ الناس من الاستماع إليهم لكن أوربا ترجمت كتبهم واصغت إليهم فاستفادت منهم والآن في هذا العصر يوصم المفكرون العرب ويُحذَّر منهم ويُنهى عن قراءة كتبهم ويتكرر المشهد المأساوي خلال التاريخ العربي في كل الأقطار ولهذا استمر التخلف لأن التقدم يعني تجاوز الحالة الراهنة وقبول الإبداعات والاستجابة للمبدعين إن التقدم يقوم على ركني الإبداع والإتباع وينهض على قطبي الإقتحام والانتظام ولكن هذا التفاعل والتكامل غير متوفر في البيئة العربية مما أطال عمر التخلف وألغى فاعلية الإبداع فالمبدعون والمفكرون في المجتمعات العربية ما زالوا خارج السياق الثقافي السائد وسيظلون دون تأثير مادام المجتمع ينفر منهم ولايعترف بدورهم ...

■ **يسأل عن أثر الفنون الجميلة على الفكر والتواصل الإنساني وعن تأثير الجماليات على تربية سلوك المسلم المعاصر..؟**

- الجمال عنصرٌ أصيل وأساسي في الكون والحياة وفي العقل

والأداء وفي الفكر والسلوك وفي الأعمال والأشياء وفي الحديث: «إن الله جميلٌ يحب الجمال» إن الوجود كله يدور حول ثلاث قيم أساسية هي: قيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال فقيم الجمال هي الركن الثالث من القيم الأساسية التي تقوم عليها الحياة الإنسانية الناضجة والراشدة إن من لايتذوق جمال الأفكار لن يسعي اليها ومن لايدرك جماليات العلم لن يبحث عنها إن السلوك البشري يتحرك طلباً للذة أو نفوراً من الألم فالجمال لذة جاذبة والألم قبحٌ طارد لكن تذوق الجمال لا يأتي تلقائياً وإنما هو مرتهن بالبيئة الحاضنة التي ينشأ عليها الإنسان فإذا عاش في بيئة تقدِّر الجمال وتتذوقه وتُربي عليه فإنه ينشأ وهو متشبِّع بالثقافة الجمالية ومنجذبٌ للأشياء الجميلة أما إذا نشأ في بئية قاحلة جمالياً ومجدبة من الفن ونافرة من كل مايرفع الذوق ويرقق الطباع فسوف يبقى مجدب الذوق ضعيف الخيال منكمش النفس ضيق الأفق لايرى من الحياة سوى الوجه الكالح ويستنكر الإهتمام بأي شيء جميل حتى لو كان جمال القرآن . . .

ومما يؤكد النفور من الجمال واستنكاره أن بعض جيران مسجد القارئ الرائع محمد بن سليمان المحيسني في بريدة كانوا يتجاوزون مسجده مع أنه مجاورٌ لهم ويذهبون للصلاة في مسجد آخر لايكون فيه صوت الإمام جميلاً وهذا السلوك التلقائي من العامة له دلالة كبيرة جدا على الموقف الثقافي من الجمال حتى لو كان في قراءة القرآن ومهما حصل من تعديل لهذا السلوك فإن الدلالة ما زالت باقية وتستحق التحليل فمع أن بعض الجيران النافرين أصبحوا فيما بعد من عشاق القراءة الجميلة وباتوا يتزاحمون على مسجد المحيسني ويستمتعون بالإصغاء للقراءة الجميلة العذبة فإن الشاهد على النفور من الصوت

الجميل ما زال قائماً فحصول النفور في البداية من القراءة الجميلة للقرآن الكريم يدل على الجذب الجمالي في الثقافة مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستمتع بقراءة القرآن من غيره كما حصل في إصغائه لقراءة أبي موسى الأشعري الجميلة ولكن التربية القاحلة أوهمتنا أن الدين لا يحبذ الجمال ولا يستطيب الشيء الجميل. . .

■ **يتساءل حول النزعة العقلية التي ظهرت في الحضارة الإسلامية وبلغت ذروتها في عصر المأمون؟!**

ـ رغم أن تلك النزعة العقلية كان هدفها استخدام العقل للدفاع عن الإسلام فإنها جوبهت بالاستنكار الشديد ولم يتسرَّب منها أي تأثير نافع على ثقافة المجتمع ومن ناحية أخرى فإن هذه النزعة لم تختلف عن النزعات التي قبلها أو بعدها فاحتكرت القول واستخدمت السلطة لإجبار الآخرين على القول بمقولاتها وهذا يؤكد أنها لم تكن نزعة عقلية حقيقية وإنما كانت مثل غيرها ذات رؤية أحادية متعصبة ولا تعترف بالتعددية الفكرية ولا تؤمن بحق المخالفين بأن يعبِّروا عن اتجاهاتهم فلم تستخدم أسلوب الاقناع بدلاً من سلطة الإخضاع إن الدارس للتاريخ الإسلامي يجد أن ظهور النزعة العقلية في الحضارة الإسلامية كان تأثيره سلبيا لأن هذه النزعة أثارت ردود أفعال معاكسة شديدة ومستمرة ابتدأت مع المتوكل وهيمنت على مؤسسات المجتمع وتفكيره وعلى نشاطات الفكر والعلم والتعليم والخطابة والوعظ والارشاد فطبعت الثقافة كلها بطابعها المعادي للعقل والمعارض لأي اشادة به واستمر ذلك خلال كل العصور اللاحقة وما زالت الخصومة مع العقل ومع تلك النزعة مهيمنة ومن يراجع مناهج التعليم في المدارس والجامعات يجد أن كل الأجيال

قد انشغلت بتسفيه النزعة العقلية والتشنيع عليها مما جعل أثرها السلبي أضعاف أثرها الإيجابي إن كان لها أي أثر نافع وباق ولو لم تظهر تلك النزعة العقلية لما بقينا نطاردها وننشغل بها خلال كل العصور ولبقيت أذهاننا خالية من مخاصمة العقل فالنزعة العقلية خسرت المعركة في وقتها ولكن الحرب عليها لم تتوقف بل من المفارقات أنها لم تشتد الحرب عليها إلا في هذا العصر بسبب انتشار التعليم وإنشغاله بالرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق لذلك أصبحت الثقافة الإسلامية مشحونة بهذه الثقافة الخصامية الحادة والثقيلة فالذي بقي وشاع وصبغ الثقافة بصبغته ليس هو النزعة العقلية وإنما ما كان معاكساً لها وثورة عليها وإلحاحاً متصلاً في الرد والتسفيه وإبعاد العقول عن أي اتجاه عقلاني فلم يتح لتلك النزعة أن يمتد أثرها إلى ثقافة المجتمع وإنما الذي انتشر في هذه الثقافة وترسخ هو التشنيع عليها وتأكيد الإتجاه المعاكس لها لهذا فإن أثر تلك النزعة كان سلبيا إلى أقصى الحدود ولم يبق منه أي أثر إيجابي . . .

■ **يسأل هل تعتقد أن المجتمع السعودي يحتاج إلى الليبرالية؟؟**

- كل المجتمعات تحتاج إلى الليبرالية فالليبرالية مناخٌ للسلم والعلم وبيئة للتصالح والتسامح كما أنها ساحة مفتوحة للعمل والأمل والإزدهار . . .

■ **يرى أني أتجنّب الحديث العامل السياسي في نهوض الأمة ويتساءل هل يعود ذلك إلى الإقتناع بأولوية العامل الثقافي؟ ويرى أن الصين استطاعت النهوض بالبرامج السياسية الطموحة وحدها . . .؟**

- لو تابعتَ كتاباتي لظهر لك بوضوح أنني لا أتجنب الحديث عن

العامل السياسي بل أعتبره عاملاً محوريا رئيسيا لكن الذي يهمني ليس نقد هذا النظام أو ذاك من أنظمة الحكم وإنما ابحث عن مصدر الخلل وعن منبع الإزدهار وأستقصي كل العوامل الثقافية والسياسية والتاريخية والإجتماعية لتأصيل قاعدة أو مبدأ ينطبق على أي مجتمع فلا تعنيني الحالات القائمة إلا بقدر ماتشهد للقاعدة وتؤكد المبدأ. . .

أما الصين التي يعتبرها السائل نموذجاً في فاعلية العامل السياسي حيث يراها متخلفة ثقافياً. . فلست أدري كيف حكم على الثقافة الصينية بالتخلف لأن الصينيين يقدسون العمل ويثابرون عليه ويعتنون بالاتقان وهذه القيمة العالية للعمل والإجتهاد والمثابرة والإتقان من أهم العناصر الثقافية البانية للإزدهار. . .

إن الصينيين أهل جد وعمل والتزام وقد حققوا المعجزات حتى في المهاجر خارج الصين وليست تجربة سنغافورة ذات الأكثرية الصينية سوى مثال على مايحققه الصينيون مهما اختلف النظام السياسي بل لولا أنه يوجد في ماليزيا نسبة تزيد عن ٣٠٪ من السكان من الصينيين لما استطاع مهاتير محمد تحقيق طموحاته التنموية فبدون فاعلية الصينيين الماليزيين كانت الخطط سوف تتعثر وهذه حقيقة ناطقة في أن الصينيين هم صُنّاع الإزدهار وهذا القرن سيكون قرنهم وهم مدفوعون لذلك بثقافتهم التي تقدس العمل وتلتزم بالواجب وتتقن الأداء وقد فعلوا ذلك في هونج كونج وفي سنغافورة وفي ماليزيا وفي تايبيه وفي الصين نفسها وتحقق لهم ذلك تحت أنظمة حكم مختلفة فثقافة المجتمع هي التي تصوغ عقله وأخلاقه وهي التي تحدِّد مسيرته وأوضاعه ولكن هذا لايعني استبعاد العامل السياسي فالسياسة هي التي تصوغ الثقافة وهي التي توجِّه

نشاط المجتمع فالعلاقة بين الثقافة والسياسة هي علاقة متداخلة وملتبسة ويتبادلان التأثر والتأثير بشكل عضوي...

■ **تسأل: هل تعتقد أن التنظير سيحل مشاكلنا ؟!**

- نهضة الفكر تسبق نهضة الفعل فلا تقدم دون استنارة بالأفكار الحديثة فكل حركة نحو الأمام تتطلب رؤية فكرية حديثة توجِّه الحركة وتستنهض الهمم وتنير العقول...

لقد مضى على العرب وقتٌ طويل وهم يتحركون لكنهم ما زالوا باقين في نفس المكان بل يتراجعون لقد عمموا التعليم ونشروا المدارس وأنشأوا الجامعات ولكن كل ذلك لم يغيِّر من الواقع شيئا لأن طريقة التفكير ما زالت كما هي منذ القرون الأولى فالحركة دون فكر ناقد قد تكون حركة دائرية في نفس المكان أو حركة إلى الخلف إن تجربة المجتمعات المزدهرة تؤكد أن الفكر النظري هو الذي حرك الفعل النهضوي فدور فرانسيس بيكون وديكارت واسبينوزا وروسو وفولتير وديدرو ومونتسكيو وكانط وهيجل وأمثالهم في نهضة أوربا كان دوراً محورياً أما استمرار التخلف في الكثير من المجتمعات فيعود إلى أن هذه المجتمعات لاتحترم الفكر الناقد ولاتستجيب للمفكرين المستنيرين أما استنكار التنظير أو الاستخفاف به فهو استخفافٌ بالتعقُّل وميلٌ إلى الارتجال الذي تتميز به الثقافات المتخلفة...

■ **يسأل: ماهي الخطوات التي تجعل مجتمعنا أكثر صلابة وتماسكا وتجعل الهم الوطني هو هم الجميع؟!**

- إن نقل الفرد من قوقعة ذاته الأنانية إلى الهم العام يتطلب نقله نوعية من مستوى الهم الفردي التلقائي إلى مستوى الهم الاجتماعي

والوطني الذي لا يأتي تلقائياً وإنما يحتاج إلى تصعيد معرفي وأخلاقي فلابد من الاعتراف بفردية الإنسان وحقه في التفكير والتعبير وفي المشاركة ومعاملته على أساس المواطَنة التي يتساوى فيها الجميع دون التفات إلى المذهب أو العشيرة أو الإقليم فلا بد من حصول تحول جذري في التنشئة واعتماد تربية ناضجة يكون هدفها تحقيق هذه النقلة النوعية ولكن المجتمع المتخلف لا يدرك نقائصه فيبقى مستسلماً لها بل ومغتبطا بها ويراها مصدر اعتزازه فعلى المجتمع أولاً أن يكتشف نقائصه وأن يعترف بها وأن يواصل نقد ذاته وتعرية عيوبه وأن يفتح عقله لتجارب المجتمعات المزدهرة فيستفيد منها وينطلق خفيفاً من القيود متحرراً من العاهات الثقافية فالاهتمام الحقيقي بالشأن العام هو نتاج المساواة الحقيقية وتحقيق معنى المواطنة وهو ارتقاءٌ أخلاقي بقدر ما هو نضوجٌ معرفي...

■ **يسأل: كيف نبدأ في علاج ثقافتنا الإقصائية السائدة؟!**

- تعالَج الثقافة الإقصائية المنغلقة بفتح انغلاقها وعدم السماح لها بإقصاء الآخرين وإتاحة الفرصة المتكافئة لكل الآراء أن تظهر ولكل الإتجاهات أن تعبر عن نفسها بأمان وسلام...

■ **مداخلة عن مفهوم التنوير؟**

- لابد من التوضيح بأن التنوير كفعل وممارسة هو شيءٌ سابقٌ للتنوير كمفهوم ومصطلح وهو مثل مفهوم المفكر أو المثقف فالمفكرون والمثقفون تتابعوا منذ بزوغ الفكر الفلسفي في مطلع القرن السادس قبل الميلاد أو نهاية القرن السابع قبل الميلاد ولكن المصطلح أو المفهوم لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر فعصر فولتير أُطلق عليه عصر التنوير

لكن التنوير ذاته موجودٌ مع الفلاسفة المتجولين ومع سقراط منذ القرن الخامس قبل الميلاد فديكارت تنويري من الدرجة الأولى بل هو إمام التنوير فالتنوير كممارسة موجودٌ منذ إشعاع العقل الفلسفي النقدي في نهاية القرن السابع قبل الميلاد ثم بلغ الذروة بواسطة الفلاسفة المتجولين وسقراط ثم افلاطون وأرسطو أما تسمية عصر بكامله بأنه عصر التنوير فهذا مفهومٌ جرى اطلاقه على عصر روسو وديدرو وفولتير وغيرهم من مفكري القرن الثامن عشر ولكن هذا لايعني أن التنوير محصورٌ بهم كما أنه لا يعني أن المثقفين السابقين لظهور مفهوم المثقف غير مثقفين وإنما المسألة هنا مسألة ظهور مفهوم وتبلوره وإستقراره وشيوع استخدامه. . .

أما نحن العرب فليست معضلتنا أنه لم يخرج فينا أمثال فولتير بل لو أن فولتير نفسه ظهر في الوطن العربي لذهب دون أن يترك أي أثر بل لرماه أهله بالزندقة ومرّ كما مرّ ابن رشد الذي أحرقنا كتبه وكما مرّ ابن خلدون الذي ذهب دون أن يترك فينا أي أثر فلم ندرك قيمته إلا بعد مرور أكثر من عشرة قرون وحتى هذا الإدراك اقتصر على المثقفين وهم لاحول لهم ولاطول ولاتأثير فالمعضلة ليست في عدم وجود المفكرين وإنما في عدم الإستجابة لهم وتخوينهم وإدانتهم والتحذير منهم. . .

■ **يسأل عن أسباب الحرص على وصف كل شيء بأنه إسلامي؟**

ـ لهذا الحرص أسبابٌ كثيرة منها أنه ليس لدينا مانعتز به سوى الإسلام فنحن لم يكن لنا أي اسهام في الانجازات الحضارية المعاصرة فلم نجد مانفاخر به سوى دين الله الذي لافضل لنا فيه ثم إننا خلال العقود الماضية غمرتنا التحذيرات من الغزو الفكري مما ضاعف انكماشنا وفاقم خوفنا من الفكر المغاير فرحنا نصف كل شيء من

سلوكنا بأنه اسلامي إن مأساة الإسلام أنه مبتلى بجهل أهله وانغلاقهم وعجزهم عن الارتفاع إلى مستواه فهم دوماً يجرُّونه إلى مستواهم المتخلف فالإحتماء بوصف الإسلامي شعارٌ يستهوي العامة وأنصاف المتعلمين لكنه يضر الإسلام ولا ينفعه. . .

■ **يسأل: هل الفكر الإقصائي لدى شبابنا مستوردٌ أم هو صناعة محلية؟!**

- الفكر الإقصائي صناعة محلية مائة بالمائة لكن قبل الجهاد الأفغاني كان مقتصراً على الكلام واعلان المنابذة والهجْر والتبديع والتفسيق بالقول غير أن خروج الشباب إلى أفغانستان نَقَل الأفكار الإقصائية من حيز القول إلى حيز الفعل إن ثقافتنا المحلية تؤثِّر ولاتتأثر فأينما ذهب الإنسان سوف يجد أثرها شديد الوضوح من طنجة إلى جاكرتا بل حتى خارج الأقطار الاسلامية في المراكز الإسلامية أو عند الجاليات يكون أثرها واضحاً بل صارخاً إن عوامل كثيرة قد أدَّت إلى تعميم هذا الأثر ومن هذه العوامل أنه حين اندفعت المجتمعات الإسلامية خلف الشعارات القومية أو الماركسية كان المجتمع السعودي هو المجتمع الوحيد الذي وقف صامداً يرفع شعار الإسلام وحين فشلت شعارات القومية والماركسية من تحقيق الرخاء الموعود وانهزمت أمام اسرائيل عام ١٩٦٧ تبين للناس إفلاس هذه الاتجاهات وفي نفس الوقت تلألأ شعار الجهاد في أفغانستان ودغدغت أحلام الوحدة الإسلامية وقيام دولة الإسلام الكبرى مشاعر المسلمين الشاعرين بالهوان إن خروج الشباب السعودي إلى أفغانستان قد نقلهم من الرؤية المحلية إلى الرؤية العالمية فاكتسبت أفكار المفاصلة المحلية طابعاً عملياً وعالميا بعد أن كانت أقوالاً وتصورات وذات أُفق محلي محض. . .

ومن عوامل تأثير ثقافتنا المحلية على المسلمين في كل العالم إرتباطها بالحرمين الشريفين اللذين تهفو إليهما قلوب المسلمين أينما كانوا فأعطى هذا الإرتباط لثقافتنا نوعاً من التزكية المطلقة والقداسة المؤثرة إضافة إلى أن هذه الثقافة تعلن تركيزها على التوحيد وعلى صفاء العقيدة وهذا يجذب إليها قلوب المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم... وعوامل أخرى كثيرة كلها تضافرت لتجعل للثقافة السعودية تأثيراً غامراً على المسلمين في كل مكان...

■ **يسأل: هل ترى أن مجتمعنا سوف يتفكك في حالة التغيير السريع؟ كما يسأل عمن يستحق لقب مثقف؟**

- ليس في المجتمع السعودي تنازع قوي أو صراعات متكافئة فسلطة الدولة قوية وما يحصل من شغب هو مجرد خربشات ولا خوف من التفكك مادامت عوائد البترول تتدفق...

أما لقب المثقف بمعناه التنويري فلا يستحقه إلا من يجمع بين الرؤية الموضوعية للأمور والقدرة على التقييم الموضوعي النزيه والإنفكاك من أسر المألوف ورؤية عيوب الذات والعمل على الإرتقاء بهذه الذات لتكون بصيرة العقل مستقيمة السلوك عادلة التقييم تحترم الآخر بقدر ما تريده لنفسها من احترام تلتزم بالحقوق وتؤدي الواجبات وتحترم الإنسان الفرد وتحفظ له حقوقه وتربيه على النهوض بواجباته وتعترف له بقيمته الذاتيه مجردة من انتمائة المذهبي أو العشائيري أو الاقليمي وبعبارة مختصرة: المثقف هو الذي له من سعة الاطلاع ونفاذ الرؤية وحيوية الضمير واستقامة الأخلاق والإهتمام بالشأن العام ما يمكّنه من رؤية الأمور كما هي دون تحيز أو تأثُّر بالهوى فيقول رأيه

بتجرد وصدق وأمانه مع قدرة على التواصل مع الناس وبالدرجة الأولى التواصل المقروء إن المثقف هو الذي ينظر إلى الأمور المحلية برؤية نقدية عالمية ويعالجها بمنطق العلم لا بمنطق الهوى وبما تقتضيه الحقائق لا بما تمليه الرغبات والعواطف إن المثقف بالنسبة لقومه هو مثل الطبيب بالنسبة للمرضى فالمريض قد يسمع من الطبيب تشخيصاً يخيفه ويزعجه لكن لو أن الطبيب أخفى حقيقة المرض فإنه بذلك يخون المريض وينكث بأمانة المسؤولية ومثله المثقف إنه يواجه قومه بكشف أمراضهم الثقافية والإجتماعية والسياسية والأخلاقية فيغضبهم ذلك لكن هذا هو قَدَر المثقف وعليه أن يتحمل هذه المسؤولية وأن يتقبل الغضب وأن يصبر ويصابر حتى يتقبل الناس النقد وحتى يعترف المجتمع بأمراضه وعاهاته وحتى تنفتح الثقافة فتعمل على تغذية ذاتها وإصلاح أخطائها وتجاوز نقائصها وحل قيودها فتنطلق ببصائرها الجديدة دون أن تتخلى عن ثوابتها الحقيقية الأثيرة...

■ **مداخلة طويلة يعترض صاحبها على صفة المفكر؟**

ـ إن صاحب المداخلة يفكر بطريقة مغايرة للسائد وناقدة للمألوف ومع ذلك فإنه يرى أن هذه الميزة الاستثنائية هي قدرة عامة ومشاعة يملكها كل الناس!!! فهو يعترض بأن يوصف أي إنسان بأنه مفكر لأن الناس في نظره كلهم مفكرون مع أن كتاباته تدل على أنه يفكر بطريقة تختلف عن تفكير معظم الناس ولو أن كل الناس يفكرون مثله بعقل ناقد لكانت أوضاع المسلمين شديدة الاختلاف عما هي عليه الآن فهو ينقد السائد بقوة وهذا السائد هو الذي يخدِّر أكثر الناس ولو كانوا كلهم يفكرون بعقل نقدي لما استمرت هذه البرمجة المعيقة للعقل والفعل ولا

يمكن أن تكون هذه الحقيقية الصارخة خافية عن ناقد مثله فهل هي مجرد مداعبة أو مشاغبة أم ماذا؟!! وهنا لابد من التذكير بأنه لا يوجد من يصف نفسه بأنه مفكر وإنما هو وصفٌ يطلقه عليه الآخرون أما الشيء المهم الذي لابد من تكرار تأكيده فهو أن الناس في الغالب مبرمجون وليسوا مفكرين فأفكارهم محكومة بالسائد وتبقى مغتبطة بهذا السائد مهما كان ضلاله وإلا فبماذا نفسِّر أن يبقى مئات الملايين يقدسون البقر أو يعبدون الشيطان إن أكثر الناس مهما حملوا من شهادات دراسية ومهما تخرجوا من أرقى الجامعات ومهما أُضيف إليهم من ألقاب يبقون امتثاليين لا يساورهم الشك في المألوف مهما كان ضلاله لذلك لايمكن أن يكون هؤلاء مفكرين وإنما هم إمَّعات مسايرون للسائد ومأخوذون به بدليل أن أتباع المذاهب والاتجاهات مغتبطون جميعا بما هم عليه مع أن كل مذهب يتعارض مع الآخر فأين الفكر...؟!!

إن فروقاً جوهيرة تفصل بين التفكير الامتثالي المندمج بالسائد والمأخوذ بالمألوف والتفكير الناقد المدرك لنقائص السائد والمطالب بتجاوز هذه النقائص إن الحياة الإجتماعية الراشدة تنهض على الانتظام والإقتحام وعلى القيادة والانقياد وعلى الابداع والاتباع فإذا استمر انتظام السائد ودام استقراره تعذَّر التقدم أما إذا كان السائد يستجيب للمفكرين ويتابع المبدعين فإنه يتحقق التكامل بين الفكر الناقد والفكر الناظم بين الإبداع والإتباع فيحصل التقدم بإطراد دون حصول اضطراب أما إذا استمر الجمود فإن النقائص تتراكم حتى ينفجر الوضع رغماً عن الجميع فلابد من تحقيق التكامل بين الإبداع والاتباع وبين الانتظام والاقتحام...

إن صاحب المداخلة نفسه كما تؤكد مداخلته يحمل عقلاً ناقداً غير منسجم مع المألوف ولا مساير له فكيف يستنكر شيئاً هو مشاركٌ فيه بل هو من حُداته والمنادين فيه؟!! انه بذلك يغمط نفسه مع أنه ناشطٌ في النقد مما يدل على أنه يدرك قيمة الفكر الناقد وضرورته لتحقيق الازدهار الدائم...

■ **يسأل عن حدود الحرية؟**

- لايوجد حرية مطلقة إلا في المذهب الفوضوي الذي قال به باكونين وغيره وهؤلاء قليلٌ أتباعهم أما بقية الاتجاهات الفلسفية فهي تربط الحرية بالقانون فحرية الفرد تمتد في الحدود التي لاتمس حريات الآخرين ولا تُلحق ضرراً بالأفراد ولاتنتهك قوانين ومواضعات المجتمع ولا المصالح العامة...

■ **مداخلة تقول: «القول بأن التعليم تابعٌ للثقافة وليس صانعاً لها قد لايكون دقيقاً بالمطلق...»**

- أود التذكير بأن موضوع العلاقة بين الثقافة والتعليم قد تناولته في سلسلة مقالات يستطيع من يرغب أن يرجع إليها في منتدى الكتاب بموقع جريدة الرياض ولا أريد أن أكرر هنا ماقلته هناك إلا أني أرجو العلم بأني حين أتحدث عن الثقافة فإني أقصد الثقافة بمعناها الانثروبولوجي أي بوصفها طريقة تفكير وأسلوب حياه وأعني المحيط الذهني والقيمي والعاطفي الذي يجمع أستاذ الجامعة بحارس العمارة ولست أقصد المعلومات أو المعارف الحرة كما هو شائع في الاستخدام فاليابانيون مثلاً لهم طريقة تفكير ومنظومة قيم وعادات ذهنية وسلوكية واتجاهات وجدانية يشترك فيها الأميون والمتعلمون وهي تختلف عن

طريق تفكير العرب مثلاً وعن منظومة قيمهم وعاداتهم الذهنية والسلوكية وميولهم الوجدانية وهكذا بقية الثقافات فالثقافة هنا ليست المعلومات والمعارف وإنما هي ذلك المحيط الجامع والحاضن والمقولب وهو شيء سابقٌ للتعليم ومصاحبٌ له ومستمر بعده وليس التعليم سوى امتداد له ومقولب به . . .

وتقول المداخلة: «القول بأن الخلل في التعليم والإعلام والمؤسسات ناتجٌ عن خلل ثقافي بنيوي يعيشه العرب». . . إلى آخر ماجاء في الفقرة حيث يرى المداخل أن ثقافتنا أنجبت المعتزلة وأخوان الصفا وابن خلدون وابن رشد وهذا في نظره برهانٌ على إسهامنا الحضاري وهنا أسأل أخي الكريم ماذا بقي من فكر المعتزلة وأخوان الصفا وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم. .؟! ألم نحرق مؤلفات ابن رشد أما كنا ومازلنا نُحَذِّر من فكر المعتزلة ونذينة ويقضي طلابنا نصف أعمارهم في قراءة الرد عليهم واستنكار آرائهم والتشنيع على أفكارهم وإدانة مواقفهم مما جعل ضرر ظهورهم أكبر من نفعهم فلو لم يخرج المعتزلة لما قامت المعركة في الثقافة العربية ضد العقل فالمعركة حُسمتْ بانتصار خصومهم ولكن هذا الانتصار لم يوقف مهاجمة العقل وتسفيه العقلانية وتفسيقها ووصمها بأحط النعوت مما أوصد عقولنا وقيّد معرفتنا وابقانا أسرى للفكر المناهض للعقل والمعادي للعقلانية. . .

إن الثقافة العربية معادية للفلسفة ونابذة للإبداع ونافرة من المبدعين ونافية لهم. . فكل الأفذاذ الذين أشرتَ إليهم قد تتلمذوا على الثقافة اليونانية فهم أفرادٌ مبدعون خارج سياق الثقافة العربية السائدة وهم

يشبهون في عصرنا الحاضر محمد أركون ومحمد عابد الجابري ومطاع صفدي وطه حسين ومحمود أمين العالم وأمثالهم فهم ينقدون الثقافة العربية السائدة من داخلها ولكن بأدوات ومعارف من خارجها. . .

لا أريد أن استرسل فما قصدت الرد وإنما مجرد التوضيح ولابد من التذكير هنا بأن دارسي الحضارات انقسموا إلى اتجاهين: اتجاه يرى استمرارية تطور الحضارة وأن الحضارة المعاصرة ما هي إلا امتداد للحضارات القديمة وهذا الاتجاه هو الذي يأخذ به صاحب المداخلة. . .

واتجاهٌ آخر يؤمن بالقطيعة ويعتقد أن الحضارة اليونانية وامتدادها الحضارة الحديثة والمعاصرة هي نتاجُ ذاتها وأنها تختلف نوعيا عن الحضارات القديمة وأنها تمتلك مقومات وعوامل فريدة لم تكن متوفرة في الحضارات القديمة وماكان لهذا التطور الهائل أن يحصل بدون هذه العوامل التي انفردت بها الحضارة الغربية ابتداء من العصر الاغريقي وحتى اليوم وهذا الإتجاه هو الذي أتبناه وأومن به وقد أعددتُ كتاباً كاملاً عنه لأني أعتقد أنه بدون إدراك هذه التغيرات النوعية والأخذ بها لايمكن للمجتمعات المتخلفة أن تتقدم. . .

- **آخر يسأل: هل حرية الرأي مطلقة؟ وهل مسألة الشرعية داخلة ضمن تصنيف الرأي؟ وهل يتكلم في المسائل الشرعية غير أهل التخصص؟ وهل يقال لمن تكلم بالدليل الشرعي هذه وجهة نظر؟**

ـ لا يوجد حريات مطلقة فالفرد لايعيش وحده وحريته تقف حيث تبدأ حريات الآخرين كما تقف عند قوانين المجتمع وأعرافه ونظامه الأخلاقي كما أنها موجَّهة بمنظومة القيم الدينية والإجتماعية والإنسانية

فالحرية لا تعني الفوضى وإنما تعني احترام الإنسان والاعتراف للفرد بخصوصياته وحقوقه وخياراته. . .

أما الكلام في المسائل الشرعية فإنه لا رأي مع النص أما تفسير النصوص فإن الاختلاف شائعٌ ومشهود فحين تعارض شخصاً على فهمه فإن هذا ليس معارضة للشرع وإنما معارضة لفهم بشري ارتآه أحد المجتهدين ومن حق القادرين عيره أن يجتهدوا وأن يعلنوا اجتهاداتهم حتى لو خالفت اجتهاد هذا أو ذاك أما عن التخصص فإن علماءنا كانوا يتكلمون في الفقه والعقيدة واللغة وفي كل التخصصات التي يهتمون بها فالتخصُّص ليس شهادة أو لَقَباً وإنما هو الإهتمام وامتلاك القدرة فلا كهنوتية في الاسلام. . .

■ أُخت مصرية تقول بأن السعوديين يتعاملون معها ومع غيرها من الوافدين بفوقية واستعلاء؟

ـ هذا النوع من التعامل اللا أخلاقي ظاهرة بشرية عامة وعريقة فهذا السلوك موجودٌ في كل المجتمعات ولكن بدرجات متفاوته فكلما تقدم المجتمع حضارياً تقلَّصت عنده هذه الظاهرة السيئة فالمدنية تهذب السلوك وترتقي بالأخلاق وتُقَرِّب الناس بعضهم من بعض وتزيل الفوارق المصطنعة والحواجز النفسية والثقافة المتوارثة فالاستعلاء والانتفاش الفارغ هو أحد الرواسب الثقافة العشائرية وكلما ابتعد المجتمع عن العشائرية وأوغل في المدنية اكتسب أخلاقاً حضارية ترتقي به عن هذا السلوك السخيف المتخلف إلى أن يصبح المجتمع ذا رؤية عالمية فيشعر بالمساواة ويحس بالتآخي الإنساني ولكن يبدو أن الإرهاب الأرعن سوف يعرقل مسيرة التآخي الإنساني ويعيد الحواجز النفسية إلى النفوس بعد أن كانت الإنسانية قد أخذت تتخلص منها. . .

■ **يسأل: ماهو الطريق للخروج بالمجتمع من ثقافة الوصاية ومحاسبة النوايا..؟**

- أهم عامل للخروج من مأزق الوصاية ومحاسبة النوايا هو الإلتزام بسماحة الاسلام والإهتداء بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الناس فلقد كان المنافقون يعيشون معه في المدينة وكان يعرفهم ويعاملهم معاملة حسنة وكذلك كان يتعامل برفق مع المخطئين حتى من كان خطؤه كبيراً كماحصل مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه فالحسنات يذهبن السيئات والأحكام تبنى على الغالب والناس تُقبل منهم ظواهرهم ولايجوز التفتيش عن نياتهم فلابد من الانفتاح على الآخر والسماح لكل الاتجاهات ولجميع الفئات بأن تعبِّر عن نفسها بوضوح وصدق وشفافية وأمان...

■ **تسأل ماهي المقومات اللازمة حتى نتغير؟؟**

- مفاتيح التغيير تُكتسب من تجارب الشعوب الأخرى وأول هذه المفاتيح الاعتراف بفردية الإنسان وتشجيعه على التفكير الناقد المستقل والتعبير الصريح الصادق وكذلك أن تتكافأ فرص التعبير عن النفس لكل الاتجاهات ومقومات أخرى كثيرة تناولتها بالتفصيل في الكتاب الذي كتبته عن (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) ومن الصعب استعراضها هنا.

■ **يسأل: هل نعيش بشخصيات مزدوجة؟**

- نعم حياتنا تقوم على الإخفاء وليس على الوضوح لذلك يعيش الفرد دائماً بشخصية مزدوجة فالناس مشغولون بالناس وألسنة الكل تلوك الكل والجميع يخشون هذه السلطة الاجتماعية الآكلة والقامعة...

■ **أحدهم: يتهمني بأني أمارس جلد الذات وأني متشائم وأني أُشَخِّص المرض دون تقديم العلاج...؟!**

ـ من المفارقات البشرية أن المجتمعات المتخلفة لا تتحمل النقد ولا تعترف بالنقائص بينما المجتمعات المزدهرة لا تتوقف عن نقد ذاتها وكَشْف عيوبها والاعتراف بأخطائها وهذا الفارق في التعامل مع الذات هو السبب الذي أدى إلى استمرار تخلف المتخلفين واطراد تقدم المزدهرين فوصف العلة كما هي ليس جلداً للذات وإنما هو محاولة لشفاء العلة التي تكبل حياتها إننا نحن العرب والمسلمين نعيش التخلف واقعاً ثقيلاً في كل جوانب الحياة ومع ذلك لانعترف بذلك ولانقبل من أحد أن يلفت نظرنا إلى حقيقة واقعنا السيء بل نريد أن نستمر نمجد هذه الذات الدميمة ونرمي الآخرين بآفاتنا ونحملهم مسؤولية عجزنا وتخلفنا...

أما عن تقديم الدواء فهذا ليس من مهمة المثقف فهو دورٌ لا يملكه إلا أهل السلطة الذين بيدهم كل الامكانات فأقصى ما يستطيع المثقف أن يقدمه هو أن يجتهد في معرفة العلة وتشخيصها ووصف العلاج وهذا هو الشيء الذي أفعله أما تقديم الدواء فإن الطبيب لا يستطيع أن يؤمن الدواء للمرضى وإنما يصفه وعليهم هم أن يتدبروا أمر تأمينه...

إن من يقرأ ما أكتبه سوف يجد أني أشخص أسباب التخلف ومقابلها أصف مفاتيح الإزدهار أما اتخاذ خطوات عملية لتنفيذ ذلك فهذا لايملكه أي مثقف في الدنيا بل هو شأنٌ تنفيذي يتجاوز دوره فهو لايستطيعه ولايسعى إليه وليس مطلوباً منه بل هو شأن التنفيذيين الذين بيدهم الإمكانات...

■ **يسأل هل يوجد في الاسلام حرية؟**

- يوجد فرقٌ نوعي بين مايمارس باسم الاسلام من قمع للحريات ومصادرة للحقوق الأساسية للفرد وبين الإسلام كنصوص فنصوص القرآن شديدة الوضوح بأن الإنسان مسؤول مسؤولية كاملة أمام الله: «وكلهم آتيه يوم القيامة فردا» وليس أصرح في تأكيد الحرية من قوله تعالى: «لا إكراه في الدين» وقوله تعالى: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» أما الممارسة خلال التاريخ العربي وكذلك في واقع المجتمعات الإسلامية اليوم فإن الحرية غير متوفرة بل تكاد تكون مفقودة... لقد تدخَّلَتْ السياسة مبكراً في تفسير النصوص واستغلتها بما يسمح لها أن تقمع الحريات باسم الإسلام وهذه قضية معقدة تتطلب إتساعاً في الصدور كي تجري مناقشتها بوضوح وتفصيل...

■ **يسأل لماذا تتفاوت مواقف الإسلاميين نحو القضايا فمنهم المتشدد المنابذ ومنهم الليّن المسالم ومنهم من هو في الوسط فهل الجميع يسعون للسلطة بوسائل وآليات مختلفة..؟!**

- إن المتشدِّد في الكثير من الحالات يكون صادق النية لكنه خاطئ الفعل وزائف التصور فهو ضحية البرمجة السيئة التي ملأته بالوعي الزائف فالذي يفجِّر نفسه ويقتل الابرياء من الأطفال والرجال والشيوخ والنساء ويهدم المباني ويُفسد في الأرض يرتكب جرائم فظيعة ومع ذلك فهو يعتقد أنه يفعل الخير انه صادق النية لكنه خاطئ الفعل وضال التصور إنه صادقٌ في مسعاه لأنه ضحّى بنفسه وهي أغلى ما يملك لكن هذا المسعى مبنيٌّ على رؤية خاطئة ومُقامٌ على فهم قاصر ويتحرك بتأثير

وعي زائف أما الذي برمجه على ذلك فربما يكون هو أيضا ضحية فهو أيضا مبرمج بهذا الوعي الزائف في سلسلة من التناسل الثقافي الزائف فليس كل الاسلاميين يبحثون عن سلطة وإنما هم نتاج ثقافة تتوالد على هذا النحو ولم تتعرض لأية مراجعة من الداخل فما زالت ترفض المراجعة وتحارب النقد وتدعي الكمال وتلتزم بالإكتفاء أما تفاوت المواقف فله أسبابٌ كثيرة بعضها يعود إلى اختلاف البيئة الحاضنة أو إلى الموقع الوظيفي أو التفاوت في التحصيل العلمي أو غير ذلك من الأسباب...

* * *

الفهرس

هذا الكتاب

الأصل في الثقافات التقليدية أنها كيانات صمَّاء محصَّنة ومغلقة وعليها حراسات قوية متحفزة لمنع وقمع أية فكرة طارئة لذلك فإنه رغم قوة وَوَفْرة عوامل التحديث في العالم فإن السنوات الطويلة تمضي والعقود بعد العقود تمر بل وتنتهي القرون من غير أن تتأثَّر هذه الثقافات بعلوم العصر وأفكاره رغم تعميم التعليم وتَعدُّد وتنوُّع وسائل التواصل مع كل العالم وقد أثبتت تجارب الشعوب في الشرق والغرب بأن دخول حضارة العصر لايمكن تحقيقه إلا بجهود فكرية عاصفة ومجلجلة تتوجَّه إلى كل الأمة